

الإتصالات الجدد

العلم عند الحافة



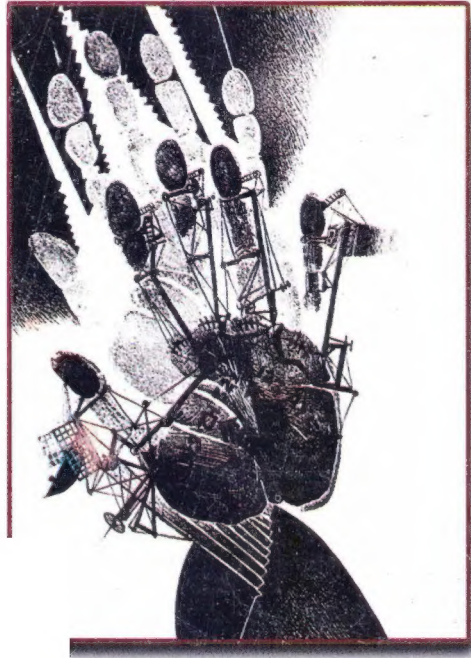
تحرير : جون بروكمان
ترجمة : مصطفى إبراهيم فهمي

991



المشروع القومي للترجمة

كتاب "الإنسانيون الجدد" بانوراما واسعة تستعرض دور الثقافة عموما والثقافة العلمية بوجه خاص في دفع الحركة والتقدم والحيوية في مجتمع القرن الحادى والعشرين، وهو قرن يأتى مع أوج تسارع الأبحاث العلمية وتطبيقاتها التكنولوجية المختلفة بحيث أضفى وصف الثورة على أكثر من مجال علمى، فهناك ثورة البيوتكنولوجيا، والتكنولوجيا وثورة المعلومات والاتصال، كما تضاعفت بسرعة رهيبة أبحاث الذكاء الاصطناعى والكونيات والفضاء... إلخ، وكل هذا له تأثير هائل فى المجتمع ماديا وثقافيا؛ بما يتطلب تفكيراً ثقافيا جديدا ومتجدداً.



الإنسانيون الجدد

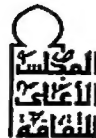
العلم عند الخافة

تحرير

جون بروكمان

ترجمة

مصطفى إبراهيم فهمي



- العدد: ٩٩١
- الإنسانيون الجدد (العلم عند الحافة)
- جون بروكمان
- مصطفى إبراهيم فهمي
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:

The New Humanists:
Science at the edge
Edited by : John Brockman
Copyright © 2003 by John Brockman
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة.

شارع الجبلالية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

7.....	تقديم المترجم.....
13.....	شكر.....
15.....	مقدمة المحرر.....
	الجزء الأول: الهوموسابينز (الإنسان العاقل)
29.....	جيرد دياموند: تركيب علمي جديد لتاريخ الإنسان.....
47.....	ستيفن بنكر: فهم بيولوجي للطبيعة البشرية.....
65.....	هيلينا كرونين: الفهم الصحيح للطبيعة البشرية.....
79.....	أندي كلارك: سيبورجات مولودة ولادة طبيعية؟.....
89.....	مارك د.هاوزر: عقول الحيوانات.....
109.....	ريتشارد رانجام: تطور الطهي.....
121.....	دانييل سي. دينيت: المنظور الحوسبي.....
135.....	ستيفن م. كوسلين: ماهو شكل أذن الكلب الراعي الألماني؟.....
	الجزء الثاني: هل سيوجد ماشينا سابينز (نوع الماكينة العاقلة)؟
155.....	جوردان ب بولاك: البرمجيات مذهب ثقافي.....
165.....	دافنير جيليرنتر: المجيء الثاني - بيان.....
177.....	رودني بروكس: صنع المنظومات الحية.....
185.....	هانز مورافيك: صنع العقول.....
195.....	دافيد دوتيش: الحوسبة الكمومية.....
205.....	مرفن مينسكي: ماذا سيأتي بعد العقول؟.....
221.....	ري كيرزويل: المفردة.....
239.....	جارون لانير: نصف واحد من بيان.....
	الجزء الثالث: أكوان تتطور...
	سيث لويد: ما مدى سرعته، وصغر حجمه، وقوته؟ قانون مور
271.....	والكمبيوتر النهائي للحجر.....
289.....	آلان جوث: العصر الذهبي لعلم الكون.....
301.....	بول شتاينهاردت: الكون الدوري.....

315.....	ليزا راندال: نظريات البران
331.....	لى سمولين: الجاذبية الكمومية الحلقية
355.....	مارتن ريز: نظرة للأمام
365.....	ختامة: ردود على مقال "الإنسانيون الجدد"
	نيكولاس همفري، جaron لاتير، جوزيف ليدوكس، جون هورجان،
	تيموثي تايلور، كارلو روفيلي، ستيفن جونسون، لى سمولين، دوجلاس
	روشكوف، بيث هت، مارك د.هاوزر، ميهالى سيكزنتميهالى، دنيس
	دنون، دانييل سى. دينيت، هوارد راينجولد، كريس أندرسون.
407.....	قراءات مقترحة
413.....	معجم

تقديم المترجم

كتاب "الإنسانيون الجدد" بانوراما واسعة تستعرض دور الثقافة عموما والثقافة العلمية بوجه خاص في دفع الحركة والتقدم والحيوية في مجتمع القرن الحادى والعشرين، وهو قرن يأتى مع أوج تسارع الأبحاث العلمية وتطبيقاتها التكنولوجية المختلفة بحيث أضفى وصف الثورة على أكثر من مجال علمى، فهناك ثورة البيوتكنولوجيا، والنانوتكنولوجيا وثورة المعلومات والاتصال، كما تضاعفت بسرعة رهيبية أبحاث الذكاء الاصطناعى والكونيات والفضاء... إلخ، وكل هذا له تأثير هائل فى المجتمع ماديا وثقافيا؛ بما يتطلب تفكيراً ثقافياً جديداً ومتجدداً.

فى منتصف القرن الماضى كتب سى. بى. سنو مقالا وكتابا شهيرين عن وجود ثقافتين وليس ثقافة واحدة، فهناك ثقافة المشتغلين بالفنون والآداب والإنسانيات عموما، فى مقابل ثقافة المشتغلين بالعلوم الطبيعية مثل الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا والرياضيات. وتحدث سنو عما يوجد من انفصام بين الثقافتين حيث نادرا ما يكون لأحد أعضاء المعسكرين أى معلومات أو دراية كافية بما يجرى فى المعسكر الآخر من أبحاث ونظريات. كان فيما كتبه سنو عن الثقافتين صيحة إنذار وعلامة طريق تلاها اهتمام كلا الجانبين بثقافة الآخر. وليس المقصود هنا أن يتأهل العلماء للاستغال بالفن أو يتأهل الأدباء والفنانون للاشتغال بالعلم، وإنما المقصود أن ينال أفراد كل جانب قسطا من المعلومات عن الآخر تجعله ملما بما يجرى من أبحاث وتفكير فى المعسكر الآخر بحيث تكون لديه القدرة على إبداء رأى فيها وتقييمها ونقدها. هكذا أخذ يسود اتفاق عام على العمل على التقريب بين الثقافتين العلمية والفنية أو الأدبية، وظهر مفكرون فى كلا الفريقين يدعون لما يسمى بالثقافة الثالثة.

علماء العلوم الطبيعية فى الثقافة الثالثة لهم دور رئيسى فى تطوير الفكر الحديث عامة، وهم يبدعون بأبحاثهم وكتاباتهم الجماهيرية ثقافة أشمل من أن تسمى

علمية فقط أو أدبية فقط. ودورهم هذا يشمل أن يشركوا فى هذه الثقافة الجمهور غير المتخصص عن طريق الكتب الجماهيرية ووسائل الإعلام المختلفة حتى ينال هذا الجمهور القدر الكافى من الثقافة العلمية التى تؤهله لأن يفكر بمنهج علمى ويستطيع تفهم المشاكل العامة لتطبيقات العلم وتكنولوجياته التى تؤثر فى أفراد المجتمع كله. وإذا كان هذا هو دور العلماء فإنه قد ظهرت فى الوقت نفسه دلائل قوية على أن الكثيرين من المشتغلين بالإنسانيات والثقافة الأدبية أخذوا يتبعون فى تفكيرهم منهجا يماثل المنهج العلمى وأخذوا يؤمنون بأن مهمتهم هى فهم العالم وتفسيره فى اتساق مع الحقائق العلمية. وهكذا ظهرت حديثا نزعة لمذهب إنسانى شامل يشبه المذهب الإنسانى الذى كان سائدا فى أوائل عصر النهضة الأوروبى عندما كان للمتقنين عموما منظور ثقافى موسوعى، وكان هناك عباقرة، مثل دافنشى ومايكل أنجلو، لهم إسهاماتهم الفنية والعلمية معا. وظهر مؤخرا مفكرون علميون وأدبيون لديهم وعى ثقافى كلى، هم الإنسانىون الجدد الذين يشكلون الإبداع الفكرى والثقافى الحديث بمنظور ثقافى شامل يتجاوز منظور المتقف التقليدى فى آخر النصف الأول من القرن العشرين.

على أن الكتاب أيضا يتناول ما ظهر مؤخرا من بعض علامات لردود فعل ضد التفكير العلمى، وبوادر من نزعة لاعقلانية ظلامية فى المجتمع تطال حتى بعض أصحاب السلطة ممن يقودون دولا كبرى. كما ظهرت بعض جماعات أكاديمية تعمل على تهميش العلماء والمنهج العلمى، وبدلا من أن تعمل الدراسات المعرفية على توحيد العلم والتكنولوجيا مع الأدب والفن أخذ بعض الأكاديميين من منظرى الإنسانيات ينظرون إلى العلم والتكنولوجيا كنوع خاص من مجرد نتاج تكتيكى. وتواكب مع ذلك ظهور مذاهب غريبة من بنوية وتفكيكية ومذاهب ما بعد الحداثة عموما، مع غلبة لاتجاه تشاؤمى فيها، فى حين أن العلم الحقيقى يقود فى مقابل ذلك اتجاها للتقاؤل والتقدم المستمرين. بل وظهرت أيضا نزعات تمجد أشباه علوم زائفة وما يكاد يكون ثقافة خرافة كالطب البديل والمثيل والروحانى، ويحدث هذا كله على الرغم من أن منهج العلم الحقيقى هو المحور الرئيسى للحضارة الحديثة المؤسسة على المعرفة.

يركز هذا الكتاب على دور الإنسانين الجدد في مقاومة هذه النزعات اللاعلمية كلها، وأن يعملوا على إعادة تعريف وبناء إنسان القرن الحادى والعشرين حسب أحدث ما توصل له الفكر العلمى المعاصر، خاصة مع ما يوجد الآن من تشابك وتداخل للمناهج البيئية لشتى جوانب المعرفة.

الكتاب فى شكل مقالات كتبها ما يزيد عن عشرين من كبار المفكرين المعاصرين سواء فى العلوم الطبيعية أو الإنسانية. وقد أشرف على تحريره جون بروكمان الكاتب العلمى الذى ألف ما يزيد عن عشرين كتابا فى الثقافة العلمية، صنف العديد منها فى قائمة أحسن الكتب مبيعا. وهو صاحب موقع على ويب اسمه "الحرف" يعد بمثابة منتدى فكرى للحوار والنقاش بين كبار العلماء والمفكرين أدهم مع الآخر وكذلك مع الجمهور.

والكتاب فى ثلاثة أقسام رئيسية. القسم الأول اسمه "الهوموسابينز" أو الاسم العلمى لنوع الإنسان الحالى أى "الإنسان العاقل". وكمثل لبعض ما ورد فى هذا القسم هناك محاولة للإجابة عن أسئلة تدور حول تعريف الإنسان الحديث، والنظريات الحديثة عن آليات التفكير فى مخ الإنسان ومخ الحيوان والعلاقة بينهما. كما أن هناك تناول للتساؤل عما إذا كان الإنسان يعد حاليا نوعا من السيبورج الطبيعى فيه توليف بين نشاط المخ البيولوجى مع التكنولوجيات ووسائل المعلومات التى يتفاعل الإنسان معها فى بيئته. وهناك أيضا فى هذا القسم تفسيرات حديثة وطريقة لتاريخ الإنسان وأسباب تباين البشر فى القارات المختلفة رغم وحدة أصولهم، ولماذا مثلا حدث أن غزا الاستعمار الغربى أفريقيا السوداء ولم يحدث أن وصلت أفريقيا السوداء إلى غزو الغرب.

يرد فى القسم الثانى من الكتاب استشراف لما يحتمل من ظهور كائنات من نوع جديد من الأحياء البشرية فيها بعض ميكنة، وهو نوع سيمى باسم "ماكينا سابينز"، وهو الاسم الذى عنون به هذا القسم. وتتناول مقالاته العلاقة بين ذكاء الإنسان وذكاء الآلة من أكثر من ناحية جديدة. من ذلك مثلا أن بدأت تظهر نظرية للحوسبة تعتمد على نظرية الكم؛ أى حوسبة كمومية، وسيؤدى تطبيقها إلى توسيع

هائل فى قدرات الكمبيوتر، وبالتالى فى قدرات الإنسان. ومن المأمول أيضا أن تؤدى أبحاث جديدة إلى زيادة وتحسين قدرة برمجيات الكمبيوتر حتى تلاحق ما يحدث من تزايد سريع فى قدرة عتاده. وبوجه عام فإن هذه التطورات الحديثة كلها تتطلب أن يقوم العلم بدوره فى أن يعجل ويتحكم فى الاندماج التدريجى بين ميكانيزمات ذكاء الإنسان وميكانيزمات ذكاء الآلة. وستكون نتيجة هذا كله أن يتغير إحساسنا بطبيعة الواقع كنتيجة لتغير فهمنا للفيزياء، حيث لن يقتصر هذا الفهم على استيعاب نظريات الفيزياء وإنما يمتد لما هو أشمل فيستوعب ما يوجد فى هذه النظريات من تضمينات معرفية وميتافيزيقية. وهناك الآن ما يكاد يكون تداخلا بين الفيزيكا والميتافيزيكا.

أما القسم الثالث من الكتاب فيتناول أحدث نظريات علم الكون التى تحاول معالجة نواحي القصور فى النظرية الكلاسيكية عن نشأة الكون بالانفجار الكبير. ذلك أن نظرية الانفجار تشرح لنا فحسب الأحداث التى وقعت بعد الانفجار الكبير نفسه ولا تفسر كيف وجدت مادة الكون قبل الانفجار وهى مضغوطة انضغاطا شديدا مع ارتفاع هائل فى الحرارة فى مفردة تؤدى للانفجار الكبير. يتطلب تفسير هذا أن يتم دمج النظريتين الأساسيتين فى الكونيات، أى نظرية النسبية العامة ونظرية الكم. وأهم محاولات هذا الدمج هى محاولة إنشاء نظريات (الجاذبية - الكمية) مثل نظرية الأوتار الفائقة وأحدث ما تفرع منها مثل نظرية البرانات ونظرية "إم". كما أن هناك أيضا نظرية الجاذبية الكمومية الحلقية. يرد فى القسم مقالات تشرح هذه النظريات ودورها فى نشأة الكون مع استشراف لمصير الكون.

ينتهى الكتاب بتعليقات ذكرها بعض المفكرين والعلماء عما قاله مفكرون وعلماء آخرون من آرائهم. وهى تعليقات يتخللها أسلوب ساخر سواء عند التأييد أو المعارضة. تبين هذه التعليقات أيضا أهمية تعدد الآراء فى تقدم العلم وأهمية توفير الحرية لأى فرد فى أن يبدي رأيه، حتى إن محرر الكتاب يفسح المجال لأى تعليق حتى ولو كان مضادا لآرائه التى عرضها فى مقدمة الكتاب.

الكتاب هكذا رحلة استكشاف شائقة تجوس عميقا في أحدث ما أنتجه العلم وأحدث مشاكل تطبيقاته، مما لا غنى عنه لأى قارئ متخصص أو غير متخصص. أخيرا أود أن أشكر الصديق العزيز د. نبيل على لما بذله من وقته وعلمه الثمينين ليفسر لى بعض المصطلحات العلمية المعلوماتية.

مصطفى إبراهيم فهمى

شكر

منذ البداية الأولى لموقع "الحافة" وأنا أتلقى قدرا كبيرا من التشجيع والدعم من أفراد مهمين في مؤسسة بارنز ونوبل، بما فيهم ستيف ريجيو، ومايك فيراري، ومايكل فريدمان وقد طرحوا على فكرة أن كتابا يتأسس على "الحافة" (www.edge.org) سيكون منه كتابا قيما، وإنى لأشكرهم على اقتراحهم وتشجيعهم لى. أود أن أشكر أيضا مايكل فراجنيتو ولورا نولان بدار نشر بارنز ونوبل لدعمهما لهذا المشروع.

شارك راسل واينبرجر الناشر المشارك في "الحافة" في كل جوانب النشر، كما عمل معى كريستوفر وليامز بدقة وإحكام في أعمال التحرير الأولى لتحويل الكثير من نسخ الأسئلة والأجوبة إلى شكل مقالات، وكذلك أيضا في توفير الترجمة الإنجليزية للنصوص الألمانية. أود أن أشكرهما معا لإسهاماتهما القيمة.

أود أن أشكر جودى هيريك من دار "تييرو" لما قامت به من عمل في نسخ كل المقالات. وأخيرا فأنا مدين لسارة ليببوكوت لعملها في التحرير عملا مفعما بالاهتمام والتدقيق.

مقدمة المحرر

فى ١٩٩١ طرحت المحاجة التالية فى مقال عنوانه "الثقافة الثالثة البازغة":
"حدث فى السنوات المعدودة الأخيرة تغير فى الأدوار التى تؤدى فى الحياة الثقافية الأمريكية، وتزايد ما يحدث من تهميش للمثقف التقليدى. لم يعد التعلم بطريقة خمسينيات القرن العشرين عن فرويد وماركس والحدائث فيه ما يكفى لتأهيل شخص مفكر فى زمننا. والواقع أن المثقفين الأمريكيين التقليديين أصبحوا الآن بأحد المعانى يتزايدون فى رجعتهم، وكثيرا ما يجهلون تماما وبفخر (وعناد أحمق) الكثير من إنجازات زمننا الحالى الثقافية التى لها أهمية حقيقية. وكثيرا ما تكون ثقافتهم، التى تنبذ العلم، ثقافة غير إمبريقية^(١). كما تستخدم ثقافتهم رطانة خاصة بها، وتتنظف غسيلها الخاص بها. وهى تتميز أساسا بالتعليق على التعليقات، وينتهى لولب التعليقات المتضخم بالوصول إلى نقطة يضع فيها العالم الواقعى".

بعد مرور اثنا عشر عاما على ذلك، حل أساسا مكان هذه الثقافة الحفرية ما يسمى "الثقافة الثالثة" - عنوان هذا المقال - وذلك فى إشارة إلى التقسيم الشهير الذى قسم به سى. بى. سنو عالم الفكر إلى ثقافتين، ثقافة المثقف الأدبى وثقافة العالم.

تتألف هذه الثقافة الجديدة من أولئك العلماء، هم وغيرهم من المفكرين فى العالم الإمبريقى، الذين توصلوا عن طريق أعمالهم وكتاباتهم التفسيرية إلى أن يتخذوا وضع المثقف التقليدى الذى يجعل المعانى الأعمق لحياتنا مرئية لنا، وأن يعيدوا تعريف من نكون وماذا نكون.

ولا يقتصر علماء الثقافة الثالثة على أن يشاركوا فى أبحاثهم وأفكارهم أحدهم مع الآخر ولكنهم أيضا يشاركون مع جمهور تعلم تعليما جديدا عن طريق كتبهم. وهم عندما ركزوا على العالم الواقعى قادونا فى فترة من أشد الفترات

(١) الإمبريقية: مذهب يقول بأن المعرفة تقوم أساسا على الحس والتجربة. (المترجم)

إبهاراً في النشاط الثقافي في تاريخ الإنسان. إنجازات الثقافة الثالثة ليست نزاعات هامشية بين أفراد طبقة من كبار موظفي البلاط الصيني المشاكسين؛ وإنما هي إنجازات تؤثر في حياة كل فرد فوق كوكبنا. بزوغ هذه الثقافة الجديدة فيه برهان على جوع ثقافي شديد، والتوق إلى الأفكار الجديدة المهمة التي تقود زماننا: تطورات ثورية في البيولوجيا الجزيئية، والهندسة الوراثية، والنانوتكنولوجيا، والذكاء الاصطناعي، والحياة الاصطناعية، ونظرية الشواش، والتوازي المكثف، والشبكات العصبية، والكون التضخمى (الانتفاخي)، والتشكلات، والنظم التكيفية المركبة، واللسانيات، والأوتار الفائقة، والتنوع الحيوى، والجينوم البشرى، والنظم الخبيرة، والتوازن المنقطع، والأوتوماتا الخلوية، والمنطق المضرب، والواقع الخائلى، والفضاء السيبرى (المعلوماتى) والماكينات التي تنهى ترليون عملية حسابية في الثانية^(٢). وهذا كله بعض من كثير آخر.

الإنسانية والكل الثقافي

كانت كلمة مذهب "الإنسانية" في حوالى القرن الخامس عشر مرتبطة بفكرة فيها كل ثقافى واحد. كان النبيل الفلورنسى يعرف أن من المضحك أن يكون قارئاً لدانتى ولكنه يتجاهل العلم. وكان ليوناردو فناناً عظيماً، وعالماً عظيماً، وتكنولوجيا عظيماً. أما مايكل أنجلو فكان حتى فناناً ومهندساً أعظم منه. كان هؤلاء الرجال متقنين كليين عمالقة. وبالنسبة لهم، فإن فكرة أن يحتضن المرء مذهب الإنسانية بينما يبقى جاهلاً بآخر الإنجازات العلمية والتكنولوجية، لى فكرة غير مفهومة. حان الوقت الآن لتعيد تأسيس هذا التعريف الكلى.

(٢) هذه كلها بعض من آخر الصيحات العلمية فى البيولوجيا والمعلوماتية والكرونيات والفيزياء... إلخ. (المترجم)

حدث في القرن العشرين، وهو فترة من التقدم العلمي العظيم، أنه بدلا من أن يحتل العلم والتكنولوجيا المركز من العالم الثقافي - وبدلا من أن يكون هناك توحيد بحيث تشمل الدراسات المعرفية العلم والتكنولوجيا مع الأدب والفن - بدلا من ذلك فإن الثقافة الرسمية رفستهما بعيدا. ينظر الباحثون التقليديون في الإنسانية إلى العلم والتكنولوجيا على أنهما نوع من نتاج تكتيكي خاص. وكزت جامعات النخبة العلم خارج مقررات طلبة الجامعة في الدراسات الأدبية، وخارج عقول الكثيرين من الشبان، الذين فعلوا مثل ما تفعله المؤسسة الأكاديمية الجديدة، فهمشوا أنفسهم بحيث لم يعودوا بعد قريبين أى قرب من مجال الفعل.

كثيرا ما يحدث في المجتمع الأكاديمي على نحو مبالغ فيه أن تتزع المناقشات الثقافية إلى التركيز على أمور من نوع من الذي كان، أو لم يكن، ستالينا في ١٩٣٧، أو ماذا كانت إجراءات تنظيم نوم الضيوف في عطلة نهاية الأسبوع في بلومزبرى^(٣) في الجزء الأول من القرن العشرين. نحن لا نطرح بذلك أن دراسة التاريخ فيها إهدار للوقت؛ فالتاريخ يضيء لنا ما تكونه أصولنا ويصوننا من أن نحاول إعادة اختراع العجلة. ولكن ثمة تساؤل يبرز: تاريخ ماذا؟ هل نريد أن يتأسس محور الثقافة على نظام مغلق، عملية من دخول نص/خروج نص، دون اتصال إمبريقي بالعالم الواقعي؟ لا يسع المرء إلا أن يتعجب من نقاد الفن مثلا الذين لا يعرفون شيئا عن الإدراك البصري؛ وكذلك نقاد الأدب من أتباع مذهب البنائية الاجتماعية، الذين لا يكتراثون بالكليات البشرية التي وثقها علماء الأنثروبولوجيا^(٤)؛ ومعارضى الأطعمة المعدلة وراثيا، والمواد المضافة، وبقايا المبيدات الحشرية الذين يجهلون الوراثة والبيولوجيا التطورية.

(٣) بله م د ٤: اسم أطلة، علم، محممة من، أصدقاء الفن، والأدب عاش، بعضهم ف، بله م د ٤، وظهر انتاحهم ف، أثناء، بعد الحرب العالمية الأولى، منهم فو حننا، ولف، و. ا. د. فوستر. (المترجم)

(٤) الأنثروبولوجيا: علم الإنسان الذي يبحث أصله وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته. (المترجم)

التشاؤم الثقافى إزاء التفاؤل العلمى

يوجد تمايز أساسى بين الأدبيات العلمية وأدبيات فروع المعرفة التى تكون موضوعاتها ذات مرجعية ذاتية وتهتم فى أغلبها بتفسيرات قدامى المفكرين. يختلف العلم عن تلك الفروع المعرفية التى ليس فيها أى توقع لتقدم منهجى والتى يتأمل فيها المرء أفكار الآخرين ويعيد تدورها، فالعلم عند أقصى حدوده المتقدمة يضع المزيد والأفضل من الأسئلة، أسئلة تطرح بطريقة أفضل. إنها أسئلة تصاغ عبارتها لاستباط الإجابات؛ العلم يعثر على الإجابات ويواصل التحرك. فى حين تواصل مؤسسة الإنسانىات التقليدية تفسيراتها الانعزالية المضنية مغرقة نفسها فى تشاؤم ثقافى، ومتشبثة بنظرتها كئيبة النمط لأحداث العالم.

يكتب آرثر هيرمان فى كتابه "فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى"، "نحن نعيش فى عصر أصبح التشاؤم فيه هو القاعدة". يعمل هيرمان فى تنسيق "برنامج الحضارة الغربية" فى المتحف السميثسونى، وهو يحاج بأن انحدار الغرب مع ما فيه من رؤية "لمجتمعنا المريض" قد أصبح الأطروحة الغالبة على خطابنا الثقافى، إلى درجة أن صميم فكرة الحضارة قد تغير. ويواصل القول:

«هذا النظام الجديد قد يتخذ شكل اليوتوبيا البيئية
الراديكالية "لقاذف القنابل المنفرد"^(٥). وقد يتخذ أيضا
شكل السوبرمان عند نيتشه، أو الاشتراكية القومية
الآرية عند هتلر، أو ما عند ماركيز من اتحاد طوبوى
بين التكنولوجيا وإيروس^(٦) أو شكل "الفلاحين" الثوريين
عند فرانز فانون. وقد يكون حاملو النظام من أصدقاء

(٥) لقب أطلقه علم اللاهوت الأمريكى كازينسكى الذى زرع وحده فى ١٩٧٨ عدة قنابل فى أماكن مختلفة من الولايات المتحدة. (المتراحم)
(٦) إيروس: إله الحب والشهوة عند الإغريق. (المترجم)

الأرض" عند عالم الإيكولوجيا^(٧)، أو "الأفراد المرموقين" عند مؤيدى مذهب التعدد الثقافى، أو "الأمازونيات للجدد" عند من يناصرون للمساواة بين الجنسين، أو "الرجال الجدد" عند روبرت بلاى. يتغير الشكل الخاص للنظام الجديد حسب الذوق؛ على أن أهم ميزة له تكون فى اتصافه بأنه غير غربى مطلقا، أو حتى أنه مضاد للغرب. وفى النهاية فإن المتشائم الثقافى يكون اهتمامه بما سوف يتكون أقل من اهتمامه بما سوف يدمر - أى مجتمعا الحديث "المريض"... أصبح العمل على زرع اليأس والشك بالذات بالغ الانتشار حتى صرنا نتقبله كموقف ثقافى طبيعى، حتى عندما يكون هناك تناقض مباشر بينه وبين واقعنا الخاص بنا».

مفتاح هذا التشاؤم الثقافى هو الإيمان بأسطورة المتوحش النبيل، وهى أن الناس قبل أن يمتلكوا العلم والتكنولوجيا كانوا يعيشون فى انساق ونعيم إيكولوجيا. والأمر على العكس من ذلك تماما. أعظم تغير متواصل هو معدل التغير، وهذا أمر لا بد من أن يشق علينا التعامل معه، إذا بقينا ننظر إلى العالم من خلال أعين شبينجلر^(٨) ونيتشه^(٩). الأكاديميون دارسو الإنسانية وقد كرسوا أنفسهم تكريسا شبه عقائدى لنظرة متشائمة للعالم، فإنهم خلقوا ثقافة من المذاهبات (Isms) السابقة تتقلب هى نفسها وتظل تدور إلى مالا نهاية. ترى كم مرة رأيت فيها اسما لرمز من رموز الإنسانية الأكاديمية فى مقالة باحدى الصحف أو المجلات فتوقفت فى التو عن القراءة؟ أنت تعرف ما سيأتى فيها. لماذا تهذر وقتك؟

(٧) الاركه له حنا: فر ع السوله حبا للذء، بحث علاقة الأحناء بالنسئة. (المتر حم)

(٨) شينجلر، أوزوالد (١٨٨٠-١٩٣٦) فيلسوف ألمانى متشائم تنبأ بقرب نهاية الحضارة الغربية.

(المتر حم)

(٩) نيتشه، فردريك (١٨٤٤-١٩٣٦) فيلسوف ألمانى صاحب مذهب الإنسان الأعلى (السوبرمان).

(المترجم)

دعنا ننظر أمر ما يوجد من تفاؤل مزدوج فى العلم، كقصة مضادة لهذا
التشاؤم الثقافى.

أولا كلما أنجزت مزيدا من العلم، زاد ما عليك أن تتجزه. يواصل العلماء
دائما اكتساب المعلومات الجديدة ومعالجتها. وهذا هو وجه الحقيقة فى قانون مور،
فكما أنه يحدث كل ثمانية عشر شهرا تضاعف فى قدرة الكمبيوتر على المعالجة
طول العشرين سنة الأخيرة، فبمثل ذلك تماما نجد أن العلماء يكتسبون المعلومات
أيضا بمعدل أسى. لا يمكن للعلماء إلا أن يكونوا متفائلين.

وثانيا فإن الكثير من العلوم الجديدة إما أن تكون معلومات طيبة أو تكون
معلومات يمكن أن نجعلها طيبة بفضل المعرفة التى تتزايد أبدا فى عمقها وبفضل
الأدوات والتقنيات التى تتزايد أبدا فى كفاءتها وقوتها.

يواصل العلماء خلاقاتهم، ويكون الواقع هو الحد الفاصل بينهم. وقد يكون
للعلماء إحساس بالآنا يبلغ فى تضخمه ما تحس به الشخصيات ذات الأهمية فى
الإنسانيات الأكاديمية، إلا أن العلماء يعالجون عجزتهم بطريقة مختلفة جدا. ففى
إمكانهم أن يتأثروا بالحجج لأنهم يعملون فى عالم إمبريقى من الحقائق، عالم مبنى
على الواقع. لا توجد مواقف ثابتة لا تقبل التغير. العلماء هم فى الوقت نفسه مبدعو
ونقاد مشروعهم المشترك. فهم الذين تأتى الأفكار منهم، وهم أيضا الذين ينقد
أحدهم أفكار الآخر. ومن خلال عملية الإبداع والنقد والمناقشات، يقرر العلماء أى
الأفكار يتم التخلص منها وأيها يصبح جزءا من الاتفاق العام الذى يودى إلى
المستوى التالى من الاكتشافات. العلماء يدور حديثهم حول الكون، وذلك بخلاف
أكاديمى الإنسانيات الذين يدور حديثهم أحدهم حول الآخر. وبالإضافة، فإنه
لا يوجد خلاف كبير بين أسلوب تفكير عالم كونييات يحاول فهم العالم الفيزيقي عن
طريق دراسة أصل الذرات والنجوم والمجرات، وبين العالم البيولوجى التطورى
الذى يحاول فهم انبثاق المنظومات المركبة من بدايات بسيطة أو يحاول أن يرى
وجود أنماط فى الطبيعة. تتضمن هذه المحاولات كمارسات المزيج نفسه من
الملاحظة، والنمذجة النظرية، والمحاكاة بالكمبيوتر، وما إلى ذلك، بما يماثل ما

يجرى فى معظم المجالات العلمية الأخرى. هناك التقاء بين عوالم العلم. هناك
تشارك فى الإطار المرجعى عبر كل فروع هذه العوالم.

ما زال العلم قريبا من بدايته. ومع تقدم حدوده تزداد الأفاق اتساعا وتصبح
رؤيتها عند بؤرة واضحة. وقد أدت هذه الأوجه من التقدم إلى تغيير الطريقة التى
نرى بها مكاننا فى الطبيعة. ثمة فكرة بأننا جزء متكامل من هذا الكون - الكون
الذى تحكمه قوانين فيزيائية ورياضية جعلت أمخانا بحيث يمكن تضبيبها لفهم
هذه القوانين - ونتج عن هذه الفكرة أنها جعلتنا ندرك مكاننا بطريقة مختلفة مع ما
ينكشف من التاريخ الطبيعى. هكذا وصلنا إلى أن ندرك من خلال ماحدث من
تطورات فى علمى الفلك والكون أننا مازلنا قريبين للغاية من البداية. حدث توسيع
هائل لتأريخ بداية التكوين، وبدلا من أن يكون منذ ٦٠٠٠ سنة تراجع إلى ١٣,٧
بليون سنة حسب علم كونييات الانفجار الكبير، على أن المستقبل قد زاد توسيعه
أيضا لما هو أكثر، ربما إلى مالا نهاية. لم يقتصر الناس فى القرن السابع عشر
على الإيمان بضيق المدى الزمنى لماضيهم، وإنما اعتقدوا أيضا أن التاريخ أصبح
على وشك الانتهاء: حان وصول كارثة النبوءة بالنهاية. أما الآن فمع إدركنا بأن
الزمن قد يكون لانهايا بالكامل، فقد أدى بنا ذلك إلى نظرة جديدة للنوع البشرى،
باعتبار أنه ليس فيه الذروة بأى معنى، ولكنه ربما يكون طورا مبكرا إلى حد كبير
من عملية التطور. توصلنا إلى هذا المفهوم عن طريق الملاحظة والتحليل
التفصيليين، وعن طريق التفكير المؤسس على العلم؛ ويتيح لنا هذا أن نرى الحياة
وهى تلعب دورا فى مستقبل الكون يتزايد أبدا فى تعاضمه.

هناك علامات مشجعة على أن الثقافة الثالثة تشمل الآن باحثين فى
الإنسانيات يفكرون بطريقة تفكير العلماء. وهم مثل زملائهم فى العلوم يؤمنون بأن
هناك عالم حقيقى وأن مهمتهم هى فهمه وتفسيره. وهم يختبرون أفكارهم بلغة من
التماسك المنطقى، والقدرة التفسيرية، والاتساق مع الحقائق الإمبريقية. وهم
لا يذعنون لسلطات ثقافية: فأى أفكار لآى فرد يمكن تحديها، والفهم والمعرفة
يتراكمان من خلال هذه التحديات. وهم لا يختزلون الإنسانيات إلى مبادئ بيولوجية

وفيزيائية، ولكنهم يعتقدون بالفعل أن الفن والأدب والتاريخ والسياسات - ثوب كامل من الاهتمامات الإنسانية - كلها في حاجة لأن تضع العلوم في حساباتها.

ثمة وجود لأوجه ارتباط: ففنونا، وفلسفاتنا، وأدبنا كلها نتاج عقول بشرية تتفاعل أحدها مع الآخر، والعقل البشرى نتاج للمخ البشرى، وهذا ينظمه جزئيا الجينوم البشرى وقد تطور بواسطة عمليات التطور الفيزيائية. الباحثون فى الإنسانية من نوى الأساس العلمى يكونون، مثلهم مثل العلماء، انتقائيين ثقافيا، فيلتصون الأفكار من مصادر مختلفة، ويتخذون الأفكار التى تثبت جدارتها، بدلا من أن تكون أبحاثهم من خلال "أنسقة" أو "مدارس". وهم هكذا ليسوا بباحثين ماركسيين أو فرويديين أو كاثوليك. إنهم يفكرون مثل العلماء، ويعرفون العلم، ويتواصلون بسهولة مع العلماء؛ أما اختلافهم الرئيسى عن العلماء فهو فى الموضوع الذى يكتبون عنه، وليس فى أسلوبهم الثقافى. أصبح الآن التفكير المؤسس على العلم عند باحثى الإنسانية المتتورين جزءا من الثقافة العامة.

باختصار، ثمة شىء جديد بصورة جذرية يحوم فى الهواء: طرائق جديدة لفهم المنظومات الفيزيائية، طرائق جديدة للتفكير حول التفكير تستدعى الشك فى الكثير من افتراضاتنا الأساسية. ثمة بيولوجيا واقعية عن العقل، أوجه تقدم فى الفيزياء، وتكنولوجيا المعلومات، وعلم الوراثة، والبيولوجيا العصبية، والهندسة، وكيمياء المواد، وكلها تتحدى الافتراضات الأساسية التى تدور حول من نكون وماذا نكون، وماذا يعنى أن نكون بشرا. عادت الفنون والعلوم إلى الانضمام معا كثقافة واحدة، هى الثقافة الثالثة. إن هؤلاء الذين شاركوا فى هذا الجهد - على أى من جانبي التقسيم القديم لسى. بي. سنو - هم فى المركز من الفعل الثقافى لزمنا. إنهم الإنسانىون الجدد.

كتاب "الإنسانىون الجدد: العلم عند الحافة" هو استكشاف لهذا المنظر العام الثقافى الجديد، أتابع فيه مسار الأبحاث والأفكار الثورية لمؤلفين رئيسيين فى مجالات مختلفة مثل علم الكمبيوتر وعلوم الكون، والإدراك، والبيولوجيا التطورية، ويتجادل هؤلاء المؤلفين أحدهم مع الآخر، ويتعلمون أحدهم من الآخر ويطبقون

ما يتعلمونه بطرائق إبداعية. هؤلاء المؤلفون هم البيولوجية التطورية هيلينا كرونين؛ والفيلسوف دانييل سى. دينيت؛ وعالم الجغرافيا الحيوية جيرد دياموند؛ والتكنولوجيا راي كيرزويل؛ وعالم الأنثروبولوجيا البيولوجية ريتشارد رانجام؛ وعلماء الكمبيوتر رودنى بروكس، ودافيد جيلبرنتر، وجارون لانير، ومارفن سبنسكى، وهانز موارفيك، وجوردان ب. بولاك؛ وعالما الإدراك أندى كلارك ومارك د.هاوزر؛ وعالما النفس ستيفن م. كوسلين وستيفن بينكر؛ وعلماء الفيزياء دافيد دويتش، وآلان جوث، وسميث لويد، وليزا راندال، ومارتن ريز، ولى سمولين، وبول شتينهاردت. يحاول كتاب "الإنسانيون الجدد" أن يجعل إحدى الثورات مرئية لنا من الداخل، ذلك أن ما سيبرز هنا على السطح من مناقشات سوف يحدد العقود القادمة من الفكر العلمى.

من الواضح أن اختيار العلماء الذين تضمنهم هذا الكتاب أبعد من أن يكون شاملا. وأنا أعمل مهنيا مع البعض منهم: فهم عملاء لوكالتى للأدبيات. والبعض الآخر لم أتعامل معهم (الواقع أن النسبة المئوية الكبيرة من العلماء الذين أمثلهم ليسوا ممن يتضمنهم الكتاب). تم الاختيار صدفة وكان للأمر علاقة كبيرة باهتماماتى العلمية الشخصية. تأسست معظم الفصول على ما أدركته من لقاءات؛ وباقى الفصول - وهى مقالات كتبها دافيد جيلبرنتر، وهانز موارفيك، وجارون لانير، وأندى كلارك، وجيرد دياموند - كلها قد سبق نشرها فى "الحافة" (www.edge.org) وهو موقع على ويب بدأت إطلاقه فى ١٩٩٧ وكرسته للنقاش بين علماء وصلوا إلى أقصى الحدود التى وصلتها فروعهم المعرفية.

أصل مجتمع "الحافة" هو جماعة غير رسمية من العلماء ومن المفكرين الإمبريقيين الآخرين الذين عرفوا باسم (نادى الواقع) جمعتهم معا فى أوائل ثمانينيات القرن العشرين. كان أعضاء النادى أفرادا تعودوا على إبداع واقعهم الخاص بهم وعلى رفض أى واقع مصنوع مخصص لغرض بعينه؛ وقد كانوا (ومازالوا) أناسا ينطلقون لصنع واقعهم وليس للحديث عنه. عقد (نادى الواقع) اجتماعاته فى أول الأمر فى المطاعم الصينية، والطوايق العالية للفنانين، وفى

المتاحف، وغرف المعيشة، وقاعات الاجتماعات في جامعة روكفلر وأكاديمية نيويورك للعلوم وشتى المؤسسات الاستثمارية المصرفية، وذلك بخلاف أماكن أخرى. "الحافة" هي سلالة (نادى الواقع)، وقد أقيمت كمؤسسة لا تسعى للربح في ١٩٨٨، وقد هاجرت "الحافة" حاليا إلى الإنترنت. ستجد فيها عددا من أذكى العقول المعاصرة وهم يأخذون أفكارهم إلى حلبة مصارعة الثيران، بتوقع كامل لأن تلقى هذه الأفكار تحديا لها. أطلقت مجلة "نيوسيا نتيس" (العالم الجديد) على هذا الموقع أنه "مجال يبهر الأنفاس" ورحبت به لما يقدمه من أسئلة "كبيرة، وعميقة، وطموحة، أسئلة تطرح أن العلم أخذ في النهاية يقتحم مجال الفلسفة والعقيدة".

أصبح البعض من المساهمين في "الحافة" من المؤلفين للكتب الأكثر مبيعا أو فيهم عدا ذلك من أصبحوا مشهورين في الثقافة الجماهيرية. على أن أغلبهم ليسوا من هؤلاء أو أولئك. تشجع "الحافة" أن تدور الأبحاث عند الحدود المحيطة بثقافتنا وتشجع استقصاء الأفكار التي لم يتم عرضها عرضا عاما. وشعار الجماعة هو "الوصول إلى حافة معرفة العالم، والعثور على أصحاب العقول الأكثر تركبا ورقيا، ووضعهم معا في قائمة، وجعلهم يسألون أحدهم الآخر الأسئلة التي يسألونها لأنفسهم". و"الحافة" هي وجهة نظر، وليست مجرد جماعة من الأفراد. ويتشارك المساهمون فيها أحدهم مع الآخر في حدود معرفتهم ويستجيبون بعنف لما يديه أندادهم من تعليقات وانتقادات وتبصرات. ذات مرة وصفت مجلة "وايرد" (أسلاك) "الحافة" قائلة "إنها لقائمة... تعيد تشكيل (الحلقة المفرغة) عند دوروثي بارك بغير طعام وشراب... تشكيل رائع، وهذا في جزء منه بسبب الأفراد الموجودين في القائمة؛ ريتشارد دوكنز، وفريمان ديسون، ودافيد جيليرنتر، وناثان ميرفولد، ونعمى وولف، وهذه أسماء لقلّة منهم". على أن جماعة "الحافة" تختلف تماما عن التجمعات الأخرى مثل "المائدة المستديرة الأليونكية"^(١٠)، أو الحواريين، أو مجموعة بلومزبرى، وإن كانت تطرح بالفعل النوع نفسه من المغامرة العقلية. ولعل أقرب جماعة تشبهها هي "جمعية برمنجهام القمرية" في القرن الثامن عشر، وهي نادى غير رسمي تألف من الشخصيات الثقافية التي قادت العصر الصناعي

(١٠) الأليونكية قبائل للهنود الحمر في أمريكا الشمالية. (المترجم)

الوافد؛ جيمس وات، وإيراسموس داروين، وجوشيا ويدجوود، وجوزيف بريستلي، وماثيو بولتون، وويليام ويزرنج. تجمع جماعة "الحافة" بأسلوب مماثل لذلك بين أولئك الذين يستكشفون أطروحات عصر ما بعد الصناعة. وقدمت "الحافة" مدى واسعاً من الأفراد في الفنون والعلوم: عالمة الأنثروبولوجيا الثقافية ماري كاثرين بيتسون التي تبحث في تجسير الفجوات الثقافية، وعالم البيولوجيا التطورية ريتشارد دوكنز الذي يبحث وجهة نظر الجمهور عن العلم، وعالم الفيزياء فريمان ديسون الذي يبحث في المستقبل النهائي للحياة في الكون، والموسيقي بريان إينو الذي يبحث في إبداع القيم الثقافية، وعالم النفس هوارد جاردنر الذي يبحث في الإصلاح التعليمي، وعالم البيولوجيا ستيوارت كوفمان الذي يبحث في الزمان في علم الكون الكومومي، وعالمة النفس جوديث ريتش هاريس التي تبحث في طريقة تكوين الشخصية.

استفدت في المقابلات والمحاورات التي عرضتها هنا من وضعي كمحرر، الأمر الذي يمنحني رخصة إعادة تفريغ شرائطي التسجيلية في شكل مقالات. ولما كنت أفترض أن آراء المساهمين في "الحافة" ستكون مما يؤثر اهتمام القراء لدرجة أكبر كثيراً من آرائي في مجال خبرتهم، فقد حذف نفسي (وأستلتي) من النص عند كتابته ولكن على الرغم من أن من أجريت اللقاءات معهم قد قرأوا، بل وحرروا في بعض الحالات، نسخ كلماتهم التي تحدثوا بها، فإن هذه الفصول لا يقصد بها بأي حال أن تمثل كتاباتهم الخاصة بهم. وإذا كان القارئ مهتماً بذلك فعليه أن يقرأ كتبهم الخاصة بهم، التي وردت قائمة بها في ملحق "قراءات مقترحة".

عندما ظهر مقالتي عن "الإنسانيين الجدد" في "الحافة" في أبريل ٢٠٠٢، فإنه جلب للموقع عدداً قياسياً من الردود - بما في ذلك ما كان يحدث أحياناً من تنفيذ مشبوه العاطفة من أعضاء في قائمة بريد "الحافة". ويحوى الختام عينات من هذه التعليقات اللاذعة من بعض "الإنسانيين الجدد" أنفسهم.

جون بروكمان

نيويورك، يونيو ٢٠٠٣

الجزء الأول

الهوموساينز (الإنسان العاقل)

تركيب علمى جديد لتاريخ الإنسان

جيرد دياموند^(١١)

ما السبب فى أن تطور الإنسان ظل يجرى بمعدلات مختلفة هكذا فى مختلف القارات بطول الثلاثة عشر ألف عام الأخيرة؟... ينحو المؤرخون إلى تجنب هذا الموضوع وكأنه الطاعون، وذلك لما يبدو فيه ظاهرياً من تلميحات عنصرية. يفترض أناس كثيرون، بل ويفترض معظم الناس، أن الإجابة تتضمن وجود اختلافات بيولوجية فى متوسط معامل الذكاء (IQ) بين عشائر سكان العالم، وذلك على الرغم من أنه ليس هناك أى برهان على وجود هذه الاختلافات فى معامل الذكاء... إذا كانت الرائحة الكريهة للعنصرية مازالت تجعل القارئ يحس بالضيق من استكشاف هذا الموضوع، فما عليه إلا أن يتأمل لا غير فى السبب الأساسى فى أن أفراداً كثيرين هكذا يتقبلون التفسيرات العنصرية للنمط العريض للتاريخ: ليس لدينا تفسير بديل مقنع. وإلى أن يكن لدينا هذا البديل، سوف يستمر الناس فى الانجذاب إلى النظريات العنصرية نتيجة عدم وجود بديل. يودى هذا إلى أن يتركنا مع فجوة أخلاقية هائلة، تشكل أقوى سبب لتناول هذا الموضوع المثير للضيق.

(١١) جيرد دياموند أستاذ للحضارة فى جامعة كاليفورنيا، دكتوراه فى التاريخ، وهو زميل لكرسى ماك آرثر، وفائز بالميدالية الذهبية للعلماء، ومؤلف "الشمبانز"، "الثالث" (الكتاب الفائز بجائزة نوبل للعلماء)، "الكتاب الفائز بجائزة نوبل للعلماء"، و"الكتاب الفائز بجائزة نوبل للعلماء". وفائز بجائزة بوليتزر عن كتابه "المدافع، والجراثيم، والصلب".

أخذت على عاتقها المهمة المتواضعة بأن أحاول أن أفسر النمط العريض لتاريخ الإنسان فوق كل القارات طول ثلاث عشرة ألف من السنين الأخيرة. لماذا اتبع التاريخ سياقات تطورية مختلفة هكذا لشعوب القارات المختلفة؟ ظلت هذه المشكلة تفتنى لزمنا طويلا، ولكنها الآن أصبحت ناضجة لتتركيب جديد بسبب أوجه تقدم حديثة في مجالات كثيرة تبدو وكأنها بعيدة عن التاريخ، وتتضمن البيولوجيا الجزيئية، ووراثيات النباتات والحيوان، والجغرافيا البيولوجية، والآثار، واللسانيات.

انتشر الأوراسيون، كما نعرف جميعا، وخاصة بالنسبة لشعوب أوروبا وآسيا الشرقية، في كل أنحاء كوكبنا ليسيظروا على العالم الحديث من حيث الثروة والسلطة. أما الشعوب الأخرى، بما في ذلك معظم الأفريقيين، فقد بقوا أحياء، وتخلصوا من السيطرة الأوروبية ولكنهم ظلوا متخلفين في الثروة والسلطة. ثمة شعوب أخرى، بما فيها السكان الأصليون الأستراليين والأمريكتيين وأفريقيا الجنوبية، لم يعد أفرادها بعد ولا حتى مجرد سلالة للأرض التي تخصهم، وإنما عانى معظمهم من الهلاك، أو الاستعباد، أو الإيالة على يد المستعمرين الأوروبيين. لماذا تقلب التاريخ بهذه الطريقة بدلا من الطريقة العكسية؟ لماذا لم يحدث أن يكون السكان المحليون الأمريكيون والأفريقيون والأستراليون الأبوريجينيون هم الذين يقهرون أو يبيدون الأوروبيين والآسيويين؟

يمكننا بسهولة أن نزيح هذا السؤال وراء خطوة أبعد. بحلول ١٥٠٠ ميلادية، السنة التقريبية التي حدث فيها بالكاد البدايات الأولى للتوسع الأوروبي عبر البحار، كانت شعوب القارات المختلفة تختلف بالفعل اختلافا عظيما في التكنولوجيا والتنظيم السياسي. في ذلك الوقت، كانت أجزاء كثيرة من أوراسيا وشمال أفريقيا تحت سيطرة دول وإمبراطوريات العصر الحديدي، وكان بعضها على وشك الدخول في عصر التصنيع. وكان هناك شعبان محليان أمريكيان، الأنكا والأزتيك، تحكمهما إمبراطوريات بأدوات العصر الحجري، وقد بدأت بالكاد تجربة البرونز. وكان هناك أجزاء من أفريقيا ما تحت الصحراء تنقسم إلى دول صغيرة أو قبائل محلية من العصر الحديدي. إلا أن كل شعوب أستراليا، وغينيا الجديدة،

وجزر الهادى، وشعوب كثيرة فى الأمريكتين وأفريقيا ما تحت الصحراء، كانت كلها لا تزال تعيش كمزارعين أو حتى صيادين / جامعى ثمار، وكلهم بأدوات من العصر الحجري.

من الواضح أن هذه الاختلافات فى عام ١٥٠٠ الميلادى هى السبب المباشر فى عدم المساواة فى العالم الحديث. توصلت إمبراطوريات الأدوات الحديدية إلى قهر أو إبادة قبائل الأدوات الحجرية. ولكن كيف تطور العالم ليكون بما كان عليه فى سنة ١٥٠٠ الميلادية؟

يمكننا بسهولة أن ندفع هذا السؤال أيضا إلى الوراء لخطوة أبعد، وذلك بالاستفادة من التواريخ المكتوبة والاكتشافات الأثرية. كان البشر حتى نهاية آخر عصر جليدى، حوالى سنة ١١٠٠٠ ق.م. مازالوا جميعا فوق كل القارات يعيشون كصيادين / جامعى ثمار من العصر الحجري. وكانت المعدلات المختلفة للتطور فى القارات المختلفة ابتداء من ١١٠٠٠ ق.م. حتى ١٥٠٠ ميلادية هى التى أدت إلى أوجه عدم المساواة فى ١٥٠٠ ميلادية. ظل الأستراليون الأبوريجينيون والكثير من الشعوب المحلية الأمريكية وهم يعيشون كصيادين / جامعى ثمار من العصر الحجري، فى حين أن معظم الشعوب الأوراسية والكثير من الشعوب الأمريكية وشعوب أفريقيا ما تحت الصحراء قد طورت تدريجيا الزراعة، والرعى، والتعدين، والتنظيمات السياسية المعقدة. كما أن أجزاء من أوراسيا، هى ومنطقة صغيرة من الأمريكتين قد طورت أيضا كتابة محلية. إلا أن كل من هذه التطورات الجديدة قد ظهرت فى أوراسيا فى وقت مبكر عما فى الأماكن الأخرى.

هكذا نستطيع فى النهاية أن نعيد صياغة سؤالنا عن تطور أوجه عدم المساواة فى العالم الحديث ليصبح كالتالى: ما السبب فى أن تطور الإنسان يظل يجرى بمعدلات مختلفة هكذا فى مختلف القارات طول ثلاث عشرة ألف سنة الأخيرة؟ هذه المعدلات المختلفة هى التى تشكل النمط الأوسع للتاريخ، وتشكل أكبر مشكلة فى التاريخ بلا حل، وهى موضوعى فى هذا المقال.

ينحو المؤرخون إلى تجنب هذا الموضوع وكأنه الطاعون، وذلك لما يبدو فيه ظاهريا من تلميحات عنصرية. يفترض أناس كثيرون، بل ويفترض معظم الناس أن الإجابة تتضمن وجود اختلافات بيولوجية في متوسط معامل الذكاء بين عشائر سكان العالم، وذلك على الرغم من أنه ليس هناك أى برهان على وجود هذه الاختلافات في معامل الذكاء. بل إن مجرد إلقاء السؤال عن السبب في أن الشعوب المختلفة لديها تواريخ مختلفة يصدم البعض منا باعتباره نوعا من الشر، لأنه يظهر وكأنه يبرر ما حدث في التاريخ. والحقيقة أننا ندرس أوجه الظلم في التاريخ لنفس السبب الذى ندرس من أجله الإبادة العرقية، ولنفس السبب الذى يدرس له علماء النفس عقول المجرمين ومغتصبى النساء، ليس من أجل أن نبرر التاريخ، والإبادة العرقية، والقتل، والاغتصاب، وإنما لفهم لماذا ظهرت هذه الشرور ثم نستخدم هذا الفهم لمنع وقوعها ثانية. إذا كانت الرائحة الكريهة للعنصرية مازالت تجعل القارئ يحس بالضيق من استكشاف هذا الموضوع، فما عليه إلا أن يتأمل لا غير فى السبب الأساسى فى أن أفرادا كثيرين هكذا يتقبلون التفسيرات العنصرية للنمط العريض للتاريخ: ليس لدينا تفسير بديل مقنع. وإلى أن يكون لدينا هذا البديل، سوف يستمر الناس فى الانجذاب إلى النظريات العنصرية نتيجة عدم وجود بديل. يودى هذا إلى أن يتركنا مع فجوة أخلاقية هائلة، تشكل أقوى سبب لتناول هذا الموضوع المثير للضيق.

دعنا نواصل الحديث عن قارة بعد الأخرى. دعنا فى أول مقارنة قارية نقوم بها ننظر أمر اصطدام العالم القديم بالعالم الجديد الذى بدأ برحلة كريستوفر كولومبوس فى ١٤٩٢ ميلادية، لأن العوامل القريبة التى أدت إلى هذه النتيجة مفهومة جيدا. سأعطى الآن للقارئ تلخيصا وتفسيرا لتواريخ أمريكا الشمالية، وأمريكا الجنوبية، وأوروبا، وآسيا وذلك من منظوري بصفتي جغرافيا بيولوجيا وبيولوجيا تطوريا، كل هذا فى عشر دقائق؛ بمعدل دقيقتين لكل قارة. هانحن ننتقل:

أغلبنا على علم بتلك القصص عن كيف أن مئات معدودة من الإسبانين بقيادة كورتيز وبيزارد قد تغلبت على إمبراطوريتى الأزتيك والإنكا. كان سكان كل

من هاتين الإمبراطوريتين يبلغ عددهم عشرات الملايين. ونحن على علم أيضا بالتفاصيل الرهيبة عن الطريقة التي فتح بها الأوروبيون الآخرون أجزاء أخرى من العالم الجديد. ونتيجة ذلك أن توصل الأوروبيون إلى الاستقرار والسيطرة على معظم العالم الجديد، بينما حدث انحدار عنيف للسكان المحليين الأمريكيين عن مستواهم في سنة ١٤٩٢ ميلادية. لماذا حدث الأمر بهذه الطريقة؟ لماذا لم يحدث بدلا من ذلك أن يقود الإمبراطور مونتزوما أو الإمبراطور أتاهوليا الأزتيك أو الإنكا لفتح أوروبا؟

الأسباب القريبة واضحة. كان لدى الغزاة الأوروبيون سيوف من الحديد، ومدافع، وخيل، بينما لم يكن الأمريكيون المحليون يمتلكون إلا أسلحة حجرية وخشبية ولا يمتلكون حيوانات يمكن ركوبها. أدت هذه المزايا العسكرية إلى تكرار تمكن قوات من عشرات قليلة من الإسبان الراكبين من هزيمة جيوش هندية يصل عددها إلى الآلاف.

ومع ذلك، لم تكن السيوف الحديدية، والمدافع، والخيل هي العوامل القريبة الوحيدة وراء الفتح الأوروبي للعالم الجديد. دخلت مع الأوروبيين أمراض معدية مثل الجدري والحصبة، انتشرت من إحدى القبائل الهندية للأخرى، متقدمة على الأوروبيين أنفسهم بمسافة بعيدة، وقتلت ما يقدر بأنه ٩٥ في المائة من السكان الهنود للعالم الجديد. كانت هذه الأمراض متوطنة في أوروبا، وكان لدى الأوروبيين الوقت الكافي لأن ينمو مقاومة وراثية وكذلك مقاومة مناعية لهذه الأمراض، أما الهنود فلم يكن لديهم بداية هذه المقاومة. وهذا الدور الذي لعبته الأمراض المعدية في الفتح الأوروبي للعالم الجديد، حدث على نحو مضاعف في أجزاء أخرى كثيرة من العالم، من بينها أستراليا الأبوريجينية، وأفريقيا الجنوبية، والكثير من جزر الهادي.

وأخيرا، لا تزال هناك مجموعة أخرى من العوامل القريبة لننظر في أمرها. كيف تأتى أن وصل بيزارو وكورتيز بأى حال إلى العالم الجديد، قبل أن يتمكن فاتحون من الأزتيك والإنكا من الوصول إلى أوروبا؟ تعتمد هذه النتيجة في جزء

منها على التكنولوجيا، فى شكل السفن العابرة للمحيطات. امتلك الأوروبيون سفنا من هذا النوع، بينما لم يمتلكها الأزيك والإنكا. كذلك فإن السفن الأوروبية كانت مدعومة بالتنظيم السياسى المركزى الذى مكن إسبانيا وغيرها من البلاد الأوروبية من بناء هذه السفن وتجهيزها بالأفراد. وهناك ما يماثل ذلك حسما وهو دور الكتابة الأوروبية فى إتاحة الانتشار السريع للمعلومات التفصيلية الدقيقة بما فى ذلك الخرائط، وتوجيهات الملاحة، وما سجله المستكشفون الأوائل عند العودة لأوروبا لحفز المستكشفين اللاحقين.

قد حددنا حتى الآن سلسلة من العوامل القريبة وراء استعمار الأوروبيين للعالم الجديد: وهى السفن، والتنظيم السياسى، والكتابة، وكلها قد أنت بالأوروبيين إلى العالم الجديد؛ وهناك الجرائم الأوروبية التى قتلت معظم الهنود قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى ميدان المعركة؛ والمدافع، والسيوف الحديدية، والخيول، وكلها أعطت للأوروبيين ميزة كبرى فى ميدان المعركة. دعنا الآن نحاول أن ندفع سلسلة الأسباب لما هو أبعد وراء. لماذا حدث أن هذه المزايا القريبة ذهبت إلى العالم القديم بدلا من أن تذهب إلى العالم الجديد؟ كان من الممكن نظريا أن يكون الأمريكيون المحليون هم الذين يطورون أولا السيوف الحديدية والمدافع، ويطورون أولا السفن العابرة للمحيط، والإمبراطوريات، والكتابة، ويمتطون حيوانات داجنة أكثر إرهابا من الخيل، ويحملون جرائم أسوأ من الجدرى.

الجزء الأسهل فى الإجابة عنه من هذا السؤال يختص بالأسباب فى أن أوراسيا قد طورت أسوأ الجرائم. من العجيب أن الأمريكيين المحليين لم يطوروا أى أمراض وبائية مهلكة ليصيبوا بها الأوروبيين، وذلك فى مقابل الأمراض الوبائية المهلكة التى تلقاها الهنود من العالم القديم. هناك سببان مباشران لهذا اللاتوازن الضخم: أولا، معظم أمراضنا الوبائية المألوفة لا تستطيع أن تبقى مستمرة إلا فى وجود مجموعات سكانية بشرية كبيرة كثيفة تتركز فى القرى أو المدن، التى نشأت فى العالم القديم فى زمن أقدم كثيرا مما فى العالم الجديد. وثانيا، أظهرت الدراسات الحديثة للميكروبات بواسطة علماء البيولوجيا الجزيئية أن معظم

الأمراض الوبائية البشرية قد تطورت من أمراض وبائية مماثلة بين الحيوانات الداجنة الموجودة في عشائر كثيفة في العالم القديم، والتي نتصل بها اتصالا حميما. وكمثال فإن وباء الحصبة والسل تطورا عن أمراض في ماشيتنا، وتطورت الأنفلونزا عن مرض في الخنازير، وتطور الجدري فيما يحتمل عن مرض في الجمال. ليس في الأمريكتين غير أنواع قليلة جدا من الحيوانات الداجنة المحلية التي يمكن أن يكتسب منها البشر أمراضا كهذه.

دعنا ندفع سلسلة الاستدلال خطوة أخرى للوراء. لماذا يوجد في أوراسيا أنواع من الحيوانات الداجنة أكثر كثيرا مما في الأمريكتين؟ تؤوي الأمريكتان ما يزيد عن ١٠٠٠ نوع من الثدييات البرية المحلية، وبالتالي ربما يفترض القارئ لأول وهلة أن الأمريكتين قدمتا كمية وافرة من المواد اللازمة لبدء التدجين. والحقيقة أنه لم يدجن بنجاح إلا جزء ضئيل من هذه الأنواع الثديية البرية، لأن التدجين يتطلب أن يفى الحيوان البري بالكثير من الشروط. يجب أن يكون للحيوان غذاء يستطيع البشر توفيره، وأن يكون له معدل نمو سريع، وأن يكون راغبا في التوالد في الأسر، وأن تكون له نزعة لأن يكون طيعا، وبنية اجتماعية تتضمن سلوكا مدعنا تجاه المسيطرين من الحيوانات والبشر، وألا يكون لديه نزوع للرعب عندما يحاط بسياج. قام البشر منذ آلاف السنين بتدجين كل ما يمكن من الأنواع الثديية البرية الكبيرة التي تفي بكل هذه المعايير وتستحق تدجينها، ونتج عن ذلك أنه لم يعد هناك في الأزمنة الحديثة أي إضافة لها قيمتها للحيوانات الداجنة، وذلك على الرغم من جهود العلم الحديث.

انتهت أوراسيا بالتوصل إلى أكبر عدد من أنواع الحيوانات الداجنة وذلك في جزء منه بسبب أنها أكبر كتلة أرضية في العالم وتقدم منذ البداية أكبر عدد من الأنواع المتوحشة. هذا الاختلاف الموجود من قبل تم تضخيمه منذ ١٣٠٠٠ سنة عند نهاية آخر عصر جليدي، وذلك عندما حدث أن انقرضت معظم الأنواع الثديية الكبيرة في أمريكا الشمالية والجنوبية، وربما بدأ القضاء عليها على يد أول الهنود الوافدين. ونتيجة ذلك أن ورث الأمريكيون المحليون الأنواع الثديية البرية كبيرة

الحجم بأعداد أقل كثيرا مما ورثه الأوراسيون، بحيث لم يصبح مدجنا لديهم إلا اللاما^(١٢) والألباكة^(١٣). هناك اختلافات بين العالم الجديد والعالم القديم في النباتات الداجنة وخاصة في الحبوب ذات البذور الكبيرة، وهى اختلافات تماثل نوعيا تلك الاختلافات بين الثدييات الداجنة، وإن لم يكن الفارق بالغ التطرف هكذا.

أحد الأسباب الأخرى لوجود تنوع محلى أكبر للنباتات والحيوانات الداجنة فى أوراسيا، أن محور أوراسيا الرئيسى يمتد فى اتجاه الشرق/الغرب، بينما المحور الرئيسى للأمريكتين هو باتجاه الشمال/الجنوب. يعنى وجود محور أوراسيا فى اتجاه الشرق/الغرب أن الأنواع التى تدجن فى أحد أجزاء أوراسيا تستطيع بسهولة أن تنتشر لآلاف الأميال عند خط العرض نفسه، حيث تلقى نفس المناخ وطول النهار اللذين تكيفت معهما من قبل. ونتج عن ذلك أن الدجاج والموايح التى دجنت فى جنوب شرق آسيا قد انتشرت سريعا متجهة غربا إلى أوروبا؛ أما الخيل التى دجنت فى أوكرانيا فقد انتشرت سريعا متجهة شرقا إلى الصين؛ كذلك فإن ما دجن فى الهلال الخصيب من غنم، وماعز، وماشية، وقمح، وشعير، كلها انتشرت سريعا إلى الغرب والشرق معا. وعلى عكس ذلك فإن محور الشمال/الجنوب للأمريكتين يعنى أن الأنواع التى تدجن فى إحدى المناطق لا تستطيع أن تنتشر بعيدا حيث ستلقى مناخات وأطوال نهار لم تتكيف معها. ونتج عن ذلك أن السديك الرومى لم ينتشر قط من موقع تدجينه فى المكسيك إلى الأنديز؛ وأن اللاما والألباكة لم تنتشر قط فى الأنديز إلى المكسيك، بحيث ظلت الحضارات الهندية فى أمريكا الوسطى والشمالية وهى ليس لديها مطلقا حيوانات حمل؛ واستغرق الأمر آلاف السنين حتى يمكن تعديل الذرة التى تطورت فى مناخ المكسيك لتصبح ذرة متكيفة لموسم النمو القصير ولطول النهار الذى يتغير موسميا فى أمريكا الشمالية.

ترجع أهمية نباتات وحيوانات أوراسيا المدجنة لأسباب عديدة أخرى إلى جانب ما أتاحته للأوروبيين من تنمية جراثيم شريرة. تعطى النباتات والحيوانات

(١٢) اللاما: حيوان ثديى فى أمريكا الجنوبية داجن ومجتز ويشبه الجمل، يستخدم فى نقل الأحمال، وصنع الصوف. (المترجم)

(١٣) الألباكة: حيوان ثديى فى أمريكا الجنوبية يشبه اللاما وله صوف ناعم طويل. (المترجم)

الداجنة محصولا من السعرات الحرارية لكل أكر^(١٤) أكبر كثيرا مما تعطيه مواطن البيئة البرية حيث تكون معظم الأنواع فيها غير صالحة لأكل البشر. وينتج عن ذلك أن الكثافة السكانية للمزارعين والرعاة تكون نمطيا أكبر مما عند الصيادين/جامعى الثمار بما يصل إلى ما بين ١٠ إلى ١٠٠ مثل. تفسر لنا هذه الحقيقة وحدها السبب فى أن المزارعين والرعاة فى كل مكان من العالم قد تمكنوا من أن يطردوا الصيادين/جامعى الثمار بعيدا عن الأرض المناسبة للزراعة والرعى. أدت الحيوانات الداجنة إلى تئوير النقل فى الأرض. كما أنها ثورت أيضا من الزراعة، بأن أتاحت للمزارع أن يحرث وأن يسمد أرضا قدرها أكبر كثيرا مما كان يستطيعه بجهوده الخاصة. كذلك فإن مجتمعات الصيادين/جامعى الثمار تتحو إلى المساواة وإلى ألا يكون لها تنظيم سياسى يتجاوز مستوى العصبة أو القبيلة، فى حن أن وجود فوائض وتخزين للطعام، وهما أمران جعلتهما الزراعة ممكنين، قد أتاح تطوير مجتمعات فى طبقات، ولها مركزية سياسية ونخبة حاكمة. كما أن فوائض الطعام هذه قد عجلت من تطوير التكنولوجيا، بأن كفلت عيش الحرفيين الذين لا يزرعون طعامهم الخاص واستطاعوا بدلا من ذلك أن يكرسوا أنفسهم لتطوير التعدين، والكتابة، والسيوف، والمدافع.

هكذا بدأنا بتعيين سلسلة من التفسيرات القريبة - المدافع، والجرائم وما إلى ذلك - عن فتح الأوروبيين للأمريكتين. فيما يبدو لى، فإن هذه العوامل القريبة يمكن فى النهاية إرجاع جزء كبير منها إلى ما يوجد فى العالم القديم من عدد أكبر من النباتات الداجنة، وعدد أكبر كثيرا من الحيوانات الداجنة، وما يوجد من محور اتجاهه الشرق/الغرب. هذه السلسلة من الأسباب تعد أسبابا مباشرة لأقصى حد فى تفسيرها لما عند العالم القديم من المزايى فى الخيل والجرائم الشريرة. على أن النباتات والحيوانات الداجنة أدت أيضا على نحو يزيد اتصافه بأنه غير مباشر، إلى تميز أوراسيا بالمدافع، والسيوف، والسفن عابرة المحيط، والتنظيم السياسى، والكتابة، وكلها منتجات لمجتمعات كبيرة وكثيفة ومستقرة وذات طبقات، مجتمعات جعلتها الزراعة ممكنة.

(١٤) الأكر: وحدة قياس لمساحة الأرض تقرب من الفدان المصرى "أربعة آلاف متر مربع". (المترجم)

دعنا بعد ذلك نفحص ما إذا كانت هذه الخطة المستقاة من اصطدام الأوروبيين بالأمريكيين المحليين ستفيدنا في فهم النمط الأوسع للتاريخ الأفريقي، الذى سألخصه فى خمس دقائق. سوف أركز على تاريخ أفريقيا ما تحت الصحراء، لأنها كانت معزولة عن أوراسيا ببعد المسافة والمناخ انعزالا أكبر كثيرا من شمال أفريقيا الذى يرتبط تاريخه ارتباطا وثيقا بتاريخ أوراسيا. ها نحن ننطلق ثانية:

سبق أن سألنا عن السبب فى أن كورتيز قد غزا المكسيك قبل أن يستطيع مونتزوما أن يغزو أوروبا، ونستطيع بمثل ذلك تماما أن نسأل عن السبب فى أن الأوروبيين قد استعمروا أفريقيا ما تحت الصحراء قبل أن يستطيع سكان ما تحت الصحراء استعمار أوروبا. كانت العوامل القريبة هى العوامل المألوفة نفسها من البنادق، والصلب، والسفن عابرة المحيط، والتنظيم السياسى، والكتابة. ولكننا نستطيع أن نسأل مرة ثانية عن السبب فى أن المدافع والسفن وما إلى ذلك قد انتهت إلى أن تتطور فى أوروبا بدلا من أفريقيا ما تحت الصحراء. سيكون هذا السؤال محيرا بالذات بالنسبة لمن يدرس التطور البشرى، لأن البشر ظلوا يتطورون فى أفريقيا لزمان أطول مما فى أوروبا بملايين السنين، بل وربما حتى يكون الهوموسابينز الحديث تشرحيا قد وصل إلى أوروبا قادما من أفريقيا خلال آخر خمسين ألف سنة لا غير. لو كان الزمن عاملا حاسما فى تطور المجتمعات البشرية لكان ينبغى لأفريقيا أن تنعم بفارق هائل من البداية المبكرة والتميز على أوروبا.

مرة أخرى نجد أن النتيجة تعكس اختلافات بيوجغرافية من حيث ما هو متاح من أنواع الحيوانات والنباتات البرية القابلة للتدجين. إذا أخذنا أولا الحيوانات الداجنة، سنجد أن من المذهل أن الحيوان الوحيد الذى دجن فى أفريقيا ما تحت الصحراء هو طير الدجاج الحبشى (الغرغر). أما كل ثدييات أفريقيا الداجنة - الماشية، والأغنام، والماعز، والخيول وحتى الكلاب - كلها دخلت أفريقيا ما تحت الصحراء من الشمال، من أوراسيا أو من شمال أفريقيا. يبدو الأمر لأول وهلة مدهشا، لأننا الآن نفكر فى أفريقيا على أنها قارة الثدييات البرية الكبيرة. والحقيقة أنه قد ثبت أنه لا يوجد أى نوع من تلك الأنواع الشهيرة من ثدييات

أفريقيا البرية الضخمة قابل للتدجين. فكلها لاتصلح لذلك بسبب إحدى المشاكل أو الأخرى، مثل وجود تنظيم اجتماعي غير ملائم، والسلوك الذي لا يقبل أن يكون طيعا، ومعدل النمو البطيء، وما إلى ذلك. وليفكر القارئ فحسب فيما كان يحتمل أن يصير إليه مسار تاريخ العالم لو أن خرائيت أفريقيا وأفراس نهرها سلمت أنفسها للتدجين! لو كان هذا في الإمكان، لأدى إلى أن يتمكن الفرسان الأفريقيون الذين يمتطون الخرائيت أو أفراس النهر من فرم لحوم الفرسان الأوروبيين الذين يمتطون الخيل. ولكن هذا ما كان يمكن له أن يحدث.

وبدلا من ذلك نجد كما ذكرت أن الحيوانات الداجنة التي اتخذتها أفريقيا كانت أنواعا أوراسية أتت لأفريقيا من الشمال. يتجه محور أفريقيا الرأسي مثله مثل الأمريكتين في اتجاه الشمال / الجنوب بدلا من الشرق / الغرب. هكذا فإن تلك الثدييات الداجنة الأوراسية انتشرت ببطء شديد جدا في أفريقيا متجهة للجنوب، ذلك أنها كان عليها أن تتكيف مع مناطق مناخية مختلفة ومع أمراض حيوانية مختلفة.

يفرض محور الشمال / الجنوب صعوبات على انتشار الأنواع الداجنة هي بالنسبة للمحاصيل الأفريقية أكثر إذ هالما مما بالنسبة للحيوانات الداجنة. دعنا نتذكر أن مصادر الغذاء في مصر القديمة كانت محاصيل الهلال الخصيب والبحر المتوسط مثل القمح والشعير، وهي محاصيل تتطلب أمطارا شتوية وتغيرات موسمية في طول النهار ليتم إنباتها. لم تتمكن هذه المحاصيل من الانتشار جنوبا في أفريقيا بما يتجاوز الحبشة، حيث الأمطار بعدها تأتي في الصيف، ولا يوجد إلا القليل من التغير الموسمي في طول النهار أو أنه لا يتغير مطلقا. وهكذا نجد بدلا من ذلك أنه أصبح على تطور الزراعة فيما تحت الصحراء أن ينتظر حدوث التدجين لأنواع النباتات الأفريقية المحلية مثل السرغوم والدخن^(١٥) التي تكيفت مع ما في أفريقيا الوسطى من أمطار صيفية وطول ثابت نسبيا للنهار. ومما يثير السخرية، أن هذه المحاصيل لأفريقيا الوسطى كانت للسبب نفسه غير قادرة على الانتشار جنوبا إلى منطقة البحر المتوسط في جنوب أفريقيا، حيث نجد مرة أخرى

(١٥) السرغوم نبات كالذرة له عصارة سكرية، والدخن من نباتات الحبوب. (المترجم)

أن ما يسود هناك هو الأمطار الشتوية والتغيرات الموسمية الكبيرة فى طول النهار. وهكذا فإن تقدم المزارعين الأفريقيين المحليين جنوبا ومعهم محاصيل أفريقيا الوسطى قد توقف فى ناآال، حيث لا تستطيع محاصيل أفريقيا الوسطى أن تنمو فيما بعدها، وكان لهذا نتائج هائلة بالنسبة للتاريخ الحديث لأفريقيا الجنوبية.

وباختصار فإن وجود محور الشمال /الجنوب هو وندرة أنواع النبات والحيوان البرية الملائمة للتدجين كان لهما تأثيرهما الحاسم فى التاريخ الأفريقى، بمثل ما كان لهما فى التاريخ الأمريكى المحلى. وعلى الرغم من أن الأفريقيين المحليين قد دجنوا بعض النباتات فى منطقة "الساحل" وفى الحبشة، وغرب أفريقيا الاستوائى، فإنهم لم يحصلوا على حيوانات داجنة لها قيمتها إلا لاحقا، ومن الشمال. نتج عن ذلك ما للأوروبيين من تميز فى المدافع، والسفن، والتنظيم السياسى، والكتابة، وهى مزايا أتاحَت للأوروبيين استعمار أفريقيا وليس أن يستعمر الأفريقيون أوروبا.

دعنا الآن نختتم جولتنا العاصفة حول كوكبنا بأن نكرس دقيقتين للقارة الأخيرة، وهى أستراليا. ها نحن ننطلق ثانية للمرة الأخيرة:

كانت أستراليا فى الأزمنة الحديثة القارة الوحيدة التى مازال يسكنها صيادون/جامعو ثمار. وهذا يجعل من أستراليا اختبارا حرجا لأى نظرية حول الاختلافات القارية فى تطور المجتمعات البشرية. لم يكن لدى أستراليا المحلية أى مزارعين أو رعاة، ولا أى كتابة، أو أدوات معدنية، ولا أى تنظيم سياسى يتجاوز مستوى القبيلة أو العصابة. وهذه ولا ريب هى الأسباب فى أن المدافع والجراثيم الأوروبية قد دمرت المجتمع الأبورجيني الأسترالى. ولكن ما السبب فى أن كل الأستراليين المحليين بقوا من الصيادين/جامعى الثمار؟

هناك ثلاثة أسباب واضحة. الأول، أنه حتى يومنا هذا لم يثبت وجود أى نوع من الحيوانات الأسترالية المحلية ملائم للتدجين، ولم يثبت بالنسبة للنباتات إلا وجود نوع واحد ملائم هو (جوز ماكاداميا). ولا يوجد حتى الآن أى كانجرو مدجن.

والسبب الثاني، أن أستراليا هي أصغر قارة، وهي في معظمها لا تستطيع أن تعيل إلا عددا صغيرا من السكان البشر بسبب قلة سقوط المطر وقلة الإنتاجية. وبالتالي فإن العدد الإجمالي للصيادين/جامعي الثمار الأستراليين كان فقط ما يقرب من ٣٠٠٠٠٠.

وأخيرا فإن أستراليا هي القارة الأكثر انعزالا. لم يكن هناك اتصالات خارجية للأستراليين الأبورجينيين إلا اتصالات واهية عبر الماء مع سكان غينيا الجديدة والأندونيسيين.

حتى تكون لدينا فكرة عن أهمية صغر عدد السكان والعزلة في معدل التطور في أستراليا، هيا ننظر أمر جزيرة تسمانيا الأسترالية، التي يوجد فيها مجتمع بشري هو الأكثر غرابة في العالم الحديث. تسمانيا جزيرة ذات حجم متواضع، ولكنها كانت أقصى نقطة خارجية لأقصى القارات تطرفا في بعدها، وتسمانيا تلقي ضوءا كاشفا على قضية كبيرة في تطور كل المجتمعات البشرية. تقع تسمانيا على بعد ١٣٠ ميلا جنوب شرق أستراليا. عندما زارها الأوروبيون لأول مرة في ١٦٤٢، كانت تسمانيا يشغلها ٤٠٠ من الصيادين/جامعي الثمار الذين لهم صلة قرابة بالأستراليين في البر الرئيسي، ولكنهم لديهم أبسط تكنولوجيا لدى أي شعب حديث فوق كوكب الأرض. وعلى عكس الأستراليين الأبورجينيين في البر الرئيسي، نجد أن التسمانيين كانوا لا يستطيعون إشعال نار؛ وليس لديهم "بوميرانج"^(١٦)، أو قاذفات للرماح، أو دروع، وليس عندهم أدوات من العظام، ولا أدوات حجرية تخصصية، وليس لديهم أدوات معقدة مثل رأس فأس مثبتة على مقبض؛ وهم لا يستطيعون قطع شجرة لإسقاطها ولا أن يجوفوا قارب كانوا من الخشب؛ وكان ينقصهم الخياطة لصنع ملابس مخططة، وذلك على الرغم من مناخ تسمانيا الشتوي البارد الذي يصحبه الثلج؛ ومما لا يمكن أن يصدق أن التسمانيين على الرغم من أنهم يعيشون في معظمهم على ساحل البحر، فإنهم لا يستطيعون صيد السمك أو أكله. كيف نشأت كل هذه الفجوات الهائلة في مادة نسيج الثقافة التسمانية؟

(١٦) البوميرانج قطعة خشب ملوثة لرشق الأهداف ومنها نوع يرتد إلى راميهِ. (المترجم)

تتبع الإجابة من حقيقة أن تسمانيا كانت فيما مضى متحدة بالمنطقة الجنوبية من البر الرئيسي الأسترالى عند الأزمنة البليستوسينية^(١٧) التى كان مستوى البحر فيها منخفضا، ثم قطع هذا الجسر الأرضى بارتفاع مستوى البحر منذ ١٠٠٠٠ سنة. انطلق الناس إلى تسمانيا منذ عشرات الآلاف من السنين عندما كانت لا تزال جزءا من أستراليا. وما إن قطع ذلك الجسر الأرضى حتى انقطع تماما أى اتصال للتسمانيين بعد ذلك مع الأستراليين فى البر الرئيسي أو مع أى شعب آخر فوق كوكب الأرض حتى وصل الأوروبيون فى ١٦٤٢، وسبب ذلك أن التسمانيين والأستراليين فى البر الرئيسي كانوا معا تنقصهم الحرفية المانية التى لها القدرة على اجتياز ذلك المضيق الذى لا يتجاوز ١٣٠ ميلا بين تسمانيا وأستراليا. التاريخ التسمانى هو هكذا دراسة لحالة انعزال بشرى غير مسبقة إلا فى روايات الخيال العلمى، ذلك أنه انعزال كامل عن البشر الآخرين استمر لعشرة آلاف سنة. تسمانيا لديها أصغر عدد سكان وأكثرهم انعزالا فى العالم. إذا كان هناك أى تأثير لحجم السكان وانعزالهم فى مدى تراكم الاختراعات، ينبغى أن نتوقع أن نرى هذا التأثير فى تسمانيا.

إذا كانت كل تلك التكنولوجيات التى ذكرتها سابقا غائبة عن تسمانيا ولكنها موجودة على البر الرئيسي الأسترالى المقابل لها، وقد اخترعها الأستراليون خلال آخر عشرة آلاف عام، فإننا نستطيع بكل تأكيد أن نستنتج على الأقل أن هذا العدد الضئيل من سكان تسمانيا لم يخترعوها على نحو مستقل. بل إن سجل الآثار يبرهن على نحو مذهل على شىء أبعد من ذلك: نبذ التسمانيون بالفعل بعض التكنولوجيات التى جلبوها معهم من أستراليا والتى ظلت باقية على البر الرئيسي الأسترالى. من ذلك مثلا أن الأدوات المصنوعة من العظام هى وممارسة صيد السمك كانا موجودين معا فى تسمانيا فى الوقت الذى قطع فيه الجسر الأرضى، وهما معا قد اختفيا من تسمانيا حوالى ١٥٠٠ ق. م. يمثل هذا خسارة تكنولوجيات لها قيمتها: كان يمكن حفظ السمك بالتدخين لتوفير متونة الطعام فى الشتاء، وكان يمكن أن تستخدم الآن إير من العظام لحياكة ملابس دافئة.

(١٧) عصر البليستوسين: سادس عصور حقبة الحياة الحديثة وانقرضت فى أثنائه الثدييات العظيمة وبزغ فجر الثقافة الفكرية والصناعية. وقد بدأ منذ حوالى مليون سنة. (المترجم)

أى معنى يمكن أن تفهمه من هذه الخسائر الثقافية؟

التفسير الوحيد الذى يمكن أن يكون له معنى عندى هو كالتالى: أولاً، التكنولوجيا إما أنها مما يجب أن يخترع، أو أنها يجب أن تتخذ. تختلف المجتمعات البشرية فى الكثير من العوامل المستقلة التى تؤثر فى تفاتها للابتكار. كلما زاد السكان البشر وزادت المجتمعات الموجودة فوق إحدى الجزر أو القارات، زادت فرصة أن يتم تصور أى اختراع بعينه وأن يتم اتخاذه فى بعض مكان هناك.

ثانياً، سنجد بالنسبة لكل المجتمعات البشرية، فيما عدا مجتمعات تسمانيا المعزولة عزلاً كاملاً، أن معظم الابتكارات التكنولوجية تنتشر من الخارج للداخل بدلاً من أن يتم اختراعها محلياً، وبالتالي فإن المرء يتوقع أن يجرى تطور التكنولوجيا بمعدل أكثر سرعة فى المجتمعات التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمعات الخارجية.

وأخيراً فإن التكنولوجيا لا يقتصر أمرها على أنها يجب اتخاذاً، وإنما يجب أيضاً الحفاظ عليها. تمر كل المجتمعات البشرية بفترات سرعات يحدث فيها مؤقتاً أنها إما أن تتخذ ممارسات قليلة النفع أو أن تتبذ ممارسات لها نفع مهم. وكلما بزغ تابو من هذا النوع غير المعقول اقتصادياً فى منطقة يوجد بها مجتمعات بشرية كثيرة متنافسة، فإن بعض هذه المجتمعات فقط سوف يتخذ هذا التابو فى وقت معين. أما المجتمعات الأخرى فسوف تحتفظ بالممارسات المفيدة وإما أنها ستتفوق فى منافسة وطرد المجتمعات التى خسرت هذه الممارسات، أو أنها ستظل موجودة هناك كنموذج للمجتمعات ذات التابوهات لتتحسر على خطئها وتعيد اكتساب هذه الممارسات. لو كان التسمانيون قد بقوا متصلين بالآستراليين فى البر الرئيسى، لأمكنهم أن يعيدوا اكتشاف ما خسروه من قيمة وتكنيكات صيد السمك وصنع الأدوات من العظام. ولكن هذا ما كان يمكن أن يحدث مع الانعزال التام لتسمانيا، حيث أصبحت الخسائر الثقافية لا عكسية.

وباختصار فإن رسالة ما يوجد من اختلافات بين المجتمعات التسمانية ومجتمعات البر الرئيسى الأسترالية هى فيما يبدو كالتالى: عندما تتساوى كل

العوامل الأخرى يكون معدل الاختراع البشرى أسرع، ومعدل الخسائر الثقافية أبطأ فى المناطق التى تشغلها مجتمعات كثيرة متنافسة ويكون فيها أفراد كثيرون وتكون على اتصال بالمجتمعات التى فى أماكن أخرى. إذا كان هذا التفسير صحيحا، فإن من المرجح أن تكون له أهمية أوسع كثيرا. فهو فيما يحتمل يوفر جزءا من تفسير السبب فى أن الأستراليين المحليين، الموجودين على أصغر قارة فى العالم وأكثرها انعزالا، بقوا وهم يعيشون كصيادين/جامعى ثمار من العصر الحجري، فى حين أن شعوب القارات الأخرى كانوا يتخذون لأنفسهم الزراعة والمعادن. ومن المرجح أيضا أن هذا التفسير يسهم فى الاختلافات التى سبق أن ناقشتها والتى توجد بين مزارعى أفريقيا ما تحت الصحراء، والمزارعين فى الأمريكتين الأكبر حجما بكثير، ومزارعى أوراسيا التى تظل هى الأكبر.

من الطبيعى أنه توجد عوامل مهمة كثيرة فى تاريخ العالم لم يكن لدى الوقت الكافى لتناولها باستفاضة. وعلى سبيل المثال لم أذكر إلا القليل، أو لم أذكر شيئا، عن توزيع النباتات الداجنة؛ وعن الطريقة الدقيقة التى تعتمد بها المؤسسات السياسية المعقدة على الزراعة والرعى، أو التى يعتمد بها تطوير الكتابة والتكنولوجيا والعقيدة المنظمة على الزراعة والرعى؛ وعن الأسباب الرائعة للاختلافات داخل أوراسيا بين الصين والهند، والشرق الأدنى، وأوروبا؛ وعن التأثير فى التاريخ بواسطة الأفراد وبواسطة الاختلافات الثقافية التى لا تتعلق بالبيئة. على أنه قد حان الآن الوقت لأن ألخص المعنى العام لهذه الجولة العاصفة خلال تاريخ الإنسان، مع ما فيه من عدم المساواة فى توزيع المدافع والجرائم.

النمط الأعرض للتاريخ - أى ما يوجد من اختلافات بين المجتمعات البشرية فوق القارات المختلفة - هو فيما يبدو لى مما يمكن إرجاعه إلى الاختلافات بين بيئات القارات وليس إلى اختلافات بيولوجية بين الناس أنفسهم. ونجد بوجه خاص، أن مدى إتاحة أنواع النباتات والحيوانات البرية الملائمة للتدجين والسهولة التى يمكن بها لهذه الأنواع أن تنتشر دون أن تواجه مناخات غير ملائمة، هذا كله أسهم إسهاما حاسما فى اختلاف معدلات نهضة الزراعة

والرعى؛ وهذا بدوره أسهم إسهاما حاسما فى تزايد عدد السكان البشر، وكثافة السكان، وفائض الطعام؛ وهذا بدوره أسهم إسهاما حاسما فى تطور أوبئة الأمراض المعدية، والكتابة، والتكنولوجيا، والتنظيم لسياسى. وبالإضافة، فإن تاريخى تسمانيا وأستراليا ينبهاننا إلى أن وجود المناطق المختلفة وانعزال القارات، بما يؤدىان إليه من تعيين عدد المجتمعات المتنافسة، قد يكون فيهما عامل مهم آخر فى تطور البشر.

وبصفتى بيولوجى يمارس علما معمليا تجريبيا، فإنى أدرك أن بعض العلماء قد ينحون إلى رفض هذه التفسيرات التاريخية باعتبارها تخمينات لا تقبل الإثبات لأنها لا تتأسس على تجارب معملية تقبل التكرار. ومن الممكن أن يثار هذا الاعتراض نفسه إزاء أى من العلوم التاريخية، بما فى ذلك علم الفلك، والبيولوجيا التطورية، والجيولوجيا، والبايونتولوجيا^(١٨). ولا ريب أن هذا الاعتراض يمكن أن يثار إزاء كل مجال التاريخ ومعظم العلوم الاجتماعية الأخرى. وهذا هو السبب فى إحساننا بالضيق حول اعتبار التاريخ واحدا من العلوم. يصنف التاريخ كعلم اجتماعى، وهذا يعتبر أنه ليس علميا تماما. ولكن دعنا نذكر أن كلمة "علم" ليست مستقاة من الكلمة للاتينية التى تعنى "تجربة معملية قابلة للتكرار" ولكنها مستقاة من الكلمة اللاتينية Scientia التى تعنى "المعرفة". نحن فى العلم نلتزم المعرفة بأى من المنهجيات المتاحة المناسبة. هناك مجالات كثيرة لا يتردد أحد فى اعتبار أنها من العلوم، حتى وإن كانت التجارب المعملية القابلة للتكرار تعد فى هذه المجالات غير أخلاقية، أو غير قانونية، أو مستحيلة. نحن لا نستطيع أن نبدأ وننتهى عصور الجليد؛ ونحن لا نستطيع إجراء تجارب بتصميم وتطوير الديناميكيات. ومع ذلك مازال فى استطاعتنا أن نكتسب قدرا مهما من نفاذ البصيرة فى هذه المجالات التاريخية باستخدام وسائل أخرى. وإذن، فإننا فيما ينبغى نستطيع ولا ريب أن نفهم التاريخ البشرى، لأن الاستبطان والكتابات المحفوظة تمنحنا نفاذ بصيرة بالنسبة للطرائق التى اتبعها البشر السالفون إلى حد أبعد كثيرا مما لدينا بالنسبة للطرائق

(١٨) البايونتولوجيا: علم يبحث أشكال الحياة فى العصور الجيولوجية كما تتمثل فى الحفريات الحيوانية والنباتية. (المترجم)

التي اتبعتها الديناصورات السالفة. وأنا لهذا السبب متفائل بأننا سوف نستطيع في النهاية أن نتوصل إلى تفسيرات مقنعة لهذه الأنماط الأعرض لتاريخ الإنسان.

فهم بيولوجى للطبيعة البشرية

ستيفن بنكر^(١٩)

أعتقد أن هناك نظرية شبه عقائدية عن الطبيعة البشرية تسود بين سدنة العلم وبين المثقفين، وتشمل هذه النظرية افتراضات إمبريقية عن الطريقة التى يعمل بها العقل كما تشمل أيضا مجموعة من القيم تجعل الناس يتمسكون بهذه الافتراضات. لهذه النظرية ثلاثة أجزاء: الصفحة البيضاء؛ أى أننا ليس لدينا ما هو متأصل من المواهب أو الأمزجة لأن العقل يتشكل على نحو كلى بالبيئة (الوالدية، والثقافة، والمجتمع). والجزء الثانى هو أسطورة "المتوحش النبيل"؛ وهى أن الدوافع الشريرة ليست متأصلة فى الناس ولكنها تنشأ عن المؤسسات الاجتماعية المفسدة. والجزء الثالث هو "الشبح الموجود فى الماكينة"؛ وهو أن أهم جزء فىنا هو على نحو ما مستقل عن بيولوجيتنا، بحيث إن قدرتنا على الحصول على الخبرات وصنع الخيارات لا يمكن تفسيرها بتركيبنا الفيزيولوجى ولا بتاريخنا التطورى.

(١٩) ستيفن بنكر باحث فى علم النفس، وهو أستاذ كرسى ستيفن دى. فلورنزا فى قسم علوم المخ والادراك فى معهد ماسا تشوستس، ولكنه له حبا، ومهارة فى قابلية اللغة للتعلم وتنامى اللغة؛ "قابلية التعلم والادراك"؛ "غريزة اللغة"؛ وكيف يعمل العقل؛ وكلمات وقواعد؛ و"الصفحة البيضاء: الإنكار الحديث للطبيعة البشرية".

ما السبب فى أن الأسئلة الإمبريقية عن طريقة عمل العقل قد قلت أهميتها هكذا فى محتوى النظريات السياسية والأخلاقية والانفعالية؟ لماذا يعتقد الناس أن هناك تضمينات خطيرة فى فكرة أن العقل نتاج المخ، وأن المخ ينتظم جزئيا بواسطة الجينوم، وأن الجينوم قد شكله الانتخاب الطبيعي؟ قوبلت هذه الأفكار بمظاهرات، وإعلانات شجب، وإضرابات، ومقارنات بالنازية، سواء من اليمين أو اليسار. تؤثر هذه التفاعلات فى سلوك العلم يوما بيوم وكذلك فى تقدير الجمهور للعلم. ونحن عندما نستكشف التلويحات السياسية والأخلاقية للاكتشافات التى تبحث القوة الدافعة لأداء معين من السلوك أو التفكير... إلخ، فإننا نستطيع عندها أن يكون لدينا علم أكثر أمانة ووسط ثقافى أقل إثارة للخوف.

من الصعب أن نكتشف الحقيقة عندما تكون بعض الافتراضات بالفعل من نوع العربة التى تولد الكهرباء - لو أنك لمستها تموت. من الأمثلة الواضحة لذلك البحث فى الوالدية. أجرت مئات الدراسات قياسا لما يوجد من علاقات ارتباط بين ممارسات الوالدين والطريق الذى ينتهى إليه أطفالهم. وكمثل فإن الوالدين الذين يكثر من التحدث إلى أطفالهم يكون لدى أولادهم مهارات لغوية أفضل، والوالدون الذين يستعملون الضرب بقسوة ينمو أطفالهم ليكونوا عنيفين، أما والدون الذين لا يكونوا جد مسيطرين ولا جد متساهلين فيكون لديهم أطفال متكيفون جيدا، وهلم جرا. معظم ما فى مهنة خبراء الوالدية والكثير مما فى السياسة الحكومية، يحول علاقات الارتباط هذه إلى نصائح للوالدين ويلقى بالمسئولية على الوالدين عندما لا ينتهى الأمر بالأطفال إلى أن يكونوا كما يحبون لهم. إلا أن وجود علاقة ارتباط لا يدل على علاقة سببية. والودون يزودون أطفالهم بالجينات وكذلك أيضا بالبيئة، وهكذا فإن حقيقة أن الوالدين الثرارين يكون أطفالهم بمهارات لغوية جيدة يمكن أن تعنى ببساطة أن الجينات نفسها التى جعلت الوالدين ثرارين تجعل أطفالهم واضحين فى التعبير. مالم نكرر هذه الدراسات على الأطفال المتبنين، الذين لا يحصلون على جيناتهم من الناس الذين يربونهم، فإننا لن نعرف قبل ذلك ما إذا كانت علاقات الارتباط تعكس تأثير الوالدية، أو تعكس تأثير الجينات المشتركة، أو بعض مزيج من الاثنين. إلا أننا نجد أنه فى

معظم الحالات، يعتبر حتى مجرد الاحتمال بأن علاقات الارتباط تعكس جينات مشتركة وكأنه نوع من التابو. يعتبر علم نفس التنامي أن من سوء الأدب مجرد ذكر ذلك، ناهيك عن أن تختبره.

معظم المتقنين الآن لديهم رهاب من أى تفسير للعقل فيه استشهاد بالوراثيات. وهم يخشون أربعة أمور: أولها أن هناك خوفا من عدم المساواة. سبب الجاذبية العظيمة فى المبدأ القائل بأن العقل صفحة بيضاء هو الحقيقة الرياضية البسيطة التى تقول إن الصفر يساوى صفرا. عندما نبدأ جميعا كصفحة بيضاء، فإن أحدا لا يستطيع أن تكون لديه مادة مكتوبة على صفحته أكثر من أى فرد آخر. أما إذا كنا نأتى إلى العالم وقد وهبنا مجموعة ثرية من القدرات العقلية، فإن هذه القدرات يمكن أن تعمل بطرائق مختلفة بين الناس، فتكون أفضل عند بعض الناس من غيرهم. وما يخشى هنا هو أن يفتح هكذا الباب للتمييز، أو الاضطهاد، أو تحسين النسل، أو حتى العبودية والإبادة العرقية. ولا ريب أن هذا كله ليس فيه ترتيب منطقي. وكما أوضح كتاب سياسيون كثيرون، فإن الالتزام بالمساواة السياسية ليس بالدعوى الإمبريقية بأن الناس نساخ. وإنما هو دعوى أخلاقية بأننا فى دوائر معينة نحكم على الناس كأفراد ولا نأخذ فى الحسبان المتوسط الحسابي للمجموعات التى ينتمون إليها. كما أنه إدراك أيضا بأنه مهما كان ما قد يوجد من اختلاف كبير بين الناس إلا أن لديهم أشياء معينة مشتركة بفضل ما لهم من طبيعة بشرية مشتركة. لا أحد يود أن يهان أو يضطهد أو يستعبد أو أن يكون محروما. المساواة السياسية تتكون، كما يقول إعلان الاستقلال (الأمريكي)، من الإقرار بأن الناس لديهم حقوق معينة لا تقبل الإحالة للغير؛ وهى الحياة، والحرية، والسعى للسعادة. والإقرار بهذه الحقوق ليس هو الشيء مثل الاعتقاد بأن الناس لا يمكن تمييزهم أحدهم عن الآخر بأى وجه.

وثانى ما نخشاه هو الخوف من عدم القابلية للكمال. إذا كان الناس مثقلين فطريا بعبء من خطايا وأخطاء معينة، مثل الأنانية، والتحيز، وقصر النظر، وخداع النفس، فإن الإصلاح السياسى سيبدو عندها مجرد إهدار للوقت. لماذا نحاول عندها أن نجعل العالم مكانا أفضل، إذا كان الناس فاسدين حتى النخاع،

وسيفسدون الأمور لا غير مهما كان ما سنفعله؟ طالما حدث من الأفراد المتعاطفين مع السياسات الثورية الرومانسية بستيديات وسبعينيات القرن العشرين - التى وفدت منها المعارضة الأولى للبيولوجيا الاجتماعية - أنهم ثاروا غضبا للزعم بأن أوجه القصور فى الطبيعة البشرية ربما تقيد تنظيماتنا الاجتماعية. وهذه مرة أخرى حاجة خطأ. نحن نعرف أن من الممكن وجود تحسن اجتماعى لأننا نعرف أنه قد "ظل" يوجد تحسن اجتماعى، مثل انتهاء العبودية، والتعذيب، والعداوات الدموية، والاستبداد، وتملك النساء، فى الديمقراطيات الغربية. من الممكن أن يحدث التغير الاجتماعى حتى إذا كانت الطبيعة البشرية ثابتة، لأن العقل منظومة معقدة من أجزاء كثيرة. قد تكون لدينا دوافع تغرينا بأداء أشياء مروعة؛ ولدينا أيضا دوافع يمكن أن يكون مفعولها مضادا لذلك. ونحن نستطيع أن نكتشف طرائق لإثارة إحدى الرغبات البشرية ضد الأخرى وبالتالي نحسن من حالنا، وذلك بالطريقة نفسها التى نعالج بها أمر القوانين الفيزيائية والبيولوجية (بدلا من إنكار وجودها) حتى نحسن من حالتنا الفيزيائية. نحن نحارب المرض، ونحتمى من الجو، وننمى المزيد من المحاصيل، ونستطيع أن نتعامل هكذا مع تنظيماتنا الاجتماعية أيضا.

أحد الأمثلة الجيدة لذلك هى ابتكار الحكومة الديمقراطية. وكما يحتاج ماديسون، فمع تأسيس الضوابط والتوازنات فى نظام سياسى، يكون لطموح أحد الأفراد مفعول مضاد لطموح الآخر. لا يعنى هذا أننا ربينا أو صنعنا بالتشارك الاجتماعى إنسانا جديدا خاليا من الطموح. وإنما نكون قد أنشأنا فحسب نظاما تبقى فيه هذه الطموحات محكومة.

أحد الأسباب الأخرى لكون الطبيعة البشرية ليست مما يستبعد التقدم الاجتماعى هو أن هناك معالم كثيرة من الطبيعة البشرية لها معلمات حرة. وقد أقر بذلك من زمن طويل فى حالة اللغة: بعض اللغات نستخدم صورة معكوسة لأنماط ترتيب العبارة الموجودة فى الإنجليزية ولكنها فيما عدا ذلك تعمل بالمنطق نفسه. وقد يكون لحسنا الأخلاقى معلم حر أيضا. يستطيع الناس فى كل الثقافات أن يحترموا ويتعاطفوا مع الناس الآخرين. والسؤال هو، مع "أى" أناس آخرين؟ قد

يكون وضع التخلف عن المشاركة في حسنا الأخلاقي هو أن يقتصر تعاطفنا مع الغير على أعضاء عشيرتنا أو قريتنا الخاصة بنا. يحدث على مر التاريخ كله أن يجرى تكيف الواحد من المتعالمين أو الوصوليين بحيث تأذن بإدخال جزء أكبر وأكبر من الإنسانية إلى دائرة الناس الذين نعتبر أن مصالحهم مماثلة لمصالحنا. ظلت الدائرة الأخلاقية تتسع من القرية أو العشيرة إلى القبيلة أو الدولة، واتسعت في أحدث عصورنا لتشمل كل الإنسانية، كما في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. هذه الملاحظة (وهي أصلا عن الفيلسوف بيتر سنجر) هي مثل على الطريقة التي يمكننا بها أن ننعم بالتحسينات الاجتماعية والتقدم الأخلاقي حتى وإن كنا مجهزين بقدرات محددة، طالما أن هذه القدرات تستطيع الاستجابة للمدخلات. في حالة الحس الأخلاقي، فإن المدخلات المتعلقة بالأمر قد تكون وعيا عالميا بالتاريخ وقصص الشعوب الأخرى، التي تتيح لنا أن نمثد بأنفسنا داخل خبرات أناس ربما كانوا بغير ذلك سيعاملون كمعاقين أو أعداء.

ثالث ما نخشاه هو الخوف من الحتمية: الخوف من أننا لن نتمكن بعد من أن نلقى المسؤولية على الأفراد بشأن سلوكهم لأنهم يستطيعون إلقاء مسؤولية هذا السلوك على مخهم أو جيناتهم أو تاريخهم التطوري، حافظ تطوري أو دفاع بالجين القاتل. هذا الخوف قد وضع في غير موضعه وذلك لسببين. الأول أن أسخف الأعداء للسلوك السيئ هي في الحقيقة ما يستشهد بالبيئة وليس البيولوجيا، ومثل ذلك عذر إساءة المعاملة الذي أنقذ الإخوة مينينديز من مأزقهم في أول محاكمة لهم، والدفاع "بالغضب الأسود" الذي استخدم في محاولة لتبرئة القاتل المحترف في طريق ريدبلونج أيلاند، وهناك الدفاع بأن "الفن الإباحي هو الذي جعلني أفعل ذلك" وهو الدفاع الذي يحاوله محامو المغتصبين. إذا كان هناك تهديد للمسؤولية، فهو لا يأتي من الحتمية البيولوجية وإنما من "أي" نوع من الحتمية، بما في ذلك التنشئة في الطفولة، ووسائل الإعلام، والتكيف الاجتماعي. إلا أن أيا من هذه الأمور ينبغي ألا يؤخذ جديا. فحتى لو كان هناك أجزاء من المخ تجبر الناس على أداء أفعال لأسباب مختلفة، فإن هناك أجزاء أخرى من المخ تستجيب للظروف المشروطة القانونية والاجتماعية التي نسميها "إلزام الأفراد بالمسؤولية عن

سلوكهم". وكمثل، لو أنى سرقت متجر خمر، سوف يلقي بى فى السجن، لو أنى خنت قرينتى، فإن أصدقائى وأقاربى وجيرانى سيعتقدون أنى جلف نذل ويرفضون أن تكون لهم أى علاقة بى. عندما نلزم الأفراد بالمسئولية عن أفعالهم، فنحن نطبق شروطا يمكن أن تؤثر فى أجزاء من المخ وتؤدى بالأفراد إلى كبت أفعال كان يمكن بغير ذلك أن ينفذوها. لا يوجد سبب يوجب علينا أن نوقف هذه الفاعلية التى تؤثر فى سلوك الناس - فعالية نظم الكبت بالمخ - لمجرد أننا على وشك أن نفهم المزيد عن نظم الإغراء.

الخوف الأخير هو الخوف من العدمية. إذا كان من المستطاع أن نبين أن كل دوافعنا وقيمنا هى نتاج فيزيولوجيا المخ، وهذه بدورها تشكلت بواسطة قوى التطور، وإذن (حسب هذا الخوف) فإن دوافعنا وقيمنا هذه ستكون مجرد أمور مزيفة، وليس فيها واقع موضوعى. فأنا لست من "الوجهة الواقعية" محبا لطفلى؛ وكل ما أفعله هو أنى أكاثر على نحو أنانى من جيناتى. لن تكون الزهور والفرشات وأعمال الفن جميلة جمالا حقيقيا؛ لقد تطور مخى لا غير ليعطينى إحساسا بالمتعة عندما يسقط نمط معين من الضوء على شبكيتى. الخوف هنا من أن البيولوجيا ستبين الزيف فى كل ما نتمسك بقدسيته. يتأسس هذا الخوف على الخلط بين طريقتين مختلفتين تماما فى تفسير السلوك. فما يسميه البيولوجيون بأنه تفسير "قريب" إنما يشير إلى ماله معنى بالنسبة لى، باعتبار ما أملكه من مخ. وعلى عكس ذلك فإن التفسير "النهائى" يشير إلى العمليات التطورية التى أعطتلى مخا له القدرة على أن تكون له هذه الأفكار والمشاعر. نعم، فالتطور (التفسير النهائى لعقولنا) عملية أنانية فيها قصر نظر، حيث يتم اختيار الجينات لقدرتها على تعظيم عدد نسخها هى نفسها. ولكن هذا لا يعنى أننا "نحن" أنانيون وقصار النظر، أو على الأقل لسا كذلك طول الوقت. لا يوجد أى شىء يمنع عملية الانتخاب الطبيعى للأنانية اللاأخلاقية من أن تطور كائننا اجتماعيا بمخ كبير وله حس أخلاقى معقد. هناك مثل قديم يقول إن الناس الذين يقدرون القوانين والمقاييس (السجق) حق قدرها ينبغى ألا يرونهما فى أثناء صنعهما. ويصدق الشىء نفسه على القيم

البشرية: فمعرفة طريقة صنعها قد يكون فيها ما يضلل إذا أنت لم تميز بين العملية ونتائجها. ليس من الضروري أن تبني الجينات الأنانية كأننا أنانياً.

وإذن، إذا كان الناس يخافون من الطبيعة البشرية، ما الذى يؤمنون به بدلاً منها؟ أعتقد أن هناك نظرية شبه عقائدية عن الطبيعة البشرية تسود بين سدنة العلم وبين المثقفين وتشمل هذه النظرية افتراضات إمبريقية عن الطريقة التى يعمل بها العقل كما تشمل أيضاً مجموعة من القيم تجعل الناس يتمسكون بهذه الافتراضات. لهذه النظرية ثلاثة أجزاء: قد ذكرت فيما سبق مبدأ "الصفحة البيضاء"، أى أننا ليس عندنا ما هو متأصل من المواهب أو الأمزجة لأن العقل يتشكل على نحو كلى بالبيئة (الوالدية، والثقافة، والمجتمع). والجزء الثانى هو أسطورة "المتوحش الجميل"، وهى أن الدوافع الشريرة ليست متأصلة فى الناس ولكنها تنشأ عن المؤسسات الاجتماعية المفسدة. والجزء الثالث هو "الشبح الموجود فى الماكينة"، وهو أن أهم جزء فىنا هو على نحو ما مستقل عن بيولوجيتنا، بحيث إن قدرتنا على الحصول على الخبرات وصنع الخيارات لا يمكن تفسيرها بتركيبنا الفيزيولوجى وتاريخنا التطورى.

يتزايد ما يحدث من تحدى لهذه الأفكار الثلاث بواسطة علوم العقل، والمخ، والجينات، والتطور. كما يزيد التمسك بها بسبب نهوضها بأمر الأخلاق والسياسة أكثر من أن يكون ذلك بسبب أى منطق إمبريقى. يعتقد الناس أن هذه المبادئ منفصلة على أسس أخلاقية وأن بديل ذلك هو منطقة محرمة ينبغى أن نتفادها بأى ثمن.

إلا أن "الصفحة البيضاء" قد تقوضت بسبب عدد من الاكتشافات. أحد هذه الاكتشافات نقطة منطقية بسيطة: مهما كانت أهمية التعلم والثقافة والمشاركة الاجتماعية فإنها كلها أمور لا تحدث بواسطة نوع من السحر. لابد من أن هناك دورة عمل فطرية تقوم بأداء التعلم، وتبدع الثقافة، وتكتسب الثقافة، وتستجيب لجهود المشاركة الاجتماعية. وما إن يحاول المرء تحديد ما تكونه هذه الميكانيزمات التعليمية حتى يجد أنه مجبر على أن يفترض وجود قدر كبير من بنية فطرية للعقل.

تقوضت " الصفحة البيضاء " أيضا نتيجة للوراثيات السلوكية، التي وجدت أن النصف على الأقل مما يوجد من تباين في الشخصية والذكاء داخل أحد المجتمعات يتأتى من وجود اختلافات في الجينات. وأكثر مثل درامى على ذلك هو أن التوائم المتطابقة التي تنفصل عند مولدها تكون بينها أوجه تماثل عجيبة فى المواهب والميول. تقوضت الصفحة البيضاء أيضا نتيجة السيكلوجيا التطورية والأنثروبولوجيا. وكمثل فإنه على الرغم مما لا يمكن إنكاره من وجود تباين بين الثقافات، فإننا نعرف الآن أن هناك مجموعة واسعة من الصفات الشاملة تتشارك فيها ثقافات العالم بآلافها الست. كذلك فقد بينت السيكلوجيا التطورية أن الكثير من دوافعنا لا يكون لها معنى بلغة من محاولاتنا من يوم لآخر لتعزيز عافيتنا بدنيا ونفسيا ولكنها يمكن تفسيرها بلغة من ميكانزم الانتخاب الطبيعي الذى تجرى عملياته فى البيئة التى نتطور فيها. أحد أمثلة ذلك التى تتصف نسبيا بأنها لاجلالية هى ميولنا للسكر والدهن، فقد كانت هذه ميولا تكيفية عندما كنا فى بيئة فيها نقص فى الإمداد بهذه العناصر الغذائية ولكنها ليست لها فائدة لأى فرد فى البيئة الحديثة، حيث تكون هذه العناصر رخيصة ومتاحة فى كل مكان. ولعل هناك مثل آخر لذلك أكثر اتصافا بأنه خلاقى، وهو التعطش العام للانتقام، الذى كان وسيلة الدفاع الوحيدة فى عالم لم يكن المرء يستطيع فيه أن يطلب رقم تليفون ليجعل الشرطة تظهر عندما تكون مصالح المرء مهددة. عندما يكون هناك أفراد تتعارض مصالحهم مع مصالح المرء، تكون وسيلته الوحيدة لردعهم هى أن يتخذ وضعاً قتاليا. والمثل الثالث هو ميلنا لشركاء زواج جذابين. وكما أوضح الحكماء منذ آلاف السنين، فإن المظهر البدنى ليس وسيلة تنبؤ جيدة لما سيكون عليه الزوجان من سعادة أو توافق. لا يصلح مدى تقوس أنف القرين أو شكل ذقنه للتنبؤ بمدى توافق الطرفين أحدهما مع الآخر فى باقى حياتهما. إلا أن السيكلوجيا التطورية قد بينت أن ملامح الجمال البدنية فيها تلميحات للصحة والخصوبة. ويمكن تفسير ضعفنا القاتل إزاء الشركاء الجذابين بلغة من تاريخنا التطورى، وليس بلغة من حساباتنا الشخصية عن العافية. تقوضت الصفحة البيضاء أيضا بواسطة علم المخ. من الواضح أن المخ لديه قدر كبير مما يسميه علماء الأعصاب بالدونة، أى بما

يتيح لنا التعلم. إلا أن أحدث الأبحاث تبين أن الكثير من خصائص المخ يتم تنظيمها وراثيا ولا تعتمد على المعلومات التي تأتي في شكل أحاسيس.

تقوض مبدأ "المتوحش النبيل" نتيجة ثورة في فهمنا للمجتمعات التي بلا دولة. يعتقد متقنون كثيرون أن العنف والحرب أمران نادران أو هما في شكل طقوسى عند الصيادين /جامعى الثمار، وإذا حدثت أى معركة كان ينادى بإيقافها بمجرد أن يسقط أول رجل. إلا أن الدراسات التي تحصى أجساد الموتى قد بينت أن معدلات القتل بين شعوب ما قبل التاريخ تزيد بعدة مرات أسية عما فى المجتمعات الحديثة، حتى عندما نأخذ فى الحسبان إحصاء ما جرى فى حربين عالميتين! لدينا أيضا براهين على أن هناك صفات شريرة تكون إلى حد كبير قابلة للوراثة مثل السيكوباتية^(٢٠)، ونزعات العنف، وانعدام الضمير الحى والشخصية المعادية. كذلك فإن هناك ميكانيزمات فى المخ تكون هى الأساس للعنف ومن المحتمل أنها مشتركة بين الرئيسيات. يطرح كل هذا أن ما نكرهه فيما يختص بنا لا يمكن أن نلقى بمسئوليته لا غير على مؤسسات مجتمع معين وحدها.

أما "الشبح فى الماكينة" فقد تقوض نتيجة علم الإدراك وعلم الأعصاب. أساس علم الإدراك هو النظرية الحوسبية للعقل، فكرة أن الذكاء يكن تفسيره كنوع من معالجة للمعلومات، وأن الدوافع والانفعالات يمكن تفسيرها كنظم تغذية مرتدة سيبرنيطيكية^(٢١). ثمة إنجازات فذة وظواهر كان يعتقد فيما سبق أنها تعتمد على الأمور العقلية وحدها - مثل المعتقدات، والرغبات، والذكاء، والسلوك الموجه بالهدف - إلا أنه صار فى الإمكان الآن تفسيرها بلغة فيزيائية. طرد علم الأعصاب "الشبح فى الماكينة" طردا حاسما تماما بأن أوضح كيف أن الأفكار والمشاعر والحوافز والوعى كلها تعتمد كلية على النشاط الفيزيولوجى للمخ.

(٢٠) الشخصية السيكوباتية شخصية مرضية نفسيا وغير اجتماعية وتتصف بالعنف والانحراف والسلوك الإجرامى. (المترجم)

(٢١) السيبرنيطيكية دراسة عمليات الاتصال والتحكم فى الأنظمة البيولوجية والإلكترونية والميكانيكية ومقارنتها للاستفادة من التبادل فيما بينها. (المترجم)

هناك أربعة علوم جديدة عن الطبيعة البشرية - علم الإدراك، وعلم الأعصاب، والوراثيات السلوكية، والسيكولوجيا التطورية - والسيكولوجيا التطورية ربما تكون من بين هذه العلوم الأربعة العلم الذى أثار أكثر خلاف فى العقد الأخير، والكثير من هذا الخلاف لا ضرورة له. سنجد بمعنى ما أن علم النفس كله تطورى. عندما يتعلق الأمر بفهم ملكة نفسية معقدة مثل العطش أو إدراك الشكل أو الذاكرة، فإن علماء النفس يلجأون دائما إلى دالاتهم التطورية، وهذه لا يحدث قط أن تكون موضع خلاف. ليس من الصدفة أن تؤدي تأثيرات العطش إلى الاحتفاظ بتوازن الماء والأملاح الإلكتروليتية فى الجسم فى نطاق حدود معينة مطلوبة للبقاء؛ وبدون هذا الميكانيزم سيحدث للكائنات أن تتنفخ أجسادها وتتشق مثل قطعة المقائق فوق المشواة أو أنها سوف تنغضن مثل برقوق مجفف. وبمثل ذلك لا يمكن أن يكون من الصدفة أن يقارن المخ بين الصور الآتية من المقلتين الاثنتين ويستخدم هذه المعلومات لحوسبة العمق. وبدون هذه القدرة سيكون من المرجح لنا بأكثر أن نصطدم بالأشجار ونسقط من فوق الجروف. والتفسير الوحيد، بخلاف مذهب التكوينية، هو أن هذه المنظومات تطورت لأنها أتاحت لأسلافنا البقاء والتكاثر على نحو أفضل من بدائل ذلك.

السيكولوجيا التطورية تأخذ ببساطة هذا المنحى التفكيرى وتطبقه على جوانب السلوك المشحونة انفعاليا بدرجة أكبر، مثل الجنسية، والعنف، والجمال، والمشاعر الأسرية. أحد الأسباب فى أن التطور يكون مثار خلاف فى هذه المجالات أكثر مما يكونه فى دراسة العطش هو أن تضمينات التطور تقل درجة إدراكها بالحدس فى حالة الانفعالات والعلاقات الاجتماعية. لا يحتاج المرء لأن يعرف الكثير من البيولوجيا التطورية ليقول إن من المفيد أن يكون لديه الرؤية المجسمة أو العطش. ولكن عندما يتعلق الأمر بطريقة تعامل الكائنات الحية أحدها مع الآخر، لن يكون الحس المشترك بديلا يحل محل نظرية تطورية جديدة. ليس لدينا مدركات حدسية جيدة عما إذا كان من الأمور التكيفية، بالمعنى الضيق عند البيولوجى، أن يتبع المرء مبدأ أحادية الزواج أو مبدأ تعدده، وعما إذا كان على

المرء أن يعامل أطفاله فى مساواة أو يظهر محابة لبعضهم، وعما أن يكون منجذبا لنوع معين من هندسة الوجوه أو للآخر. ها هنا يكون على المرء أن يتعلم ما يتبنا به أفضل ما فى البيولوجيا التطورية. وهكذا فإن التفكير التطورى فى هذه المجالات يكون أكثر إدهاشا عما فى باقى علم النفس.

تتحدى الورايات السلوكية أيضا إدراكاتنا الحدسية. هاك أحد الألغاز. نحن نعرف أن الجينات لها أهميتها فى تشكيل الشخصيات. وفيما يحتمل فإنه يمكن إرجاع ما يقرب من نصف التباين فى الشخصية داخل ثقافة ما إلى وجود اختلافات فى الجينات. عندما يسمع الناس ذلك فإنهم كثيرا ما يستتجون أن النصف الآخر ينتج ولابد عن الطريقة التى يربى بها الوالدون أطفالهم: نصف بالوراثة ونصف بالبيئة، حل وسط لطيف، أليس كذلك؟ بل خطأ. ثبت أن الخمسين فى المائة الأخرى من التباين لا يمكن تفسيرها حسب العائلة التى ينشأ فيها المرء. وهاك ما وجدته بطريقة محددة علماء الوراثة السلوكية. كلنا نعرف ما يذكر عن التوائم المتطابقة التى فصلت عند الولادة ولديها أوجه تماثل ملحوظة: فهم ينالون درجات متماثلة فى اختبارات الشخصية، ولهم ميول متماثلة فى الموسيقى، ولهم آراء سياسية متماثلة، ولهم جرا. إلا أن هناك اكتشافا آخر له الأهمية نفسها وإن كان أقل من حيث حسن إدراكه، وهو أن التوائم التى تنفصل عند الميلاد لا يكون اختلاف أحدها عن الآخر أكثر من التوائم الأخرى التى تنبى معا فى المنزل نفسه مع الوالدين أنفسهم، وبالعدد نفسه فى أجهزة التليفزيون، وبالعدد نفسه من الكتب. والعدد نفسه من البنادق، ولهم جرا. فعندما يتربى التوأمان معا لا يجعل ذلك الواحد منهما أكثر مماثلة للآخر على المدى الطويل فى الذكاء أو الشخصية. مما تم توثيقه من الاكتشافات أن الأشقاء بالتبنى، الذين يتربون فى المنزل نفسه ولكنهم لا يتشاركون فى الجينات، لا تكون لديهم مطلقا أى علاقة ارتباط من حيث الشخصية والذكاء؛ فهم لا يتشابهون بأكثر من أى شخصين التقطا عشوائيا من الشارع. وإذن، فإنه وإن لم يكن الأمر كله فى الجينات، فإن ما هو غير موجود فى الجينات غير موجود أيضا فى البيئة الأسرية. وهو مما لا يمكن تفسيره بلغة من الشخصية ككل أو بممارسات الوالدين فى تنشئة الأطفال.

ما العوامل " غير الوراثة " فى تحديد الشخصية والذكاء، مع التسليم بأنها فى الغالب المؤكد ليست فى البيئة الأسرية؟ أول من لاحظ هذا اللغز هم علماء الوراثة البيولوجية مثل دافيد رو، وروبرت بلومين، وساندرا سكار، وكان هذا اللغز أيضا موضوعا لكتب حديثة ألقتها كل من جوديث ريتش هاريس وفرنك سلوواى. مازال هناك أفراد كثيرون يتلمسون طريقة لوضع الوالدين مرة ثانية فى الصورة، وهم يفترضون أن الاختلافات بين الأشقاء لا بد من أنها تنتج عن الاختلافات فى الطريقة التى يعامل بها الوالدون أطفالهم. ونقول لهم انسوا ذلك. بينت أفضل الدراسات أن الوالدين عندما يعاملون أولادهم معاملة مختلفة، فإن سبب ذلك أن الأولاد يكونون أصلا مختلفين، وهذا يشبه تماما ما يحدث عندما يتفاعل كل واحد تفاعلا مختلفا مع الأفراد المختلفين. يعرف أى والد لديه أكثر من طفل واحد أن الأطفال أناس صغيرو الحجم، مولودون ولهم شخصياتهم.

يختلف سلوواى وهاريس فى أن سلوواى يحاج بأن التباين غير المفسر ينتج عن الطريقة التى يميز بها الأطفال أنفسهم عن أشقائهم فى الأسرة. فهم يتخذون إستراتيجيات للتنافس على جذب انتباه الوالدين والتنافس على الموارد خارج الأسرة، ويتفاعلون مع غير الأقارب بأن يستخدموا الإستراتيجيات نفسها التى نجحت معهم داخل الأسرة. أما هاريس فتحاج بأن عامل التباين المفتقد ينتج عن الطريقة التى يبقى بها الأطفال موجودين داخل مجموعات الأنداد، كيف يجدون موقعا بيبيا داخل مجتمع الخاص بهم وينمون الإستراتيجيات ليزدهروا فيه.

أعتقد أن سلوواى لديه هكذا بعض شىء مهم بشأن العوامل الديناميكية بين الأشقاء داخل الأسرة. ولكنى غير مقتنع بأن هذه الإستراتيجيات تشكل شخصياتهم "خارج" الأسرة. ما ينجح بالنسبة لأخيك الصغير لن يكون بالضرورة ناجحا مع الغرباء والأصدقاء والزملاء. تأتى معظم البيانات الداعمة لسلوواى من دراسات يحدث فيها أن يعطى الأشقاء التقديرات عن أشقائهم، أو أن يعطى الوالدون التقديرات عن أطفالهم، أو يحدث فيها أن يعطى الأشقاء تقديرات لأنفسهم بالنسبة لأشقائهم. والنظرية ليست مدعومة جيدا بالدراسات التى تنظر إلى شخصية الأفراد

خارج المنزل. والواقع، أن أحد المعتقدات الرئيسية فى السيكولوجيا التطورية أن علاقة المرء بفرد من أهله تكون مختلفة جدا عن علاقات المرء بغير الأقارب.

فيما يتعلق بهاريس، فأنا مقتنع بحجتها عن أن التشارك الاجتماعى يحدث فى مجموعة الأنداد وليس فى الأسرة. معظم علماء نفس الطفل لا يريدون الاقتراب من هذه الدعوى، ولكنها بقيت موجودة بعد تعرضها للاختبارات الإمبريقية الواحد بعد الآخر. ولنذكر أمثلة معدودة عن ذلك: يكاد الأطفال دائما ينتهون إلى أن تكون لهم لكنة أندادهم وليس والديهم. أطفال المهاجرين غير المتلائمين ثقافيا يكون أداؤهم بارعا إذا تمكنوا من تعلم القواعد من أندادهم المولودين محليا. وعندما يلقي بالأطفال معا دون تعليمهم لغة من لغات البالغين فإنهم يخترعون لغة خاصة بهم. وقد بينت دراسات كثيرة أن الاختلافات الجذرية فى الممارسة الوالدية - ما إذا كان المرء قد شب فى أسرة تقليدية أو فى كوميون من "الهيبيز"، وما إذا كان لديه والدان من الجنس نفسه أو والدان من جنسين مختلفين، وما إذا كان يقضى أوقاته فى بيت الأسرة أو فى مركز للرعاية اليومية، وما إذا كان طفلا وحيدا أو ينتمى إلى أسرة كبيرة، وما إذا كان قد تم الحمل به بطريقة طبيعية أو فى طبق معمل زجاجى - كل هذه الاختلافات لا تترك آثارا دائمة على الشخصية طالما كان المرء جزءا من مجموعة طبيعية من الأنداد.

ثمة أمر لم تفسره نظرية هاريس تفسيرا مرضيا لى - أو على الأقل فإن ذلك لم يحدث بعد - وهو الاختلاف المفتقد فى الشخصية بحد ذاته. الشخصية والتشارك الاجتماعى ليسا بالشيء نفسه. التشارك الاجتماعى هو الطريقة التى يصبح بها المرء فردا له وظيفة فى المجتمع، يتحدث باللغة، ويكتسب الأصدقاء، ويقوم بعمل، ويرتدى نوع الملابس المقبول. أما "الشخصية" فهى ما إذا كان المرء طيبا أو شريرا، جسورا أو خجولا، حى الضمير أو فاجر الهمة. هاكم المشكلة. دعنا نعود وراء إلى وسيلة اختبارنا: التوائم المتطابقة التى تنشأ معا وتتشارك فى جيناتها وفى معظم بيئتها، ولكنها مع ذلك لا تتطابق فى الشخصية. وهم فى الغالب المؤكد سيكونون قد نشأوا بين مجموعات الأنداد نفسها، أو على الأقل بين أنواع

متمثلة من مجموعات الأنداد، وستحو شخصياتهم وخصائصهم الفيزيائية لأن تضعهم في المواقع البيئية نفسها داخل هذه المجموعات من الأنداد. وإن، فإن مجموعات الأنداد في حد ذاتها لا تستطيع أن تفسر مالا يفسر من اختلاف في الشخصية. وحتى نكون منصفين، فإن هاريس توضح أن الموقع البيئي الذي يشغله المرء بين مجموعة أنداد (صانع الإيقاع، المهاجم المنذع، المولع بالمزاح، المبسط للمشاكل) موقع قد يتحدد في جزء منه بالصدفة - أي أنه موقع يصدق أن يكون خاليا عندما يجد المرء مجموعة من الناشئين يقضى وقته معهم. ربما يكون أمر كهذا له أهمية. ولكن هذه حالة خاصة لما قد يكون للصدفة من دور هائل في تشكيل ما تكونه. ذلك أنه بالإضافة إلى ذلك الموقع البيئي الذي يكون خاليا في مجموعة أنداد المرء، قد يكون هناك أحداث أخرى لا يمكن التنبؤ بها وتؤثر في كل واحد منا في أثناء تناميّه. هل حصل المرء على الدور الأعلى أو الأسفل من سرير مبيت في الجدار؟ هل طارده كلب، أو سقط على رأسه، أو أصيب بعدوى فيروس، أو أحاطه أحد المدرسين بعطفه؟

بل إن هنا أحداثا من الصدفة أكثر من ذلك تقع في تفاصيل أسلاك المخ "داخل الرحم" وفي أول عامين من الحياة. نحن نعرف أنه لا تكاد توجد معلومات كافية في الجينوم لتحديد المخ حتى آخر مشبك عصبي، كما أن المخ لا يتشكل على نحو كامل بواسطة المدخلات من المعلومات الحسية. ونحن نعرف بناء على الدراسات التي أجريت على تنامي الكائنات الحية البسيطة مثل ذباب الفاكهة والديدان المستديرة، أن الكثير مما يحدث من التنامي هو أمر من الصدفة، فقد وجد أنه يحدث بين سلالات الدودة المستديرة المتجانسة وراثيا والتي تنمو في الظروف المتمثلة نفسها في المعمل، أنه يمكن لأحد هذه الحيوانات أن يعيش زمنا يصل إلى ثلاثة أمثال ما يعيشه حيوان آخر. ومن الممكن أن يكون هناك اختلاف فيزيقي بين ذبابتى فاكهة من سلالات الاستيلاد الداخلي^(٢٢) - أو هما في الواقع من النسانخ: فيمكن أن يكون لديهما مثلا عدد مختلف من الشعيرات تحت كل جناح. إذا كان من

(٢٢) الاستيلاد الداخلي: استيلاد بين نباتات أو حيوانات وثيقة القرابة لحفظ أو تثبيت صفات مطلوبة. (المترجم)

الممكن أن يثبت في النهاية أن كائنات بسيطة مثل الديدان والذباب تكون مختلفة لأسباب نزوية، فإن ممن المؤكد إذن أن الصدفة تلعب حتى دوراً أكبر في طريقة تنامي أمخاخنا.

كان لفكرة أن العقل البشرى صفحة بيضاء تأثير هائل في مجالات كثيرة. أحد هذه المجالات هو العمارة وتخطيط المدن. شهد القرن العشرون قيام حركة سميت الحداثة الراقية المتسلطة، تزامنت مع تصاعد الصفحة البيضاء. كان مخططو المدن يعتقدون أن ميلنا للمساحة الخضراء، وللزينة، ولمراقبة الناس، وللأماكن الوثيرة المريحة، والتجمعات الاجتماعية الحميمة، هذه كلها بنيات اجتماعية. وكان يعتقد أنها مصنوعات تاريخية مهجورة تقف في طريق التخطيط المنظم للمدن وينبغي أن يتجاهلها المخططون الذين يصممون المدن المثلى حسب ما يسمى بالمبادئ العلمية. أوضح مثل ذلك هو ليكوربزييه وكان هو ومخططون آخرون لديهم مفهوم للطبيعة البشرية من نوع الحد الأدنى: فهم يعتقدون أن الإنسان يحتاج إلى عدد كذا من الأمطار المكعبة من الهواء يومياً، وعدد كذا من الجالونات من المياه، وعدد كذا من الأمطار المربعة لينام فيها ويعمل، ودرجة حرارة في نطاق معين، وهلم جرا. صارت البيوت "ماكينات للعيش"، وصممت المدن بما يدور حول أكفأ طريقة للإيفاء بهذه القائمة الصغيرة من الاحتياجات؛ مثل الطرق السريعة، ومشاريع الإسكان في مستطيلات أسمنتية ضخمة، والميادين الواسعة المفتوحة. أدى هذا في أقصى حالاته إلى مساحات قاحلة من المدن المخططة مثل برازيليا؛ وأدى في أهون الحالات إلى أن أعطانا مشروعات "التجديد الحضري" في المدن الأمريكية، وإلى المباني المترفعة الكنيية في الاتحاد السوفييتي، وشقق المجالس البلدية الإنجليزية. حذفت الزينة من المدن كما حذفت القياس الإنساني، والمساحات الخضراء، والحداث، وأماكن الاجتماعات الاجتماعية المريحة لأن المخططين كان لديهم نظرية عن الطبيعة البشرية تهمل الاحتياجات الجمالية والاجتماعية للإنسان.

أحد الأمثلة الأخرى هو ما جرى في الفنون. سيطر على القرن العشرين مذهب الحداثة وما بعد الحداثة، وازدري من يمارسونهما الجمال باعتباره قيمة

بروجوازية، حلاوتها مصطنعة، وقليلة الأهمية. أصبح الفن يصنع عن عمد ليكون غير مفهوم أو قبيحا أو يبعث على الصدمة، وذلك مرة أخرى على زعم أن ولعنا بالوجوه الجذابة، والمناظر الخلوية، والألوان، وما إلى ذلك، هو بنيات اجتماعية قابلة للعكس. أدى هذا أيضا إلى المبالغة في القوة الديناميكية للوضع الاجتماعي الذي ظل جزءا من الفنون. كان من المعتاد أن تتحاز نخبة الفنون مع الأرستقراطية الاقتصادية والسياسية. وهذا ما تطلبت العروض المترفة والمباهاة بالمهارات النادرة الثمينة التي لا يستطيع رعايتها إلا الأغنياء الكسالى. أما الآن فإن أى مأفون يستطيع أن يتحمل ثمن قرص مضغوط لموزارت أو أن يذهب إلى متحف مجاني، وهكذا أصبح على الفنانين أو يستبطنوا طرائق جديدة ليميزوا أنفسهم عن الدهماء. وبالتالي أصبح الفن يثير الحيرة ولا يقبل التفسير، إلا إذا كان المرء له بعض دراية بنظرية ملغزة.

تأزم الحال ببرامج الإنسانية في الجامعات والمعاهد التي تروج للأعمال الجديدة من فن الصفوة، وهذا حسب ما أقرت به هذه الجامعات والمعاهد أنفسها. يبقى الناس محتشدين بعيدا. ولا أعتقد أن الأمر يتطلب عبقريا مثل أينشتاين ليُدرك السبب. عندما تتكرر الفنون النخبوية الحس البشري بالجمال البصري في الرسم والنحت، واتساق اللحن في الموسيقى، والوزن والقافية في الشعر، والحبكة والحكي والشخصية في الرواية، فإن الفنون النخبوية هكذا تستبعد الأغلبية الواسعة من جماهيرها، أى الناس الذين يرجع اقترايهم من الفن في جزء منه للمتعة والتتوير وليس للتنافس اجتماعيا. هناك الآن حركات في الفن لإعادة إدخال الجمال والحكي واتساق اللحن وغير ذلك من المتع الإنسانية الأساسية. ويعد هؤلاء الفنانين راديكاليين.

أوضح الكثيرون من الفنانين والدارسين أن الفن في النهاية إنما يعتمد على الطبيعة البشرية. تعتمد تفاعلاتنا الجمالية والانفعالية بأعمال الفن على الطريقة التي يركب بها مخنا. ينجح الفن لأنه يجذب ملكات معينة للعقل. تعتمد الموسيقى على تفاصيل في الجهاز السمعي، ويعتمد الرسم والنحت على الجهاز البصري. ويعتمد الشعر والأدب على اللغة. وتعتمد أوجه نفاذ البصيرة، التي نأمل أن نستخلصها من

أعمال الفن العظيمة، على قدرة هذه الأعمال على استكشاف الصراعات الأبدية في أحوال البشر، مثل ما يوجد بين الرجال والنساء، وبين الذات والمجتمع، وبين الوالد والطفل، والأخ وأخيه، والصديق وصديقه. يطرح بعض منظري الأدب أننا نقدر قيمة التراجيديا والأعمال الروائية العظيمة لأنها تستكشف التغيرات والتوليفات في أوجه الصراع البشري، وهذه هي صميم الموضوعات التي تجرى المحاولات لتتویرها لنا بواسطة مجالات مثل السيكولوجيا التطورية والوراثيات السلوكية والسيكولوجيا الاجتماعية. تستطيع علوم العقل أن تعزز فكرة أن ثمة طبيعة بشرية ثابتة يمكن أن يروق لها الفن العظيم.

لعلنا نشهد الآن أنه ستتضم مع الإنسانيات وعلم الطبيعة البشرية. وهما قد انفصلا عن بعضهما زمتا طويلا، بسبب ما بعد الحداثة والحداثة. على أن طلبية الجامعة الآن يبدون التزم في بریدهم الإلكتروني وأروقة المؤتمرات من أنهم يبعدون عن سوق العمل مالم يرددوا دائما الرطانات السخيفة لما بعد الحداثة، ومن أنهم متلهفون لأفكار جديدة من العلوم لتتعش الإنسانيات في الجامعات. أخذ العارفون بالفن ومقدرو الفن يحسون بالسقم من العروض المتكاثرة لجسد المرأة حيث تصور أجزاء بشرية مشوهة، أو من التلميحات الساخرة للثقافة التجارية التي يفترض أن تهز الناس ليخرجوا من رضاهم البورجوازي عن الذات، ولكنها في الحقيقة تلميحات لا تزيد عن أعمال المحاكاة الساخرة في مجلة "ماد" (الجنون) أو في "ساترداي نايت لاين" (الحياة الليلية يوم السبت).

- تأثرت الحياة الثقافية عبر القرن الماضي تأثرا هائلا بالنفور من النازية نفورا يمكن فهمه، لما فيها من نظريات زائفة علميا عن العرق ولما يساوى ذلك من هراء فيها عن تمجيد الصراع كجزء من الحكمة التطورية للطبيعة. كان من الطبيعي بعدها نبذ أى شيء فيه أى أثر من تناول وراثي لشئون البشر. إلا أن مؤرخي الأفكار أخذوا يملكون جانبا آخر من الصورة. ثمة حقيقة تلفت النظر وهي أن أكبر عمليتين للإبادة العرقية في القرن العشرين وقعتا بدافع أيديولوجي قد وفدتا من نظريتين عن الطبيعة البشرية تتعارضان تعارضا مطلقا. لم يكن مفهوم العرق

مما يستخدمه الماركسيون، ولم يكونوا ممن يؤمنون بالجينات، وقد أنكروا نظرية داروين للانتخاب الطبيعي كميكانزم للتكيف التطوري. وهى كطريقة تناول للطبيعة البشرية غير فريدة فى الفساد. لابد من أن هناك خيوط مشتركة بين النازية والماركسية الشمولية تتقاطع معا عبر ما يعتقدانه عن أهمية التطور أو الوراثة. أحد الخيوط المشتركة هو الرغبة فى إعادة تشكيل البشرية. كان ذلك فى حالة الماركسية من خلال الهندسة الاجتماعية؛ وفى حالة النازية من خلال تحسين النسل. فكل من النظريتين غير راضية عن البشر كما يوجدون، بكل ما فيهم من أخطاء وأوجه ضعف، وكلا النظريتين بدلا من أن تبني نظاما اجتماعيا يدور حول الصفات البشرية الثابتة، اعتقدتا أن من الممكن إعادة هندسة الصفات البشرية باستخدام مبادئ علمية، هى فى الواقع زائفة علميا.

يحتاج مارتن أميس فى كتابه الحديث عن الستالينية بأن المتقنين لم يستوعبوا بعد دروس الشمولية الماركسية استيعابهم للشمولية النازية منذ عقود عديدة. توصل كذلك عدد من المؤرخين والفلاسفة السياسيين إلى النتيجة نفسها. هذه النقطة من العماء تشوه المنظر العام الثقافى، بما يشمل ذلك من تضمينات ولا تضمينات فى علم الوراثة والتطور من أجل فهم أنفسنا. قال شيكوف يوما، "سيكون حال الإنسان أفضل عندما نوضح له ماذا يشبه". لا أستطيع التعبير عن الأمر بأفضل من ذلك.

الفهم الصحيح للطبيعة البشرية

هيلينا كرونين^(٢٣)

لا ريب فى أن الطبيعة البشرية ثابتة. إنها طبيعة كلية، وغير متغيرة ومشاركة عند كل طفل يولد، بما يسرى خلال كل تاريخ نوعنا. أما السلوك البشرى الذى يتولد عن هذه الطبيعة، فهو متباين ومتنوع إلى مالا نهاية. وعلى كل، فإن القواعد الثابتة يمكن أن ينشأ عنها مدى لا ينفد من النتائج. الانتخاب الطبيعى قد جهزنا بالقواعد الثابتة - القواعد التى تكون طبيعتنا البشرية. وهو قد صمم هذه القواعد لتولد سلوكا يكون حساسا للبيئة. وبالتالي، فإن الإجابة عن الحتمية الوراثية إجابة بسيطة. إذا كنا نريد أن نغير السلوك، ما علينا إلا أن نغير البيئة. وحتى نعرف أى التغيرات ستكون ملائمة وفعالة، علينا أن نعرف تلك القواعد الداروينية. ما نحتاجه فقط هو أن نفهم الطبيعة البشرية، وليس أن نغيرها.

(٢٣) هيلينا كرونين مدير مساعد لمركز فلسفة العلوم الطبيعية والاجتماعية بمدرسة لندن للاقتصاد، حيث تدبر برنامجا ناجحا واسم المدى يسمى LSE @ Darwin، يرفع أبحاث الطبيعة لنظرية التطور. وهى مؤلفة كتاب "النملة والطاووس".

تدور الأسئلة التي أسألها لنفسي الآن حول الصلات بين شيئين. هناك في جانب ما أخبرنا به العلم عما تطور من الاختلافات بين النساء والرجال، وهو ما نعرفه من النظرية الداروينية الحديثة. ومن الجانب الآخر هناك الإدراك الجماهيري للعلم. وهو في أغلبية سلبية ويشوهه سوء الفهم. ولا ريب أنه عندما يحدث تطبيق لنظرية التطور على نوعنا نحن، فإن هذا يؤدي دائما إلى أن يثير معارضة له. أما عندما يصل الأمر إلى الاختلافات بين الجنسين؛ فإن هذا يشعل عداوات وأوجه سوء فهم من نوع خاص.

ينبع هذا كله من الخلط بين العلم والسياسة. والأمر وكان الناس يعتقدون أنه إذا كان المرء لا يحب ما يظن أنه التضمينات الأيديولوجية للعلم، فإن له الحرية في أن يرفض العلم، وأن ينظم رؤيته الخاصة بدلا من العلم. والآن، فأنا أدرك أن هذا يبدو مضحكا؛ العلم ليس فيه تضمينات أيديولوجية، فهو يخبرنا ببساطة بما يكون عليه العالم، وليس بما ينبغي أن يكونه. وبالتالي إذا انبثق لنا تبرير أو حكم أخلاقي أو أي مقولة من نوع "ما ينبغي"، إذا انبثق أي من هذا كاستنتاج من مقدمات علمية محضة، سيكون من الواضح أن ما يجب أن نفعله هو أن نتحدى منطق هذه الحجة وليس أن نرفض المقدمات المنطقية. ولكن الناس لسوء الحظ يشعرون بسخط بالغ من هذا الاستنتاج حتى إن الأمر ينتهي بهم إلى رفض العلم بدلا من رفض المغالطة.

"التضمين" الذي يبدو أنه يزعم الناس أقصى إزعاج هو ما يزعم أنه الحتمية البيولوجية، أي فكرة أنه إذا كانت الطبيعة البشرية قد تشكلت بالتطور، فإنها إذن ثابتة ونحن ببساطة سنبقى دائما على ما نكون عليه؛ ليس في وسعنا أي شيء إزاء ذلك. لن نستطيع أبدا أن نغير العالم ليكون كما نريد؛ لن نستطيع أبدا أن نؤسس مجتمعات أكثر إنصافا، لا فائدة من صنع سياسة ولا من السياسات.

والآن، فإن هذا فيه سوء فهم بالكامل. لا يوجد هكذا تمييز بين الطبيعة البشرية - سيكولوجيتنا التي تطورت - وبين السلوك الناتج عنها. لا ريب في أن الطبيعة البشرية ثابتة. إنها طبيعة كلية، وغير متغيرة، ومشاركة عند كل طفل

يولد، بما يسرى خلال كل تاريخ نوعنا. أما السلوك البشرى الذى يتولد عن هذه الطبيعة، فهو متباين ومتنوع إلى ما لا نهاية. وعلى كل فإن القواعد الثابتة يمكن أن ينشأ عنها مدى لا ينفد من النتائج. الانتخاب الطبيعى قد جهزنا بالقواعد الثابتة، القواعد التى تكون طبيعتنا البشرية. وهو قد صمم هذه القواعد لتولد سلوكا يكون حساسا للبيئة. وبالتالي فإن الإجابة عن الحتمية الوراثية إجابة بسيطة. إذا كنا نريد تغيير السلوك، ما علينا إلا أن نغير البيئة. وحتى نعرف أى التغيرات ستكون ملائمة وفعالة، علينا أن نعرف تلك القواعد الداروينية. ما نحتاجه فقط هو أن نفهم الطبيعة البشرية، وليس أن نغيرها.

يتبين هذا الأمر بوضوح من البحث الكلاسيكى الذى أجرته مارجو ويلسون ومارتن دالى على جريمة القتل. تتباين معدلات جريمة القتل تباينا هائلا عبر المجتمعات المختلفة. فى سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، عندما كان المعدل فى شيكاغو ٩٠٠ جريمة قتل لكل مليون من السكان فى كل سنة (قتل فرد من الجنس نفسه، من غير الأقارب)، كان المعدل فى إنجلترا وويلز ٣٠، أما أيسلندا فلا يكاد يوجد فيها أى جرائم قتل على الإطلاق. والآن، فإن هذه الأماكن ليس فيها أى اختلاف فى الجينات، ولا أى اختلاف فى الطبيعة البشرية. يتبين هذا على نحو درامى جدا عندما ننظر إلى أنماط جرائم القتل. على الرغم من أن المعدلات تختلف اختلافا واسعا، فإن الأنماط تكون هى نفسها بالضبط. لو أننا قلصنا محاور الرسم البيانى لشيكاغو عن سن وجنس القتلة ثم وضعنا الرسم فوق الرسم البيانى لإنجلترا/ويلز سيتطابق المنحنيان بالضبط. ما يحدث على نحو طاع هو أن شبانا يقتلون شبانا، ويبدأ المنحنى، ويتصاعد ليصل للقمّة، ثم ينحدر عند الأعمار نفسها بالضبط. أما ما يؤدي إلى اختلاف المعدلات فهو اختلاف البيئات. وهذا أمر مهم للسياسات. نحن نفهم ماذا يوجد فيما يتعلق بتطور عقولنا بحيث يؤدي إلى هذه المعدلات المختلفة فى البيئات المختلفة - ما يوجد لدى الذكور من نزعة كابية لأن يكونوا متنافسين إلى حد بالغ، الأمر الذى يمكن أن ينتهى فى الظروف المتطرفة إلى جريمة قتل. هذا يبين لنا ما تكونه الظروف التى نحتاج لخلقها حتى نخفض معدلات جريمة القتل. ولما كان الأمر فى الواقع أبعد من أن يكون فيه حتمية

وراثية، فإننا نستطيع أن ندرك السبب في أن الطريقة الداروينية لتناول الأمور قد سميت حتى بأنها "قرع معرفى بيئى"، وذلك باستخدام لمسة لا غير من السخرية.

تتبنى الحتمية الوراثة الفكرة بأنه إذا كانت الجينات جزءا من عملية التسبب، يكون علينا من أجل تغيير النتائج أن نحدث تعديلا في الجينات، علينا أن نغير هذا السبب الواحد بعينه. وهذه فكرة بالغة الشذوذ. ليس من سبب يمنعنا من التدخل في أى جزء من عملية السببية، كما أنه ليس من سبب لأن يكون للجينات فيما ينبغى أسبقية في ذلك. وكما سبق ورأينا في معدلات جريمة القتل، فإنه عند التعامل مع كليات الطبعة البشرية، تكون البيئة هي الموضع الواضح للتدخل. على أن هذا يمكن أن يصدق أيضا حتى عندما نتعامل مع الاختلافات الوراثة بين الناس. هناك مثلا اختلافات وراثية في النزعة إلى ظهور مرض سكرى البالغين.^(٢٤) عندما تكون هناك بيئة يأكل الناس فيها طعاما تقليديا - أى بكمية سعرات حرارية منخفضة، وألياف وافرة، ودهن منخفض، وسكر منخفض - فإن أحدا لا يظهر لديه هذا النوع من السكرى. ولكن لو عرضنا هذه العشائر السكانية لغذاء من النوع الحديث سوف يظهر لنا توا الأفراد الذين لديهم استهداف وراثى أكبر. وبمثل ذلك، قد يكون هناك اختلافات وراثية في نزعة الرجال إلى التنافس. ولكن عندما تكون البيئة أكثر ملائمة - بيئة قريبة من أيسلندا أكثر من شيكاغو - فإن هذه الاختلافات لا تكاد تظهر في إحصائيات جرائم القتل.

هناك الكثير من الأفكار الأخرى المحتشدة في الحتمية الوراثة - تتعلق بالإرادة الحرة والمسئولية، وتحكمنا في حياتنا، وما إلى ذلك. إلا أنني حتى الآن لم أكتشف بعد أى تفسير للحتمية الوراثة يحمل أيا من تلك التضمينات التى يبدو أن الناس ينزعجون منها كثيرا. وعلى عكس ذلك يثبت في النهاية أن كل ما ينطبق على الجينات ينطبق بدرجة مساوية على البيئات. وبالتالي إذا كان الناس يخشون الحتمية الوراثة، فإنهم ينبغى أن ينزعجوا بما يساوى ذلك فيما يتعلق بالحتمية البيئية.

(٢٤) مرضى السكرى يقسمون إلى نوع طفولى ونوع للبالغين يختلفان في الأسباب والعلاج. (المترجم)

عندما طبق هذا النوع من التفكير على الاختلافات بين الجنسين أدى ذلك إلى عداء شديد لصميم فكرة تطور الاختلاف بين النساء والرجال. وعلى وجه الخصوص فإن أنصار المساواة بين الجنسين قادوا هذه المعارضة. لا ريب أن مذهب "المساواة بين الجنسين" (Feminism) يشمل حشدا من الآراء. وكثيرا ما نجد أنه لا يوجد الشيء الكثير المشترك بين الماركسيين في اليسار البريطاني الذين نظموا من جديد، وبين من يفرزون رطانة "ما بعد الحداثة"، وبين السيدة التي تشغل منصبا تنفيذيا رئيسيا وتنتشر بعيدا عن كثفيها بقايا السقف الزجاجي^(٢٥) المعوق لتقدمها المهني بعد أن حطمتها وهي تشق طريقها لأعلى. على أن هناك شيئا واحدا قد اتفقت عليه معظم مدارس مذهب مساواة الجنسين وهي أنها كلها مضادة للداروينية. بل وحتى أنصار مساواة "الاختلاف" الذين يحتفلون "بنحن" إزاء "هم"، حتى هؤلاء يفضلون أن يخترعوا الاختلافات بدلا من الإذعان للعلم. وأنا أجد أن هذا كله مفزع جدا، وبصفتي داروينية وكذلك من أنصار المساواة فإن هذا يفزعني فزعا مضاعفا.

أعتقد أن هذا التخندق ينبع من اعتقاد غامض بأننا لا نستطيع أن نحصل على الإنصاف إلا بالتماثل. وأنا أقول إنه "غامض" لأنك ما إن تتطرق به حتى تدرك أن من الواضح أنه زائف. إلا أن معظم فروع مذهب المساواة بين الجنسين قد جعلت نفسها على نحو ما ملتزمة بالرأى بأنه إذا كان هناك اختلاف أساسى بين الرجال والنساء بأى طريقة فإن هذا سيقوض المطالبة بمجتمع من العدالة والمساواة. إلا أن ما ألهم أصلا بمذهب المساواة بين الجنسين هو فكرة أنه ينبغي عدم التمييز ضد النساء "بصفتهم" نساء، حيثما يكون مما لا أهمية له أنهم نساء؛ فهن يمنعن من الانتماء للجامعات أو حيازة الممتلكات أو أن يكون لهن صوت انتخابي، ومنعهن هذا ليس بسبب عدم قدرتهن وإنما بسبب أنهن نساء. على أن هذا الإلهام الأصلي ينتهى به الأمر إلى أن يتشوه تشوها خطيرا عندما ننكر أن هناك تطورا للاختلافات الجنسية. قد وصلت الأمور إلى نقطة حيث صار من المتوقع

(٢٥) السقف الزجاجي عبارة مجازية فى الإنجليزية تعنى وجود حاجز يعوق التقدم المهني لفئات معينة من الموظفين هم عادة إناث. (المترجم)

وجود نوع من تمثيل بالنصف للرجال والنساء فى كل مكان: فى الجامعات، وأماكن العمل، والسياسيات، والرياضة، ورعاية الطفل. وبالتالى، إذا لم يمثل النساء بالتساوى، يرجع السبب فى ذلك إلى نزعة التمييز بين الجنسين (Sexism) وحدها. حسن، سواء كان للتمييز الجنسى أو لم يكن له مفعول، سنجد أن هناك تطورا لاختلافات جنسية من المؤكد أنها ستوجد؛ وهى اختلاف فى النزعات، والمهارات، والقيم، والمصالح، والطموحات. من المرجح جدا أن النساء يتخذن بطريقة نسقية خيارات مختلفة عن خيارات الرجال. وهذه الإثارات المختلفة هى ما ينبغى أن نتوقع أن تعكسه السياسات المنصفة وليس بأن نقوم بالتغطية بتوزيعات النصف بالنصف.

تطور اختلافات الجنس فى أغلبه أمر يتعلق بالمتوسطات. وبالتالى فإن هذه الاختلافات لا تشق نوعا شقا متقنا إلى نصفين. كثيرا ما يتخذ ذلك كنوع من الذخيرة للمعارضة ضد الداروينية. لاشك أن القارئ قد سمع الحاجة التى تقول: ولكن الاختلافات "داخل" أفراد الجنس الواحد أكبر من الاختلافات "بين" الجنسين". يتضمن ذلك أن هناك تداخلا كثيرا فى التوزيعات بحيث يكون الاهتمام الداروينى بالاختلافات أمرا مضللا.

ولكن هل هذا صحيح؟ كلما حاولت أن أفكر عميقا فيما تكونه هذه الدعوى بالضبط، أجد أن هذه الحاجة لا تثبت أن تنحو إلى أن تنهار لتتبدد. وبداية فإن مدى أهمية الاختلاف أمر يعتمد على السبب فى اهتمام المرء به، وما يكونه هدفه. إذا كان هدفه أن يصبح غنيا، فليكن عن محاولة بيع الفنون الإباحية للنساء أو عن بيع الروايات الرومانسية للرجال؛ وليكن عن محاولة أن يبيع للبنات ألعاب "أقتل! أقتل!" فى الكمبيوتر، أو أن يبيع للصبيان ألعاب محاكاة "الناس". على أى حال نحن لا نستطيع أن نصمم الأمور ببساطة حول مدى كبر حجم التداخل؛ فهذا أمر يعتمد على ما تكونه الخاصة المميزة. لن نجد تقريبا أى تداخل إذا قارنا الصبيان إزاء الفتيات فى ألعاب الرمي (سيكسب الصبيان ذلك فى كل مرة تقريبا) أو فى طلاقة اللسان (سيكون تسعة من كل عشرة من الرجال أسوأ من النساء). ثم

هناك حقيقة أنه حتى لو كانت متوسطات الاختلاف صغيرة، فإنه يمكن أن توجد اختلافات هائلة عند الأطراف القصوى. الرجال في المتوسط أكثر طولا من النساء ببوصات معدودة، ولكن كل الأفراد الأطول كثيرا يكونون من الرجال. وهكذا قد ينتهي الأمر بأن يكون تقدم الرجال في الطول نتيجة هذا السبب الإحصائي وحده.

هناك أيضا حقيقة غريبة - حقيقة كشفت عنها البيولوجيا التطورية - بشأن أشكال منحنيات التوزيع لمعظم الاختلافات بين الذكور والإناث. هذه الحقيقة هي أن الذكور يحدث فيما بينهم تباين أكثر كثيرا مما بين النساء: يحدث زيادة مفرطة في العدد الذي يمثل الذكور عند قمة المجموعة وكذلك عند القاع. وقد لا يهتم الناس بهذا الأمر بالنسبة لبعض الخصائص ولكن ماذا عن هذا التضمين؟ هناك عدد أقل من النساء اللاتي يرجح أن يكن من الأغبياء، ولكن من المرجح أن عددا أقل منهن سيكون من العباقرة. عندما ذكرت ذلك في إحدى الندوات في الولايات المتحدة، صرح لي ذلك تصحيحا عنيفا مجموعة من أنصار مساواة الجنسين قائلين: "ليس هناك وجود لشيء يسمى عبقرى!" واكتشفت لاحقا أن هذا قد أصبح إلى حد كبير خط تفكير قياسي في "دراسات أنصار مساواة الجنسين". لم أتمالك إلا أن أتساءل عما إذا كانت العبقرية تنفص بعيدا لأنه ليست هناك نساء كثيرات في الصورة. تطرح النظريات الداروينية أيضا أن من المهم أن ننظر في أمر الاختلافات في الميول والمصالح. هل سيصبح الطالب القمة في عزف البيانو نجما دوليا؟ عندما يكون للمرء شخصية تنافسية، محبة للمغامرة، وتشعر بالحرص على الوضع الاجتماعي، ومتفانية، وأحادية التفكير، ومثابرة، هذا كله قد يكون فيه كل الفارق للنجاح. وهذه كلها صفات يرجح أن الرجال في المتوسط يحوزونها بدرجة أكبر كثيرا، وبوفرة كثيرا ما تكون منذرة بالخطر.

على الرغم من أن محاجة "الاختلافات (داخل) الجنس الواحد و(بين) الجنسين محاجة شائعة عند أنصار مساواة الجنسين. فإنها لا تتلاءم دائما كل التلاؤم مع محاجات أخرى عندهم عن المساواة. إذا كانت "الاختلافات في الداخل" اختلافات واسعة، فإن النساء إذن لن يكن جد متجانسات، سيكون هناك تناثر واسع

للقدرات والميول وستقع نسبة من النساء عند الطرف الذكوري من التوزيع. وقد يحدث هذا بالنسبة لأي خاصية، ابتداء من مستويات الهرمونات ووصولاً إلى الدوران ذهنياً في فضاء ثلاثي الأبعاد (3-D mental rotation) القدرة على تخيل أشياء دوارة في الفضاء، وهي سمة ذكورية لها شهرة سيئة). ولكن كيف يتشابه ذلك مع الفكرة القائلة بأن النساء اللاتي يكون لهن إنجازات كبيرة في المسارات الذكورية التقليدية - مثل الهندسة، أو تسلق الجبال، أو أي ما يكون - يكن بالنسبة للنساء الأخريات "نماذج لأداء الدور"؟ والفكرة هنا هي أن هاتهن النسوة هن مشابهات بالضبط للأخريات وأن ما يعوق تقدم النساء الأخريات هو فحسب التحيز الذكوري والشك في الذات. ولكن ربما تكون هاتهن النسوة هي الأطراف القصوى لتلك "الاختلافات من الداخل" التي يؤكد عليها أنصار مذهب مساواة الجنسين أنفسهم، وبالتالي فهن لسن مجرد نساء مشابهات للمرأة المجاورة لهن؟ ولكن كيف يمكن إذن لأنصار المساواة أن يدعوا بثقة أن التحيز والشك في الذات هما وحدهما السبب في منع أي امرأة من أن تتجز إنجازات مماثلة؟

والأسوأ من هذا، كيف يمكن لأي فرد أن يشير إلى هؤلاء النساء كدليل ضد تطور اختلافات جنسية، الأمر الذي كثيراً ما يفعله أعداء الداروينية؟ إن وجود هاتهن النسوة أبعد من أن يفند أي تحليل تطوري، فهن فيما يحتمل الاستثناء الذي يثبت القاعدة الداروينية. وبالتالي، سنجد مثلاً بالنسبة للدوران ذهنياً في الأبعاد الثلاثة أن النساء اللاتي يتعرضن في الرحم لمستويات عالية من الأندروجين (هرمون الذكورة) يكون أدأهن أفضل كثيراً من النساء الأخريات، والواقع أن أدأهن يكون مماثلاً تقريباً في جودته لأداء الرجال. والأمر كذلك أيضاً بالنسبة للميول: النساء اللاتي يعملن فيما يكون تقليدياً مهناً ذكورية، تكون استجابتهن للتحدى مصحوبة بانطلاق شحنة أدريالين^(٢٦) تتميز بارتفاعها كما يحدث عند "الذكور"، ويبدو أن اختيارهن للمهنة ينتج عن اتباعهن لميول لديهن وليس لأن ميولهن قد تشكلت بواسطة المهنة (وهذا ما كنت قد خمنت خطأ عندما سمعت بالأمر لأول مرة).

(٢٦) الأدرينالين هرمون تفرزه الغدة فوق الكلوية ليكون جسم الإنسان مهياً للقتال والتحدى وقت الشدة. (المترجم)

ثم هناك مثل أخير: تستخدم العبارتان "من داخل الجنس الواحد وبين الجنسين" استخداماً روتينياً لكى يتذكر أناس مثلى أن الاختلافات الجنسية هى فحسب تعميمات إحصائية ولا تصدق على كل الأفراد، وهذا ولا ريب أمر صحيح. ولكن أليس السقف الزجاجى الذى يعوق تقدم النساء مهنياً هو "فحسب" تعميم إحصائى؟ هناك تداخل بين مهن الرجال والنساء، خاصة فى الإدارة الوسطى، وغياب النساء عن المناصب الكبيرة العليا ليس غيباً منتظماً فى نسق. ولكن هل يكون ذلك سبباً فى أن نصرف النظر عن السقف الزجاجى معتبرين أنه لا أهمية له؟ التعميمات الإحصائية هى على وجه الدقة كل ما يدور حوله الكثير من قضايا المساواة بين الجنسين.

أعتقد أن التوزيع الإحصائى للاختلافات بين الذكر والأنثى هو حقاً قضية مهمة، لها تضمينات مهمة بالنسبة للسياسة. فهذا التوزيع هو أحد تلك المجالات التى تنتظر أن يتم الزواج بين طريقة التناول التطورية (التي تتعامل مع الكليات) وبين الوراثة السلوكية (التي تتعامل مع الاختلافات الفردية). وأنا أتوق حقاً لرؤية أبحاث تجرى حول هذا الشأن. ويبدو لى أن هذا أمراً توجد بكل تأكيد حاجة لأن يتعامل معه مذهب الداروينية، ومذهب المساواة بين الجنسين، وواضعى السياسات. فى حين أن محاجة "داخل الجنس الواحد وبين الجنسين" لا تصل بنا إلى أى شىء؛ فهى مما لا يفيد كمرشد لاتخاذ القرارات، بل إنها أيضاً مضللة تماماً.

عندما نذكر السياسة فإن هذا ينحو إلى استثارة سؤال "ولكن لماذا نجر داروين داخل المشكلة؟". إلا أن السؤال ينبغى أن يكون بطريقة معكوسة. كيف يمكن أن تكون هناك سياسة اجتماعية مسئولة "ليست" متتورة بفهم تطورى للاختلافات الجنسية؟ ينبغى أن يندمج مع كل صنع للسياسة فهم للطبيعة البشرية، وهذا يعنى طبيعة الذكر وطبيعة الأنثى معاً. دعنا نذكر أنه إذا أراد صانعو السياسة أن يغيروا السلوك، فإن عليهم أن يغيروا البيئة التغير الملائم. وما يكون ملائماً يمكن أن يختلف اختلافاً بالغا بالنسبة للنساء وللرجال. النظرية الداروينية حاسمة فى أن تبين هذه الاختلافات.

سمعت ممثلا هزليا أمريكيا ذات يوم وهو يسخر بشدة من "الداروينية الجديدة الزاحفة". فقال، "أنا لا أومن بالجين المجرم، ولكنه إذا كان له وجود، فأعتقد أنهم سيعثرون عليه في موضع مجاور مباشرة لجين البطالة". وهذا كله صحيح تماما من الناحية السياسية. ولكنه خطأ بالكامل بالنسبة للتأثير المتميز للبطالة عند الرجال والنساء. البطالة بالنسبة للمرأة تعنى فقدان عمل؛ أما بالنسبة للرجل فهي فقدان للوضع الاجتماعى. وهذا الاختلاف ينضم إلى الاختلافات الجنسية الأخرى ليوذى بالنساء والرجال إلى مسارات مختلفة جدا حالما تتغلق عليهم أبواب العمل. هكذا نجد مثلا أن: الرجل ذى الوضع الاجتماعى المنخفض ينخفض وضعه كقرين؛ وسيجد صعوبة أكثر فى العثور على شريكة له. وسيجد صعوبة أكبر فى الاحتفاظ بشريكته؛ الزوجان اللذان تكسب الزوجة منهما أكثر من الزوج يكون طلاقهما أكثر ترجيحاً. ويكون الزوج أيضا أكثر تعرضاً لخطر أن "ما لديه" من أولاد ليسوا أولادا له؛ تنخفض نسبة عدم صحة الانتساب الوالدى بما يصل إلى ١% عند الذكور الأمريكيين ذوى الوضع الاجتماعى الراقى جدا ولكنها تصل إلى ٣٥% عند ذكور الداخل من المدينة المحرومين العاطلين. ثم هناك كذلك خطر العنف المنزلى؛ فهو ينبع من الغيرة الذكورية الجنسية، كما أن انخفاض الوضع الاجتماعى عامل فعال لتحريك الماكينة السيكولوجية للغيرة بأعلى سرعة. وفوق ذلك فإن الانحدار فى الوضع الاجتماعى له كما يحدث فى أنواع كثيرة أخرى، تأثير مروع فى الذكر (وليس فى الأنثى) من حيث الصحة وطول العمر. عندما يبدو المستقبل مشئوما هكذا سنجد مرة أخرى كما يحدث فى أنواع كثيرة أخرى، أن الذكور (وليس الإناث) هم الذين يرجح أن يقوموا بالمخاطرة. إذا كانت "الجينات المجرمة" ستظهر "جينات البطالة" عند الرجال، فإن سبب ذلك هو أن هناك سيكولوجية ذكورية متميزة هى التى تشكل هذه الروابط. أى فرد له اهتمام حقيقى بالبطالة وتفرعاتها الاجتماعية المرعبة ينبغى ألا يهاجم نظرية التطور؛ وإنما ينبغى أن يعتقها. فهى مما لا يستغنى عنه مطلقاً من أجل التوصل إلى استيعاب الصلات السببية المتعلقة بالأمر.

السياسة الاجتماعية العمياء عن رؤية الجنس لن تكون بلا تحيز، ولن تكون أكثر انصافاً، وإنما ستكون على غير ذلك. لماذا نفترض مثلاً أن البنات والصبيان يجب أن يتعلموا بالطريقة نفسها؟ لو نظرنا مثلاً إلى الرياضة، وهى المجال الأكاديمي الذى تكون فيه أقصى درجات الاختلاف بين الجنسين، سنجد أن ميزة الصبيان تكمن فيما يحتمل فى تفوقهم الفطري فى التفكير الميكانيكى والتفكير بثلاثة أبعاد. هناك بعض براهين على أن البنات يتحسن تحسناً له قدره عند التدريس لهن بطرائق تتحايل على ذلك. وهذا هو نوع الاهتمام الذى ينبغى أن تتشغل به سياسة التعليم المنصفة. ينطبق الشيء نفسه على القانون، ومكان العمل، والتخطيط الاقتصادى، وعلى أى مجال تصمم له سياسة اجتماعية.

ينبغى على سياساتنا الاجتماعية أن تتغلب على المشاكل فى عالم يتغير سريعاً، وتتضمن هذه التغيرات العلاقات بين الجنسين. وهناك تزايد فى بطلالة الذكور. وهناك نساء لديهن فى النهاية الموارد لأن يقمن وحدهن بدور الوالدين. ويجد النساء أنه مع ارتفاع وضعهن الاجتماعى الخاص فإن مستودع الشركاء المحتملين ينكمش. هناك تزايد فى أوجه عدم المساواة، بحيث أصبح من الأمور التى تخص نسبة جوهريّة من الرجال وجود انحدار فى وضعهم الاجتماعى على نحو دائم. وثمة تقبل متزايد بأنه ينبغى أن تكون النظم القانونية بحيث لا تعامل النساء كمלקية منقولة للرجال. كيف ستفاعل سيكولوجيتنا المتطورة، وعقولنا المنتمية للعصر الحبرى، مع هذه التغيرات؟ ما الذى سيكون مهماً عند الرجال وعند النساء؟ وإذن، هل تستطيع النظرية الداروينية أن تسهم فى السياسة الاجتماعية؟ أمكن ألا يكون لها أن تفعل ذلك؟

أنا أدرك أن ما أقوله يعد أمراً خلافياً، ولكنه ينبغى ألا يكون كذلك. فكل ما أفعله هو أنى أؤدى علماً قياسيأ، وأطرح التماساً متواضعاً بأن السياسة ينبغى أن تتأسس على المعرفة. والواقع أن الإدانة ينبغى أن توجه بطريقة عكسية. وينبغى أن يكون من نعتير أنهم مثار مشكلة خلاقية هم أولئك الذين على استعداد لأن يتحدثوا عن السياسة والمجتمع دون أن يعرفوا أول الأشياء عن الطبيعة البشرية.

إلا أن من المحزن أن العلم تبخس قيمته على نطاق واسع. أعتقد أن أحد أسباب ذلك هو البلوى المعروفة بالمذهب النسبي^(٢٧) (خاصة في أشكاله الجديدة التي تتاسخ إليها؛ من مذهب ما بعد الحداثة وزمرته). وفيما عدا العلوم، التي لديها حصانة جبلية، فإن مذهب النسبية قد أصبح له سيطرة مخيفة على المجتمع الأكاديمي، أي على أفراد لهم نفوذهم ويدرسون للأجيال المستقبلية ممن سيكونوا ذوى النفوذ. ونتج عن ذلك مواقف تجاه العلم تثير الأسى، الرأي بأنه لا وجود لمعايير كلية نحكم بها على الصدق أو الزيف أو حتى على المصادقية المنطقية، وأن العلم لا يصنع أي تقدم، وأنه لا يوجد أي شيء مميز في المعرفة العلمية، وهلم جرا. أحد الأسباب في أنه يوجه إلى الداروينية هكذا الكثير من النقد الخالي من المنطق، والخالي من الحقائق، والخالي من الإحصاءات، نقد أمكنه أن يجد لنفسه جمهوره، أحد هذه الأسباب هو ذلك الموقف بأن "العلم مجرد وجهة نظر أخرى، وإننا فانا حر في أن أتخذ لنفسى وجهة نظرى، أى وجهة نظر".

حتى تصير الأمور إلى أسوأ، هناك نزعة للنظر إلى هذا الموقف على أنه ليبرالى ومتفتح الذهن. هكذا أصبح ينظر إلى العلم، في مفارقة، على أنه هو الذى فيه نزعة للمتسلط والتفوق. إلا أن العلم يتميز فوق كل شيء بمنهجه النقدي. عندما لا يتفق العلماء، تكون لديهم طرائق موضوعية للحكم فيما بينهم. ينبغى أن تكون النظريات قابلة للاختبار ثم يجب بعدها أن تجتاز الاختبارات. لن تكون الأمور دائما واضحة في تحديدها على أساس من العمل يوما بيوم؛ العلم ليس عملية فورية تو اللحظة. كما أنه ولا شك ليس معصوما. ولكنه إلى حد بعيد أفضل ما لدينا وقد أنجز مهام ذات تأثير ماهر. ما إن يفهم الناس ما يكونه شأن المنهج العلمى ولماذا هو بالغ القوة، فإنهم عندها سيأخذون في إدراك أن هناك حقا تميزا هائلا بين العلم واللاعلم.

على أنى أذكر القارئ بأن قوة النظرية التطورية لا تقدر التقدير الملائم حتى داخل الدوائر العلمية. مر الآن قرن ونصف القرن على نشر كتاب "أصل الأنواع"

(٢٧) المذهب النسبي Relativism مذهب فلسفى يرى أن المعارف والقيم الإنسانية ليست مطلقة، وتختلف باختلاف الظروف والبيئات. ولا علاقة لذلك بنسبية أينشتين. (المترجم)

وما زالت النظرية الداروينية لا تتفد بعد داخل مجالات كثيرة من البيولوجيا. وحتى عندما ننظر أمر البيولوجيين الذين اتخذوا طريقة تناول تتبع المذهب التكيفي، سنجد أن بينهم عددا بالغ الكثرة سيسقطها سريعا إلى حد ما عندما يصل الأمر إلى تناول نوعنا نحن، وخاصة عندما يصل إلى تناول سيكولوجيتنا، وسلوكنا، وأكثر من كل شيء عندما يصل الأمر إلى تناول الاختلافات الجنسية. كثيرا ما أرى ما يذكرني بالمواقف المضادة للداروينية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، الفترة التي سميت بأنها "خسوف الداروينية". كانت البيولوجيا وقتها تفيض بإمبريقية مبتذلة، وترفض التفسيرات التكيفية على أساس أنها غائبة، وتتجاوز البراهين، وبالتالي فهي ليست علما أصلا.

هكذا فإن المشكلة لا تقتصر على الإدراك الجماهيري للداروينية والاختلافات الجنسية. هناك الكثير من العلماء الذين مازالوا في حاجة لإقناعهم. على أنه بينما كان الرفض المبكر للداروينية يتصف نوعا بالتراجيدية، فإن الرفض الحالي يشبه بشكل متزايد مسرحيات الفارس الهزلية. من الواضح هكذا ما سيكونه الطريق الذي سيتبعه تاريخ العلم انطلاقا من هنا.

سيبورات (٢٨) مولودة ولادة طبيعية؟

آندى كلارك (٢٩)

أما هنا (بالطبيعة) لدنة إلى حد غير معتاد؛ وحتى
تؤدي بيولوجيا وظيفتها على الوجه الصحيح ظل ذلك
يتطلب دائما حشد واستغلال دعائم وسقالات غير
بيولوجية. نحن البشر، أكثر من أي كائن آخر فوق
كوكبنا، قد انبثنا كسبورات مولودة طبيعيا، قام
مصنعها بتعديلها وإنضاجها حتى تكون مهيأة لأن تنمو
إلى كيانات معمارية ممتدة إدراكيا وحوسبيا، كيانات
معمارية حدودها الشاملة تتجاوز إلى حد بعيد حدود
الجلد والجمجمة.

(٢٨) السيبورج: روبوت مصنوع من عناصر بيولوجية وماكينائية وله ذكاء اصطناعي راق. (المترجم)
(٢٩) آندى كلارك أستاذ للفلسفة ومدير برنامج علم الإدراك بجامعة إنديانا. وكان قبلها أستاذا للفلسفة في
جامعة سمس في المملكة المتحدة، ومديرا لبرنامج الفلسفة/علم الأعصاب / علم النفس بجامعة
واشنطن في سانت لويس. وهو مؤلف كتب "الإدراك الميكرو"، "المحركات المساعدة"، "أن نكون
هناك"، "المنتج العقلي"، و"السيبورات المولودة طبيعيا".

لى جسد يعد إلكترونيا جسدا بكرا. فأننا لا أضمن رقائق سايكونية، ولا أعضاء مزروعة من شبكية أو قوقعة للأذن، ولا منظم لنبضات القلب. بل إنى حتى لا أرتدى نظارات ولكنى أصير على نحو بطيء أكثر وأكثر انتماء للسيبورج. وهذا حالك أنت أيضا. سرعان ما سيصل بنا الحال، دون حاجة بعد لأسلاك، أو جراحة، أو تعديلات جسدية، إلى أن نكون مماثلين "للمنهي"، و"لحواء" ٨، ولسلك الكابل (٢٠)... وما عليك إلا أن نضع فى المكان الخالى اسم سيبورج رواية الخيال العلمى التى تفضلها. ربما نكون بالفعل سيبورجات. ذلك أننا عندما نكون سيبورجات، لا يكون ذلك بالمعنى السطحى من اتحاد اللحم بالأسلاك، وإنما بالمعنى الأعمق لكيانات فيها تكافل بشرى/تكنولوجى، منظومات مفكرة ومتعلقة تمتد عقولها وذواتها بما يتجاوز المخ البيولوجى ودورة العمل اللابيولوجية.

قد يبدو هذا وكأنه رطانة مستقبلية غير مفهومة، وأنا أعترف بسعادة أنى كتبت الفقرة السابقة وأنا أهدف لأن أثير انتباهك، حتى ولو كان هذا لاغير باستخدام ذلك الطريق الذى فيه بعض خطر، طريق السعى إلى الوصول مباشرة إلى استهجانك للأمر! ولكنى أعتقد بالفعل أن هذه هى الحقيقة الحرفية والوضحة. وأنا أعتقد أنها فوق كل شىء حقيقة علمية، هى انعكاس لبعض حقائق عميقة مهمة تدور حول طبيعتنا البشرية الخاصة والتميز (وهاهنا بعض رائحة من المفارقة؟). وأنا بكل تأكيد لا أظن أن هذه النزعة إلى التهجين الإدراكى هى تطور حديث؛ والأولى أنها أحد مظاهر إنسانيتنا وهو مظهر أساسى وعتيق بما يماثل استخدامنا للكلام، مظهر ظل يوسع دائما من نطاقه.

نحن نرى بعضا من "أثر لحفورية إدراكية" للصفة الوراثية للسيبورج، فى التسلسل التاريخى للتكنولوجيات الإدراكية الفعالة التى بدأت بالكلام والعد، وقد تشكلا أولا فى النص والأرقام المكتوبة، ثم فى الطباعة القديمة (دون حروف مطبعية متحركة)، ووصولاً إلى ثورات حروف الطباعة المتحركة وآلة الطبع، ثم أحدث ما وصلنا له من التشفيرات الرقمية التى تجعل النص، والصوت، والصورة

(٢٠) المنهى، وحواء ٨، وسلك الكابل كلها أفلام خيال علمى فيها شخصيات سيبورجية. (المترجم)

داخل شكل متسق صالح للنقل على نطاق واسع. ما إن تم إنشاء هذه التكنولوجيات وسرت في شتى الأجهزة والمؤسسات التي تحيط بنا، حتى أدى ذلك إلى ما يتجاوز كثيرا مجرد أنها تتيح التخزين الخارجى للأفكار ونقلها. إنها تشكل سلسلة من الارتفاع في المنتج العقلي، تكديسات إدراكية يحدث فيها تعديل وتحويل المعمار الفعال للعقل البشرى.

هناك بالإضافة إلى ذلك تصاعد في استخدام هذه التكنولوجيات الإدراكية والمدى الذى تصل إليه ومدى قدراتها على التحويل. هناك موجات جديدة من التكنولوجيا الحساسة للمستخدم ربما ستصل سريعا بهذه العملية القديمة إلى ذروتها، مع ما يتواصل من تزايد اتجاه عقولنا وهويتنا إلى الوقوع عميقا فى شبكة قماشية لايولوجية من الماكينات، والأدوات، والدعامات، والشفرات، وأشياء شبه ذكية فى الحياة اليومية.

الواقع أننا نحن البشر ظللنا دائما بارعين فى تعشيق عقولنا ومهارتنا مع شكل الأدوات التى توجد لدينا حاليا هى والأجهزة المساعدة. ولكن عندما تبدأ هذه الأدوات والأجهزة المساعدة فى التعشيق وراء - عندما تواصل تكنولوجياتنا أن تقوم أوتوماتيكيا وبنشاط بتكليف أنفسها علينا حسب المقاس، تماما بما يماثل ما نفعله لها - يصبح الخط الفاصل بين الآلة والمستخدم مهلهلا بالفعل. ستصير هذه التكنولوجيات أقل انصافا بأنها مثل الأدوات وأكثر انصافا بأنها مثل جزء من الجهاز العقلي للشخص. وهى ستظل تعد كأدوات فحسب بالمعنى الغث، وهو معنى فيه فى النهاية مفارقة حيث سيعد أيضا كأدوات ما يوجد لدى من بنى عصبية تخصصنى وتعمل باللاوعى. (بنى مثل حصين مخى، وقشرته الجدارية الخلفية)، أنا واقعيلا لا "أستخدم" مخى؛ والأولى، أن عمليات المخ جزء مما يجعل لى هوية ويجعلنى ما أكون. وهذا أيضا هو الأمر بالنسبة لهذه الموجات الجديدة من التكنولوجيات الحساسة المتفاعلة. كلما أصبحت عوالمنا أحذق وكلما توصلت إلى معرفتنا بأفضل وأفضل، يصبح من الأصعب والأصعب أن نقول أين يقف العالم ويبدأ الشخص.

ما هي هذه التكنولوجيات؟ إنها كثيرة ومختلفة. وهي تتضمن ماكينات فعالة محمولة تصل بين المستخدم وشبكة تتزايد استجابة، شبكة ويب العالمية. ولكنها تتضمن أيضا ما قد يكون في النهاية أكثر أهمية، التحسين التدريجي والاتصال البيني المتزايد لأشياء الحياة اليومية الكثيرة التي نحتسب في بيوتنا ومكاتبنا.

على أن هدفي المباشر ليس في أن أتحدث عن التكنولوجيا الجديدة وإنما أن أتحدث عن أنفسنا، أتحدث عن إحساسنا بالذات وعن طبيعة العقل البشري. النقطة المهمة ليست في أن أخمن ما ربما سنصير إليه سريعا، وإنما أن نقدر على نحو أفضل ما نحن عليه بالفعل: كائنات لها عقول خاصة، وسبب ذلك على وجه الدقة أنها قد صنعت حسب الطلب لتمزج معا، ولتتوافق مع، حيل عصبية، وجسدية، وتكنولوجية.

أحسن ما تفهم عليه التكنولوجيات الإدراكية هو أنها أجزاء عميقة ومتكاملة من منظومات حل المشاكل التي تكون الذكاء البشري. وأفضل طريقة للنظر إليها هي أنها أجزاء من الجهاز الحوسبي الذي يكون عقولنا. إذا لم نر ذلك دائما، أو إذا بدت الفكرة لنا أجنبية أو سخيفة، سيكون سبب ذلك أننا واقعون في أسر رأي بسيط متحيز: الانحياز إلى أن كل ما له أهمية بالنسبة للعقل يجب أن يعتمد اعتمادا وحيدا على ما يجري داخل قربة الجلد البيولوجية، داخل القلعة العتيقة للجلد والجمجمة. ولكن هذه القلعة إنما بنيت من أجل أن تخرق. إنها بنية تكمن ميزتها جزئيا في قدرتها على أن تحرك برهافة أنشطتها لتشارك مع موارد النظام الخارجية اللابيولوجية بحيث يكون الهدف (الأصلي) هو الوصول إلى حل أفضل لمشاكل البقاء والتكاثر.

هيا ننظر في مثل مختصر إلا أن فيه ما يمثل الأمر، العملية المألوفة لكتابة مقال لصحيفة، أو ورقة بحث أكاديمية، أو فصل في كتاب. عندما نجابه في النهاية بالمنتج النهائي المصقول، ربما نجد أنفسنا ونحن نهئ عقلا على عمله البارع. ولكن هذا فيه ما يضل. السبب في أنه مضلل ليس ببساطة لأن معظم الأفكار (كالمعتاد) لم تكن بأي حال من أفكارنا الخاصة، ولكن السبب أن البنية والشكل يتدفق المنتج النهائي كثيرا ما تعتمد اعتمادا شديدا على الطرائق المعقدة التي يتعاون المخ فيها ويعتمد بها على شتى المعالم الخاصة للوسائط والتكنولوجيات

التي يتفاعل معها باستمرار. نحن ننحو إلى أن نفكر في أمخاذا على أنها نقطة المصدر لكل المحتوى النهائي. ولكننا عندما ننعم النظر بدقة أكثر، ربما نجد في كثير من الأحيان أن المخ البيولوجي قد أسهم في بعض حلقات لولبية فعالة ومتكررة من خلال البيئة الإدراكية التكنولوجية.

ربما نكون قد بدأنا بالنظر في بعض المذكرات القديمة، ثم تحولنا إلى بعض المصادر الأصلية. وبينما نحن نقرأ، يولد مخنا بعض استجابات قليلة فورية متشظية، تكون فيما ينبغي مخزونة كملاحظات على الصفحة أو في الهامش. وتتكرر الدورة، وتتوقف لتدور ثانية في لولب مرتد إلى الخطط والرسوم التخطيطية الأصلية، لتعدلها بالأسلوب نفسه المتشظي الفوري. هذه العملية من النقد، وإعادة التنظيم، وزيادة الانسيابية، والتربيط، كلها تتطور عميقا بالمعلومات بواسطة الصفات المحددة للوسائط الخارجية، التي تتيح لتسلسل من التفاعلات البسيطة أن يصبح منظما ويتنامى إلى شيء يشبه الحجة. ودور المخ في هذا حاسم وخاص، ولكنه ليس بكل القصة.

الحقيقة أن قوة وجمال دور المخ هي أنه يعمل كعامل وسيط في عمليات مختلفة معقدة ومتكررة تواصل إكمال الحلقة اللولبية بين المخ، والجسد، والبيئة التكنولوجية. وهذه المنظومة الأكبر هي التي تحل المشاكل. وهكذا فإننا نواجه بالمعادل الإدراكي لرؤية ريتشارد دوكنز للمظهر الممتد^(٣١). عملية الذكاء "تكون" بالضبط العملية الممتدة مكانيا وزمانيا التي تتطلق في خط متعرج بين المخ، والجسد، والعالم.

إحدى الطرائق المفيدة لفهم الدور الإدراكي للكثير من تكنولوجياتنا الإدراكية التي تتكون ذاتيا هي اعتبار أنها قادرة على أداء عمليات تكميلية لتلك التي تتأتى على نحو جد طبيعي لأمخاذا البيولوجية. ولننظر صورة "النظرية الوصلية"^(٣٢) للمخ البيولوجي على أنها عن أجهزة لتكميل النمط. تبرع هذه الأجهزة في ربط

(٣١) ريتشارد دوكنز عالم وراثيات إنجليزي معاصر ومشهور بكتبه الجماهيرية عن الوراثة والداروينية، ومنها كتاب "المظهر الممتد". (المترجم)

(٣٢) النظرية الوصلية نظرية بأن الوصلات بين العصبونات هي التي تحكم السلوك والتفكير. (المترجم)

أنماط المدخل الحسى الجارى مع المعلومات المترابطة: تسمع أول مقاطع من إحدى الأغاني فتتذكر الباقي، ترى ذيل الجرذ فتستحضر فى الذهن صورة الجرذ. هكذا يثبت أن الأجهزة الحوسبية من هذا النوع العريض ماهرة أقصى المهارة فى مهام مثل التنسيق الحسى الحركى، والتعرف على الوجوه، والتعرف على الأصوات، وهلم جرا. ولكنها ليست مهيأة على نحو جيد للمنطق الاستنباطى، والتخطيط، والمهام النمطية للتسلسل العقلى. وهى بصفة عامة تيرع كعلامة تجارية للعبة قرص المرمى البلاستيكى، ولكنها سيئة فى المنطق، وهذا البروفيل الإدراكى هو معا مألوف وأجنبى. مألوف لأن من الواضح أن الذكاء البشرى فيه بعض شىء من تلك النكهة، ولكنه أجنبى، لأننا نكرر تجاوز هذه الحدود، ونخطط لقضاء عطلات عائلية، وندير الاقتصادات، ونحل مشاكل تسلسلية معقدة، وهلم جرا.

ثمة فرض له فعاليته - لاقبته لأول مرة فى بحث لعلماء الإدراك دافيد روملهارت، وبول سمولنسكى، وجون ماك كليلاند، وجوفرى هنتون - وهو أننا نتجاوز هذه الحدود فى أغلبها بأن نولف بين العملية الداخلية لأحد الأجهزة الوصلية التى تكمل النمط وبين أنواع مختلفة من العمليات الخارجية والأدوات التى تفيد فى أن نختزل مختلف المشاكل التسلسلية المركبة إلى مجموعة منظمة من عمليات أبسط لتكملة النمط، تكون من النوع الذى ترتاح إليه أمأخنا كل الراحة. وبالتالي، فإننا باستعارة الصورة التوضيحية لهؤلاء العلماء، قد نعالج مشكلة عملية ضرب مطولة، مثل ضرب 667×999 بأن نستخدم قلماء، وورقة، ورموزا رقمية. ثم ننشغل فى عملية من تناولات وتخزين لرموز خارجية، حتى نختزل المشكلة المعقدة إلى تسلسل من خطوات بسيطة لاستكمال النمط تكون مما نسيطر عليه من قبل، فنضرب أولا 9×7 ونختزن النتيجة على الورق، ثم نضرب 6×9 ، وهلم جرا.

ألف عالم الأنثروبولوجيا الإدراكية إدوين هتشينز كتابا عنوانه "الإدراك فى البرية"، وفيه يوصف الدور العام للتكنولوجيات الإدراكية بلغة مشابهة، طارحا أن هذه الأدوات "تتيح (للمستخدمين) أداء المهام التى يلزم أن تؤدي فى أثناء أداء أمور

من النوع الذى يتقن الناس أداءه: التعرف على الأنماط، ونمذجة الديناميات البسيطة للعالم، ومعالجة الأمور فى البيئة". يتضمن هذا الوصف على نحو بارع أفضل ما يوجد بالنسبة للأمتثلة الجيدة من التكنولوجيا الإدراكية: الحزم الحديثة لمعالجة الكلمات، ومتصفحات ويب، ونظم الفأر والأيقونة، وما أشبه. (وبالطبع فإن هذا يطرح علينا أيضا ماذا كان الخطأ فى الكثير من محاولاتنا الأولى لخلق هذه الأدوات؛ سنجد أن المهارات التى نحتاجها لاستخدام هذه البيئات - مثل الأجهزة الأولى لمسجلات الفيديو كاسيت، ومعالجة الكلمات، إلخ - هى بالضبط المهارات التى تجد الأمخاخ البيولوجية أنها الأصعب فى دعمها، مثل استحضار وتنفيذ عمليات طويلة فى تتابعات هى أساسا تعسفية).

وإن فإن ما نحدسه هو أن إحدى الوثبات الكبيرة أو الانقطاعات فى تطور الإدراك البشرى تتضمن طريقة متميزة يحدث فيها أن الأمخاخ البشرية تكرر تكوين واستغلال أنواع مختلفة من التكنولوجيا الإدراكية حتى توسع وتعيد تشكيل فضاء العقل البشرى. فنحن نعمل بأكثر من أى كائن آخر فوق كوكبنا، على إعادة نشر العناصر اللابيولوجية (الأجهزة، والوسائط، والملاحظات) لاستكمال أساليبنا البيولوجية الأساسية للمعالجة (ولكن ليس لتكرارها نمطيا)، وبالتالي نكون نظاما إدراكية ممتدة تكون بروفيلاتنا الحوسبية هى وبروفيلاتنا لحل المشاكل مختلفة تماما عن تلك التى للمخ المجرد. الأمخاخ البشرية تبقى على نشاط إدراكى معقد مع وجود بيئة جديدة غير مسبقة إيكولوجيا لها قدرات تمكينية هائلة: عالم الرموز، والوسائط، والتمسك بما هو شكلى، والنصوص، والكلام، والآلات، والثقافة. هكذا تتدفق الدورة الحوسبية للإدراك البشرى فى الداخل من الرأس وكذلك أيضا فيما يتجاوز الرأس.

هذه النقطة ليست جديدة وقد بينها بوضوح مختلف المنظرين العاملين فى تراثات تقليدية كثيرة مختلفة. على أنى اعتقد أن فكرة أن الإدراك البشرى يبقى مستمرا فى معمار مهجن ممتد - معمار يتضمن جوانب من المخ وجوانب من الغلاف الإدراكى والتكنولوجى الذى تنتمى وتعمل فيه أمخاينا - هذه الفكرة قد

ظل يبخس تقديرها إلى حد واسع. والأمر ببساطة أننا لا يمكن أن نأمل في أن نفهم ما هو خاص وشديد القوة إلى حد متميز في كل من الفكر والعقل البشرى بأن نكتفى لا غير بأن نفقه شفويا بلا فاعلية بكلمات تدور حول أهمية هذه الشبكة من التكنولوجيات المحيطة بنا. نحن في حاجة إلى العمل على فهم تفصيلي بدرجة أكبر كثيرا لطريقة عمل المخ بنشاط للتعشيق بين الأنشطة التي يحل بها المشاكل وبين أنواع مختلفة من الموارد اللابيولوجية، وكيف يحدث للنظم الأكبر التي تتكون هكذا أن تعمل، وتغير، وتتفاعل، وتتطور. وبالإضافة، ربما سيكون من المهم سريعا (أخلاقيا، واجتماعيا، وسياسيا) أن نفكك علنا الروابط بين جوهر الأفكار عن العقول والأشخاص وبين صورة الحدود، والخصائص، والمواضع، والقيود لدى الكائن البيولوجي القاعدي.

هناك سؤال مهم ينبغي التأكيد عليه: لا يوجد أي نوع آخر فوق كوكبنا يبنى مثلنا بيئات تصميمية يمثل هذا التنوع والتعدد والنهايات المفتوحة (على كل، فإن ثمة دعوى بأن هذا هو السبب في أننا لنا هكذا خصوصيتنا)، ما الذي أتاح لهذه العملية أن تتطرق محلقة بنوعنا بمثل هذه الطريقة الرائعة؟ أليس ذلك، أيا ما يكون، هو ما يهيم حقا؟ أو إذا صغنا الأمر بطريقة أخرى، إذا كانت بيئات التصميم هي التي تجعلنا أذكيا هكذا، أليس الأمر أن هناك بعض اختلاف بيولوجي عميق هو الذي يتيح لنا أن نبنيها / أو نكتشفها / أو نستخدمها في المقام الأول؟

هذا سؤال خطير، ومهم، ولم يحل إلى حد كبير. من الواضح أنه يجب أن يكون هناك بعض اختلاف بيولوجي (ربما يكون صغيرا نوعا) هو الذي يتيح لنا أن نولج قدمنا الجماعية داخل باب التصميم - البيئة. ما الذي يمكن أن يكونه هذا الاختلاف؟ إحدى القصص الممكنة تحدد موضع الاختلاف في ابتكار بيولوجي هو اللدونة واسعة الانتشار في قشرة المخ وقد تولف معها فترة زمنية طويلة من التعلم تحت الحماية تسمى فترة الطفولة. وبالتالي فإن علماء البنائية العصبية مثل سستيف كوارتز وتيرى سيجنوسكى يصفون النمو العصبى (خاصة لقشرة المخ) على أنه يعتمد على الممارسة وأنه يتضمن البناء الفعلى لدورة عمل عصبية جديدة (مشابك،

ومحاورات، وغصون)^(٢٣) بحيث إن الأمر ليس مجرد ضبط دقيق لدورة عمل قد تحدد من قبل مالها من أشكال وصيغ أساسية. إحدى نتائج ذلك أن أداة التعليم نفسها تتغير كنتيجة للتفاعلات بين الكائن الحي والبيئة. لا يقتصر التعليم على أنه يعدل فحسب قاعدة المعرفة بالنسبة لجهاز حوسبة ثابت؛ وإنما هو يعدل أيضا نفس المعمار الحوسبي الداخلى. وبالتالي فإن البيانات اللغوية والتكنولوجية التى تنمو فيها الأمخاخ البشرية وتتطور تصبح مهياة لأن تقوم بوظيفتها كنقط ارتكاز تتكيف وتتلاءم من حولها تلك الموارد العصبية المرنة.

ربما يكون من الخطأ إذن أن نفترض وجود "طبيعة بشرية" ثابتة بيولوجيا لها غلاف بسيط من الأدوات والثقافة، ذلك أن الأدوات والثقافة لها دورها فى تحديد طبيعتنا بقدر يماثل دورها كمنتجات لطبيعتنا. أمخاخنا (بالتبيعة) لدنة إلى حد غير معتاد؛ وحتى تؤدى بيولوجيا وظيفتها على الوجه الصحيح ظل ذلك يتطلب دائما حشد واستغلال ودعامات وسقالات غير بيولوجية. نحن البشر، بأكثر من أى كائن آخر فوق كوكبنا، قد انبتنا "كسيبورات مولودة طبيعيا"، قام مصنعها بتعديلها وإنضاجها حتى تكون مهياة لأن تنمو إلى كيانات معمارية ممتدة إدراكيا وحوسبيا، كيانات معمارية حدودها الشاملة تتجاوز إلى حد بعيد حدود الجلد والجمجمة.

يضيف هذا كله تعقدا مثير للاهتمام إلى تلك التفسيرات السيكلولوجية التطورية التى تؤكد على أهمية بيئات أسلافنا. ذلك أننا يجب الآن أن نأخذ فى الحسبان أن هناك غلافا تطوريا لدنا إلى حد استثنائى ينتج عنه دائما هدف يتحرك تحركا مستمرا، معمار إدراكى ممتد يمكن انتظامه أساسا فى تفتح المستمر للتغير. وحتى عندما نسلم بأن الابتكارات البيولوجية التى تجعل هذه الكرة تتدحرج قد تكونت فقط من بعض تكييفات صغيرة فى مخزون لخيرة سلفية، فإن نتيجة هذا التعديل الرهيف تكون وثبة مفاجئة هائلة فى فضاء المعمار الإدراكى. ماكينتنا الإدراكية مسارها يتسارع الآن على نحو متواصل فى تحول وتوسع يتأسسان على

(٢٣) أجزاء من الشبكة العصبية فى الجهاز العصبى. (المترجم)

التكنولوجيا، وفي عملية تتضمّن ككرة الثلج وتتواصل ذاتياً، هي عملية للتنامي حوسبياً وتمثلياً. ماكينة العقل البشرى المعاصر تنغرز جذورها في عملية تقدم بيولوجى متضايّف، بينما هي موجودة في نفس الوقت على الجانب البعيد من جرف شديد الانحدار في فضاء المعمار الإنراكى.

الخلاصة، أن مشروع فهم الفكر والعقل البشرى أمر يسهل ويتكرر أن يساء فهمه. فهو يساء فهمه كمشروع لفهم وجه الخصوصية في المخ البشرى. لاريب أنه يوجد شىء خاص فيما يتعلّق بأماخنا. ولكن فهما لبروفيلاتنا الخاصة كمتعلّين، ومفكرين، وعارفين لعوالمنا يتطلّب حتى منظورا أوسع: يتطلّب منظورا يستهدف العديد من الأمّاخ والأجساد التى تعمل في بيئات تم بناؤها بوجه خاص وهى مفعمة بالمصنوعات، والرموز الخارجيّة، وكل تلك السقالات المتنوعة من العلم، والفن، والثقافة.

يتطلّب فهم ما هو متميز بالنسبة للعقل البشرى أن نفهم الإسهامات المتكاملة للبيولوجيا معا هي والتكنولوجيا (بالمعنى الواسع)، وكذلك أيضا الأنماط التبادلية الكثيفة إلى تجرى بينهما بفعل التأثيرات السببية والمصاحبة للتطور. لن نستطيع أن نرى أنفسنا رؤية صحيحة إلا إذا رأينا أنفسنا على أننا سيبورجات الطبيعة التى تنتمى إليها كل الانتماء، هجن إدراكية تحتل على نحو متكرر مناطق من فضاء التصميم تختلف جذريا عن تلك التى كانت عند أسلافنا البيولوجيين: ولاريب أن المهمة الشاقة الآن هي أن نحول كل هذا من مجرد رسم تخطيطى انطباعى إلى تفسير علمى متزن للعقل الممتد.

عقول الحيوانات

مارك د. هاويز^(٣٤)

أخذنا فى أبحاثى الخاصة ننظر فى أنواع الحوسبة التى تكون الحيوانات هى والأطفال الرضع من البشر قادرين عليها عند تفاعلهم مع العالم الفيزيقي والاجتماعي. فنحن نود أن نفهم الطريقة التى تطورت بها هذه القدرات والطريقة التى تقيد بها التفكير.

(٣٤) مارك د. هاويز عالم فى علم الأعصاب والإدراك فى جامعة هارفارد، حيث يعمل أستاذا بكلية هارفارد، وأستاذا فى قسم علم النفس وبرنامج العلوم العصبية، ومديرا لبرنامج العقل، والمنح، والسلوك. وهو مؤلف تطور التواصل؛ و"الحيوانات البرية"؛ وكتابين آخرين فى الطريق، "الناس، أو الحيوانات الأليفة، أو الملكية؟" و"ما يجب: حتمية القواعد الأخلاقية الشاملة".

تتعلق بعض المشاكل التى ظللنا نتناولها فى العلوم العصبية والعلوم الإدراكية بالحالة الأصلية للكائنات الحية. ما الذى تكون الحيوانات، بما فيها البشر، مجهزة به عندما تأتى إلى هذا العالم؟ ما الأدوات العقلية التى تكون لديهم ليتغلبوا بها على مشاكل العالم الفيزيقي والاجتماعي؟ هناك بعض وهم فى العلوم العصبية بأننا قد أخذنا نفهم حقا طريقة عمل المخ. ألقى نعوم شومسكى مؤخرا حديثا عنوانه "اللغة والمخ"، حذر فيه علماء الأعصاب من قلة ما نعرفه، خاصة عندما يتعلق الأمر بفهم الطريقة التى يتناول بها المخ اللغة.

هاكم الفكرة التى عالجها شومسكى، والتى أعتقد أنها صحيحة، وتشكل جزءا جوهريا من طريقة التناول التى أتبعها فى بحثي. عندما ننظر أمر منظومة إدراكية، سنحتاج إلى الإجابة عن ثلاثة أسئلة. الأول، ما الذى يكون المعرفة فى مجال معين، مثل اللغة أو الموسيقى أو الأخلاقيات؟ والثانى، ما طريقة اكتساب هذه المعرفة؟ والثالث، ما طريقة استخدام هذه المعرفة فى العالم؟ دعنا نأخذ منظومة بسيطة جدا تصلح جيدا فى أداء نوع من الحوسبة يتأسس على نوع معين من معرفة العالم: نحل العسل: هذه الحشرة دقيقة الحجم - بمخها دقيق الحجم، وجهازها العصبى البسيط - لها القدرة على نقل معلومات إلى مستعمرتها تدور حول المكان الذى كانت فيه وما الذى أكلته، وهذه المعلومات تتسم بدرجة من الدقة تكفى لأن تجعل أعضاء المستعمرة يتمكنون من أن يذهبوا منطلقين للعشور على الطعام. ونحن نعرف أن هذا النوع من المعلومات مشفر فى الإشارات بسبب ما اكتشفناه من نحلة روبوتية، برمجت لترقص بطريقة معينة ولأن تكرر سلوك النحلة الحقيقية؛ نستطيع أن نرمى هذه النحلة الروبوت وسط إحدى المستعمرات، وأن نجعلها ترقص بأسلوب مخالف، وسيحصل أعضاء الخلية على هذه المعلومات وينطلقون إلى الموضع المحدد. ولكننا عندما نرجع خطوة للوراء لنسأل؛ "ما الذى نعرفه عن الطريقة التى يتمثل بها (مخ) النحلة هذا النوع من المعلومات؟" ستكون الإجابة "نحن تقريبا لا نعرف أى شئ". ففهمنا للطريقة التى يتمثل بها مخ النحلة رقصتها - أى لغتها - هو فهم سيئ. وذلك مع أننا ننظر لا غير أمر جهاز عصبى

بسيط نسبياً، خاصة عندما نقارنه بالجهاز العصبى البشرى. وهذا الاستنتاج ليس فيه أى شىء يقوض التقدم الذى أنجزه باحثو النحل عندما وثقوا ما يعرفه النحل عن العالم، والطريقة التى يعرف بها النحل ذلك، والطريقة التى ينشره بها. إن ما يفوتنا فهمه، أو على الأقل مانسئ فهمه، هو الطريقة التى يتمثل بها مخ النحلة ما يعرفه، والطريقة التى يكتسب بها المخ هذه المعلومات وينشرها.

النقطة الرئيسية عند شومسكى هى أن ما نعرفه عن طريقة تمثيل المخ البشرى للغة هو عند مستوى معين شىء تافه. توصل علماء الأعصاب إلى أوجه تقدم كثيرة، بحيث إننا نعرف ما هى مناطق المخ، التى عندما تصاب بالتلف، ستتحى بعض جوانب من القدرة اللغوية؛ وكمثل فإن تلف منطقة معينة من المخ ينتج عنه فقدان تمثيل الحروف الساكنة، بينما ينتج عن تلف منطقة أخرى فقدان تمثيل الحروف المتحركة. ولكننا لا نعرف إلا القليل نسبياً عن طريقة تمثيل دورة عمل المخ للحروف الساكنة والمتحركة. مازالت هناك هوة واسعة جداً بين الفهم الحالى للمخ فى علم الأعصاب وبين فهم تمثلات مثل اللغة.

ثمة نقطة لها علاقة بالموضوع تختص بالطريقة التى تطور بها ما هو داخلى من حوسبيات وميكانيزمات تكمن فى الأساس من اكتساب المعرفة. ولننظر أمر اللغة مرة أخرى. فى وسعنا أن نسأل عما إذا كانت الحيوانات الأخرى تتشارك معنا فى هذه القدرة. وإذا لم تكن كذلك، فهل السبب هو أن الحيوانات تقتصر الحوسبيات الداخلية أو أن السبب هو قيود تقبع خارج القدرة اللغوية البحتة، مثل عدم كفاية الذاكرة أو القدرة على المحاكاة؟ سنجد فى الرئيسيات أن فصوص المخ الجبهية، التى تلعب دوراً فى تخزين التمثيلات على المدى القصير، قد تم فيها تغيير هائل عبر الزمن. وبالتالي فإن القرود العليا، أوثق أقاربنا الأحياء، ليس لديها فيما يحتمل البنى العصبية التى تتيح لها أداء أنواع الحوسبة اللازمة للقيام بمعالجة اللغة، بما فى ذلك الاحتفاظ بخطط طويلة من التعبيرات فى العقل من أجل معالجة المعنى. أخذنا فى أبحاثنا الخاصة ننظر فى أنواع الحوسبة التى تكون الحيوانات هى والأطفال الرضع من البشر قادرين عليها عند تفاعلهم مع العالم الفيزيقي

والاجتماعى. فنحن نود أن نفهم الطريقة التى تطورت بها هذه القدرات والطريقة التى تقيد بها التفكير.

حيثما تقوم الطبيعة بتكوين منظومات تبدو ذات نهاية مفتوحة ومولدة للناتج، نجد أن هذه المنظومات تستخدم مجموعة منفصلة من عناصر قابلة للتوليف. والسؤال الذى نستطيع أن نلقيه فى علم البيولوجيا هو، "ما نوع المنظومات التى تكون قادرة على القيام بتلك الأنواع من العمليات الحوسبية؟" يبدو أن الكثير من الكائنات الحية لها القدرة على أداء حوسبات إحصائية بسيطة، مثل الاحتمالات المشروطة التى تركز على توابع محلية: "إذا" حدث (أ) سيحدث "إن" (ب). هناك الكثير من الحيوانات التى يبدو أنها قادرة على ذلك. ولكننا عندما نخطو إلى المستوى التالى فى التراتب الحوسبى - المستوى الذى يتطلب إدراك التكرار - سنجد قيودا هائلة عند الحيوانات كما عند الرضع من البشر - وكمثل فإن الحيوان الذى يستطيع أداء "إذا كان (أ) إذن (ب)" سيجد صعوبة كبيرة فى أداء "إذا كان (أ) مكررا حتى (ن) إذن تكون (ب) مكررا حتى (ن)". سيكون لدينا الآن حلقة لولبية، قاعدة ترجع إلى نفسها وتولد نسبيا مدى لا حدود له من التعبيرات. إذا كانت الحيوانات محرومة من هذه القدرة، وهى فيما يبدو محرومة منها حقا، سنكون إذن قد تعرفنا على قيد تطورى. طور البشر القدرة على إدراك التكرار، وقد أدى هذا النوع من الحوسبة إلى تحريرنا تحريرا هائلا، وأتاح لنا أداء الحسابات وكذلك أداء اللغة. وهذه المنظومة من أخذ العناصر المنفصلة وتوليفها معا هى ما يمنح الوارثيات والكيمياء بنيتهما ذات النهاية المفتوحة. وباعتبار هذا النمط، ستكون الأسئلة المثيرة للاهتمام هى: ما الضغوط الانتخابية التى أدت إلى تطور منظومة إدراك التكرار؟ ما السبب فى أن البشر فيما يبدو هم الكائنات الوحيدة فوق كوكبنا، والمنظومة الطبيعية الوحيدة، التى لديها هذه القدرة؟ ما الضغوط التى كونت هذه القدرة؟

وفيما يتعلق بالذكاء الاصطناعى، ما هى أنواع الضغوط التى تؤدى بمنظومة الذكاء الاصطناعى إلى هذه النقطة النهائية؟ إحدى المشاكل المثيرة للاهتمام بالنسبة للمنظومات البيولوجية والطبيعية والمنظومات الاصطناعية هى ما

إذا كان يمكن أن يلتقي الاثنان. ما هي أنواع الضغوط التي تؤدي إلى القدرة على إدراك التكرار؟ لا تزودنا البيولوجيا المقارنة حاليًا بأي لمحة مفيدة في ذلك، لأننا ببساطة لدينا نقطتان نهائيتان، البشر الذين لديهم هذه القدرة والكائنات الحية الأخرى التي يبدو أنها ليست لديها هذه القدرة. مازالت هذه المنطقة من التحول التطوري منطقة معتمدة.

الأسئلة الكبيرة التي في ذهني هي تلك الأسئلة التي ليس لدينا إجابة عنها: أسئلة مثل، "لماذا يكون نوع "الهوموسابينز" النوع الوحيد الذي يذرف دموعا عندما يبكي؟" الانفعالات التي تثير الدموع يتشارك فيها مع البشر والحيوانات، ومع ذلك فنحن النوع الوحيد الذي يولد مخرجاً فيزيقياً لتلك الانفعالات. عندما ننظر إلى البكاء من منظور تطوري، وهذا أمر لم يتم إجراؤه في الواقع، سنبدأ في الحصول على بعض الإجابات. البكاء، بخلاف كل التعبيرات الانفعالية الأخرى يخلف أثراً فيزيقياً طويل المدى. وهو يعشى البصر، وبالتالي فهو مكلف. وهو أيضاً مما يصعب جداً تزييفه. وهذا يطرح فكرة اقترحها البيولوجي التطوري أموتر زاهافي من سنوات كثيرة: الإشارات التي يكون أداؤها مكلفاً هي إشارات أمينة؛ نستطيع أن ننظر إلى إحدى الإشارات ونستنتج مدى أمانتها على أساس تكلفة التعبير. والبكاء هو بالإمكان إحدى هذه الإشارات الأمينة؛ بل إن من المهم للممثلين أن يخبروا الإحساس بالفعل قبل أن يتمكنوا من توليد التعبير، وحتى عند ذلك يكون من الصعب عليهم فعل ذلك على نحو طبيعي. نحن نعرف أن الحيوانات تخبر الحزن، على أن من الصعب القول بما إذا كانت تخبر الابتهاج، ولكنها ولأريب لديها الانفعالات التي تصاحب البكاء بالدموع، حتى وإن لم يكن لديها هذه الصلة في المخ. وليس الأمر أن الحيوانات لا تذرف دموعاً، ذلك أنها تفعل ذلك عندما تتيج أعينها فيزيقياً؛ ولكن الأمر هو أنها ينقصها بعض صلة عصبية بين الحالة النفسية التي تكمن في الأساس من الانفعال والصلة بالمنظومة التي تكون الدموع. عندما نقول إنها ينقصها هذه الصلة في المخ فإن هذا فيه إجابة على مستوى واحد من التحليل، مستوى الميكانيزم: ما هي ميكانيزمات المخ التي تدعم البكاء؟ يكون مما يثير الاهتمام أكثر أن نتخذ طريقة التناول التطورية ونسأل عن

السبب فى أننا نبقى بدموع بينما الحيوانات الأخرى لا تفعل ذلك. والإجابة هى أن البكاء تعبير ينقل بأمانة.

ظللت طوال السنوات المديدة الأخيرة أستخدم الأدوات النظرية للبيولوجيا التطورية من أجل إلقاء أسئلة حول تصميم عقول الحيوانات. هناك فكرة بأن دور البيئة فى التكيف التطورى قد تحدد بفترة الصيادين /جامعى الثمار فى عصر البليو-البليستيسين^(٣٥)، وإذا كان هذه الفكرة صادقة بالنسبة لبعض جوانب العقل البشرى فإنها فيما يحتمل خطأ بالنسبة لجوانب أخرى كثيرة. كيف تقوم الكائنات الحية بالملاحة خلال المكان؟ كيف تقوم بعد الأشياء فى بيئتها؟ من المحتمل أن هذه الجوانب تشارك فيها حيوانات مختلفة اختلافا واسعا. بدلا من أن نقرر أن العقل البشرى قد تطور واتخذ شكله فى أثناء فترة البليو - البليستيسين، سيكون الأكثر ملاءمة أن نتساءل عما حدث فى هذه الفترة وأدى إلى تكوين بصمة معينة للعقل البشرى لا توجد فى الحيوانات الأخرى.

أخذت أنظر فى مجالات مختلفة من المعرفة وأنا أتساءل عما تكونه الضغوط الانتخابية التى شكلت الطريقة التى تفكر بها الكائنات المختلفة. أحاول أن أبعد عن طريقة التناول الشائعة فى التفكير حول البشر، وتطور البشر، وإدراك الحيوانات، طريقة تؤدى إلى أن البشر متفردون، وهذه هى نهاية القصة. على أن "كل" الحيوانات متفردة، والسؤال الذى يثير الاهتمام حقا هو عن الطريقة التى صممت بها عقول الحيوانات بواسطة مشاكل اجتماعية وإيكولوجية معينة تلقى بها البيئة على الحيوانات. وكمثل، بدلا من أن نقرر أن البشر متفردون، دعنا نسأل: ما الضغوط التى واجهها البشر ولم يواجهها حيوان آخر وأنت إلى تكوين انتخاب لتطور اللغة؟ لماذا تستطيع الكائنات الحية الأخرى أن تدبر أمرها بأنواع منظومات الاتصال التى لديها؟ لماذا طورنا نحن رؤية الألوان؟ لماذا لم تطور الكائنات الأخرى رؤية الألوان؟ لماذا تستطيع حيوانات معينة أن تقوم بالملاحة فى

(٣٥) البليوسين خامس عصور حقبة الحياة الحديثة، وكثرت فيه الأحياء الحديثة وبدأ ظهور الإنسان وانتهى من حوالى ٢ مليون سنة. والبليستيسين سادس عصور حقبة الحياة الحديثة، وانقرضت فى أثناءه الثدييات العظيمة وبزغ فجر الثقافة الفكرية والصناعية. (المترجم)

الفضاء باستخدام ميكانيزم بسيط مثل تقدير الموضع، بينما تكون حيوانات أخرى فى حاجة لأنواع أخرى من الماكينات حتى تستطيع التحرك فى الفضاء؟ لماذا قد نكون الحيوانات الوحيدة، أو ربما أحد الأنواع القليلة من الحيوانات، التى لها القدرة على صنع استنتاجات حول ما يعتقد ويرغب فيه الأفراد الآخرون؟

تؤدى هذه الطريقة فى تناول دراسة الحيوانات والبشر إلى أن تجلب هذين الفرعين من المعرفة معا لأول مرة وهما يتسلحان بمناهج المقارنة العلمية الجديدة. نحن ندخل الآن فى فترة من دراسة عقول الحيوانات نستطيع فيها استخدام تكتيكات هى فى جزء منها قد نشأت عن دراسة البشر، خاصة الأطفال الرضع من البشر؛ ونجد بالعكس أن المناهج التى نشأت عن دراسة الحيوانات يستخدمها الآن علماء الإدراك الذين يدرسون البشر. وهناك أحد أمثلة ذلك: هناك باحثون يدرسون تنامى الإدراك، مثل سوزان كارى، وإليزابيث سبيك، ورينيه بيلارجيون، وقد استخدم هؤلاء تكتيكا جديا فيه سؤال للأطفال الرضع من البشر - وهم بالطبع ينقصهم وجود منظومة لغوية وظيفية - ويدور هذا السؤال حول طريقة تفكير الرضع فى العالم. والتكتيك بسيط، هو حقا كأنه مجرد شىء من السحر. والفكرة هى أننا عندما نراقب العروض السحرية، مثل تلك التى يعرضها هودينى العظيم أو دافيد كوبر فيلد، فإننا نصبح مشغولين بها لأن الساحر يخلق انتهاكات أمام أعيننا نفسها؛ وهى على الأقل انتهاكات تتأسس على التوقعات التى نولدها فيما يتعلق بالعالم الفيزيقي. وكمثل فإن الأجساد البشرية لا يمكن أن تقطع إلى نصفين يعاد تجميعهما معا مرة أخرى. عندما يستحوذ على انتباهنا منطق عرض سحرى أو التأثيرات الخاصة فى أحد أفلام السينما، يكون ذلك بالضبط لأن توقعاتنا قد تم انتهاكها. نستطيع أن نسأل عما تكونه التوقعات التى يأتى بها الرضع أو الحيوانات غير البشرية إلى العالم فيما يتعلق بالطريقة التى ينبغى أن تعمل بها الأشياء، والمدى الذى يحدث به أن أنواعا معينة من الخبرات تغير توقعاتهم. إذا كان الأطفال والحيوانات لهم أيضا توقعات محددة، سنكون فيما ينبغى قادرين على خلق عرض سحرى وأن نستحوذ على انتباههم. وينبغى أن يظهروا اهتماما بالعرض السحرى أكثر مما يحدث عند إجراء بيان عملى مشابه يتسق مع الطريقة التى تجرى بها أمور العالم.

حتى نوضح ذلك، دعنا ننظر أمر معرفة منظومة الأرقام التي في الأساس من عمليات الحساب. دعنا نتخيل مسرحا مفتوحا، وثمة ستار يقام ليحجب المسرح، ونجعل شيئا من الأشياء يتحرك خلف الستار، يتبعه شيء ثان، ولنسميهما ميكى ماوس (١) وميكى ماوس (٢). نحن في عقولنا نتمثل شيئين من الميكى ماوس. ثم نزيل الستار، فن توقع رؤية شيئين من الميكى ماوس. فإذا رأينا ثلاثة، أو رأينا فقط واحدا، يكون هذا انتهاكا لتوقعاتنا، لأن لم يحدث على نحو مرئى أن أضيف أو حذف أى شيء مما كان وراء الستار. والواقع أن الأطفال الرضع من البشر الذين يكون عمرهم حوالى أربعة إلى خمسة شهور سيوجهون نظرهم لمدة أطول عندما يرون نتيجة كهذه بدلا من رؤية الشيئين اللذين من الواضح أنهم يتوقعونهما. أجرينا أنا وتلامذتى التجربة نفسها على أفراد من نوعين من الرئيسيات غير البشرية - قرود ريسوس التى تعيش حياة برية فى جزيرة كايو سانتياجو البورتوريكية، وقرود طمارين ذات القمة القطنية فى معملى بهارفارد - ووجدنا النتائج نفسها بالضبط التى وجدها عالم النفس كارن وين مع الرضع من البشر. أثارت هذه النتائج سؤالا مهما عما إذا كانت جوانب معينة من مقدرتنا على العد - معرفة العدد - هى جوانب متأصلة. هذا السؤال مهم حتى نفهم الميكانيزمات التى فى الأساس من التعبير التتموى والتطورى وحتى نفهم العلاقة بين اللغة والفكر. والحقيقة أنه حيث إن الحيوانات تنقصها اللغة، فإن دراسة تمثلاتها العقلية توفر لنا طريقة رائعة فى وضوحها نستكشف بها تحت أى ظروف تكون اللغة ضرورية للفكر.

تطرح دراسات الرضع من البشر هم والحيوانات أن التطور قد أضفى على هذه الكائنات ميكانيزمين حوسبيين جوهريين بالنسبة للأعداد، أحدهما يمكن من التمييز الدقيق للأعداد الصغيرة حتى ما يقرب من الأربعة والثانى يمكن من التمييز التقريبي للأعداد الكبيرة. هذان الميكانيزمان هما فى الأساس من معرفتهم للعدد. أما ما لايزال من غير الواضح فهو الطريقة التى يعمل بها هذان الميكانيزمان، وربما أيضا غيرهما، من أجل خلق نوع مختلف من معرفة الأعداد، النوع الذى يكمن فى الأساس من قدرة البالغين. ليس من حيوان يستطيع أن يحوز القائمة الكلية التى

توجد فى الصميم من منظوماتنا الحسابية. هذا إقرار بالحقائق الجارية حاليا. إذا كان هذا صحيحا، فإننا نحتاج إلى أن نسأل بعدها، لماذا لا يوجد عند الحيوانات والرضع من البشر هذه المنظومة من المعرفة؟ نحن نعرف أن البشر عند نقطة ما يستطيعون أداء حساب التفاضل، وأن يصبحوا عاملين بالبنوك، وأن يؤدوا ضرائبهم، ولكن غير البشر لا يستطيعون ذلك. ما الذى يحدث فى سياق التتالى ويفصل الطفل البشرى عن الحيوان غير البشرى؟ لو عينا نقطة التفرق، سوف نتمكن من أن نوضح ما تكونه القدرة الإدراكية التى تكمن فى الأساس من معرفة البالغين بالأعداد والتى تتنامى فى الطفل وتفشل فى أن تتطور فى الحيوانات اللا بشرية. وعندما نعين أوجه التشابه وكذلك أيضا أوجه الاختلاف، سنبدأ فى أن نرى نمط تطور فريد فى نوعنا نحن ونرى كذلك ما للآخرين من نمط فريد.

أحد الجوانب المبتكرة تماما فى أبحاثى هو أننى بخلاف الباحثين الآخرين الذين يقيدون أنفسهم بدراسات فى البرية أو فى الأسر وهم يعملون على نوع واحد، فإننى قد اتبعت على الأقل أربع طرائق تناول مختلفة لاكتشف ما تعرفه الحيوانات، وما تفكر فيها، وما تتمثله.

وأول طريقة هى الدراسات الميدانية. فأنا أذهب إلى البرية لأتفهم ما يكونه نوع المشاكل التى شكلت تصميم أمخاخ الحيوانات فى موطنها البيئى الطبيعى. عندما نراقب ما تفعله الحيوانات يخبرنا ذلك بالمشاكل التى يلزم لمخاخهم أن تحلها. (لاريب فى أن المنطق نفسه ينطبق على البشر، وهو أحد الأسباب فى أن دراسة عقل الإنسان ينبغى ألا تنحصر فى الدراسات المعملية؛ نحن فى حاجة لأن نستنتج ما تكونه أنواع المشاكل التى يواجهها البشر حتى نفهم كيف نحتت عقولنا بواسطة القوى البيئية). وكمثل، يبين بحثى فى بورتوريكو أن قرود الريسوس تصدر أصوات نداء مختلفة بالنسبة لأنواع الطعام المختلفة. ولا يقتصر هذا على أنه يطرح أن هذه القردة تستطيع إصدار أصوات تتقل شيئا عن انفعالاتها وعن حالتها من حيث دوافعها وكذلك أيضا عن نوع أو جودة الطعام، ولكنه يطرح أيضا أن هذه القردة تصنع تمييزات مهمة بين الأشياء. يمكننا أن نسأل كيف يصنعون

هذه التمييزات، وكيف يختزنون هذه المعرفة، وكيف يكتسبونها. ونستطيع بعدها أن نجرى تجارب تصمم لتناسب سلوك الحيوانات البرية، حتى نستكشف كيف يتمثلون معرفة الطعام وكيف يستخدمون هذه المعرفة للتواصل مع الآخرين.

وهكذا أخذت انطلق إلى العمل الميداني، وأراقب ما تفعله الحيوانات طبيعياً، ثم أعود إلى المعمل، حيث لدينا تحكم تجريبي أكثر، وأسأل أسئلة محددة حول ما لهذه القروء من قدرات إدراكية. لاحظنا في المعمل أن الحيوانات فيما يبدو تميز كل أنواع الأشياء في عالمها، وتساءلنا عما تكونه المعالم التي لها علاقة بهذا النوع من التمييز. تجمع لدينا الآن ثلاثون سنة من الدراسات التي توضح أن هذه الحيوانات تستخدم أدوات لاستخلاص الطعام من بيئتها. ولكن أياً من هذه الدراسات لم توضح ما تكونه أنواع التمثلات التي تستحضرها الحيوانات لمهمة استخدام أداة. وهاكم السؤال: نحن كبشر نعرف أن هناك معالم معينة للأداة تكون مهمة للأداة ومعالم معينة ليست لها أهمية. وكمثل، فإن معظم غسالات الأطباق تكون بيضاء، ولكننا إذا دخلنا مطبخاً ورأينا غسالة أطباق لونها كقوس قزح لن نقول، "هذه غسالة لا تصلح. لا يمكن غسل الأطباق القذرة في هذا الشيء". فنحن نعرف أن اللون لا أهمية له بالنسبة لكون هذه غسالة أطباق جيدة أو سيئة. عندما نرى حيوانات في البرية - كأفراد الشمبانزي مثلاً - وهم يستخدمون الحجارة لكسر الجوز وفتحه، يصبح السؤال عندها: لو قدمنا لهم قطعة حجر ومعها كذلك مطرقة إرزية، هل سيدركون أن الإرزية قد صممت لتكون أفضل للمهمة من قطعة الحجر؟ هل سيفضلون الإرزية؟ هل سيدركون أننا عندما ندهن قطعة الحجر باللون الأحمر، فإن هذا لن يؤدي إلى أي اختلاف في أدائها الوظيفي؟ قمنا في المعمل بمعالجة منهجية لكل معالم الأشياء، ماله وما ليس له أهمية، لنرى إن كانت الحيوانات تصنع قرارها بناء على تلك المعالم. واكتشفنا أن الحيوانات تكون في الحقيقة حساسة تماماً للمعالم التي لها علاقة بالأداء الوظيفي، متجاهلة الاختلافات التي ليس لها تأثير في المهمة. فمعرفتهم في جوهرها ليست خيطاً من التداعيات وإنما هي مجموعة من القواعد لتنظيم مجالات المعرفة المختلفة.

الخطوة الثالثة فى هذا البرنامج من الأبحاث هى أن تؤخذ هذه المشاكل إلى مستوى أكثر اتساما بأنه فيزيولوجى عصبى. أخذنا نجرى تجارب بالاشتراك مع علماء أعصاب فى شتى أنحاء الولايات المتحدة وفى نطاق دولى أيضا، وذلك للنظر فى الطريقة التى تتبعها أمخاخ قروود الرئيسوس بالذات لفك شفرة المعلومات التى فى تعبيراتهم الصوتية. استخدمنا تسجيلات من عصبونات فى مختلف المناطق السمعية للمخ، ثم أعدنا تشغيل تسجيلات للتعبيرات الصوتية التى أخذت من ذخيرتهم هذه لنرى كيف يقوم جهازهم العصبى بفك شفرة هذه المعلومات. تعد هذه نسبيا أبحاثا جديدة؛ إذا كنا قد اكتسبنا الآن بعد زمن طويل قدرا لا يصدق من المعرفة التى تتعلق بالبيولوجيا العصبية للإبصار باستخدام قروود الرئيسوس كنموذج، إلا أننا تقريبا لم نفعل شيئا من حيث وظيفة السمع. على أن أحد القيود المعوقة لفهمنا حاليا لتطور اللغة والكلام هو ما ينقصنا من معرفة للبيولوجيا العصبية التى فى الأساس من هذه المنظومة البالغة فى تعقدها الخيالى. هناك تاريخ طويل لهذا النوع من الأبحاث التى أجريت على الحشرات، والطيور، والضفادع، والخفافيش، إلا أنه لا يكاد يوجد شيء عن الرئيسيات أقرب أقربائنا الأحياء. هانحن لدينا الآن لأول مرة الأدوات لسبر الطريقة التى تقوم بها الرئيسيات غير البشرية بتشفير وفك شفرة التعبيرات الصوتية.

والخطوة الرابعة هى الدراسات المقارنة التى أشرت إليها، والتى نجرى فيها على الحيوانات التجارب نفسها التى نجرىها على الرضع من البشر، بأن نستخدم مثلا تكتيكات الانتهاكات السحرية حتى نستكشف أنواع التمثلات التى يستحضرها الحيوانات والرضع لمهمة العد.

هكذا فإن لدينا طريقة تتناول بأربعة أفرع لفهم تصميم أمخاخ الحيوانات؛ أن نذهب للعمل الميدانى ثم نعود ثانية للمعمل، ثم نبحت المستوى الفيزيولوجى العصبى، وأخيرا نقرن الحيوانات غير البشرية مع الرضع من البشر لنربط بين عمليات التنامى وعمليات التطور.

نستطيع باستخدام هذه الطريقة للتناول أن نتحول لتلك الأسئلة التى تستحوذ على اهتمام معظم الجمهور غير المتخصص. هل الحيوانات ذكية؟ هل الكلاب

أذكى من القطط؟ هل الدرافيل أذكى من الحمام؟ هل الشمبانزى أذكى من الدرفيل؟ هل نحن أذكى من هذه الأنواع، وإذا كنا كذلك، متى أصبحنا أذكى؟ وهذه ليست أسئلة جيدة. ثمة نوع من الأسئلة تكون له إنتاجية أكبر وهو أن نسأل أولا عن أنواع المشاكل التى تواجهها الحيوانات فيما يتعلق ببقائها موجودة، ثم نسأل عن الطريقة التى تحل بها الحيوانات هذه المشاكل. ما هى المعرفة التى يجب أن تكون لديهم حتى يقوموا بالملاحة، ويتزاوجون، ويكسبون قتالا، ويمكرون، ويتعلمون، ويتواصلون، وهلم جرا؟ كل نوع له ذكاؤه بطريقته الخاصة. والقضية الحقيقية بالنسبة لى ليست أن نسأل " هل الحيوانات ذكية وهل تفكر؟ " وإنما القضية فى أسئلة أكثر تحديدا، أسئلة نستطيع الإجابة عنها، مثل: هل تستطيع الحيوانات تذكر الأشياء؟ وإذا كان الأمر كذلك، إلى أى مدى وراء فى الزمان تستطيع الحيوانات أن تتذكر؟ هل لديها ذكريات عما كانت تشبهه وهى صغيرة السن؟ هل تستطيع الحيوانات أن تتعلم شيئا بشأن الخصائص المجردة للعالم، وإذا كان الأمر كذلك، فما الذى سيتعلمونه عنها؟ هذه أسئلة نستطيع الإجابة عنها باستخدام الأدوات العلمية. وإذا كنت بعدها تود أن تقول إنه حيث إن الحيوانات لديها هذه القدرات فإنها ذكية، فهذا جميل! وإذا كنت تود القول أن هاكم هى الطرائق التى تتواصل بها الحيوانات وأنها تبدو مثل اللغة - فهذا أيضا جميل. على أننا ينبغي ألا نغفل عن رؤية ما يوجد من اختلافات بين الأنواع، وهذا يتضمن بوجه خاص الاختلافات بين الحيوانات والبشر. أنا لا أفسر هذه النقطة من أجل التحجج بتفردنا، وإنما الأخرى أنى أفعل ذلك لأجذب الانتباه إلى حقيقة أنه على الرغم من وجود أوجه تشابه عديدة بين البشر والحيوانات الأخرى فإن هناك أيضا اختلافات تثير الاهتمام، لأنها تشير إلى طريقة البحث فى أنواع الميكانيزمات التى لا بد من أنها قد تطورت فى ماضينا لتتيح لنا أسلوبنا الخاص للتواصل، طابعنا الخاص فى تمثيل العالم. لننظر مثلا فى أمر قدرتنا على الإحالة إلى الأشياء فى العالم: بمعنى أنى أستطيع أن أتحدث حول أحد الكراسى، وأستطع أن أتحدث عن ماضى، وعن المستقبل، وكل هذا بطريقة تجريدية جدا. هل الحيوانات لديها تلك القدرة؟ وإذا كانت لديها، فإنها إذن ستشبه أحد العناصر الجوهرية فى قدرتنا اللغوية. نستطيع

أن نأخذ هذه الطريقة العامة للتناول ونطبقها على القدرات الأخرى أو المناطق الأخرى للمعرفة. فى وسعنا أن نسأل: هل الحيوانات لديها انفعالات أخلاقية؟ هل تستطيع التعاطف؟ هل تحس بالذنب؟ هل تحس بالخجل؟ هل تكون مخلصه؟ هل الحيوانات لديها القدرة على التعاون؟ هل تتشارك فى إثارة متبادل؟ هذه أسئلة صعبة، ولكننا نستطيع على الأقل أن نحاول الوصول إلى بعض تقدم فيها، وقد أنجزنا بالفعل قدرا كبيرا من ذلك فى حالات كثيرة. وبالتالي فأنا لا أسأل، "هل الحيوانات تفكر؟" ولا أسأل "هل الحيوانات ذكية؟" وإنما أسأل أسئلة لها علاقة بميكانيزمات إدراكية محددة نستطيع تعيينها فى البشر، سواء من الأطفال أو البالغين. ويمثل ذلك فاني أسأل أنا وتلاميذى أسئلة حول الطريقة التى تحل بها الحيوانات المشاكل، وذلك بصرف النظر عما إذا كانت تشبه البشر أو لا تشبههم. كما أوضح داروين فإن علم البيولوجيا الجيد هو علم البيولوجيا المقارن.

والآن، لماذا ينبغى أن نهتم بأمور كهذه؟ هناك أفراد كثيرون يحبون حيواناتهم الأليفة ويظنون أن كلابهم لها ذكاء أينشتين، وأنا أود أن أبين لهؤلاء الأفراد أنهم ينبغى ألا يكونوا راضين ببساطة بهذه الفكرة التخمينية. كثيرا ما تكون تخميناتنا وسيلة إرشاد غير جيدة بالنسبة لما تفعله الحيوانات، تماما مثلما يحدث كثيرا أن تكون تخميناتنا وسيلة إرشاد غير جيدة بالنسبة لطريقة تفكير الرضع من البشر عن العالم. أحد أهدافى هو أن أجعل العلم شأنا محسوسا بأكثر وشأنا أقل خلافيه. كثيرا ما يطرح الناس على العلماء الذين يدرسون الحيوانات ملاحظات لا يمكن تصديقها عما تفعله أو لا تفعله حيواناتهم المدللة. فيقولون للعلماء، انظر، لقد فعل كلبى توا أكثر الأشياء غرابه. تركته على بعد ست ساعات من منزلنا ووجد طريقه للبيت. أليس هذا مذهلا؟ حسن، إنه مذهل وغير مذهل لأن هذه ملاحظة لمرة واحدة لا غير، ونحن لا نستطيع أن نستفيد كثيرا من ملاحظة واحدة. ليس الأمر أن العلماء يعتقدون أن أى ملاحظة واحدة تكون لا أهمية لها؛ وإنما الأمر أن الملاحظة الواحدة تكون غير مقنعة. أود أن ينطبع فى الناس المهتمين بالحيوانات أنهم أيضا ينبغى أن يكونوا غير مقتنعين. أستطيع أن أضرب مثلا من

إحدى خبراتى الشخصية التى مارستها مع أحد الحيوانات وأثارت شهيتى للمزيد من الأسئلة، وأنا أود أن تستثار بالدرجة نفسها شهية الجمهور غير المتخصص بواسطة هذه الملاحظات.

كنت وأنا طالب فى الجامعة أعمل فى عرض سياحى فى فلوريدا يسمى "غابة القردة". كان عملى هو أن أطعم القردة، ولكنى كنت فقيرا تماما فكان على أن أكسب مالا أكثر، وهكذا قررت أن أتولى عملا آخر هو أن أنظف بالجرف أيضا مما يتساقط أسفل الأقفاص. لاحظت ذات يوم أن قردة من نوع العنكبوت - وهو نوع يقطن فى الغابات المطيرة بأمريكا الجنوبية - تركز نظرها على تنظيفى بالمجرفة. لم أعتقد أنها مهتمة لهذا الحد بتنظيفى بالمجرفة، ففكرت فى أنها ربما تكون مهتمة بى. كان لها رفيق لا يبدى اهتماما كبيرا بها. وضعت المجرفة على الأرض واقتربت من القفص. وبينما كنت اقترب، اقتربت هى أيضا وجلست عند الجانب الآخر من القضبان إزائى. ونظرت إلى فى عيني وأخرجت ذراعيها معا من القفص ولفتهما حول رقبتى بأصوات متوددة. وظلت تجلس هكذا لزمان طويل تماما، بضع دقائق. ومالبث رفيقها أن اقترب؛ فأطلقت سراحى وخطبته فوق رأسه، ثم وضعت ذراعيها حول رقبتى مرة أخرى. فى وسع القارئ أن يتخيل أى أفكار قد تمر برأسه فى أثناء هذه الخبرة: كان تكون لك صلة حقيقية بهذا الحيوان. إنها فى حالة حب لك. أو لعلها تريدك أن تمنحها طعاما أكثر. أو ربما يكون مدربها السابق قد دربها على أن تفعل ذلك. أو لعلها تحاول أن تثير غيرة رفيقها، ها أنت تعرف، هناك ولد جديد فى الجيرة. ستكون هناك كل أنواع الاحتمالات وسيكون من الشيق محاولة تضيق نطاقها. ثمة تجارب بسيطة لذلك: إذا حدث ونظف شخص آخر الحظيرة بمجرفة، هل ستفعل القردة الشيء نفسه؟ ماذا لو كان الشخص الذى ينظف بالمجرفة أنثى؟ ماذا لو كان صبيا يافعا؟ ماذا لو كان رجلا أكبر سنا؟ هكذا سيكون نوع الأمور التى يمكننا القيام بها حتى نستبعد بعض الاحتمالات. إذا كانت القردة تقصدنى على وجه التحديد، لماذا أنا؟ هل ذلك لبعض سبب يدور حول طريقة سلوكى؟ بعض سبب يدور حول مظهرى؟ بعض سبب يدور حول رائحتى؟ هيا لأغير ملابسى. هل الأمر لا غير أنى أرتدى ملابس

معينة؟ إننى أرتدى الملابس نفسها يوميا. نستطيع بسرعة باللغة أن نستبعد الكثير من الاحتمالات غير المثيرة للاهتمام ونأخذ فى تضيق المسألة إلى بعض الاحتمالات المثيرة للاهتمام.

كثيرا ما يستخدم الفلاسفة أمثلة عن الحيوان ليبينوا كيف أن من الصعب فهم تمثيلات وأفكار الكائنات التى تنقصها اللغة. يزعم بعض الفلاسفة أنه فى غياب اللغة لا يمكن أن يكون هناك فكر، إذا صدق ذلك، سنجد أن إزاعنا قيد صعب عندما يتعلق الأمر بفهم تفكير الحيوان، وسوف يزعم البعض أن المشروع كله يكون هكذا فى حالة إفلاس. إلا أن هناك تاريخا طويلا من الأبحاث على البشر طورت فيه مهام لتحديد ما يفكر فيه البشر فى غياب اللغة، من ذلك قدر كبير من الأبحاث على الرضع من أطفال البشر، الذين مازال عليهم بعد تنمية التعبير عن قدرتهم اللغوية. ما أحاج به هو أن هناك بعضا من أعمق المشاكل التى لها علاقة بالفكر البشرى ولا يمكن تناولها إلا عن طريق دراسة الحيوانات. هناك أسس ثلاثة لهذه الدعوى:

(١) بالنسبة للباحثين الذين ينادون بأن هناك نوعا بعينه من التفكير يعتمد على اللغة، سأحاج بأن الأنواع الوحيدة التى يمكن أن نختبر عليها هذا الفرض هى الحيوانات، وليس الرضع من البشر، الذين على الرغم من أنهم مازال عليهم بعد أن ينموا القدرة على اللغة فإن مخهم مع ذلك قد تطور ليكون ملائما للغة، وبالتالي فهو غير مناسب لاختبار من هذا النوع. وكذلك فإن المرضى المصابين بتلف فى المخ وليس لديهم إنتاج أو تفهم للغة، لن يكونوا موضوعا صالحا للاختبار، لأن أمخاخهم قد ترقّت باللغة. إذا كنا نهتم بالصلة بين اللغة والفكر يجب أن نختبر هذا الفرض على أنواع أخرى، ثم إجراء دراسات فى المعمل وكذلك إجراء دراسات ميدانية لدينا نحن وأيضا لدى علماء مثل دوروثى تشينى وروبرت سايفارث، درسنا فيها الرئيسيات غير البشرية هى وحيوانات أخرى لنرى ما إذا كانت لديها القدرة على أداء أنواع التفكير التى يبدو أنها تتطلب اللغة. وهناك براهين ممتازة متزايدة على وجود هذه القدرات والأفكار التمثيلية من غير اللغة.

(٢) يوجد قدر هائل من الدعاوى عن الطبيعة الخاصة لعمليات معينة من التفكير البشرى. ركزت المناقشات بداية من ستينيات القرن العشرين على ميكانيزمات خاصة تكمن فى الأساس من الكلام. زعم أناس مثلا أن قدرتنا على عمل تصنيفات تمايزية بين فونيمات^(٣٦) مثل "با" (ba) و"يا" (pa)، ترجع إلى أحد هذه الميكانيزمات. تم أول تنفيذ لهذه الفكرة بواسطة باتريشيا كوهل بجامعة واشنطن، حيث أجرت تجارب على حيوانات الشنشلا وقردة الماك^(٣٧) تبين أن لديها بالضبط نفس القدرات الإدراكية مثل البشر، عندما تتعرض للمجموعة نفسها من المنبهات. أدى بحث كوهل إلى بدء برنامج بحث يهدف إلى تحديد ما إذا كان هناك ميكانيزم بعينه خاص بالبشر. الطريقة الوحيدة لتناول هذه الدعاوى هى بواسطة دراسة الحيوانات.

(٣) السبب الثالث، مألوف بأكثر لعلماء النفس وعلماء الأعصاب، وهو فكرة أن أنواعا معينة من التجارب هى إما غير أخلاقية أو أنها لوجستيا^(٣٨) أصعب من أن يتم إجراؤها على البشر ولكنها يمكن تنفيذها على الحيوانات. على الرغم من أن القضية الأخلاقية تهيمن عادة على هذا الجدل، فإن النظر فى الشئون اللوجستية له أهمية مساوية: قد نستطيع تنفيذ تجارب أفضل على الحيوانات بسبب المستوى الأفضل من التحكم، وأنواع ما يطرح من عوامل التنبية، والمدى الطويل لدراسة الأفراد منفردة. أجريت دراسات طويلة المدى على الحيوانات، مثل بحث جين جودال على أفراد الشمبانزى وبحث سينثيا موس على الفيلة، وزودتنا هذه الأبحاث بمدى من ثلاثين سنة من حياة مخلوقات رائعة وراقية اجتماعيا. من الصعب إجراء دراسات تضاهى ذلك على أفراد من البشر.

(٣٦) الفونيم: إحدى وحدات الكلام الصغرى التى تساعد فى تمييز نطق لفظة عن أخرى فى اللغة أو اللهجة مثل (P) فى Pin و(F) فى Fin. (المترجم)

(٣٧) الشنشلا: حيوان قارض فى أمريكا الجنوبية يشبه السنجاب، وقردة الماك قرودة آسيوية. (المترجم)

(٣٨) اللوجستية: الإجراءات اللازمة للإمداد والتموين والنقل والإيواء. (المترجم)

نتج عن كل هذه الأسباب أن أخذت دراسات الحيوان تلعب دورا أعظم فى العلوم الإدراكية والعلوم العصبية. تتيح لنا التكنيكات الجديدة أن نعين أوجه سلوك أفراد الحيوان التى تطرح الطريقة التى يفكرون بها بشأن العالم، أما التقدم النظرى الذى قمنا به فهو أننا نوحّد بطريقة جديدة بين النظرية التطورية والأفكار الجديدة فى علم الإدراك. إحدى المشاكل فى علم النفس التطورى هى أنه قد ركز على وجه الحصر على البشر وحدهم. وعلم النفس التطورى بالتعريف الواسع له قد بقى مستمرا منذ أيام داروين، الذى كان يسأل أسئلة عن العقل وعينه على المبادئ التطورية. وما نراه الآن هو بزوغ لحدس داروين الأصلي، وهو أننا نستطيع أن نزوج نظرية التطور بالعلوم الإدراكية كما تطبق فى دراسة عقل الحيوان.

هكذا نسأل أسئلة عن تصميم المخ، وتصميم الحالات العقلية، وذلك بأن ننظر إلى الطريقة التى يشكل بها السلوك الاجتماعى والإيكولوجيا تلك العمليات. وكمثل، فقد اهتمنا بمجال للمعرفة فى الحيوانات يمكن أن نسميه بالفيزياء الساذجة. إلى أى حد تصنع الحيوانات تنبؤات تخمينية حول أشياء فيزيقية، وتتأسس على فيزياء العالم؟ ابتكرنا عملية تجريبية صيغت على أساس دراسات أجريت على أطفال البشر، وفيها يتم إسقاط كرة خلال أنبوبة معتمة فى شكل حرف S. يتوقع القروء وأطفال البشر أن تحط الكرة مباشرة أسفل نقطة إطلاقها. وليس أن تخرج عند الطرف الآخر من الأنبوبة. ويبدو أنهم يأخذون الجاذبية فى الحسابات كقوة تنبؤية عند اتخاذ قرارهم، بما يدل على الصعوبة الكبيرة التى يعانها الأطفال وبعض الحيوانات لقمع نزعة انحياز قوية جدا تم انتخابها بسبب ما يوجد من أوجه للانتظام فى العالم. الجاذبية عامل انتظام تواجهه كل الحيوانات على كوكب الأرض. وأنا أعتقد أن الانتخاب قد دعم الأمخاخ التى تصنع فطريا تنبؤات عن الأشياء التى تسقط - وأنه بسبب هذه الحاسة الفطرية يكون من الصعب على الحيوانات إلغاء تخمينهم حتى عندما يوجد دليل مناقض له.

لماذا لا تستطيع الحيوانات أن تجد الموضع الصحيح لجسم يسقط خلال أنبوبة محنية؟ بمعنى لماذا لا تستطيع الحيوانات أن تكبت نزعات انحيازها وتبحث

فى موضع مختلف؟ نحن نعرف الآن من دراسات تطور المخ أن الأجزاء الجبهية من مخنا قد مرت بتغيرات خارقة للمعتاد عبر آخر خمسة إلى ستة ملايين عام. المنطقة الجبهية من مخنا أكبر مما عند الرئيسيات غير البشرية، التى لها حجم يماثل حجمنا، بنسبة تقرب من ٢٠٠ فى المائة. وهذا الجزء من المخ عند البشر هو الذى يستخدم فى الذاكرة التى تعمل على المدى القصير حيث يحدث أن تعاق أو تكبت الاستجابات التكرارية؛ وكمثل عندما نصطم بباب زجاجى لأننا فشلنا فى أن نلحظ أنه مغلق، فإننا لن نكرر هذا الخطأ مرة بعد الأخرى. فلدنا فى المنطقة قبل الجبهية ميكنازم قد صمم بوجه خاص لكبت هذا النوع من التصرفات - وهو ميكنازم فشل فى أن يتطور تطورا له مغزاه فى الكثير من الأنواع غير البشرية. والسبب فى أن هذه الطريقة لتناول دراسات الحيوان لها فعاليتها بقوة هو أنها لها صلة بدراسات مخ الإنسان، بما يخلق رابطة قوية بين الأفكار والميكنازمات العصبية التى تكمن فى الأساس منها.

هناك معسكرات عديدة لأفراد لا يتفقون معى، سواء كان ذلك على نحو صريح أو ضمنى. هناك أولئك الباحثون العاملون على الحيوانات والذين تعلموا إلى حد كبير حسب تراث سكر^(٣٩)، وهؤلاء سيجدون أن بعض التكنيكات الجديدة التى نطبقها على إدراك الحيوان تكنيكات فضفاضة وليس فيها نفاذ بصيرة. ثم هناك أولئك الذين يدرسون الإدراك البشرى وأخذوا يتحولون فى عقيدتهم ولكنهم يجدون أبحاثنا مزعجة لأنها تجبرهم على إعادة التفكير فى مزاعمهم حول تفرد البشر. وثمة معسكر آخر يعمل على أفراد الشمبانزى ولا يحب بوجه خاص حقيقة أن القروود التى ندرسها نحن تظهر قدرات تماثل أفراد الشمبانزى. ويتواصل هذا النوع من التعصب الشوفينى الهيراركى طول الطريق خلال شجرة الحياة؛ فهناك تعصب شوفينى داخل مجتمع علماء الحيوان ينادى بأن الناس الذين يعملون على أفراد الشمبانزى يؤدون أبحاثا أكثر كثيرا فى أهميتها عن الناس الذين يعملون على القروود.

(٣٩) المقصود مذهب العالم سكر المشهور فى السلوكية. والسلوكية مدرسة تقصر علم النفس على دراسة السلوك دون اعتداد بالشعور أو الذهن وترفض الاستبطان معولة على المنهج التجريبي وتأثر الكائن بالبيئة. (المترجم)

آمل أنه خلال السنوات من العشر إلى الخمس عشرة القادمة أن يحدث أن أبحاثنا عندما تنظر إلى مشكلة الإدراك من خلال تنوع واسع من المنظورات ومستويات مختلفة من التحليل، فإن هذا سوف يثبت أن الاهتمام بالعقل البشري يتطلب اهتماماً بالنظرية التطورية. وسوف يثبت أن نظرية التطور تؤدي إلى تنبؤات جديدة عن العقل، وأنها نستطيع حقاً أن نزوج دراسات إدراك الحيوان مع العلوم العصبية. ينحى علماء الأعصاب إلى حد كبير إلى تجاهل التباين المهم بين الأنواع. وهم مثلاً عندما يعملون على قرود ريسوس، يتحدثون عن "القرود". وهناك مئات عديدة من أنواع الرئيسيات، إلا أن علماء الأعصاب يتجاهلون ذلك. سيبدأ بحثنا في أن يقلب رأساً على عقب هذا الرأي الشائع المهيمن في علوم الأعصاب. ونحن نأمل في أن نقنع مجتمع علم الأعصاب بأن التباين أمر رائع، إنه الفطيرة الحلوة للبيولوجيا، فطيرة داروين. إذا كان المرء منشغلاً بتصميم العقل، سيكون للتباين بين الأنواع أقصى الأهمية. نحن كعلماء لدينا مهمة مشتركة: أن نكتشف الطريقة التي نتج بها عن التطور الطرائق المختلفة للتفكير. سوف نتمكن عن طريق النظر إلى التباين، من أن نرى الانتخاب الطبيعي وهو يعمل، فنبحت أنواعاً مختلفة من العقول.

تطور الطهي

ريتشارد رانجهام^(٤٠)

يجد كثير من الناس أن من الصعب التعايش مع الفكرة القائلة بأننا لدينا تاريخ طبيعي للعنف. ولكننا عندما ننظر إلى أنفسنا كحيوانات، سيكون من الواضح أن الانتخاب الطبيعي قد دعم في البشر تلك الانفعالات التي تجعل لديهم الاستعداد للاستمتاع بالمنافسة، والاستمتاع بإخضاع البشر الآخرين، بل والاستمتاع حتى بقتل البشر الآخرين. هذه أفكار تصعب الموافقة عليها، وهناك أناس يحتاجون بأن من غير اللائق أن نكتب عن أفكار كهذه، وهم يبحثون عن طرائق لتقويض كل البراهين على ذلك ويبدو أن ما يخشونه هو أنه ما إن يتم الإقرار بوجود عنصر بيولوجي في سلوكنا العنيف، فإن هذا العنف قد ينظر له على أنه أمر حتمي.

(٤٠) ريتشارد رانجهام أستاذ للأنتروبولوجيا البيولوجية في جامعة هارفارد وهو يدرس أفراد الشمبانزي في أوغندا بنظرة تهدف إلى إلقاء الضوء على تطور البشر وسلوكهم. تدور إحدى الأفكار المحورية عند رانجهام حول أننا ينبغي أن نبقى في الذهن أوجه التشابه بين البشر وغيرهم من القردة العليا الكبرى، لأنها تفيدنا في فهم سلوكنا نحن. وهو يقول ملاحظاً، "نحن البشر، مع كل ما لدينا من شعور بالذات، مازلنا نتبع القواعد البيولوجية". وranجهام قد ألف مع ديل بيترسون كتاب "الذكور العفريتية".

عندما نستخدم البيولوجيا لتحليل السلوك البشرى فإن هذا يشبه أن يذهب المرء إلى معالج نفسى ويتلقى المساعدة ليفهم من أين قد أتى سلوكه. نحن عندما نفهم ما نفعله يقل نوعا ما لدينا من صراع داخلى ونستطيع أن نشكل سلوكنا الخاص على نحو أفضل. على أن التفاعل لا يتم دائما على هذا النحو. يجد الكثير من الناس أن من الصعب التعايش مع الفكرة القائلة بأن نوعنا لديه تاريخ طبيعى للعنف. ولكننا عندما ننظر إلى أنفسنا كحيوانات، سيكون من الواضح أن الانتخاب الطبيعى قد دعم فى البشر تلك الانفعالات التى تجعل لديهم الاستعداد للاستمتاع بالنافسة، والاستمتاع بإخضاع البشر الآخرين، بل والاستمتاع حتى بقتل البشر الآخرين. هذه أفكار تصعب الموافقة عليها، وهناك أناس يحاجون بأنه من غير اللائق أن نكتب عن أفكار كهذه، وهم يبحثون عن طرائق لتقويض كل البراهين على ذلك. ويبدو أن ما يخشونه هو أنه ما إن يتم الإقرار بوجود عنصر بيولوجى فى سلوكنا العنيف، فإن هذا العنف قد ينظر له على أنه أمر حتمى.

إحدى العقائد الكبرى فى البيولوجيا السلوكية فى العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة هى أننا لو غيرنا الظروف التى يوجد فيها الحيوان فإننا بذلك نغير نوع ما سيحدث من سلوك. التحكم الوراثى فى السلوك ليس معناه أن الغرائز تنطلق حتما متفجرة بصرف النظر عن الظروف؛ ولكن الأمر بدلا من ذلك أننا نخلق مع سلسلة من الانفعالات التى تتلاءم مع مدى من الظروف. سوف تتبثق انفعالات معينة تتباين داخل النوع ولكنها أيضا تتباين حسب السياق، وما إن نعرفها على نحو أفضل فإننا نتمكن من ترتيب السياق. بمجرد أن نفهم ونقر بأن الذكور البشر بالذات لديهم تلك الميول البشعة لأن ينصرفوا بعيدا بحماسهم لينغمسوا فى الحرب، أو اغتصاب النساء، أو نوبات القتل، وأن يثور انفعالهم حول فرص الاشتباك فى تفاعلات عنيفة، بمجرد أن نفعل ذلك سنأخذ فى إدراك الأمر وفى أن نفعل بشأنه شيئا. من الأفضل ألا تنتظر وقوع الممارسة لتخبرنا بأن من الأفكار الجيدة أن يكون لدينا جيش متأهب حتى نحمى أنفسنا من الجيران، أو بأننا نحتاج لأن نعمل عل ألا نتعرض النساء للخطر المحتمل من المغتصبين. من الأفضل أن نتوقع مسبقا هذه الأمور، وندرك المشكلة، ونصمم مقدما طريقة الوقاية.

لاتزال توجد نزعة هائلة للإيخاس أو للتبسيط من الفروق بين الجنسين فى السلوك والانفعالات. عندما نتوصل إلى حس أكثر واقعية بالطريقة التى شكل بها الانتخاب الطبيعى سلوكنا، سيتزايد وعينا بحقيقة أن من الممكن أن تختلف كل الاختلاف الاستجابات الانفعالية لدى كل من الرجال والنساء إزاء السياقات المختلفة. من الأمثلة البارزة على ذلك مدى ما يكره الرجال والنساء من توهامات إيجابية عن أنفسهم. النساء عموما ينزعن إلى أن تكون لديهن توهامات سلبية عن أنفسهن، بمعنى أنهن ينظرن إلى أنفسهن على أن مهارتهن وقدراتهن أقل بدرجة طفيفة عما عليه فى الواقع. أما الرجال فينزعون إلى أن تكون لديهم توهامات إيجابية. فهم يبالغون من قدراتهم الخاصة، بالمقارنة بما يراه الآخرون فيهم أو بطريقة أدائهم فى الاختبارات. نعتد هذه النزعات كثيرا على العلاقات السلطوية: إذا وضعت المرأة فى وضع سلطة مهيمنة فى إحدى العلاقات، فإنها تنزع إلى أن يكون لديها توهام إيجابى عن نفسها؛ إذا وضعت رجلا فى علاقة من الخضوع فإنه ينزع إلى أن يكون لديها توهام سلبى. ومع ذلك، فإن النزعات تظهر بما يمكن التنبؤ به، وتكون لها خطورتها. عندما يكون لدى المرء توهامات إيجابية، فإنه يعتقد أنه يستطيع أن يقاوم بأفضل مما يستطيع فى الواقع. يبدو الأمر وكأن الانتخاب الطبيعى يدعم التوهامات الإيجابية فى الرجال لأنها، بما يشبه نوعا الأنياب الطويلة عند ذكر البابون، تمكن الرجال من القتال قتالا أفضل ضد الرجال الآخرين الذين يؤمنون حقا بأنفسهم. لابد للمرء من أن يؤمن بنفسه حتى يتمكن من القتال بفعالية؛ وإذا لم يؤمن بنفسه، فإن الآخرين سوف يستفيدون من عصبية وفقدانه للثقة. عندما نفهم شيئا عن التوهامات الإيجابية، سنتمكن من النظر فى أمر أى اشتباك يعتقد كل جانب أنه سيفوز فيه بما يجعلنا نسخر منه بعض الشيء، وهذا يشبه ما يقوم به أحد المحامين عندما يقول لخصمين محتملين فى قضية، "انتظرا دقيقة واحدة، ما من أحد منكم لديه قضية قوية تماما مثلما يعتقد ". عندما تكون هناك حساسية أكثر فى تقدير هذه النزعات الانفعالية سيولد ذلك طريقة تناول أكثر دقة لتوقى العنف.

أكسب عيشى من دراسة سلوك أفراد الشمبانزى فى أوغندا. وأنا مهتم بالنظر فى أمر مسألة التطور البشر من منظور سلوكى، وأجد أن إجراء الأبحاث

على الشمبانزى فيه ما يثير بسبب ما يوجد من براهين على أن السلف الذى وجد منذ خمسة أو ستة أو ربما سبعة ملايين عام، والذى نشأ عنه أفراد جنس الأسترالوبيثيكوس^(٤١)، تلك المجموعة من القردة العليا التى انبثقت فى السافانا، هذا السلف هو فيما يحتمل، يشبه الشمبانزى شيها كبيرا جدا. الحياة مع الشمبانزى فى غابات أوغندا، كما فى أى غابات فى مكان آخر بأفريقيا هى مثل أن يدخل المرء فى ماكينة للسفر فى الزمان؛ فهى تمكننا من أن نفكر فى المبادئ الرئيسية التى فى الأساس من السلوك.

على الرغم من أن البشر يختلفون اختلافا هائلا عن القردة العليا، إلا أن الأمر الخارق للمعتاد الذى برز عبر العقدين أو العقود الثلاثة الأخيرة - والذى يتزايد وضوحه مؤخرا - هو أنه يحدث بالذات فى ثلاثة جوانب كبيرة أن نجد أن البشر يشبهون القردة العليا فى سلوكهم الاجتماعى بأكثر مما نتوقع أن يحدث بالصدفة. هناك شىء حول علاقتنا بالقردة العليا مازال يتواصل. نحن مثلا لا نعرف إلا نوعين فحسب من الثدييات يعيش ذكورهما فى جماعات من الذكور الأقارب تقوم من آن لآخر بأعمال هجوم على أفراد الجماعات المجاورة، يبلغ من قسوتها أنهم يقتلونهم. هذان الثدييان هما الإنسان والشمبانزى. وهذا أمر عجيب، ويحتاج لتفسير.

لم تحدث دراسة أفراد الشمبانزى فى البرية إلا فى ١٩٦٠. ولم يحدث إلا بعدها بأربعة عشر عاما أن أخذ الناس يرونهم عند أطراف المناطق التى يعيشون فيها؛ والأمر فحسب أن من الصعب متابعتهم عبر كل أماكنهم. شوهدت أول عمليات هجوم وحشية فى ١٩٧٤، وهى أعمال أدت إلى انقراض مجتمع كامل من الشمبانزى فى جومب. تابع الناس هذا الانقراض تحت إشراف من الأبحاث الموجهة لجين جودال. وتبين ببطء عبر السنين أن أفراد الشمبانزى يقتلون أفرادهم فى المجتمعات الأخرى. وجدنا أن القتل عند الشمبانزى يتواصل ليس فحسب فى

(٤١) الأسترالوبيثيكوس: جنس منقرض من الرئيسيات المشابهة للإنسان وجدت حفرياته فى جنوب أفريقيا.
(المترجم)

جومب وفي المكان الذي أعمل فيه في كيبال، غرب أوغندا، وإنما وجدنا أيضا أن أفراد الشمبانزى يقتلون الآخرين منهم في بودونجو بأوغندا، وفي ماهال بتزانيا. واستغرق الأمر فقط بعض زمن لتجميع هذه الملاحظات.

يحدث من آن لآخر أحداث اغتيال بأسلوب اغتيال يوليوس قيصر، وهذا أمر محير بحق، لأن ما يحدث من تلك التحالفات بالغلة الأهمية داخل مجتمعات الشمبانزى هو الذى يتحدد به قدرة الذكر على أن يفعل ما يناضل كل ذكر بشدة لأن يفعله طول الوقت، وهو أن يصبح الذكر المقدم. ما إن ندرك أن هذه التحالفات تؤدي من آن لآخر إلى عمليات هي في جوهرها عمليات اغتيال، حتى ينبعث السؤال تواء، ما الذى يجعل تحالف الذكور عادة مستقرا هكذا؟ كيف يحدث أننا لا نرى تأكلا متواصلا للثقة؟ عمليات القتل أحداث نادرة، ولكننا نعرف عنها معلومات لها قدرها. من الممكن أن يحدث اختلالات كبيرة في توازنات السلطة، يتحد ثلاثة أو أربعة أفراد في الهجوم على فرد آخر، الأمر الذى يعنى أن الهجوم بالنسبة لهؤلاء المهاجمين يكون أساسا آمنا. هناك حيوانات أخرى مختلفة تقتل أيضا المنافسين بهذا الأسلوب، مثل الضباع والأسود بل والنمل.

هناك ثلاثة أوجه للتشابه بين البشر والقردة العليا الكبرى وهي حقا تشابهات مذهلة. العنف الذى يبديه عمليا أفراد الشمبانزى والبشر هو فى الواقع عنف يتفردون به. ثم هناك ما يوجد من التسامح اجتماعي بدرجة خارقة للعادة عند كل من البشر والبونوبو، وأفراد البونوبو قردة عليا أخرى لها علاقة قرابة بالبشر بدرجة مساوية للشمبانزى. ثم هناك درجة ملحوظة من الشهوة الجنسية عند أفراد البونوبو، تشبه نوعا ما عند البشر. ليس من السهل تفسير هذه التشابهات وهي تبعث على كل أنواع الأسئلة المثيرة، باعتبار حقيقة أن البشر يختلفون اختلافا بالغا عن القردة العليا الأخرى بناء على إيكولوجيتنا، ولغتنا، وذكائنا، وملايين السنين من انفصالنا.

ظلت أدرس الشمبانزى من آن للآخر طيلة ثلاثين سنة. بدأت بالعمل فى موقع جين جودال فى جومب، وهو الموقع النموذجي الأصلي ويمثل لأناس كثيرين

ما يكونه الشمبانزى. انتقلت فى ١٩٨٤ إلى أوغندا وبدأت أبحاثا على عشيرة من شمبانزى الغابات، وأخذت أفكر بوجه خاص فى التباين الثقافى - أوجه التراث السلوكى - بين أفراد الشمبانزى. أحد الأمور الرائعة التى تجرى الآن هو اكتشاف أن لدينا فى شرق أفريقيا سلسلة من أوجه السلوك المميزة عند الشمبانزى تختلف عن أوجه السلوك التى نراها فى أقصى غرب أفريقيا، مثلا فى موقع كريستوف بويش بغابة تاي فى ساحل العاج، أو فى موقع الأبحاث اليابانى فى بوسو بغينيا. نحن نرى الشرق مجموعات من الشمبانزى تكون متشعبة نسبيا، ولها نسبيا نشاط جنسى قليل، وفيها تحالفات قليلة من الإناث/الإناث، مع سيطرة شديدة للذكور على الإناث، ويختلف هذا كله عما نراه فى الغرب. نجد فى الغرب فى أكثر المجموعات استقرارا، أن الإناث تشكل التحالفات، وأن الذكور تحترم الإناث بدرجة أكبر كثيرا، وأن العنف فى المجتمع يكون عموما بدرجة أقل كثيرا. فيقل كثيرا ما يحدث من قتل للأطفال الوليدة. ونقل كثيرا الأشكال الصارمة من الانتماء الإقليمى. وهذا فيه ما يثير، لأننا نستطيع عندها أن نسأل، ما هى عوامل التأثير الإيكولوجية، وما هو مفعولها؟ وما الذى يعنيه هذا بلغة من محاولة إعادة بناء ذلك الصنف من الشمبانزى الذى تسبب فى نشأتنا منذ سبعة ملايين عام؟

أصبحت الإجابات تتزايد وضوحا. أحاول فى بحثى الميدانى أن أفهم ما الذى يوجد إيكولوجيا ويؤدى إلى أوجه الاختلاف فى السلوك. أحد العوامل المفتاح التى لم تتل إلا أقل اهتمام حقيقة أن القردة العليا فى بعض العشائر أمكنها أن تمشى وتأكّل فى الوقت نفسه. وهى لا تستطيع ذلك فى عشائر أخرى، لأنه لا يوجد لها طعام فى أثناء مشيها. يظهر هذا وكأنه لاختلاف ثقافى، ولكنه فيما يبدو له أهمية هائلة، لأننا عندما نستطيع أن نمشى وتأكّل فى الوقت نفسه، سنستطيع عندها أن نبقى فى مجموعة مع أصدقائنا وأقاربنا من غير أعضاء إضافيين يزيدون من شدة التنافس على الطعام. ومن الناحية الأخرى، إذا كنا نمشى بين مواقع الغذاء دون أكل، سيحدث فى كل مرة عندما يأتى معنا فرد آخر من الشمبانزى وينضم إلى مجموعتنا أن تزداد شدة التنافس على الطعام فى هذه المواقع الغذائية، ولا يحدث تحسن عندما تتحرك بين مواقع الغذاء. مفعول ذلك على المدى الطويل هو أنه

يؤدى إلى تنشيط الجماعات. وهذه الطبيعة المتشظية لهذه الجماعات من الشمبانزى التى لا تستطيع أن تمشى وتأكّل فى الوقت نفسه، هى ما يكمن فى الأساس من كل الاختلافات الاجتماعية.

هناك أمران رائعان فيما يتعلق بالتطور البشرى وهما مما لم نستوعبه بعد بوجه كامل. أحدهما هو تطور الطهى. إذا حدث الطهى فى أى زمن كان، لابد من أن يكون له تأثير هائل فنياً، لأن الطهى يزيد زيادة قصوى من جودة الطعام الذى نأكله ومن اتساع مدى عناصر الطعام التى يمكننا أكلها. نعرف جميعاً أن جودة الطعام ووفرته متغيران أساسيان فى فهم إيكولوجيا الحيوان. إلا أن الأمر المدهش أنه على الرغم من أنه لا وجود لمعرفة متفق عليها حول الزمن الذى تطور فيه الطهى، فإن الأنثروبولوجيا^(٤٢) الاجتماعية وكل أنواع المعرفة المتفق عليها تخبرنا بأن البشر هم وحدهم الحيوانات التى تطهو. نحن نميز أنفسنا عن سائر من فى العالم لأن سائر من فى العالم يأكلون طعاماً نيئاً ونحن نأكل طعاماً مطهياً. وأفضل ما تستطيع الأنثروبولوجيا أن تفعله الآن هو القول بأنه ربما منذ ما يقرب من ٢٥٠٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠٠ سنة خلت كان الطهى يجرى حقاً، لأن هناك أدلة أثرية ممتازة على وجود أفران طينية فى تلك الفترة.

هذا رائع، ولكن لابد من أننا قبل ظهور الأفران الطينية بزمان طويل كنا قد تعلمنا الطهى. يتوقع المرء أن يكون الطهى مصحوباً بوجود أدلة فى الجسم على أن الطعام أصبح أسهل فى الهضم، أدلة مثل وجود أسنان أصغر، أو ربما تصغير حجم القفص الصدرى عندما يصبح حجم المعدة أقل، أو ربما تقليل حجم الفك. هناك نقطة معينة فى التطور البشرى وقعت عندها كل هذه الأمور: وهى منذ ١,٩ من ملايين الأعوام مع تطور جنس "الهومو" (Homo). هذا هو الموضع الذى يجب أن نبحث فيه عن الأدلة على اتخاذنا للطهى.

ما إن يحدث الطهى حتى يغير بالكامل من طريقة استغلال الحيوان لبيئته. وبدلاً من أن ينتقل من بقعة غذاء لبقعة غذاء، وهو يأكل فى أثناء تحركه، أو يأكل

(٤٢) الأنثروبولوجيا: علم الإنسان ودراسة أصل تصرفاته وتطورات بنيها واجتماعيا وثقافيا. (المترجم)

فى البقع الغذائية، نجد أن عليه للمرة الأولى أن يكس الطعام، وأن يضعه فى مكان ما، وأن يقعد معى حتى يطهى. قد يستغرق ذلك عشرين دقيقة، وقد يستغرق نصف الساعة؛ وقد يستغرق ساعات عديدة. ونتيجة ذلك أنه قد وجدت فجأة بقعة لطعام قابل للسرقة. وما إن توجد بقعة طعام قابل للسرقة، والحياة هى حسب ما هى عليه، فسوف يحدث أن يأتى أحدهم ليحاول سرقة. وهذا يعنى أنه ستصبح لدينا علاقة دينامية بين ثنائى منتج/سارق، نجد فيها أفرادا ينتجون وأفرادا يسرقون، ومن المرعب أن الإناث كن هن المنتجات بينما كان الرجال هم السارقين. وعندما يكون الذكور أكبر حجما من الإناث - وقد كانوا فى الزمن الذى نتحدث عنه أكبر حجما بنسبة ٥٠ فى المائة - سيكون لذلك تأثير كبير على النظام الاجتماعى.

سيكون ما علينا أن نتدبر فيه هو الفكرة بأنه عندما يكون لدينا إناث مستعدات لصنع وجبة طعام بأن يجمعن الغذاء ويطهينه، فإنهن هكذا يصبحن عرضة لأن يسلب طعامهن بواسطة السارقين - أولئك الذكور كبار الحجم - الذى يجدون أن من الأسهل عليهم ألا يخرجوا بأنفسهم لجمع الغذاء أو لطهيه وإنما هم فحسب يأخذونه عندما يصبح جاهزا. وبالتالي، فإن الإناث يحتجن لصنع تحالفات وقائية ليحمين أنفسهن من الذكور اللصوص، وهذا هو الأصل فى العلاقات بين الذكر/الأنثى عند البشر. تطور الطهى من الموضوعات الكبيرة التى أهملت فى الواقع إهمالا كاملا. أيا ما تكون وجهة النظر التى نتخذها عن الطعام، فإن علينا أن نفهم أنها مشكلة تحتاج لمزيد من الاهتمام.

المشكلة الثانية هى كالتالى: هناك أدلة فى طرائق عديدة من تطور البشر، على أننا نسلك ونبدو فى مظهرنا وكأننا لدينا خصائص حيوان حديث السن. نكلم الناس منذ مائة سنة أو أكثر عن فكرة أن نوع البشر قد يكون نوعا فيه حفاظ على صفات طفولية فى طور البلوغ - نوعا يظهر خصائص مميزة لسن الأحداث - ولكن هذه طريقة للتفكير فى الأمر على نحو يبالغ فى التعميم. ومع ذلك نظل لدينا قضية أن الكثير من سلوكنا، عندما نقارنه بسلوك أقرب أقراننا، يبدو أكثر مرحا

وأقل عنفا عندما نفكر فى التفاعلات التى تحدث على المستوى الاجتماعى داخل إحدى المجموعات. نحن أيضا أكثر جنسوية وأكثر استعدادا للتعلم، وهذه خصائص تترابط عموما مع سن الأحداث.

يحدث فى تشابه رائع أن أفراد البونوبو - وهم ثانى العضوين الكبيرين من أقرب أقربائنا - يظهرون كل أنواع السمات التى فيها إبقاء على خصائص سن الحدث. نستطيع أن نرى ذلك فى الرأس، حيث نجد أن مورفولوجيا الجمجمة تبدو مثل شكلها فى فترة مبكرة عند البالغين من الشمبانزى أو فى فترة متأخرة من طفولة الشمبانزى، ويبدو الكثير من أوجه سلوك البونوبو كسلوك حديثى السن. أفراد البونوبو أكثر لهوا، وأقل تمايزا فى جنسويتهم فى كل أوجه سلوكهم، إلا أنهم أكثر استثارة جنسيا، وهلم جرا. علينا أن نحدد بدقة من أين أتى هذا التغير الذى أدى للنزعة للإبقاء على خصائص الحدث، وما الذى يعنيه.

لدينا بالفعل بعض أمثلة مذهشة لطواهر مماثلة فى حيوانات أخرى فى سياق التدجين. عندما ننظر مثلا إلى الاختلافات بين الذئاب والكلاب، نرى اختلافات فيها تشابه ملحوظ مع الاختلافات التى توجد بين أفراد الشمبانزى والبونوبو. سنرى فى كل حالة بالنسبة لحجم معين للحيوان، أن الجمجمة تصبح أصغر حجما، وأن مكونات الجمجمة تصبح أصغر حجما بما فى ذلك الفكين والأسنان، وأن الجمجمة تبدو أكثر شبها بالحدث فى النوع الآخر. فتبدو جمجمة الكلب مثل جمجمة ذئب حدث، وتبدو جمجمة البونوبو مثل جمجمة شمبانزى حدث. ويبدو أن سلوك كل منهما فيه عناصر قوية من سلوك الحدث فى النوع الآخر.

يؤدى هذا إلى فكرة أن النوع يمكن أن يتدجن ذاتيا. هناك أسباب قوية لأن نعتقد أن أفراد البونوبو قد تطوروا من سلف مشابه للشمبانزى نتيجة وجودهم فى بيئة كان العنف فيها أقل فائدة ويدعم الانتخاب فيها الأفراد الأقل عدوانا. وبمرور الوقت، أخذ الانتخاب يعتمد على تلك التباينات الطفيفة فى توقيت وصول الخصائص العدوانية عند الذكور البالغين. وتواصل دفع هذه الخصائص وراء، بما يدعم الأفراد الذين يحتفظون بسلوك أكثر شبها بسلوك الأحداث، بل والذين

يحتفظون برعوس أكثر شبها برعوس الأحداث، لأن المخ هو الذى يتحكم فى السلوك. وأصبح ما لدينا فى وقت لاحق هو نوع قد تم ترويضه على نحو فعال، نوع قد تدجن ذاتيا.

توجد أدلة تجريبية على هذه العملية. وكمثل فإن عالم الوراثة الروسى بلييف أخذ الثعالب البرية وأسلها انتخابيا بهدف خالص للترويض. تكون الثعالب مهيأة للإنسال عند سن ثمانية شهور، وهكذا تمكن بلييف من أن يرى نتائج التجربة بمعدل سريع نسبيا. بعد خمسة وعشرين جيلا لا غير، لم يقتصر ما وجدته على أن سلالة الثعالب كانت مروضة مثل الكلاب بل إنها أيضا كان لديها سلسلة من الخصائص يبدو أنها تراكبت صدفة، نتائج لم يحدث أن انتخبت وإنما تطورت لا غير بأى طريقة. كان ثمة خصائص مورفولوجية درامية - مثل طفرة النجمة، أو ظهور نقطة بيضاء فوق الجبهة مثل التى نراها عند الخيل والبقر والماعز - وهى طفرة من الواضح أنها ترتبط وراثيا بالترويض، لأسباب مازالت غامضة بالكامل. وهناك تغيرات مورفولوجية أخرى - مثل الشعر المجعد، والذبول القصيرة، والأذان المدلاة - تحدث فى عدد من الحيوانات المدجنة. أما لماذا تحدث هذه النتائج المترابطة فلا أحد يعرف سببا لذلك.

وبالإضافة فإننا نجد أمخا أصغر. وهذا أمر ملحوظ فيما يتعلق بالتطور البشرى. نحن ننحو إلى الاعتقاد بأنه قد ظل يحدث باستمرار زيادة فى حجم مخ الإنسان طيلة آخر مليونى سنة، ولكن ما يحدث بالفعل طول آخر ٣٠٠٠٠ سنة أن حجم المخ قد قل بمقدار ١٠ إلى ١٥ فى المائة. والتفسير القياسى لذلك هو أننا أصبحنا أكثر نحولا فى الوقت نفسه - فأصبحنا أنحف فى عظامنا - مما يعنى أن وزن أجسامنا صار أخف، ولما كانت هناك نزعة لوجود علاقة ارتباط بين وزن الجسم ووزن المخ، فإن هذا يفسر حجم المخ الأصغر. ولكنى لا أرى أى سبب يوجب وجود علاقة ارتباط بين حجم المخ ومقدار ما نحمله من لحم على أبداننا. هذه النحافة هى بالضبط نفس النمط الذى نراه فى تطور الكلاب من الذئاب، أو البونوبو من الشمبانزى، أو الثعالب المدجنة من الثعالب البرية. سنجد فى كل هذه الحالات أن نحافة العظام تكون نتيجة عارضة.

أعتقد أننا يجب أن نبدأ في تدبر الفكرة بأننا نحن البشر كنا ندجن أنفسنا فى آخر ٣٠٠٠٠ أو ٤٠٠٠٠ أو ٥٠٠٠٠ سنة. وإذا كنا نتبع نمط البونوبو أو الكلب، فسوف نتحرك تجاه شكل لنا يحدث فيه تزايد وتزايد لسلوكنا كأحداث فى السن. وعندما نبدأ التفكير بهذه اللغة، سوف ندرك أننا مازلنا نتحرك سريعا. وكمثل فإن حجم الأسنان يتم التحكم فيه بالوراثة تحكما قويا ويتطور بتأثير قليل من البيئة، وهو مازال يواصل الانحدار سريعا. وتدل البراهين الحالية على أننا فى الوسط من حدث تطورى يحدث فيه أن يقل حجم الأسنان، ويقل حجم الفك، ويقل حجم المخ، ومن المعقول تماما أن نتصور أننا مستمرون فى ترويض أنفسنا. وفيما يحتمل فإن الطريقة التى يحدث بها ذلك هى الطريقة نفسها التى حدثت منذ أن أصبحنا مستقرين بصورة دائمة فى القرى منذ ٢٠٠٠٠ أو ٣٠٠٠٠ سنة أو ما يزيد.

وعلى سبيل المثال فإن الأفراد ذوى النزعة المعادية للمجتمع، تقل فرص تتاسلهم. فهم قد تنفذ فيهم أحكام إعدام، أو يسجنون، أو قد يعاقبون عقابا شديدا يبقئهم خارج مستودع الإنسال. وكما أن هناك انتخاب للترويض فى عملية تدجين الحيوانات البرية، أو كما أن أفراد البونوبو حدث لهم انتخاب طبيعى ضد العدوانية، فبمثل ذلك تماما يكون هناك نوع من الانتخاب الاجتماعى ضد الأفراد شديدى العدوانية يحدث داخل مجتمعاتهم. وفيما يبدو فإن أفراد البشر يتحولون على نحو متزايد إلى شكل أكثر مسالمة من أسلافهم الأكثر عدوانية.

المنظور الحوسبي

دانييل سى. دينيت^(٤٣)

عندما أذهب إلى مؤتمر أو ورشة عمل وألقى حديثاً، فإننى عندها أجرى بالفعل بحثاً، ذلك أن ما أنا له من الناس من صيحات سخرية وذعر وعبوس، والطريقة التى يتفاعلون بها مع ما أطرحه، هذا كله كثيراً ما يكون فيه تشخيص للطريقة التى يتصورون بها المشاكل داخل عقولهم هم. والحقيقة أن الناس لديهم صور مكنونة مختلفة كل الاختلاف بشأن ما يكونه العقل وطريقة عمل العقل. والحيلة البارعة هى فى كشف هذه الصور، وعرضها للنقاش العام ثم تصحيحها. وهذا هو ما تخصصت فيه.

(٤٣) دانييل دينيت أستاذ جامعى، وأستاذ الفلسفة ومدير مركز الدراسات الإدراكية فى جامعة تافتس. وهو كدارس للفلسفة معروف بأنه نصير مرموق للنموذج الحوسبي للعقل. وقد ألف الكتب التالية، "المحتوى والوعى"؛ و"العواصف الذهنية"؛ و"متسع للمرفق"؛ و"الموقف القصدى"؛ و"تفسير الوعى"؛ و"فكرة داروين الخطرة"، و"أنواع العقول"، و"أطفال العقل"، و"الحرية تتطور". وقد اشترك مع دوجلاس هوفستادر فى تحرير كتاب "العقل وأناه" وكتب ما يزيد عن ٢٠٠ مقال بحثى حول شتى جوانب العقل.

إذا عدنا للوراء عشرين سنة، أو مائتي سنة، أو ثلاثمائة سنة، سنرى أنه كانت هناك عائلة من الظواهر ليس لدى الناس أى فكرة عنها، وهى عائلة من ظواهر عقلية، إنها الفكرة الجوهرية عن التفكير، والإدراك، والحلم، والإحساس. لم يكن لدينا مطلقاً أى نموذج عن طريقة فعل ذلك فيزيقياً. وإذا كان ديكارت وليبنز من العلماء العظماء بحكم ما يستحقونه، إلا أنهما ببساطة، عندما يصل الأمر إلى محاولة فهم هذه الأمور، لم يتوصلا إلى أى كشف عنها. أما الآن فإننا فى الحقيقة بفضل من أفكار الحوسبة لا غير أصبح لدينا بعض أفكار واضحة تقبل التناول وتدور حول احتمال ما يمكن أن يجرى فى هذا الشأن. مازلنا لا نمتلك بعد القصة اللائقة. ولكن لدينا بعض الأفكار الجديدة. نستطيع الآن أن ندرك على الأقل الطريقة التى يمكن بها أداء المهمة.

أحد أهم النجاحات العظيمة فى تاريخ الفهم البشرى هى التوصل إلى فهم فهمنا الخاص بنا وإدراك أنواع الأجزاء التى يمكن أن يصنع منها. دعنا نقارن ذلك مثلاً بفهمنا للحياة نفسها أو التكاثر والنمو، فقد كانت هذه الأمور تعد عمليات عميقة غامضة منذ مائة عام وطول كل الزمن قبلها. أما الآن فلدينا فكرة واضحة إلى حد كبير عن طريقة تكاثر الأشياء، وطريقة نموها، وطريقة ترميمها لذاتها، وتغذية نفسها بالوقود. فكل هذه الظواهر التى كانت غامضة فيما سبق أخذت الآن تجد حلاً.

عندما نتنظر فى أمر ظواهر من هذا النوع، ستدرك إنها عند مستوى أساسى جداً ظواهر حوسبية، بمعنى أن هناك خوارزمات^(٤٤) للنمو، والارتقاء، والتكاثر. الفكرة الرابطة المحورية هنا هى أننا نستطيع أن نضع معاً بلايين بل وترليونات^(٤٥) الأجزاء المتحركة ونحصل على نتائج تكون جديدة بالكامل وتبرز للوجود على مستوى أعلى؛ وأحسن تفسير لما يتحكم فى هذه النتائج يكون على

(٤٤) الخوارزم: مجموعة إجراءات بسيطة رياضية أو منطقية تتبع لحل مسألة أو مشكلة فى عدد محدود

من الخطوات. والكلمة مأخوذة عن اسم الخوارزمى عالم الجبر العربى. (المترجم)

(٤٥) الترليون: مليون مليون أو ألف بليون. (المترجم)

مستوى البرمجيات، أو مستوى الخوارزميات. عندما نريد أن نفهم كيف يحدث ما هو منتظم من الارتقاء والنمو والإدراك، سنحتاج لأن يكون لدينا مستوى مرتفع من الفهم للطريقة التي تتفاعل بها تلك البلايين والترليونات من القطع إحداها مع الأخرى.

لم يكن لدينا قط من قبل الأدوات اللازمة لفهم ما يحدث عندما نضع معا تريليون خلية ونتركها لتتفاعل معا. نحن الآن نحصل على هذه الأدوات؛ بل وحتى كمبيوتر الحجر المتواضع يعطى لنا تلميحات عن الأمر، لأننا نرى فيه ظواهر تحدث على مكتبنا مما كان سينبهر له نيوتن أو ديكارت، أو داروين. إنها ظواهر تبدو وكأنها سحر صرف. ونحن نعرف أنها ليست سحرا. لا يوجد أى شئ سحري فى الكمبيوتر. أحد ألمع الأشياء فى الكمبيوتر أنه لا يخفى شيئا مستورا فى كنهه. نحن نعرف بكل تأكيد أن ليس فيه أى رنين تشكلى، ولا موجات نفسوية، ولا تفاعلات شبحية؛ فهو يعمل حسب الأسلوب الجيد العتيق من السببية المادية التقليدية بما فيها من فعل لقطب إزاء قطب. وعندما نضع ذلك معا بالترليونات مع البرمجيات، تتال هذا السحر الذى ليس حقا بالسحر.

فكرة الحوسبة فكرة غامضة؛ من الخطأ أن نعتقد أن لدينا مفهوما واضحا، موحدًا، وبلا إشكالات عما يمكن أن نفسره كحوسبة. فتعريفها مثلا أقل وضوحا عن فكرة المادة أو أفكار الطاقة أو الزمن فى الفيزياء. بل إن علماء الكمبيوتر ليس لديهم إلا استيعاب معتم لما يعنونه فعلا بالحوسبة. والسؤال هو أين نضع الخط الفاصل بين ما هو حوسبة وما ليس بالحوسبة. هذا أمر ليس جد واضح. ولكن هذا لا يعنى أننا لا نستطيع أن يكون لدينا نظريات جيدة عن الحوسبة. يكاد يكون الممكن بالنسبة لأى عملية أن نفسرها من خلال عدسة أفكار الحوسبة، وعادة يكون فى هذا ممارسة مثمرة لإعادة للتفسير. نستطيع أن نرى من خلال تلك العدسة ملامح للظاهرة تكون أساسا مما لا يمكن رؤيته من خلال أى عدسة أخرى.

الثقافة الإنسانية هى البيئة التى نعيش فيها. هناك البيئة الفيزيائية الصارمة - الشوارع والهواء الذى نتنفسه، والماء الذى نشربه، والسيارات التى ننقل بها -

ثم هناك كل هذا الاتصال الذي يجرى من حولنا بوسائط كثيرة مختلفة: أحاديث الحياة اليومية، الصحف، الكتب، المذيع، التلفزيون، الإنترنت. يعيش طائر الحمام أيضا في عالمنا، ولكنه غير واع بمعظم ما فيه، فهو لا يبالي بما هو مكتوب في الصحيفة التي يجد كسر خبزه فوقها. فلا أهمية عنده لما يكونه محتواها وما فيها من معلومات. والأمر يختلف بالنسبة لنا؛ فالمعلومات مهمة حقا.

عندما نفكر في أمر العالم المعلوماتي الذي يعيش فيه نوعنا، سندرك أنه في الحقيقة فيه الكثير من تركيب البنية. فهو ليس محدد الشكل. ليس كل شيء متصل بكل شيء آخر. هناك الكثير من الحواجز. هناك معمار لهذا العالم من الاتصال، وهو معمار يتغير سريعا، بطرائق لا نفهمها بعد.

دعني أذكر لكم مثلا بسيطا لهذا. منذ عامين كان يمكننا أن نضبط الجهاز على محطة "السوبر باول" فنرى أن تلك الشركات للدوت كوم تصب قدرا كبيرا مربكا من تمويلها الابتدائي في إعلان واحد عن "السوبر باول"؛ كانوا يحاولون أن يؤدي بهم هذا الإعلان إلى بداية طافرة وكان هذا مثيرا للعجب. إذا كانت هذه إحدى شركات الإنترنت، لماذا لم تستخدم الإنترنت؟ ما السبب في هذا التصرف في اتجاه ارتدادى، بأن يتم الإعلان على الإذاعة النظامية للتلفزيون؟ والإجابة بالطبع هي أن هناك فارقا أساسيا في معمار الفهم المتصور لكل من هذين الوسيطيين الإعلاميين. عندما تشاهد "السوبر باول"، فإنك تكون جزءا من مجتمع كبير متزامن، وأنت تعرف ذلك. فأنت تعرف أنك واحد من ملايين أو مئات الملايين من الناس. وأنتم جميعا تمارسون الشيء نفسه في الوقت نفسه، وتعرفون أنكم تفعلون ذلك. وهذه الحقيقة الثانية - هذه الحقيقة باستجاباتها الانعكاسية - هي ماله أهمية بالغة. عندما تدخل إلى موقع ويب قد يكون هناك مائة مليون فرد ينظرون لذلك الموقع في ويب ولكنك لا تعرف ذلك. ربما تكون قد قرأت ذلك في مكان ما... ولكنك لست متأكدا، فأنت لا تعرف. سيكون إحساسك عند الاتصال على ويب إحساسا فيه خصوصية أكثر مما تحسه عندما تشاهد شيئا على شبكة التلفزيون. ولهذا نتائجه الهائلة فيما يتعلق بالمصادقية. الإعلان الذي ينجح جيدا على

التلفزيونُ يفضل تماماً على ويب، لأن الناس الذين يرونه، ويقرأونه، ويسمعونه، لا يعرفون أى جمهور يكونون هم جزءاً منه. وهم لا يعرفون مدى حجم الحيز الذين يكونون فيه. هل هذا تواصل فردى أو تواصل عام؟ نحن لا نعرف بعد نوع التشظى الذى ستحدثه الإنترنت فى جمهور المترجمين بالعالم. تأتى الإنترنت بالناس معاً، ولكنها أيضاً تعزلهم بطريقة لم نبدأ بعد فى تقييمها. ينشأ لدى المستخدمين المبتدئين لويب إحساس بالضياح المطلق عندما يستعملون الويب لأول مرة، عندما يختارون آلات البحث، يأخذون فى معرفة ما الذى يتقون به، أين يكون الملاذ، من الذى يصدقونه، أى المواقع يذهبون إليها، وينشأ هذا الإحساس بالضياح لأن الكل يكون متعطشاً لأن يجد من يوثق به من مانحى المعلومات ومن علامات الطريق.

تم إرساء هذه الجغرافيا للمعلومات المتاحة عبر قرون من وسائل الإعلام التقليدية. نتناول صحيفة "التايمز" ونقرأ فيها شيئاً، وتكون لها سلطة مرجعية معينة بالنسبة لك. أو أنك تذهب إلى مكتبة عامة ونقرأ شيئاً فى "الموسوعة البريطانية"، هذه مؤسسات لها خصائصها المميزة، لها سمعتها الخاصة، وسمعتها هذه أمر يتم التشارك فيه مجتمعياً. من المهم أن يعرف أصدقاؤك أيضاً أن صحيفة "التايمز" و"الموسوعة البريطانية" يعد كل منهما مكاناً مهماً للبحث. دعنا نفترض أن أحد الأشخاص كتب ونشر كتاباً اسمه "موسوعة سامى للمعلومات فى العالم ؟" قد تكون هذه أفضل موسوعة فى العالم، ولكن إذا لم يدرك ذلك الناس بعامة، لن يثق أحد بما يوجد فيها. وفى حدود ما أرى، فإن قضية المصداقية هذه لم تبدأ حتى فى أن تتبلور على الويب. نحن هنا ندخل إلى مياه لا خريطة لها، ومن الصعب أن نتنبأ بالنتيجة.

تغيرت الخبرة البشرية تغيراً هائلاً فى القرن الماضى، خاصة عبر العقد الأخير. وكمثل فأننا أخمن أن المراهق المتوسط فى العالم الغربى يستمع لموسيقى يعزفها المحترفون قدرها أكبر من كل ما سمعه موزارت فى حياته كلها (دون حساب لما يخصه هو من زمن عزف وتأليف وبروفات). كان من المعتاد وقتها أن

الاستماع إلى موسيقيين محترفين وهم يعزفون أمر خاص جدا. أما الآن فإن "عدم" الاستماع إلى موسيقيين محترفين يكون هو الأمر الخاص جدا - ثمة تسجيلات صوتية توجد تقريبا أينما يذهب المرء. وهذا تغيير هائل في بنية الاستماع في العالم الذى نعيش فيه. وقد أصبح للفنون الأخرى وضع مماثل. كان هناك وقت يندر فيه مجرد رؤية الكلمات المكتوبة. أما الآن فتوجد كلمات مكتوبة فوق كل شىء. يستطيع الناس الوقوف تحت دش الحمام وهم يقرأون ما على ظهر زجاجة الشامبو. نحن محاطون بالكامل بتكنولوجيا الاتصالات، وهذا أمر جديد. ونوعنا ليس لديه تكيفات لذلك، وبالتالي فنحن نتصرف فى ذلك ارتجاليا.

هناك الكثير من الأنماط فى العالم. بعض هذه الأنماط محكوم بقانون الجاذبية، وبعضها محكوم بمبادئ فيزيائية أخرى. وبعضها محكوم بالبرمجيات بمعنى أن نقول إن متانة النمط، أى حقيقة أنه ملحوظ، وأنه يمكننا التعرف عليه، وأنه يظل يكاثر من نفسه، وأنه يمكن أن يوجد هنا وهناك وفى مكان آخر، وأننا نستطيع أن نتنبأ به، هذا كله ليس بسبب وجود قانون أساسى مثل قانون الجاذبية يتحكم فيه، ولكن السبب هو أن هذه أنماط تحدث أينما يكون هناك كائنات حية تعالج المعلومات. فهم يحافظون على هذه الأنماط، ويجددونها، ويرممونها ويجعلونها مستمرة. وهذا ملمح أساسى جديد فى الكون. لو ذهبنا إلى كوكب بلا حياة ومسحنا كل الأنماط عليه، لن نجد أنماطنا هذه هناك. إنها الأنماط التى نستطيع أن نجدها فى حمض دنا^(٤٦)، إنها تلك الأنماط، الأصلية، الأنماط التى تجعل كل الأنماط الأخرى ممكنة. وهى أيضا الأنماط التى نجدها فى النصوص. إنها مما يلزم أن يكون لها بعض تجسيد فيزيقى فى نيوكليوتيدات^(٤٧) أو علامات حبر أو جسيمات وشحنات؟ على أن ما يفسر صميم وجودها فى الكون هو الحوسبة، الصفة الخوارزمية لكل الأشياء التى تتكاثر ويكون لها معنى، وتصنع المعنى.

(٤٦) دنا مخصورة حامض دى أوكسى ريبونوكليك المكون الرئيسى للجينات أو المورثات. (المترجم)

(٤٧) النيوكليوتيدات وحدات فى بناء دنا. (المترجم)

هذه الأنماط هي بأحد المعانى لا تقبل أن تختزل فى قوانين الفيزياء، على الرغم من أنها تتأسس فى واقع فيزيائى. تفسير السبب فى أن الأنماط تتشكل بالطريقة التى تفعل بها ذلك، أمر يجب أن يجرى على مستوى أعلى. طرح دوجلاس هوفستادر ذات مرة مثلاً بسيطاً بالغ الروعة: نمر بأحد الكمبيوترات وهو يظل يدمدم ويدمدم. لماذا لا يتوقف؟ أى حقيقة تفسر لنا حقيقة أن هذا الكمبيوتر بالذات لا يتوقف؟ السبب فى مثل هوفستادر لعدم توقف الكمبيوتر هو أن (باى) π رقم لا منطقى. ماذا؟ حسن، إن (باى) رقم لا منطقى، الأمر الذى يعنى أنه رقم عشري لا ينتهى أبداً، وبرنامج هذا الكمبيوتر بالذات يولد الامتداد العشري (البأى)، وهذه عملية لن تتوقف أبداً. لاريب فى أن الكمبيوتر قد يعطب. قد يأتى أحد الأفراد ومعه فأس ويقطع سلك الطاقة، ولكن الكمبيوتر طالما يظل مزوداً بالطاقة، سيواصل توليد هذه الأرقام للأبد. هذه حقيقة بسيطة متينة يمكن اكتشافها فى هذا العالم، وتفسيرها فيه استشهاد بحقيقة رياضية مجردة.

والآن فإن هناك أنماطاً أخرى كثيرة فى العالم ليست بهذا الإلغاز ولها علاقة بالمعنى الذى نربطه بالأشياء. لماذا حدث أن احمر وجه أحدهم خجلاً؟ هناك تفسير جيد تماماً لما تكونه "عملية" احمرار الوجه: احمرار الوجه هو انتشار للدماغ خلال بشرة الوجه. ولكن "لماذا" حدث احمرار لوجهه؟ إن وجهه قد احمر لأنه يعتقد أنها تعرف عنه حقيقة كان يود ألا تعرفها. هذه حالة قصدية، حالة مركبة من مرتبة أعلى، حالة لا تتسنى لنا رؤيتها إلا عندما نرتفع إلى المستوى الأعلى القصدى. لن نستطيع أن نرى ذلك بأن ننظر إلى الحالة الفردية لكل عصبون^(٤٨) فى مخ الرجل. ينبغى أن نصل إلى المستوى الذى نتحدث عنده عما يعرفه هذا الرجل ويعتقده ويريده.

المستوى القصدى هو ما أسميه "بالموقف القصدى". وهو إستراتيجية نستطيع أن نجربها كلما جوبهنا بشيء له طبيعة مركبة. ولا ينجح ذلك دائماً. والفكرة هى أن نفس هذا التركيب على أنه يتكون من عامل أو عوامل فعالة،

(٤٨) العصبون: الخلية العصبية ونفرعاتها. (المترجم)

أفرادها لهم ذكاؤهم ومنطقهم، ولديهم جدول أعمالهم ومعتقداتهم ورغباتهم، كما أنهم يتفاعلون. عندما نرقى إلى المستوى القصدي، نكتشف أنماطا لها قدرة تنبؤ عالية، ولها متانتها، ولا تقبل الاختزال بأى معنى مفهوم إلى أنماط المستوى الأدنى على المستوى الفيزيقي. وفيما بين الموقف القصدي و"الموقف الفيزيقي" سجد ما أسميه "بموقف التصميم". وهذا هو مستوى البرمجيات.

ظلت فكرة التجريد موجودة فيما حولنا لزمان طويل، وكان فى وسع المرء منذ ٢٠٠ سنة أن يستثير تصورا فلسفيا بأن يسأل عما صنعت منه سيمفونية هافنر لموزارت. إنها حبر على الورق. وهى تتابع أصوات كما يعزفها أفراد بآلات وترية مختلفة وآلات أخرى، وهى شئ مجرد. إنها سيمفونية. صنع ستراد يفاريوس آلات الكمان؛ وصنع موزارت السيمفونيات، التى تعتمد على تحقق فيزيقي ولكنها لا تعتمد على أى شئ بعينه. فهى لها وجودها المستقل، الذى يمكن أن ينتقل من أحد الوسائط للآخر ثم يعود ثانية.

ظلت هذه الفكرة لدينا لزمان طويل، ولكننا مؤخرا صرنا أكثر ارتياحا لها بكثير، حيث نعيش كما نفعل فى عالم من مصنوعات تجريدية تتوالت عشوائيا من وسط لوسط. لم يعد من الأمور الكبيرة أن تنتقل من القراءة الموسيقية، إلى الموسيقى التى نسمعها حية من فرقة، إلى النسخة المسجلة للموسيقى. نستطيع الآن أن ننوِّث جينة وذهابا بين الوسائط المختلفة بسرعة كبيرة جدا. أصبح هذا حقيقة من حقائق الحياة. كان المعتاد فيما مضى أن يكون نقل الأشياء من شكل لآخر أمرا فيه جهد شاق، لم يعد هذا فيه أى جهد شاق؛ فهو يحدث أوتوماتيكيا، فقد تخلصنا من وجود الوسيط. لم يعد يتوجب علينا أن يكون لدينا رجل موسيقى ليقرا النوتة، لينتج الموسيقى. بتخلصنا هكذا من كل الجهد الشاق للترجمة من وسيط لآخر نجعل الأمر كله طبيعيا وأكثر عندما نشحن عالمنا بالتجريدات، ذلك أنه من الشاق أن نواصل متابعة مسار ما يكونه الوسيط الذى توجد فيه. كما أن هذا لم يعد يهم كثيرا الآن، نحن نهتم بالتجريد، وليس بالوسيط. من أين حصلت على هذه القطعة من البرمجيات؟ هل ذهبت إلى متجر واشتريت قرصا مضغوطا بالفعل ووضعتة فى

كمبيوترك، أو أنك فحسب قد نقلتها بالترحيل من ويب؟ إنها نفس قطعة البرمجيات، سواء بهذه الطريقة أو الأخرى. والأمر حقا لا يهم. هذه الفكرة من حيادية الوسيط هي إحدى الأفكار الجوهرية بالنسبة للبرمجيات، أو بالنسبة للخوارزميات عموما. وهي فكرة أخذنا نألفها، إلا أنه يظل مما يذهلني أنه لا يزال هناك قدر كبير من المقاومة لهذه الفكرة.

الخوارزم عملية تجريدية يمكن تعريفها حسب مجموعة محددة من الإجراءات الأساسية - مجموعة تعليمات. إنها نظام له بنيته من هذه الإجراءات. وهذه فكرة سخية جدا عن الخوارزم - أكثر سخاء مما قد يوده الكثيرون من الرياضيين، لأنني بهذا التعريف سوف أضمن خوارزميات قد تكون معيبة بطرائق معينة. ولننظر أمر جهاز كمبيوتر الحجر. توجد مجموعة تعليمات لهذا الجهاز تتألف من كل الأمور الأساسية التي يمكن لوحدة المعالجة المركزية فيه أن تؤديها؛ وكل عملية أساسية لها اسم رقمي أو شفرة، وفي كل مرة يحدث فيها هذا التتابع من البتات^(٤٩) تحاول وحدة المعالجة المركزية أن تنفذ تلك العملية. يستطيع المرء أن يأخذ أي تتابع للبتات في أي حال ليغذي به كمبيوتر الحجر كما لو كان برنامجا. ويكاد يكون مؤكدا أن أي تتابع لم "يصمم" كبرنامج يعمل على هذا الكمبيوتر للحجر فإنه لن يفعل مطلقا أي شيء - سوف يعطب لا غير. على أنه لا يزال هناك جانب مفيد عندما نفكر في أن "أي" تتابع من التعليمات، مهما كان مختلا، ومهما كان غيبيا، ومهما كان ناقها، مهما كان من ذلك فإنه ينبغي أن يعد خوارزما، لأن ما يكون عند أحد الأفراد تتابعا مختلا ناقها، يكون عند فرد آخر أداة مفيدة لبعض هدف غريب، ونحن لا نريد أن نصدر حكما مسبقا في هذه المسألة. (ربما تكون "التوافه" قد ضمنت "من أجل" أن تجعل كمبيوتر الحجر يصيبه عطب بالضبط عند النقطة التي عطب فيها!) نستطيع تعريف الخوارزم على نحو أكثر ملاءمة بأنه ما يعمل دون عطب. والمشكلة الوحيدة هنا هي أننا لو عرفنا الخوارزميات بهذه الطريقة، فإننا فيما يحتمل لن نحصل على أي خوارزم لكمبيوتر

(٤٩) البتة Bit، رقم ثنائي binary digit، من واحد أو صفر وهو أصغر وحدة معلومات يتعامل بها الكمبيوتر. (المترجم)

الحجر، لأنه يكاد يكون من المؤكد أن هناك طريقة تجعل تقريبا كل برنامج فى كمبيوتر الحجر يصبه عطب. والأمر فحسب أننا لم نجد بعد هذه الطريقة. البرمجيات الخالية من الآفات أمر مثالى يكاد يكون مما لم نتوصل له قط.

أصبح من الأمور السائدة كصرعة أن ننظر إلى كل شيء على أنه عملية حوسبة. والقضية التى نلقاها هنا ليست قضية تتعلق بالحقيقة وإنما هى قضية إستراتيجية. ليس السؤال هنا هو "ما هى الحقيقة؟" فالسؤال هو "ما الإستراتيجية الأكثر فائدة؟" نحن لا نريد أن ننبد المعايير ونعتبر أن كل شيء حوسبة، ذلك أننا لو فعلنا ذلك ستفقد الفكرة معناها؛ ولن يعود لها بعد أى مغزى. كيف نتعامل مع ذلك؟ إحدى الطرائق أن نحاول أن نحدد بطريقة محورية صلبة بعض مستوى لعبته يجب أن نجتازها، وأن نرفض أن نسمى أى عملية بأنها حوسبة إلا إذا كان لديها الخصائص أ، وب، وج، ود، وهـ. نستطيع أن نفعل ذلك بأى عدد من الطرائق وسوف يغنيننا ذلك عن الحرج من أننا يتوجب علينا أن نقول إن كل شيء حوسبة. والمشكلة هى أن أيا مما سنختاره كمجموعة من الشروط المحددة سيكون جامدا أكثر مما ينبغي. سنجد أن هناك عمليات تقى بهذه الشروط ولكنها لا تكون مثيرة للاهتمام حوسبيا ولا بأى معايير كانت، وسنجد أن هناك عمليات لا تقى بالمعايير ولكنها مع ذلك تماثل تماثلا له مغزاه الأشياء التى نريد أن نعتبرها حوسبية. وإذن كيف نتعامل مع قضية التعريف؟ بأن نتجاهلها - هذا هو ما أقترحه. الأمر كما يحدث فى الحياة! نحن لا نود أن نجادل فيما إذا كانت الفيروسات حية أو لا؛ إنها حية من بعض الوجوه، وليست حية من وجوه أخرى. من الواضح أن بعض العمليات تكون حوسبية. ومن الواضح أن بعضها الآخر ليست حوسبية. أين يحدث أن نستتير بالمنظور الحوسبى؟ حسن، هذا أمر يعتمد على من الذى ينظر إلى الاستتارة.

قد وصفت ثلاثة مواقف للنظر إلى الواقع: الموقف الفيزيقي، وموقف التصميم، والموقف القصدى. الموقف الفيزيقي هو حيث يوجد الفيزيائيون؛ إنه المادة والحركة. والموقف التصميمي هو حيث نبدأ النظر إلى البرمجيات - إلى

الأنماط التى يحتفظ بها - لأنها أشياء مصممة تعمل على انقاء تحليلها هى نفسها. بمعنى أنها متاريس ضد القانون الثانى للديناميكا الحرارية^(٥٠). ينطبق هذا على كل الكائنات الحية وكذلك على كل المصنوعات. وفوق هذا يوجد الموقف القصدى، وهو الطريقة التى نتعامل بها مع تلك المجموعة المحددة من الكائنات والمصنوعات التى هى نفسها عوامل فعالة تعالج المعلومات معالجة منطقية. وبمعنى ما، فإننا نستطيع من الموقف القصدى أن نتعامل مع أمنا الطبيعة كعامل فعال، من حيث إن كل عملية التطور بالانتخاب الطبيعى، ولكننا نفهم أن هذا مجرد صيغة كلامية، طريقة مختصرة مفيدة للتوصل إلى معالم عمليات التصميم التى تتكشف عبر دهور الزمان. ما إن نصل إلى الموقف القصدى، حتى نجد أن لدينا عوامل فعالة منطقية، لدينا عقول، ومبدعون، ومؤلفون، ومخترعون، ومكتشفون - وأناس الحياة اليومية - كلهم يتفاعلون على أساس ما يضطلعون به فى العالم.

هل هناك أى شىء فوق ذلك؟ حسن، يوجد بأحد المعانى ما هو فوق ذلك. الناس - أو الأشخاص كعوامل فعالة - هم مجموعة فرعية متخصصة من المنظومات القصدية. الحيوانات كلها منظومات قصدية. وثمة "أجزاء" فى كل واحد منا هى منظومات قصدية. فكل واحد قد صنع من كثير من المنظومات القصدية الأصغر - أنواع من أشخاص مقزمة - ولكن ما لم يكن المرء مصابا بخلل من تعدد الشخصيات، فإنه ليس هناك وجود إلا لشخص واحد. الشخص عامل فعال أخلاقى - ليس مجرد عامل فعال إدراكى، وإنما عامل فعال أخلاقى. وهذا أعلى مستوى فى إمكانى أن أفهمه. لماذا يوجد بأى حال، وكيف يوجد، وما شروط الحفاظ عليه: هذه كلها مشاكل مثيرة جدا للاهتمام. نستطيع هنا أن ننظر أمر نظرية مباراة التنافس عندما تطبق على نمو الشجر، الأشجار تتنافس على ضوء الشمس، فهذه مباراة يكون فيها كاسيون وخاسرون.

ولكننا عندما ننظر أمر نظرية المباراة عندما تطبق، ليس على مجرد عوامل فعالة منطقية، وإنما على أناس لديهم نظرة أخلاقية، سوف نرى عندها بعض

(٥٠) القانون الثانى للديناميكا الحرارية يتناول ظاهرة الإنتروپيا وهى ميل مقترض لأن يصبح أى نظام مغلق أكثر فوضى وعشوائية. (المترجم)

فروض مهمة. الناس لديهم إرادة حرة؛ والأشجار ليس لديها ذلك. فهذه ليست قضية بالنسبة للأشجار بالطريقة التي تكون بها قضية للناس.

ما أحبه في فكرة أن الناس حيوانات لها إرادة حرة هو أنها فكرة تتفق مع التراث الفلسفي (بما في ذلك أرسطو وديكارت مثلا) ذلك في أنها تحافظ على النظرة بأن الناس "يكونون" مختلفين - فالناس ليسوا "مجرد" حيوانات. لاريب في أن المنظرين التقليديين يختلفون اختلافا كاملا بشأن ما تكون منه هذه الفروق. وعلى الرغم من أن هذا يجعل فكرة الناس طبيعانية، فإنه يقول إنهم مختلفون، وهذا كما اكتشفت أمر فيه أكثر ما بلغت ويزعج الناس بشأن وجهة نظري. فهناك أولئك الذين يريدون أن يكون الناس أكثر اختلافا مما أسمح به. فهم يريدون أن يكون للناس أرواح، وأن يكونوا أناسا ديكارتيين. وهناك أولئك الذين يخشون من أنى أحاول تمييز الناس بأكثر مما ينبغي عن الحيوانات الأخرى بزعمي أن البشر هم حقا بسبب الثقافة نوع مختلف اختلافا مهما. ينظر بعض العلماء إلى هذا الزعم بتشكك، وكأني أحاول أن استخلص للفلسفة أمرا ينبغي أن ينتمى للعلم. إلا أن الحقيقة أن وجهة نظري عن الاختلاف المميز للناس لهي نظرية علمية؛ فهي، أصابت أو أخطأت، تعد على أي حال تضمينا لنظرية علمية.

فيما يختص بدوري في علم الإدراك - وما إذا كنت أعد نفسي فيلسوفا أو عالما - أعتقد أني بارع في اكتشاف معوقات التخيل، العادات السيئة في التفكير التي تصيب بالعدوى طريقة تفكير المنظرين في مشاكل الوعي. عندما أذهب إلى مؤتمر أو ورشة عمل وألقى حديثا، فإنني عندها أجرى بالفعل بحثا، ذلك أن ما أناله من الناس من صيحات سخرية وذعر وعبوس، والطريقة التي يتفاعلون بها مع ما أطرحه، هذا كله كثيرا ما يكون فيه تشخيص للطريقة التي يتصورون بها المشاكل داخل عقولهم هم. والحقيقة أن الناس لديهم صور مستترة مختلفة كل الاختلاف بشأن ما يكون العقل وطريقة عمل العقل. والحيلة البارعة هي في كشف هذه الصور، وعرضها للنقاش العام ثم تصحيحها. وهذا هو ما تخصصت فيه.

ما قمت به من تدمير للمسرح الديكارتي، وللمادية الديكارتيّة، هو فحسب إحدى تلك الحملات الكشفية. كثيرا ما يبدي الناس الموافقة شفاهة دون إجراء علمي، على فكرة أنه لا يوجد أي وسيط متميز في المخ يلعب ذلك الدور الذي خصصه ديكارت للعقل اللا فيزيقي كمسرح للوعي. ومع ذلك لو دققنا النظر فيما يفكرون فيه ويقولونه، فإن وجهة نظرهم لا تكون مفهومة إلا إذا فسرناها على أنها تفترض مسبقا بطريقة مستترة وجود المسرح الديكارتي في بعض مكان من نموذجهم. عندما نظهر هذا الأمر للخارج، ونأتي به للسطح، ثم نوضح ما يمكن أن نجعله محل مكانه، فإن هذا عمل يعد في نظري بالغ الأهمية. ومما يبعث على السعادة أن بعض الناس قد توصلوا إلى أن يقدروا هذا الأمر كخدمة قيمة يستطيع أن يؤديها بعض فرد ممن يكون فليسوف مثلي: وهي أن يجعل الناس يواجهون الافتراضات الخفية في تفكيرهم الخاص بهم وأن يبين لهم كيف أن هذه الافتراضات تعميهم عن فرص تفسير ما يريدون تفسيره.

ما شكل أذنى الكلب الراعى الألماني؟

ستيفن م. كوسلين^(٥١)

ثمة مشروع ضخم لايزال علينا القيام به، سوف يغرس جذور علم النفس مع سائر العلم الطبيعى. ما إن يتم إنجاز ذلك حتى نستطيع أن ننطلق من الظواهرية^(٥٢) (أمور مثل التصور العلقى) إلى معالجة المعلومات... إلى المخ... لنتعمق مباشرة فى أعمال العصبونات، بما فى ذلك البيوكيمياء، انطلاقا بطول الطريق إلى البيوفيزياء والطريقة التى يحدث بها للجينات تنظيم نشاطها ارتفاعا وانخفاضا. سوف يحدث هذا؛ ليس لدى مطلقا أى شك فى ذلك. وعندما يحدث سيكون لدينا فهم للطبيعة البشرية أفضل لأقصى حد مما كان لدينا فى أى وقت آخر من تاريخ البشر.

(٥١) ستيفن م. كوسلين أستاذ كرسى جون ليندزلى لعلم النفس فى جامعة هارفاد، وقد نشر مايزيد عن ٢٥٠ ورقة بحث فى طبيعة التصور العلقى البصرى والموضوعات التى تتعلق بذلك. وقد شارك فى تأسيس مجلة "جورنال أوف كوجنيتيف نيورو ساينس" (مجلة علم الأعصاب الإدراكى) ويرأس تحريرها، وعمل فى لجان عديدة للمجلس القومى للأبحاث كمستشار للحكومة فيما يتعلق بالتكنولوجيات الجديدة. تتضمن مؤلفاته كتب، "الصورة والعقل"؛ و"أشباح فى ماكينة العقل"؛ و"عناصر تصميم الرسم"؛ و"العقل الرطب" (ألفه مع أوليفيه كونيج)؛ و"الصورة والمخ"؛ و"علم النفس" (ألفه مع روبن روزنبرج).

(٥٢) الظواهرية هى الدراسة الوصفية للظواهر على نحو ما تبدو فى الزمان والمكان بصرف النظر عما وراءها من حقائق. (المترجم)

استحوذ على بطول السنوات الثلاثين الأخيرة سؤال هو: ما شكل أذننى الكلب الراعى الألمانى؟ وأنا بالطبع لست أهتم حقا بهذا السؤال بوجه خاص؛ لو كنت كذلك لأمكننى لا غير أن أخرج وأنظر إلى الكلاب. أما ما أهتم به فى الواقع فهو الطريقة التى يجيب بها الناس عن السؤال من الذاكرة. يذكر معظم الناس أنهم يتصورون رأس الكلب و"ينظرون" عقليا إلى أذنيه. ولكن ما الذى يعنيه أن نتصور شيئا ما؟ ما الذى يعنيه أن "ننظر إلى" شيء ما فى عقلنا؟ لا يوجد فى العقل شخص صغير ينظر إلى صورة. لو كان هناك شخص كهذا، سيلزم أن يوجد شخص صغير داخل رأس ذلك الشخص، وهلم جرا، وهلم جرا، وهذا أمر غير معقول.

حاولنا لسنوات كثيرة أن نجمع براهين موضوعية توضح أنه عندما تكون لدينا ممارسة للتصور، يكون هناك بالفعل شيء متصور فى رأسنا. ثمة أجزاء من المخ قد نظمت فيزيقيا بحيث إننا عندما ننظر إلى شيء ما، يتم فيزيقيا إرساء نمط مقابل له على قشرة المخ. وحتى لو كانت عيناك مغلفتين وأنت تتصور، سنجد أن المنطقة البصرية الأولى فى تيار المعالجة كثيرا ما يتم تنشيطها فى أثناء التخيل البصرى؛ وبالإضافة فإن طريقة تنشيطها تعتمد على ما يجرى تصوره. إذا كنا نتصور شيئا عموديا، يكون هناك تنشيط بطول ما يسمى خط الزوال الرأسى؛ وإذا كنا نتصور شيئا أفقيا، ينقلب التنشيط على جانبه. ونجد بمثل ذلك أن تصور أشياء بأحجام مختلفة يغير من نمط التنشيط بطرائق تشبه كثيرا جدا ما يحدث عندما ننظر إلى أشياء من الأحجام المطابقة.

إلا أنى أجريت أبحاثا للإجابة عن هذا السؤال - ليس السؤال عن الكلب وإنما عن السؤال الذى وراء ذلك السؤال، أى ما يكونه التصور - وأجريتها لما يقرب من ثلاثين سنة حتى الآن وأود أن أتحرك قدما من ذلك. أود بدلا من مجرد محاولة إثبات أن هناك صورا عقلية بالفعل وأنها تمثلات صادقة لها دور وظيفى فى نظم المعالجة، أود بدلا من هذا أن أسأل، "وإن ماذا؟ من الذى يهمه ذلك؟". أخذت أبحث مؤخرا فى أمر أسميه مؤقتا "مبدأ محاكاة الواقع". وهو ينبئ على ما اكتشفته فى المعمل من أن معظم الأجزاء نفسها من المخ - حوالى الثلثين -

تتشارك في الأمرين معا، التصور البصرى والعقلى والإدراك الحسى البصرى. هناك قدر كبير من التداخل، يؤدي بنا للظن بأن الصورة العقلية لأحد الأشياء يمكن أن يكون لها التأثير نفسه على العقل والجسد بمثل ما يكون تأثير رؤية الشيء بالفعل. وفكرتى هي أنه عندما تتشارك نظم المخ، فإنها لا تعرف (إذا جاز التعبير) من أين أتى الدافع المنبه؛ وهى تستطيع أن تنتج نفس النتائج سواء كنا قد نشطنا العملية داخليا (من المعلومات فى الذاكرة) أو خارجيا (من النظر إلى أحد الأشياء).

"مبدأ محاكاة الواقع" يصف طريقة استخدام الصور العقلية كبديلة للأشياء الواقعية، وأساسا كيف نتناولها فى أنفسنا. من المفيد أن نفهم المبدأ مصحوبا بما أسميه دورة "جيتى" (GITI) وهى الحروف التى ترمز للكلمات (الإنجليزية) التى تعنى ولد وعاین، حول وعاین. إذا كانت الصور العقلية تستطيع أن تحاكي أشياء ومشاهد فعلية، فإننا نستطيع أن نولد الصورة، ونعاین ما نحصل عليه، ونحولها، ونعاین النتيجة. من الممكن فعل هذا على نحو متكرر، بمعنى أننا يمكننا الاستفادة من مبدأ محاكاة الواقع لنصنع لأنفسنا كل ما هو جيد من الأمور.

ما نوع الأمور الجيدة التى أتحدث عنها؟ الذاكرة هى أحد الأمثلة الواضحة على ذلك. نحن نعرف من أبحاث آلان بيفيو عالم السيكلوجيا الإدراكية هو وعدد لا حصر له من الآخرين، أننا نتمكن من تذكر الأشياء بأفضل مما نتذكر صور الأشياء، ونتذكر صور الأشياء بأفضل مما نتذكر الكلمات. وثبت فى النهاية أيضا أننا عندما نتصور الأشياء التى تسميها الكلمات، فإننا سنودى اختبارات الذاكرة بأفضل مما نودىها بغير ذلك. ترتب على ذلك أننا نهتم الآن بموضوعات مثل التنويم المغناطيسى. فى وسعنا أن نجعلك تنام مغناطيسيا ونجعلك تتصور شيئا وتتخيل أنه بالفعل شيء له ثلاثة أبعاد يظهر بتفصيل حى رائع، ونحن فى هذه الحالة نتوقع أن ذاكرتك ستعزز حتى إلى حد أكثر.

أوضح علماء الأعصاب مثل مارك جينيرود وجين ديسى أن تخيلنا أننا نفعل شيئا يؤدي لحشد معظم ميكانيزمات المخ التى تعمل كمرشد لما يقابل ذلك من الحركات الفعلية. كما أوضح من يعملون فى سيكلوجيا الألعاب الرياضية أننا

عندما نتخيل اشتراكنا في أحد الأنشطة، فإننا نصبح أفضل في أدائها بالفعل. وهذه العملية تتضمن أيضا توليد صورة، ومعاينة الصورة، وتحويلها بتخيل حركاتنا، و"رؤية" ما ستكونه النتيجة، ثم نعيد الدورة ثانية. وفي وسعنا في المرة التالية مباشرة أن نغير الصورة، وذلك بما يعتمد على النتيجة التي "رأيناها". إذا تخيلنا أننا نلعب الجولف مثلا، وأن الكرة لم تدخل إلى الحفرة، نستطيع أن نتخيل ما الذي سيحدث لو أننا ضربنا الكرة برفق لمسافة أزيد قليلا. من الواضح أن الممارسة العقلية تتجج. ونحن بفهم طريقة عمل ميكانيزمات التصور، نستطيع أن نعظم الاستفادة من هذه الممارسة.

يمكننا أيضا استخدام مبدأ محاكاة الواقع لاكتساب المعرفة بذاتنا. دعنا نحاول هذا: لننتقل من الوقت ظلام وأنك تسير وحدك، فأنت قد تأخرت. وتأخذ في المشي بسرعة أكبر ثم تلاحظ وجود طريق مختصر من خلال زقاق. تزداد الدنيا ظلاما ولكنك لا تريد في الواقع أن تتأخر أكثر مما ينبغي، وهكذا تأخذ في الاتجاه للزقاق. ثم إنك تلاحظ أن هناك ثلاثة رجال يتسكعون قرب فتحة الزقاق، ويدخنون السجائر. هيا نفكر في أول سيناريو: الرجال الثلاثة يبدون في أوائل العشرينيات من العمر؛ وهم يرتدون شورتات طويلة متهدلة، وقمصان تي شيرت قذرة، وقبعات بيسبول مقلوبة للوراء. وعندما أخذت تقترب منهم، توقفوا عن الحديث ودارت كل رعوس الثلاثة وقد أخذت تتابعك. ما الذي ستشعر به؟

والآن، حاول الشيء نفسه، فيما عدا أنك تجعل الرجال الثلاثة صلعا، وفي منتصف العمر، وهم محاسبون بدينون يرتدون بدلا. ها هم يقفون هناك ويدخنون السجائر، وتدور كل رعوس الثلاثة وقد أخذت تتابعك. ما الذي ستشعر به الآن؟

كيف يكون الأمر إذا كان الرجال من السود أو من أصل لاتيني؟ ما الذي ستشعر به؟ إذا استطعت عن طريق هذه المحاكاة العقلية أن تصنف ما يوجد في مشهدك العام أنت نفسك من حيث انفعالاتك، فإنك ربما تكتشف حقا أمورا عن نفسك ستثير دهشتك. هيا اجعل هؤلاء المحاسبين متوسطي العمر أفرادا من السود ثم انظر ما الذي ستشعر به. بعض الناس الذين يجابهون تفاعلاتهم مع المحاكيات

قد يجدون أن ما كانوا يظنون أنه قضايا عرقية هي في الواقع قضايا طبقية. تستطيع هذه الأنواع من المحاكيات أن تنتج لك معرفة بذاتك وتساعدك على تحسين ذكائك الانفعالي.

نستطيع أيضا أن نتناول أجسادنا بالتصور. من الواضح أننا عندما نقوم بتخيل جنسى فإننا نفعل هذا التصور. وعندما نتخيل شيئا مروعاً - مواجهة متوقعة مع شخصية من السلطة مثلا، أو السير بطول ممر ضيق متهوى على سفح جبل - ستجد أن كفيك يأخذان في العرق، وأن ضربات قلبك تتزايد. من الواضح أن التصور العقلي يؤثر في الجسم، ولكنى أفكر في أمر يثير الاهتمام أكثر مما هو واضح في هذه الأمثلة. إحدى الظواهر التي ندرسها الآن هي الطريقة التي نغير بها المشهد الهرموني العام لدينا بالتحكم في تغيير تصوراتنا. هناك ما يسمى "بظاهرة الانتصار": عندما تكون ذكرا وتفوز بمباراة، يرتفع مستوى هرمون التستوستيرون^(٥٣) لديك، وعندما تخسر، ينخفض مستواه، ربما لا يكون في هذا ما يدهش، إلا أنه يثبت في النهاية أنك عندما تشهد فريقك المفضل وهو يفوز، فإن مستوى التستوستيرون لديك يرتفع، وإذا خسر فريقك فإنه ينخفض. ويحدث هذا حتى عندما تشهد مسابقة شطرنج، فالأمر ليس بأنك يثور هياجك.

لماذا يثير ذلك اهتمامنا؟ لقد ثبت في النهاية أن قدرات الرجال المكانية تتباين حسب مستويات التستوستيرون لديهم. تطرح الكثير من الأبحاث أن العلاقة بين مستويات التستوستيرون والقدرات المكانية تكون دالتها في شكل حرف U، فقدرتك المكانية لا تكون جيدة إذا كان عندك تستوستيرون بأكثر أو أقل مما ينبغي. عندما يزداد سنك ينخفض معا ما عندك من مستويات التستوستيرون هي وقدراتك المكانية. وهناك براهين كثيرة على وجود ارتباط بين الاثنين. والسؤال هو، هل أنت تستطيع أن تتحكم في تغيير مستويات التستوستيرون عندك - وبالتالي تتحكم في تغيير قدرتك المكانية - بأن تجرى محاكيات تصويرية، وترقب نفسك وأنت تفوز أو تخسر؟ إذا كان مبدأ محاكاة الواقع مبدأ صحيحا، فإنك ستستطيع فعل

(٥٣) هرمون الذكورة الأساسي، وتفرزه الخصية. (المترجم)

ذلك. هذا البحث مازال جاريا فى معملى بالاشتراك مع بيتر إليسون وكارول هو فى. فلتنتظر معنا.

النقطة المهمة عندى هى أننا نستطيع أن نستخدم مبدأ محاكاة الواقع بطرائق كثيرة مختلفة، بما فى ذلك بعض الطرائق التى لا تكون واضحة بدهيا، مثل التحكم فى تغيير ما لدينا من المشهد العام الهرمونى. التصور العقلى مهم أيضا فى الإبداع وحل المشاكل. سجل أينشتين أن معظم ما فكر فيه قد تم إنجازه بمساعدة من الصور العقلية، بما يسبق أى نوع من تعبير شفوى أو رياضى. نحن نعرف الآن ما له قدره حول طريقة استخدام الصور لخدمة حل المشاكل ولأن نكون مبدعين. يزعم أناس أيضا أننا نستطيع التحكم فى تغيير صحتنا باستخدام ما أسميته بمبدأ محاكاة الواقع. على أنى أشكك نوعا فى ذلك. لاريب أن من الحقيقى أننا نستطيع التحكم إلى حد ما فى تأثير المادة الخاملة^(٥٤) فى تجارب الدواء، إلا أن التأثيرات الطبية فى حالات مبدأ محاكاة الواقع هى فيما يحتمل ليست كبيرة. إذا كانت الأحداث المدركة حسيا لا تأثير لها، فإننا ينبغى ألا نتوقع أن يكون للتصور تأثير. عندما نرقب حدثا معينا لن يبدو أن هذا يفيد فى شفاء السرطان، وهذا يجعلنى أعتقد أن التصور أيضا لن يفيد.

عندما أحاول فهم التصور العقلى، فإن المقدمة المنطقية عندى هى أن "العقل هو ما يفعله المخ". ولاريب فى أن هذا فيه نوع من سطحية بأكثر مما ينبغى. العقل حقا هو ما تفعله قشرة المخ، ذلك أن المخ يفعل أيضا أمورا ليست عقلية، مثل التنفس. إذا كان الأمر هكذا، فإن السؤال يصبح، ما هى الطريقة التى نفهم بها معالجة المعلومات فى المخ؟ هذا واحد من أعمق الأسئلة فى علم النفس، وربما فى العلم عامة. وهو حقا سؤال ملغز. كيف يحدث أن الدلالات ومعانى الأشياء تستطيع أن تملأ تسلسلا للأحداث فى هذه الماكينة الرطبة؟ المخ أو هذه الماكينة الرطبة،

(٥٤) المادة الخاملة Placebo: عند تجربة مفعول دواء جديد يعطى لبعض المرضى الدواء المختبر، ويعطى لمرضى آخرين مماثلين مادة خاملة دوائيا دون إخبارهم بذلك، ويقارن التأثير فى المجموعتين للتأكد من أن أى تحسن فى مجموعة الدواء المختبر يكون نتيجة مفعوله وليس نتيجة تأثير نفسى قد يودى لتحسن مجموعة المادة الخاملة. (المترجم)

لديه ما يقرب من ١٠٠ بليون عصبون، وكل عصبون منها لديه فى المتوسط ١٠٠٠٠ وصلة. هذا ولاشك أمر معقد، إلا أننا فى النهاية نستطيع فهم المخ بلغة الكيمياء والفيزياء.

ولكن ما الطريقة التى تنتج بها هذه الماكينة تسلسلا لأنشطة مترابطة يمكن تفسيرها دلاليا، والطريقة التى تتيح بها لهذه الأنشطة أن تتعدل بواسطة دلالات ما تسجله من العالم؟ عندما نقول لى شيئا، لا يقتصر الأمر على نمط الأصوات، وإنما يؤثر "محتوى" ما نقوله فيما يفعله مخى. والطريقة التى ساستجيب بها تترتب على الطريقة التى يعالج بها مخى المدخل. الطريقة الوحيدة التى أعرفها لمجرد البدء فى التفكير حول هذا السؤال هى أن أفكر فى الطريقة التى يعالج المخ بها المعلومات، كيف يقوم بعملية "الحوسبة". دعنا نفكر للحظة فى أحداث فيزيائية مثل حالة البايئات^(٥٥) فى أحد الكمبيوترات. كل بايئة فى كل تسلسل من ثمانى بايئات تكون إما فى حالى تشغيل أو حالة إيقاف. نستطيع أن نصف فيزيائيا طبيعة هذه الماكينة هى والعتاد، ولكننا نستطيع أيضا أن نفكر فى التمثل: ما الذى يمثله هذا النمط من النشاط الفيزيائى؟ نستطيع أن نفكر فى منظومات مفسرة تتأسس على قاعدة، حيث يكون للتمثلات تأثير فى الأجزاء الأخرى من إحدى المنظومات، بما يسبب تشكيل تمثلات أخرى، تكون معدلة أو مولفة أو يجرى تشغيلها بطرائق مختلفة، وتسبب تولد مخرجات. من المفيد فى هذا الصدد أن نفكر فى أمر الحوسبة فى الكمبيوتر من أجل أن نصف طريقة عمل العقل، حتى وإن كان هذا فيه الاستعارة المجازية الخطأ بالنسبة للمخ.

ينبنى الكمبيوتر على معمار لفون نيومان، حيث يكون هناك فصل صارم بين الذاكرة ووحدة المعالجة المركزية. وهذا يعنى أن هناك فصلا صارما بين العمليات والتمثلات، التى تقع كامنة فى الذاكرة. وحدة المعالجة المركزية هى أساسا جهاز تشغيل يستخدم التعليمات ليملى ما سوف يؤديه، وذلك من حيث أمرين

(٥٥) البايئة Byte. وحدة قياس مكونه من ٨ بتات (أرقام ثنائية) وتصنف المعدات حسب عدد البايئات كأن يقال إن القرص ذو ٤٠ ميغا بايئة والذاكرة ذات ميغا بايئة. (المترجم)

معا، الطريقة التي يفسر بها مجموعات متتالية من التعليمات، وكذلك ما يفعله بالتمثيلات. فكرة التمثيل في جوهرها تعتمد على الطريقة التي تضبط بها وحدة المعالجة المركزية. بمعنى أن النمط نفسه بالضبط من البايتات يمكن أن يمثل رقما، أو حرفا، أو جزءا من صورة، الأمر الذي يعتمد على الطريقة التي يفسر بها. ما إن يتم أداء عملية، حتى تعود النتائج ثانية داخل الذاكرة لتعمل كمدخل لعمليات إضافية. الكمبيوتر مفيد كطريقة للتفكير حول هذا كله، ولكنه ليس نموذجا لطريقة عمل المخ؛ المخ لا يعمل مطلقا هكذا. إلا أن استخدام الحوسبة كنموذج لفهم المخ يتيح لنا أن نقدر تحركات الأحداث الفاتئة على مختلف المستويات من التحليل. إنه لغز رائع. كيف يمكن لإحدى الأفكار أن تنشأ عن مادة رطبة؟ كيف يمكن لإحدى الأفكار أن تؤثر فيما يجرى داخل المادة الرطبة؟

نحن - لحسن الحظ! - لا يلزم علينا أن نجيب عن أسئلة كهذه لنحضر تقدما في فهم العقل. تأثر بحثي بشدة بالمنظور الحوسبي، ولكني أعتقد أن الجزء المهم هو ما تم الكشف عنه، الاكتشافات الإمبريقية. عندما كنت طالبا في الجامعة، وقعت في طريقى على تلك الظاهرة الأساسية التي ظلت أدرسها طوال ثلاثين سنة عجيبة حتى الآن. في أول سنة لى في كلية التخرج في ستانفورد - وكان هذا فى ١٩٧٠- كانت دراسات الذاكرة الدلالية تجرى بحماس حقا. نشر ألان كولنز وروس كويليان نموذج محاكاة فى ١٩٦٩ يزعمان فيه أن المعلومات تخزن فى ذاكرة المدى الطويل بطريقة هى أقصى الطرائق الممكنة كفاءة. (فيما يعرض، فإن هذا ليس فيه أى معنى بالنسبة للمخ، لأن مساحة التخزين فيه هى كما هو ظاهر ليست بالقضية، وإن كانت قضية بالنسبة للكمبيوتر). افترض العالمان أن الذاكرات تنظم فى طبقات مترتبة حيث تخزن المعلومات فيها بتمثل يكون عاما بقدر الإمكان. وكمثل، نجد تحت (حيوانات) تمثل للحيوانات عامة، ثم الطيور، والثدييات، والزواحف، وهلم جرا. ونجد تحت "الطيور" الكناريا، وأبى الحناء وهلم جرا. كانت الفكرة هى أننا نخزن الخصائص المختلفة بأعلى ما نستطيعه فى طبقات الترتيب، بدلا من نسخها مضاعفة بما يزيد عن الحاجة. وكمثل، فإن الطيور "تأكل"، ولكن

السحالي تأكل أيضا هي والكلاب، وبالتالي فإننا نختزن هذه الخاصية مرتفعة عاليا مع مفهوم الحيوانات. ونضع بطاقة مميزة على الاستثناءات عند مستوى أقل (مثل حقيقة أن النعام، بخلاف معظم الطيور، لا يطير).

إحدى الطرائق لاختبار هذه النظرية هي أن نسجل زمن الاستجابات. عندما نطرح على الناس مقولة مثل "يستطيع طائر الكناريا أن يغرد" ونسألهم أن يقرروا ما إذا كانت صحيحة أو زائفة، فإن المعلومات اللازمة لصنع القرار ينبغي أن تكون مختزنة في المكان نفسه؛ بمعنى أن "طائر الكناريا" و"يغرد" ينبغي أن تكونا مربوطتان معا عند مستوى منخفض من الطبقات التراتبية. ولكن إذا طلبت من الناس أن يقيموا مقولة "يستطيع طائر الكناريا أن يأكل"، ينبغي أن يكون على المساهمين عندها أن ينفذوا في الشبكة ليجدوا صلة بين المفهومين، وما إذا كانت "يأكل" مختزنة مع "حيوان". وبالتالي، فإن تقييم هذه المقولة ينبغي أن يستغرق زمنا أطول قليلا من تقييم مقولة "طائر الكناريا يستطيع أن يغرد"، وهذا هو ما يحدث فعلا! ومع ذلك فإن من سوء الحظ بالنسبة لهذا النموذج أنه قد ثبت أن مدى المسافة في الشبكة الدلالية ليس بالأمر الحاسم. بين بحثي في أول عام في ستانفورد أن زمن الاستجابة يرجع السبب فيه ببساطة إلى المدى الذي تكون المصطلحات به مرتبطة ارتباطا وثيقا، وليس إلى المسافة الموجودة بينها في الشبكة الدلالية. والنظرية هكذا كان فيها جاذبية، إلا أن المعطيات قد فسرت بسهولة بفكرة مبتذلة. ما هو المغزى من ذلك، شيء يدور حول أن نظرية جميلة قد قتلتها حقائق دمية. حسن، هذا هو ما كان الأمر عليه.

على أن القصة لا تنتهي هنا. سألت الناس في إحدى التجارب عن استجاباتهم لمقولة أن "البرغوث يستطيع أن يعض، هل هذا حقيقي أو زائف؟" أجاب فردان بعنف أنه "زائف"، وسألتهما بعدها عن السبب. قال واحد منهم إنه قد "بحث عن" وجود فم ولم يستطع العثور عليه. وقال الآخر إنه قد "بحث عن" وجود أسنان ولم يستطع أن "يرى". أيا منها. هذه الفكرة من "البحث عن" و"الرؤية" لا تجد مطلقا مكانا ملائما لها في نموذج كولنز وكويليان للكمبيوتر المؤسس على الشبكة، وهكذا

أخذت أفكر فى ذلك. كانت فكرتى أنه ربما يكون بعض المساهمين قد استخدموا التصور العقلى لتقييم هذه المقولات، وإذا كان الأمر كذلك فإن أزمنة استجاباتهم ينبغي أن تعكس خصائص الصورة، ولا تعكس المسافة فى شبكة دلالية، أو قوة الارتباط، أو أى شىء من هذا القبيل. وإن، فقد هانفت كل واحد ممن اختبرتهم من قبل وسألتهم إن كانوا قد نزعوا إلى التصور وهم يجيبون على السؤال. وأجاب نصفهم تقريبا بأنهم قد فعلوا وقال النصف إنهم لم يفعلوا. رسمت المعطيات بيانيا للمجموعتين. وهاكم ما وجدت! بالنسبة للأفراد الذين سجلوا أنهم استخدموا التصور، لم تكن هناك أى علاقة ارتباط بين مدى شدة ترابط الخصائص بالحيوانات وبين مدى سرعة استجاباتهم. المتغير الحاسم بالنسبة لهؤلاء الأفراد هو حجم الخصائص: كلما كانت الخاصة أكبر حجما، استطاعوا أن "يروها" بأسرع.

صممت فى التو تجربة وضعت فيها الخصيصتين إحداها إزاء الأخرى - شدة الترابط والحجم. وكمثل، سألت الناس أن يقرروا ما إذا كانت مقولات مثل "الفأر لديه شوارب" حقيقة أو زائفة. والحيلة هنا هى أنهم ينظرون أمر صفات صغيرة ذات قوة ارتباط عالية (مثل الشوارب عند الفأر)، أو صفات كبيرة وليست عالية الارتباط (مثل الظهر عند الفأر)، أو صفات لا يحوزها الحيوان مطلقا (مثل الأجنحة عند الفأر). وجدت أننا إذا طلبنا من الأفراد أن يتصوروا، يكون العامل الحرج هو مدى كبر حجم الخاصية: كلما كانت أكبر حجما، تكون الاستجابات أسرع. وإذا طلبت منهم عدم التصور وإنما أن يجيبوا إجابة حدسية بأسرع ما يمكنهم، سنجد أن النمط يصبح عكسيا. وفى هذه الحالة تعتمد سرعة الاستجابة على مدى ترابط الصفة وليس على مدى كبر حجمها.

السؤال الثانى كان عن طريقة التفكير فى هذه النتائج. حدث مصادفة، فى أثناء أدائى لهذه التجارب أنى كنت أيضا أحضر فصلا دراسيا فى برمجة الكمبيوتر. وكان ذلك فى زمن استخدامنا للبطاقات المثقبة. كان علينا أن نذهب إلى مركز الكمبيوتر، وندخل كومة بطاقاتنا، ونقف مترقبين ونحن ننظر إلى جهاز متابعة، فى انتظار أن يظهر لنا عملنا حتى نستطيع أن نرى ما إذا كان قد أخفق،

الأمر الذى يمكننا معرفته بمدى الوقت الذى يجرى به. كان أحد التدريبات فى هذا الفصل هى أن نبرمج مجموعة من الروتينيات الفرعية الصغيرة التى تولد أشكالاً هندسية - مثلثات، ومربعات، ودوائر - ثم نضبط مدى كبر حجمها والمكان الذى توضع فيه. كان علينا أن نودى أشياء مثل أن نصنع شجرة عيد ميلاد بأن نكرر استدعاء الروتين نفسه، ونولد مثلثاً، ونرسم المثلث بأحجام مختلفة فى مواضع مختلفة، ونجعلها تتداخل لتنتج التصميم المطلوب.

وبينما كنت أفعل ذلك، خطر لى فجأة أن هذا قد يكون نموذجاً للتصور العقلى مثيراً للاهتمام. نستطيع أن نفكر فى التصور على أن له أربعة مكونات رئيسية: تمثّل عميق، هو تصور تجريدى فى الذاكرة الطويلة المدى؛ وتمثّل سطحى، يشبه أن يكون عرضاً بأنبوبة أشعة المهبط؛ وهناك عمليات تتولد بين الاثنين، بحيث إن الهندسة السطحية يعاد بناؤها فى "العرض العقلى" على أساس من التمثّل العميق؛ وأخيراً هناك عمليات تفسيرية تنطلق من الصورة السطحية، وتفسر الأنماط على أنها تمثّل أشياء، أو أجزاء، أو خصائص مميزة.

كانت هذه الاستعارة المجازية من الأمور الرائعة وقد أدت بى إلى إجراء الكثير من الأبحاث المثمرة. والحقيقة أن أول عشر أوراق بحث لى أو ما يقرب كانت إلى حد كبير نتيجة لمتابعتى لتضمينات هذه الاستعارة. إلا أنها كان فيها عائق أساسى: إنها استعارة، وليست نظرية فعلاً. مهما كنت عنيفاً وأنت تضرب أحدهم فى رأسه، فإنك لن تسمع صوت زجاج ينكسر، لا يوجد بالفعل أنبوبة أشعة مهبط فى الرأس. وحتى لو كانت موجودة، سنعود لا غير إلى مشكلة الحاجة إلى وجود "شخص صغير" فى الرأس لينظر إلى الشاشة (وإلى شخص صغير آخر فى رأسه، وهلم جرا، وهلم جرا). أدى بى هذا فى التو إلى أن أخذت أفكر عن طريقة لبرمجة نظام يكون فيه مصفوفات منظمة تعمل كحاجز، وتتكون الصورة السطحية بتحديد مواضع للنقط فى هذه الصفوف لتصوير الأشكال. إذا كان هذا النمط من النقط هو الصورة السطحية، وإذا كانت المصفوفة هى حاجز الذاكرة القصيرة المدى، سنتمكن من أن نحصل على تمثّل أكثر تجريداً بكثير مشابه للغة ويتم

اخترانه بالفعل فى الذاكرة الطويلة المدى، ويمكن تشغيله لتكوين الصورة. رأيت أن الفكرة البارعة هنا هى أننا نستطيع أن نحوز فطيرتنا وأن نأكلها أيضا^(٥٦)؛ فما نخترنه هو تجريد، ولكنه يمكن استخدامه لتكوين شىء ملموس جدا يشبه أن يكون صورة.

إحدى ميزات قياس التمثيل بالكمبيوتر هو أنه يجعل المرء يركز على فكرة نظم المعالجة، فلا يركز فحسب على ما هو منعزل من تمثيلات أو عمليات وإنما على مجموعات من التمثيلات والعمليات تعمل معا. لم يحاول أحد قط أن يستنبط بالتفصيل الطريقة التى سيبدو بها نظام معالجة يستخدم الصور. والحقيقة أن النماذج القليلة التفصيلية التى وجدت عن التصور ركزت كلها على مهام معينة مصطنعة وحاولت نمذجتها باستخدام قائمة عيارية من التركيبات. لم تكن هناك صور فى نماذج التصور المبكرة المؤسسة على الكمبيوتر. قررنا أن نأخذ جديا فكرة أن الصور العقلية ربما لا يتم تمثيلها بالطريقة نفسها مثل اللغة؛ فلعلها فى الواقع "تكون" صورا. بنيت أنا وسنتيف شوارتز سلسلة من نماذج المحاكاة أوضحت أن هذه الطريقة للتناول ليست ممكنة فحسب بل إنها أيضا تفسر الكثير من البيانات. نشرنا أول ورقة بحث لنا فى ١٩٧٧، ثم ورقة أخرى فى ١٩٧٨. ألقت أيضا كتابا عن ذلك فى ١٩٨٠ وأسميته "الصورة والعقل"، حققت فيه الفكرة بتفصيل أكثر كثيرا مما اهتم بها أى فرد مطلقا. ويمكننى أن أقول هنا إنه لم يكن للنموذج ولا للكتاب أى تأثير. أذكر أنى سألت أحد أساتذتى فى ستانفورد عن رأيه فى النموذج، وقال إنه يعتقد أن فيه تفاصيل بأكثر مما ينبغى. السيكلوجيون عامة لا يحبون أن يكون عليهم فى الواقع العمل داخل إطار نظرى تفصيلى، وكان فى هذا أساسا النهاية لهذا الأمر. لدى بعض خلل طفيف فى الفص الجبهى لمخى يودى بى إلى أن أكون مثابرا، وبالتالي فقد واصلت استنباط تصميم للنظرية وإجراء التجارب بأى حال. صدر لى كتاب فى ١٩٩٤ عن التصور هو "الصورة والمخ" وهو ثمرة مباشرة لبحثى السابق ولكنه يرسم خريطة له فى المخ. وبدا أن الأوروبيين

(٥٦) هناك مثل إنجليزى معناه أننا إما أن نظل نمتلك فطيرة ولا نأكلها، أو أن نأكل الفطيرة فلا يعود لدينا فطيرة. (المترجم)

- وخاصة الفرنسيين - قد ثار اهتمامهم هم واليابانيين، إن لم يكن الأمريكيون قد اهتموا.

ينبغي بعد ما قلته أن أبدى ملاحظة عن أن هناك مؤخرا علامات على أن الاهتمام بالتصور العقلي أخذ يزداد. قد يكون هذا نتيجة جولة أخرى من نقاشي القديم مع زينون بيليشين. وهو صديق صدوق لجيرى فودور، ولكن بيليشين بخلاف فودور استمر دائما على الدعوى بأن ممارسة الصور العقلية تشبه الحرارة التي تنبعث من لمبة ضوء نقرأ عليها: إنها من نوع الظواهر المصاحبة؛ وهى لا تلعب دورا وظيفيا فى العملية. يعتقد بيليشين أن الصور العقلية هى فحسب تمثلات شبيهة باللغة وأن من التوهم أن نرى أن فيها شيئا مختلفا. نشر بيليشين أول ورقة بحث له فى ١٩٧٣. ورددت عليها أنا وجيم بوميرانتر فى ١٩٧٧، واستمرت المناقشات تدور من وقتها.

ينظر بيليشين نظرة ازدراء كبير لعلم الأعصاب، وذلك بتعبير مهذب عن رأيه. وهو يعتقد أنه علم لا فائدة منه وليس له أى صلة بالعقل مطلقا. لست أعرف حقا ما الذى جعله يتوصل إلى هذا الاستنتاج. وأظن أن السبب هو أنه واحد من قلة من الناس (أقل من ٢ فى المائة من السكان) الذين لم يخبروا بالتصور. بل إن من الواضح أنه لا يدرك الفكاهات التي تعتمد على الصور. وهو فيما يحتمل يرفض أيضا جوهر فكرة التصور على أساس تخميناته حول الحوسبة، التي تتأسس على معمار فون نيومان. ومن الواضح أنه يعى أن الكمبيوترات لا تحتاج إلى تمثلات صورية وصفية. وقد تكون تخميناته عن العقل مماثلة لذلك. ولكن هذا كله مجرد تخمين.

لا يقتصر موقف بيليشين على معاداة النظريات التي لها جذور فى ميكانيكيات عصبية، فهو يعتقد أن نظريات البنية المنطقية للغة ينبغي أن تكون نموذجا لكل الأنواع الأخرى من النظريات، ولكنه أيضا له موقف معادى للنماذج الحوسبية للشبكة العصبية. نشرت ما يحتمل أن يتراوح من ثمانى إلى عشر ورقات بحث مستخدما نماذج شبكية. بحثت عند مرحلة معينة من عملى المهني طبيعة

العلاقات المكانية. وكان لدى فكرة بأن هناك بالفعل طريقتين لتمثيل العلاقات المكانية بين الأشياء. الأولى هي ما أسميتها بأنها تصنيفية، حيث الصنف يحدد طائفة فيها تكافؤ. هناك بعض أمثلة لهذه العلاقات المكانية التصنيفية نجد منها " إلى اليسار"، و"إلى اليمين"، و"أعلى"، و"أسفل"، و"الداخل"، و"الخارج". إذا كنت تجلس في الجانب المقابل لي، ستجد من وجهة نظرك أن قبضة اليد هذه هي إلى اليمين من هذه الراحة المفتوحة، ويصدق هذا على كل هذه الأوضاع المختلفة (عندما تتحرك اليد هنا وهناك وهي دائما إلى اليمين من المحور العمودي الذي تشكله القبضة). تعين عبارة "إلى اليمين" أحد الأصناف، وعلى الرغم من أني أحرك يدي هنا وهناك، فإن كل هذه الأوضاع تعامل على أنها متكافئة. وهذا أمر مفيد في أداء شيء مثل إدراك شكل بشري، وذلك لأن العلاقات المكانية التصنيفية بين ذراعي وعضدي، وبين ساقى وفخذي، ورأسي ورقبتي، ورقبتي وجسمي، وهلم جرا، علاقات لا تتغير. الأجزاء التي تكون متصلة مع أجزاء أخرى (و"الاتصال مع" هو علاقة مكانية أخرى) تبقى هكذا متصلة معا، مهما قمت بعملية لوى لجسدي. توصيفات تنظيم الأجزاء باستخدام العلاقات المكانية التصنيفية أمر في المتناول لإدراك الأشياء، لأننا عندما نخزن صورة بسيطة في الذاكرة، سنجد أن الوضع الرأسي مثلا قد يكون فيه مضاهاة جيدة، أما عندمانحنى وأحاول لمس أصابع قدمي، سنجد أن الصورة الناتجة ليس لها مضاهاة جيدة.

إلا أن العلاقات المكانية التصنيفية لا تفيد مطلقا في حالة مد اليد للوصول لشيء ولا تفيد في حالة الملاحظة في المكان. مجرد معرفتي بأن هذه القبضة هي إلى اليسار من هذا الكف أمر لن يتيح لي أن ألمسها بدقة؛ فعلى أن أعرف وضعها بالضبط مكانيا. إذا كنت أمشي وأنا أجوب الغرفة وكل ما أعرفه هو أن الطاولة موجودة أمامي، فإن هذا لن يفيدني، لأن "أمامي" علاقة تصنيفية وبالتالي فهي تصدق على عدد لانتهائي من الأوضاع النسبية. وهذا لا يصلح تماما للملاحظة. وهكذا افترضت نوعا ثابتا من العلاقات المكانية أسميته بالتناسقية: حيث يتحدد بعد المسافة والاتجاه بالنسبة لوضع أصلي.

بينما فى معملى أن نصف كرة المخ الأيسر يكون أفضل فى ترميز العلاقات المكانية التصنيفية، وهذا معقول لأن التصنيف كثيرا ما تكون مؤسسة على اللغة. أما النصف الأيمن فهو أفضل فى تشفير العلاقات المكانية التناسقية، وهذا أمر معقول، لأن الملاحظة فى المكان يتم أداؤها بطريقة أفضل بواسطة هذا النصف. بنينا مجموعة بأكملها من نماذج الشبكات العصبية تبين أنك إذا أحدثت شقا فى أحد النماذج - أى فى إحدى الشبكات - لينقسم إلى تيارين منفصلين، واحد بالنسبة لكل نوع من التمثل، فإن هذا النموذج يعمل بأفضل مما إذا كان لدينا نظام واحد يحاول أن يصنع معا التمثلات التصنيفية هى والتناسقية. النقطة المهمة لا ترجع كثيرا إلى وجود اختلاف بين نصفى الكرة، وإنما هى أن المخ يعتمد على طريقتين اثنتين متميزتين ليشفّر العلاقات المكانية. أثارت هذه الدعوى خلافا طفيفا. أبهجنى أنى رأيت من زمن ليس بعيدا فى مجلة "جورنال أوف كوجنيتيف نيورو ساينس" (مجلة علم الأعصاب الإدراكى) أن هناك باحثين - لم أكن أعرفهم وقتها - قد اختبروا ما يزيد عن مائة فرد بعد أن أوقفوا عمل أحد نصفى المخ فى كل مرة لأسباب طبية، وبينوا أنه عند وجود مهام فيها تحدى بحيث يتوجب أن تصدر أحكاما عن العلاقات المكانية التصنيفية إزاء تلك التناسقية، فإن التأثيرات الجانبية التى تنبأت بها تعمل على نحو رائع.

هذه حقا مجرد زاوية صغيرة مما أفعله، وهو فى النهاية يتعلق بأبحاثى التصورية. ظلت دائما أحاج بأن التصور يجب فهمه فى منظومة تتضمن تمثلات افتراضية مشابهة للغة وكذلك أيضا تمثلات وصفية. لست أفكر فى العقل على أنه تخيلى صرف. لا يمكن أن يصدق ذلك. فالعقل عليه أن يعتمد على التنسيق بين أنواع كثيرة مختلفة من التمثلات التى تتفاعل بطرائق معقدة ومثيرة للاهتمام. التمييز بين نوعى التمثلات المكانية يستدعى تمييزا آخر بين الأشكال المختلفة من التصور التى تستخدم الأنواع المختلفة من العلاقات المكانية. والحقيقة أن لدينا أدلة على وجود هذا التمييز. أحد الاستنتاجات المهمة من هذا كله أن: التصور ليس مجرد شىء واحد.

لماذا نجد أن النظام الذى فى الأساس من التصور قد انتظم بالطريقة التى انتظم بها؟ هذا سؤال جيد. إحدى الطرائق لتناول هذا الوجه الأساسى من الاهتمام قد أوضحها دان دينيت، وستيف بينكر وزملاؤهما. يحاول هؤلاء المنظرين أن يروجوا لبرنامج علم النفس التطورى. وبدلاً من أن يفكروا فى أوجه السلوك كنتائج للتطور، فإنهم يفكرون فى كيف أن بنية الوحدات الجزئية لمعالجة المعلومات فى المخ هى نتاج للتطور. وهذا برنامج مثير للاهتمام، وأعتقد أن له مستقبل مشرق. ولكن عند هذه المرحلة أشعر ببعض قلق حول حقيقة أن هذا المشروع ليس إمبيريقياً على وجه الدقة. العلم هو عملية الكشف عن الأمور. ينبغى إجراء دراسات للكشف عن الأمور. من المفيد أن تكون لدينا نظريات كقاعدة نستطيع أن نوجه منها انتباهنا إلى القضايا والأسئلة، ولكن علينا عندها أن نجرى البحث الفعلى.

لو طلب منى القارئ أن أفسر اتجاه علم العقل بمعناه الواسع، سأقول أننا سنرى تجسيرا بين علم الأعصاب الإدراكى - حيث نتصور العقل على أنه ما يفعله المخ - وبين علم الوراثة. هذان المجالان هما الآن المجالان المستعران حقاً فى التو، والذان يوجد بينهما ثغرة هائلة.

فى أثناء كتابتى لكتاب دراسى تمهيدى لدراسة علم النفس قرأت كثيراً فى وراثيات السلوك. وأذهلنى حقيقة أن هؤلاء الناس يحاولون تجسير الفجوة من الجينات إلى السلوك فى انقضاضة واحدة وهم لا يحسنون أداء مهمتهم. فهم لم يحسنوا الأداء بأجراء دراسات ربط تحاول أن تصل ما بين التغيرات فى السلوك والتغيرات فى الأنواع المختلفة من الأليلات^(٥٧). يحدث أحياناً أنهم يستطيعون تناول ٢٪ من التباين. وخطر لى أنهم يتركبون الوسيط جانباً. فهم يريدون التفكير بلغة من نموذج هو: الجينات ← المخ، ثم المخ ← السلوك. بمعنى أن الجينات تؤثر فى السلوك والإدراك عن طريق ما تفعله بالمخ. أدى بى التفكير فى هذا الأمر إلى أن اهتم اهتماماً بالغا بالوراثيات، ولكن ليس بمعنى أن الوراثة تكون

(٥٧) الأليل: واحد من اثنين أو أكثر من الأشكال الممكنة لأحد الجينات. (المترجم)

طبعة تصميم زرقاء^(٥٨). فيما يبدو، فإن معظم الجينات التى لها وظيفة فى مخ البالغين يزداد تنشيطها وينخفض حسب الظروف. فبم تشغليها وإيقاف تشغليها.

هاكم أحد الأمثلة ليوضح الفكرة العامة (التى أنشأها الطبيب النفسى ستيفن هايمان، الذى يتصادف أنه يرأس حاليا جامعة هارفارد): عندما تريد أن تبني عضلاتك فإنك ترفع الأثقال. إذا كانت الأثقال بالدرجة الكافية من النقل، فإنها تؤدي إلى إتلاف عضلاتك. وهذا التلف يؤدي إلى تكوين سلسلة تفاعلات كيميائية، تصل إلى نوى خلايا عضلاتك وتشغل الجينات التى تصنع البروتينات وتبنى ألياف العضلات. لم يتم تشغيل هذه الجينات إلا فى استجابة للتحدي البيئي. وهذا هو السبب فى أنك ينبغي أن تحافظ على رفع أوزان أثقل وأثقل. تصدق حرفيا فى هذه الحالة العبارة القائلة "لا ألم، إذن لا مكسب". التفاعل مع البيئة يشغل جينات معينة لا يتم تشغيلها بغير ذلك؛ والحقيقة أنها تقف عن العمل عندما لا تواجه تحديات معينة. يصدق الشيء نفسه على المخ. تنمية محاور تغصنات^(٥٩) جديدة، أو حتى استكمال الناقلات العصبية^(٦٠)، أمر مرتبط بتشغيل الجينات أو إيقافها كاستجابة للمخ، والمخ بدوره يقوم بالاستجابة للتحديات البيئية.

أنا مفتون تماما "بالسؤال الكبير" حقا، كيف نتيج الجينات للمخ أن يستجيب للمهام التى فى مدى التناول. عندما يحدث تشغيل وإيقاف للجينات، يؤثر هذا فيما تفعله العصبونات، ولأريب أن هذا يؤثر بالتالى فى طريقة توزيع الدم، ليؤثر الأمر بدوره فى الإدراك والسلوك. ثمة مشروع ضخم لايزال علينا القيام به، سوف يغرس جذور علم النفس مع سائر العلم الطبيعى. ما إن يتم إنجاز ذلك حتى نستطيع أن ننطلق من الظواهرية (أمور مثل التصور العقلى) إلى معالجة المعلومات (أى الظواهر التى نستطيع نمذجتها على الكمبيوتر) إلى المخ. سوف نفهم الطريقة

(٥٨) طبعة التصميم الزرقاء: رسم للتصميمات الهندسية على ورق أزرق يجرى على أساسه تنفيذ المشروع الهندسى فى الواقع. (المترجم)

(٥٩) التغصنات تفرعات تخرج من الخلية العصبية وتحمل التيارات العصبية من وإلى الخلية العصبية. (المترجم)

(٦٠) الموصلات أو الناقلات العصبية مواد كيميائية تنطلق من الألياف العصبية وتمرر نبضة عصبية إلى عضة أو إلى عصب آخر. (المترجم)

التي تنشأ بها في المخ أنواع معينة من معالجة المعلومات، وننتعمق مباشرة في أعمال العصبونات بما في ذلك البيوكيمياء، وانطلاقاً بطول الطريق إلى البيوفيزياء والطريقة التي يحدث بها للجينات تنظيم نشاطها ارتفاعاً وانخفاضاً.

سوف يحدث هذا؛ ليس لدى مطلقاً أي شك في ذلك. وعندما يحدث، سيكون لدينا فهم للطبعة البشرية أفضل لأقصى حد مما كان لدينا في أي وقت آخر من تاريخ البشر. إذا كنا نريد فهم التطور، فإن نتائج التطور في النهاية هي الجينات. لماذا لا ندرس الجينات، إذا كنا نريد أن نفهم ما يوجد من أسباب وراء تنظيم المخ؟ ثمة أسباب لأن لدينا تلك الجينات بدلاً من جينات أخرى؛ وها هنا تدخل قصة التطور. على أن مخي أنا بعينه أو مخك أنت بعينه يكون على النحو الذي يكون عليه ليس فقط بسبب ما لدينا من جينات معينة وإنما أيضاً بسبب الطريقة التي تنظم بها البيئة زيادة أو انخفاض نشاط تلك الجينات في أثناء التنامي، بما ينحت الطرائق المعينة لمخنا، وكذلك بسبب الطرائق التي تستجيب بها جيناتنا للتحديات البيئية والداخلية. وهذا كله مما يمكن متابعته إمبيريقياً. فالأدوات متاحة، والأسئلة واضحة، ونحن نعرف نوع الإجابات التي نلتمسها. حان الوقت لأن ننطلق!

الجزء الثاني

**هل سيوجد ماشينا سابينز
(نوع الماكينا العاقلة)**

البرمجيات مذهب ثقافى

جوردان ب. بولاك^(١)

أبحث فى تطوير فهم للتركيب البيولوجى وكيف يمكننا
تخليقه، ذلك أن حدود هندسة البرمجيات أصبحت الآن
واضحة منذ عقدين من السنين. أكبر البرامج التى
يستطيع أى فرد أن يبنئها تبلغ ما يقرب من ١٠ ملايين
سطر من الشفرة. أما الكائن البيولوجى الحقيقى - الكائن
الحى، المنظومة الإيكولوجية، المخ - فهو شىء فيه من
التركيب ما يماثل ١٠ بلايين سطر من الشفرة. فكيف
نصل إلى ذلك؟

(١) جوردان ب. بولاك أستاذ لمعلم الكمبيوتر والنظم المركبة فى جامعة برانديس. وله أبحاث معملية عن الذكاء الاصطناعى، والحياة الاصطناعية، والشبكات العصبية، والتطور، والنظم الديناميكية، وهذه الأبحاث كلها قد وردت عنها تقارير فى صحف نيويورك تايمز، وتايم، وساينس، وإن بى آر، وغير ذلك من مصادر الإعلام على نطاق العالم، وبولاك مخترع غزير الإنتاج، ويعمل مستشاراً لشركات عديدة ناشئة، ويدير فى وقت فراغه شركة ثينميل التى تصنع برمجيات لدعم البريد الإلكتروني والاتصالات التليفونية اللاسلكية.

نحن نعيش فى عصر رائع، عصر يسبق مباشرة نقطة الالتقاء مع الميكائزم، حيث سنرى كمبيوتراتنا كجزء من أجسادنا. يتحدث الناس الآن عن الإنترنت، والتليفزيون، والتليفون، وتحويلها إلى أجهزة شخصية يمكن ارتداؤها، ولكننا أيضا نعيش خلال قرن اندماج المعلوماتية البيولوجية، والتكنولوجيا الحيوية، ومعالجة المعلومات. ومع فهمنا للعمليات الخلوية والتمثيلات العصبية، ومع ما ننشئه من تكنولوجيا ميكروإلكترونية وتكنولوجيا بمقياس النانو^(٢)، مع هذا كله ستكون لمصنوعاتنا القدرة على التفاعل مع بيولوجيتنا عند مستوى غاية فى أساسيته. ول سوء الحظ نحن لم نفهم بعد جيدا تركيب الطبيعة بالدرجة الكافية لان نعرف ما الذى نفعله بهذا الشأن.

أجرى أبحاثا فى تطوير فهم للتركيب البيولوجى وكيف يمكننا تخليقه، ذلك أن حدود هندسة البرمجيات قد أصبحت الآن واضحة منذ عقدين من السنين. أكبر البرامج التى يستطيع أى فرد أن يبتها تبلغ ما يقرب من ١٠ ملايين سطر من الشفرة. أما الكائن البيولوجى الحقيقى - الكائن الحى، المنظومة الإيكولوجية، المخ - فهو شىء فيه من التركيب ما يماثل ١٠ "بلايين" سطر من الشفرة. فكيف نصل إلى ذلك؟ تجرى فى معملى أبحاث حول هذه المسألة من التنظيم الذاتى، باستخدام التطور، والشبكات العصبية، والألعاب، وحل المشاكل، والروبوتات. وطريقة بحثنا هى بأن نحاول إقامة تفاعلات كيميائية غير متوازنة فى البرمجيات تؤدي إلى استهلاك زمن الكمبيوتر - شكل من الطاقة - وتخلق لنا هكذا بنية. يمكننا أن نجعل بعضا من هذه البنية واقعا، فى شكل روبوتات، ومع أن الروبوتات تستثير الكاميرات ووسائل الإعلام بدرجة أكبر كثيرا من عناصر حل المشكلات، والألعاب، وتعلم اللغة، فإن بحثنا الأساسى هو أننا نحاول أن نفهم من أين يأتى التركيب نفسه، دون مصمم له.

التصور الذى نجرى بحثنا عليه بشأن الروبوتات يماثل تصور صناعة الأدوات. لا توجد أداة تصلح لكل الأغراض؛ وبدلا من ذلك هناك المثاقيب،

(٢) النانو: جزء واحد من البليون. (المترجم)

والمخارط، والمناشير، والصاقلات، والأدوات الأخرى التى تقي بأغراض محددة. سوف نصنع روبوتات مخصصة لأغراض محددة. لن تكون هناك روبوتات لكل الأغراض مثل أدوات "روزي جيتسونز". سيكون هناك بعض نوع من روبوت قد يمهّد ممشاك، أو ينظف حمامك للسباحة، أو ينظف مزاربك، أو ينظف غرفتك بمكنسة شفط. وفيما أرى، لن توجد أى روبوتات شبه بشرية لكل الأغراض لمدى قرون من الزمن. والأمور كما نراها، ستجرى - فى العقد التالى فيما يحتمل - متجهة إلى صناعة روبوتية سوف تصنع مئات من الماكينات المختلفة البكماء، كل لغرض خاص، أشياء تكون فى النهاية معقدة مثل طابعات الحبر النفائة وماكينات بطاقات الائتمان التى تشكل روبوتات زمننا الحقيقية. تعريفى للروبوت أنه برنامج كمبيوتر مثبت إلى قطعة من العتاد، ويعمل ٢٤ ساعة يوميا وفيه ما يبرر الإنفاق فى استثمار لخلقّه. بل إن الروبوتات ربما ستؤدى حتى لأن يفقد الناس عملهم. سيكون الكتبة الناسخون هم من تصيبهم البطالة فى حالة طابعات الحبر النفائة؛ وسيكون صيارفة البنوك من تصيبهم البطالة فى حالة ماكينات بطاقات الائتمان. هكذا فإن ثمة نوع من الاضطراب فى طريقه إلينا.

شاركت أيضا منذ ١٩٧٦ فى أبحاث حول الميكرو كمبيوترات، الكمبيوترات الصغيرة جدا التى توجد الآن فى كل مكان؛ فهى موجودة داخل كاميراتنا، وموجودة داخل أجهزة تسجيل الشرائط. كما أن فأر شركة آبل الجديد لديه فى داخله كمبيوتر فائق، كما هو ظاهر!. نحن فى طريقنا للوصول إلى عصر الكمبيوترات القابلة لارتدائها؛ أعتقد أن الأجهزة الجديدة مثل جهاز بلاكبرى (توت العليق) والتليفون/المساعد الشخصى الرقمى، هى حقا بداية الكمبيوترات القابلة للارتداء. نحن نرى أناسا يضعون طول الوقت فى أذانهم زر تليفون خلوى. هذه الكمبيوترات القابلة للارتداء ليست كما وصف العلماء المتقنون، هم أو المغفلون، إنها ستبدو عليه، ولكن الناس يحملونها هنا وهناك طول اليوم فوق أحزمتهم، ويستخدمونها طول الوقت، وسوف تتطور إلى شىء يقارب وسيلة الاتصال فى روايات الخيال العلمى: صوت مع أفلام الفيديو، ونظم MP3 للتبادل المضغوط للموسيقى، والفاكس، والبريد الإلكتروني. ستكون هذه أمور نعيش معها طول اليوم كله لنصبح غير مقيدين كمجتمع.

لاريب أن الكمبيوترات القابلة للارتداء ستبدو لبعض الأفراد وكأنها لجام إلكترونى. على أن ما يحدث بإصرار لا يتوقف، هو أنه على الرغم من أن العالم أصبح فيما يفترض عالما أصغر، إلا أن شبكات علاقاتنا الاجتماعية تشكل ما هو أوسع وأوسع من الشبكات. عندى أناس أتواصل معهم فى أطلانتا، وواشنطن، وكاليفورنيا، ونيويورك - بل وفى الحقيقة عبر العالم كله - وقد أصبحت أكثر تنقلا وأسافر بأكثر، كما أتى أجد فى الوقت نفسه أن عدد ما أعالجه يوميا من رسائل البريد الإلكتروني قد زاد من ١٠ إلى ١٠٠. وسوف يزيد فى سنتين ليكون ٣٠٠ رسالة يوميا! نحن نرى هنا وظيفة يصلح الذكاء الاصطناعى لأدائها، مع تزايد عدد رسائل البريد الإلكتروني ورسائل التليفون الخلوى.

وكمثل فقد صممت مرشحا متكيفا للبريد الإلكتروني. أستطيع أن أخبر المرشح أنى أريد أن أرى فحسب ٥٠ رسالة يوميا من هذه الثلاثمائة، ولكنى مازلت أود أن أعرف شيئا حول المائتين والخمسين رسالة الأخرى. لست أريد لأى ماكينة أن تلقى بعيدا بأى مواد إلا عندما أكون قد قلت من قبل إنى لا أريد أى مزيد من بريد هذا البائع أو ذاك. ولكنى أريد أهم خمسين رسالة حسب ترتيب أولوياتى، وهى أولويات متكيفة وتتغير على أساس يومى. أود أن أرى مثلا إجابة من فرد من الأفراد أكون قد أرسلت له مؤخرا بريدا إلكترونيا. قد لا يكون رئيس الولايات المتحدة واحدا ممن "أضعهم فى قائمتى الداخلية"، ولكنى لن أود أن يفوتنى بريد إلكترونى منه. هناك تكتيكات ذكاء اصطناعى بسيطة إلى حد كبير ويمكنها أساسا أن تأخذ تلك الرسائل الثلاثمائة يوميا وتلتقط منها الرسائل التى يكون من أقصى المرجح أننا نهتم بها، وفى الوقت نفسه لا ترمى بعيدا بأى شىء ربما ستكون هناك بعض فرصة لأن نهتم به.

أصبح الطلب على جهاز اتصال قابل للارتداء وله القدرة على أن يتعامل بنكاء مع كل اتصالاتنا، طلب يزداد ويزداد أهمية. وهذا هو السبب فى أن جهاز "بلاكبرى" أصبح الآن ينتشر انتشارا شعبيا بالغا (وهو أول كمبيوتر قابل للارتداء ينتشر شعبيا)، وذلك لأنه يكاد ينسخ نسخا بارعا المنظر الذى تناله بجهاز "ميكروسوفت أوبتلوك" الذى يوضع فوق سطح المكتب، بحيث يكون هذا المنظر

داخل شيء يستطيع المدير التنفيذى أن يحمله هنا وهناك. سيكون لدينا خلال أعوام قليلة عدسات عينية تعطينا منظرا ملونا بالكامل لجهاز سطح المكتب وذلك على أداة كمبيوتر لاسلكى صغيرة قابلة للارتداء. هكذا ستصير الأمور، وأنا يثيرنى أن أكون مشاركا فى ذلك.

دعنا ننظر لمشكلة الروبوتيات من وجهة نظر اقتصادية. لنفرض مثلا أنى أستطيع صنع روبوت مكنسة شفت وأن إنشاءه سيكلف ٥ ملايين دولار، وسيكلف كل جهاز شفت ٥٠٠٠ دولار. ولكننا نستطيع شراء مكنسة شفت بسيطة من الطراز القديم مقابل ١٠٠ دولار وندفعها بأنفسنا، أو نأتى بأحد الأشخاص ليعمل بأجر من ثمانية دولارات فى الساعة ليدفعها. لن يأتى هكذا أى ربح من الروبوتات؛ لن يوجد سوق جموعى يبرر وجود النوع اللازم من الإنشاءات. ما لم نحصل بالفعل على روبوت مشابه للإنسان يصلح لكل الأغراض ويكون رخيصا بالدرجة الكافية لتأجيره بدلا من الإنسان، ما لم يحدث ذلك سيكون أمامنا هوة هائلة علينا اجتيازها.

ما يفعله معملى هو أنه يحاول أن يبتعد بالمهندسين البشريين عن عملية تصميم الروبوت - فيها هنا يكون عنصر الموهبة البشرية ذات التكلفة الغالية الثابتة - ونحن نبعدهم حتى نستطيع صنع روبوتات اقتصادية بكمية قليلة. ربما سيلزم تصميم روبوت من نسخة واحدة أو ثلاث أو خمس نسخ. الروبوت الذى يساعد فى إجراء الإنتاج الصناعى قد لا يدوم إلا لسته أشهر، وهذا وقست لا يكفى للإيفاء بتسديد الاستثمار الذى بذل فى هندسته. لن تكون للروبوتات مصداقية اقتصادية مع عدم إنتاجها بالجملة، إلا فقط عندما يصبح لدينا روبوتات تقارب تكلفة المواد اللازمة لصنعها. لن يودى تصميمنا الأوتوماتيكى بالكامل وطريقة تصنيعنا إلى خلق الروبوتات التى تتكاثر ذاتيا كما فى روايات الخيال العلمى، ولكنها ستستخدم برمجيات لتصميم ماكينة فى الواقع الخائلى لتقى بهدف معين، ثم تبنى أوتوماتيكيا تلك الماكينة. ليس فى هذا ما يروع؛ إن له عائد تكلفة مجزى. نحن عندما نصنع تصميمنا أوتوماتيكيا، وعندما يكون لدينا قطعة برمجيات ذات قدرة لأن تخرع بالفعل فإننا بذلك نبدأ فى إثارة السؤال الذى أثارته الكمبيوترات لاعبة الشطرنج من

زمن طويل. إذا كان لعب الشطرنج حقا أمرا بشريا وقد أخذ الكمبيوتر يفعله، ماذا يقول لنا ذلك عن البشرية؟

الحياة نفسها لها قاعدة أساسية تنظيمية وهي بمقياس من التركيب يقزم أى هندسة للبرمجيات. نحن فى معملى نبحث أمر سؤال بيولوجى أساسى هو، كيف يمكن لأحد الأنظمة أن يستهلك الطاقة ويخلق المزيد والمزيد من البنية المعلوماتية؟ كيف يستطيع برنامج كمبيوتر أن يكتب نفسه ببساطة بأن يستهلك وقت الكمبيوتر؟ هذه بمعنى ما طريقة تتاول حوسبية ودينامية - حرارية تتاول الحياة الاصطناعية، فى تعارض مع طريقة تتاول للحياة بهندسة - مبرمجية صرف. عندما تحصل على ١٠ بلايين سطر من الشفرة، سنعرف ما إذا كنا قد نجحنا أو فشلنا. مازال هناك نفوذ له تأثيره للفكرة التقليدية، الفكرة الحوسبية ذات القدسية الكبيرة، التى تقول بفصل المخ كعتاد عن العقل كبرمجيات، ولكن هذه الفكرة فى النهاية خطأ تماما، وذلك لأن الاستعارة الحوسبية المجازية عن البرامج المتسلسلة التى تعمل على بنى بيانات منفصلة لا تستوعب حقا الثراء الذى يوجد فى النظم الطبيعية. الفكرة التقليدية لفون نيومان هى فحسب ليست بالثراء الكافى لاستيعاب ما يجرى فى العالم الطبيعى. لست أقول إنه توجد هنا قدرة روح سحرية، وإنما أقول فحسب إننا يجب أن نوسع توسيعا عنيفا من فكرة أن المعلومات يتم تمثيلها بطريقة تتجاوز الحوسبة الرمزية التقليدية.

ظللنا ننظر فى نظم الشواش^(٣)، والتشكلات^(٤)، والنظم الدينامية، والجاذبات^(٥) هى والزائلات^(٦) معا، وهذا كله يختلف تماما عما ندرسه فى علم

(٣) الشواش: نظرية بأن ما يبدو من ظواهر عشوائية فى فروع مختلفة من العلم، إنما تنتج أساسا عما هو كامن من أسس ديناميكية مركبة. ونتيجة ذلك أن يحدث سلوك غير متوقع ولادورى فى أحد النظم نتيجة اختلاقات بسيطة أولية كما فى تنفق سائل مضطرب أو عدم انتظام ضربات القلب. ويضرب لذلك مثل شهير هو أن رفرفة أجنحة فراشة فى غابة بأفريقيا قد تسبب عاصفة فى أمريكا! (المترجم)

(٤) التشكلات: التشكل كيان هندسى من الظاهر أنه شواشى أو غير منتظم ويتولد حسب معادلة رياضية بأن تكرر تفرعات لشكل هندسى أساسى يظل حجمها يصغر دائما. والتشكلات تستخدم كثيرا فى الرسوم بالكمبيوتر. (المترجم)

(٥) الجاذبات: عناصر تجمع شبه منتظم لها دور كإحدى نتائج الشواش. (المترجم)

(٦) الزائلات: الزائل وصف للظاهرة التى تحدث نتيجة تغير مفاجئ وتستمر بعده زمنا قصيرا. (المترجم)

الكمبيوتر مما هو تقليدي من بنية البيانات - زائد - الخوارزمات. إن هذه لفكرة فقيرة عند مقارنتها بما يحدث في النظم الطبيعية. ماذا يوجد في كتاب الطهي الإلهي الذي يمكن تركيبات الأشياء من أن يكون لها أوجه سلوك جديدة مبهرة في كل مكان من الكون؟ لماذا يتحد الهيدروجين والأكسجين في شيء له طور سائل ممتد وخصائص تجمد غريبة هكذا؟ سنجد أن الأخلط العشوائية للكيمياء العضوية غنية بما لها من إمكانات سلوكية، بينما الخيوط العشوائية لشفرة الماكينة تكون بلا فائدة بنسبة من ٩٩,٩ في المائة.

الأفكار التقليدية مثلها مثل النظم التي لها براءة اختراع مسجلة، أماكن تستطيع أن ترى فيها هذا التحول الانتقالي بطريقة فعالة للغاية. العجلة قطعة جهاز عتاد: إنها شيء، لقد خرطانها، وهي مستديرة، وتدور متحركة، وتحمل ثقلاً. إلا أن هناك أيضاً قطعة برمجيات تقول في معادلة "لكل آى (قوس دائرة) من ١ إلى ٣٦٠ يرسم آر (نصف قطر) وثيتا (كزاوية)"، ونكون هكذا قد خلقنا عجلة في قطعة برمجيات! والآن، فإن مكتب تسجيل البراءات يرفض تقليدياً تسجيل الخوارزم باعتبار أنه شيء من الطبيعة، أى مخلوق الهى، وبالتالي فهو غير قابل للتسجيل. ولكننا عبر ما مضى من العقد ونصف العقد الأخير أو ما يقرب من ذلك، قد سمحنا بتسجيل براءة للبرمجيات. بل إننا سمحنا بتسجيل براءة للفكرة من أفكار الأعمال المالية. البرمجيات لغة، ونحن قد جعلنا لها حقوق تأليف؛ إنها لغة تصف كيف ستعمل الماكينة بطول الطريق حتى أدنى مستوى من التفاصيل. إن ما يفعله أحد الكمبيوترات، أو أجهزة الترجمة للغة الحاسوب، أو أجهزة التفسير لبرمجة اللغات، هو أنها تجعل القطعة من النص تصير حية؛ وهكذا سوف تشغل الماكينة بالضبط حسب الطريقة التي تصفها قطعة نصنا. يستطيع الكمبيوتر أن يأخذ وصفاً للدائرة - النقاط التي تشكل دائرة - ويحولها إلى عجلة تخيلية داخل بيئة تخيلية. القطعة من البرمجيات مذنب، تذوب فيه الحدود بين ما هو تخيلي وما هو واقعي بين النص والاختراع.

بعض ما يوجد من إثارة حول مفهوم معمل عن الروبوتات المصممة أوتوماتيكياً هو بسبب فكرة أننا قد عبرنا من العالم التخيلي عائدين إلى العالم

الواقعي. البرمجيات نفسها قد صنعت اختراعات داخل الكمبيوتر - اختراعات يمكن في عصر آخر أن يتم تسجيل براءة لها. نهاية هذا الحد الفاصل بين النص والاختراع أمر يؤثر عميقا في المجتمع وفي المؤسسة الأكاديمية. البرمجيات لم ينتج عنها فحسب تحطيم التمييز ما بين النص/الاختراع، وإنما أيضا تحطيم الحدود بين ما تعودنا أن نملكه وما تعودنا أن نستأجره. يحدث الآن في عصر المعلومات إعادة لتعريف الملكية. قد تعودنا أن نشترى كتابا فنملك بعدها ذلك الكتاب. ولكن ذلك الكتاب كان في الواقع ثلاثة أجزاء مختلفة مندمجة معا في شيء واحد. أحد الأجزاء هو الكلمات، المحتوى المعلوماتي؛ والجزء الثاني هو الوسيط، الميكانيزم الفيزيقي للتوصيل، الورق والحبر اللذان يقبضان على الكلمات؛ والجزء الثالث هو العقد الاجتماعي والقانوني، الرخصة التي تقول، "ربما يكون لك أن تشترى هذا الكتاب، ويكون لك بعد قراءته أن تحتفظ به في مكتبك أو تمرره لصديق أو أن تباعه في سوق البضائع القديمة، ولكنك لا تستطيع أن تصنع منه مزيدا من النسخ لتبيعها". هذه المكونات الثلاثة - الوسيط، والمحتوى، والرخصة - قد تمزقت إربا في عصر المعلومات.

وكمثل، فإننا قد نفكر في شراء قطعة برمجيات من ميكروسوفت، ولكننا إذا قرأنا الرخصة بعناية سنرى أنها اتفاق قانوني يقول إننا لم نشتر هذه البرمجية، وإن ما اشتريناه بالفعل هو رخصة لاستعمالها، وهاكم شروط استخدامها: ليس للواحد منا أن يبيعها منفصلة عن كمبيوتره. وليس له أن يصنع نسختين منها. وهو لا يستطيع أن يعطي نسخة لصديقه في أثناء عدم استخدامه لها، لأنها جزء من كمبيوتره. كما أن المحتوى الفعلي يتغير؛ فهو يمر بتحسينات إجبارية، يكون على الواحد منا بسببها أن يشتري البرمجيات مرة أخرى وأخرى، حتى وإن كان قد اشتراها من قبل. وهي تأتي على قرص لين، وقرص صلب، أو مسير سحب يضغط النص، أو لمحة ذاكرة إلكترونية مدموجة؛ أو أنها تأتي بتحميل ترحيلي عن الإنترنت.

ما تعنيه حقيقة أن مكونات الكتاب الثلاثة قد تحطمت منفصلة هو أن هناك فرصا عظيمة للإثراء (بأن يباع المحتوى نفسه مرة بعد الأخرى) وكذلك فرصا عظيمة لإساءة الاستخدام. "إدارة الحقوق الرقمية" هي وحركات "المشاركة فى الملف" تعملان معا ضد الملكية (باعتبار الملف شىء نحوزه إلى وقت أن نبيعه). وفى اعتقادى أن التهديد الأكبر للحالة البشرية ليس فى وجود روبوتات أرخص، وإنما هو فى انتهاء الملكية، عندما نجد أنه ليس فى إمكاننا بعد أن نمتلك كتبنا، وتسجيلاتنا، وأفلامنا من الفيديو، وبرمجياتنا. نحن فى حاجة فى عصر المعلومات، لأن ننقل إلى فهم أعمق للملكية، كحزمة من الحقوق. مع ابتداء عمل الجهاز الناسخ المسلسل "رحلة النجوم"، الذى يمكننا رؤية أسلافه فى آلات يومنا التى تتسخ سريع النموذج الأصلى وتطبع بالأبعاد الثلاثية، سيعنى هذا أنه بمثل ما حدث للكتب تماما، فإن الأقراص المنمجة، والبرمجيات، والأشياء الصلبة كلها سيتم نسخها. سيحدث ذات يوم أن فوررد لن تكون شركة سيارات؛ وإنما ستكون شركة للملكية الفكرية ترخص لنا تصميميا مركبا لأحد تنظيمات المادة. لن نمتلك سيارة تخصنا من طراز تى بيرد ٢٠٣٠، وإنما سيكون لدينا فقط ترخيص لحق الاحتفاظ بالذرات فى هذا الشكل لمدة ثلاثة أعوام.

لن تختلف الأمور عن ذلك كثيرا على المدى القصير، ولنقل مثلا إن ذلك المدى هو خلال السنوات الخمس التالية. بالنسبة للكمبيوترات سنرى إلى حد كبير النوع نفسه من كمبيوترات الحجر التى نراها الآن، ومعها فحسب زيادة كمية فى القوة ومزيد من منافذ البيانات فى بنائها. وبالنسبة للتليفونات الخلوية، سوف نرى ما هو أفضل اندماجا من الأجهزة الشخصية الرقمية المساعدة ونظم البريد الإلكتروني، وربما نرى بعض وسيلة لاسلكية بوسائط متعددة وتثير الاهتمام. ولكننا سنرى مثلما يحدث فى الاتصال التلغرافى أن الشبكة بأسرها سوف يعوقها أبطأ قاسم مشترك، وسيكون نص البريد الإلكتروني هو شفرة مورس فى هذا العصر. لست ممن يؤمنون كثيرا بجى ٣ 3G (الجيل الثالث من البيانات اللاسلكية، الذى يعدنا بسرعة ذات نطاق واسع) وذلك لأنه غالى التكلفة بما يجعله غير عملى، وهذا هو السبب فى أننى أبذل جهدا حتى أجعل أحد اختراعاتى تجاريا.

وماذا عن الروبوتيات؟ الصناعة الروبوتية كما هى موجودة الآن تُورد ماكينات غالية الثمن لصناعات تكون أرباح منتجاتها كبيرة بما يبرر أوجه ترف كهذه - مثل صناعة الرقائق، والعقاقير، وحزم البرمجيات. ولا أرى أن تغيرا كبيرا سيحدث حقا فى الروبوتيات قبل ٢٠٠٥، ولكنى أعتقد أنه بحلول ٢٠١٠ سيكون هناك بعض تأثير ممكن لرؤيتنا عن أتمتة التصميم وأتمتة الإنتاج الصناعى. ومع وجود ما هو مناسب من الاستثمار والصبر، أستطيع أن أرى بوضوح الطريقة لخلق صناعة روبوتية متعددة الأغراض تستطيع أن تصمم وتنتج أوتوماتيكيا ماكينات بسيطة للصناعة والتسليّة - وهذا فيه قلب للفكرة التقليدية لصنع عبد روبوتى شبيه بالبشر ويستطيع أداء كل شىء. إذا وجدت تكنولوجيا تستطيع أن تنتج إنتاجا رخيصا جدا من الروبوتات البكم الخاصة لمهام من أنواع مختلفة - مهام التجميع، مهام عسكرية، مهام تنظيف، مهام للتسليّة، بل ومهام منزلية - إذا وجدت هذه التكنولوجيا فإنها قد تؤدى فعلا لصناعة مربحة ومستدامة ذاتيا، وتؤدى إلى أن تتغير الثقافة لتعود ثانية فى اتجاه اختراع وإنتاج سلع "حقيقية" بدلا من مواد الدوت - كوم.

المجىء الثانى - بيان

دافيد جلييرنتر^(٧)

المبحث الرئيسى للعصر الثانى، الذى يزداد الآن قربا، هو أن تسمو الحوسبة متجاوزة الكمبيوترات. سوف تنتقل المعلومات خلال بحر من كمبيوترات بلا هوية محددة وقابلة للتبادل بمثل ما ينتقل النسيم خلال الأعشاب الطويلة. سيكون كمبيوتر سطح المكتب نقبا مجوفا على الشاطئ، حيث تتبثق المعلومات عاليا من المحيط المعلوماتى مثلما يفعل ماء البحر.

(٧) دافيد جلييرنتر أستاذ علم الكمبيوتر فى جامعة ييل ورئيس العلماء فى شركة "ميرور وويلدز" تكنولوجيز، وشخصية قائدة بالجيل الثالث من الباحثين فى الذكاء الاصطناعى، ومخترع لغة برمجة تسمى "ليندا" جعلت فى الإمكان ربط الكمبيوترات لتعمل معا على مشكلة واحدة. وقد بزغ من وقتها كواحد من المفكرين المستقبليين فى المجال المعروف باسم الحوسبة المتوازية أو الموزعة. من بين ما ألفه كتب "عوالم المرايا"؛ و"عروس الوحى فى الماكينة"؛ و"رسم حياة"؛ و"١٩٣٩: عالم الانسجام الضائع".

سوف يحدث فى أى ميكرو ثانية من الآن تحول فى الحوسبة. ليس الأمر فحسب أن مشاكلنا كبيرة؛ وإنما هى كبيرة و"واضحة". وليس الأمر فحسب أن الحلول بسيطة؛ وإنما هى بسيطة وتقع تحت ذقوننا مباشرة. وليس الأمر أن عتاد الكمبيوتر أكثر تقدما عن البرمجيات: آخر إنجاز مخترق فى نظم التشغيل الكبيرة كان فى نظم ماكنتوش منذ ما يقرب من عشرين سنة؛ والآن فإن أشد العناصر إثارة هو "لينوكس"، وهى نسخة من "يونيكس" التى كانت جديدة فى ١٩٧٦. تتزع التطبيقات التجارية للبرمجيات لأن تكون سيئة فى تصميمها، وسيئة فى صناعتها، وغير مفهومة، وفات أوانها. ويكون رد فعل المستخدمين لهذه الحقائق القاسية هو أن يلوموا أنفسهم (كمبيوترات للبلهاء، نظم تشغيل للمواشى). إلا أن التغير قادم، وسيكون ذلك بسرعة.

مهما كنا واثقين من قدوم حدث فى النهاية، فإن الحدث الذى لا يعرف بالضبط زمن وشكل وصوله يصبح مختلفا عندما نتصور المستقبل. نحن ننحو إلى عدم الإيمان بأنه سيحدث فيما يلى حرب كبيرة، أو أنه سيحدث فيما يلى هزة اقتصادية كبيرة؛ ولاريب فى أننا لا نؤمن بثورة كبيرة للبرمجيات ستحدث فيما يلى. ولما كنا لا نؤمن بالتغير التكنولوجى (وإن كنا نقول إننا نفعل)، فإننا نقبل بهزة كتف منا تلك المنتجات الكمبيوترية السيئة. ونحن نعمل من حولها، ونستفيد بها بأحسن ما يمكننا، ولانكاد نلاحظ حتى عيوبها (لنشبه بذلك القرويين الفرنسيين فى القرن السادس عشر فى إيمانهم بالقضاء والقدر)، ونفعل ذلك بدلا من أن نطالب بإصلاحها وتغييرها.

الأمر كلها مهياة لقلبها. الأمور كلها ستغير. وحسب قانون أورويل عن المستقبل: فإن أى تكنولوجيا يكون من "المستطاع" تجربتها "سوف" توجد. حسب آدم سميث هناك تلك اليد الخفية التى تقود الاقتصاد الرأسمالى تجاه تزايد دائم فى الثروة، وبمثل ذلك فإن قانون أورويل حقيقة من الحياة. فى "العصر الأول" للكمبيوتر كان المبحث الرئيسى هو تصغير الحجم ليصبح منمنما: زيادة القدرة، تخفيض الأسعار، الكمبيوترات لكل الأفراد. أما مبحث "العصر الثانى" الذى يزداد

الآن قريبا فهو أن تسمو الحوسبة متجاوزة الكمبيوترات. سوف تنتقل المعلومات خلال بحر من كمبيوترات بلا هوية محددة، وقابلة للتبادل بمثل ما ينتقل النسيم من خلال الأعشاب الطويلة. سيكون كمبيوتر سطح المكتب تقبا مجوفا على الشاطئ، حيث تتبثق المعلومات عاليا من المحيط المعلوماتي مثلما يفعل ماء البحر. سوف يقل ويقل اهتمامنا بالكمبيوترات. الموضوع الرئيسى الحقيقى فى الفلك هو الكون وليس التليسكوبات. والموضوع الرئيسى فى الحوسبة هو المحيط المعلوماتي وما فيه من بنى معلوماتية، وليس الكمبيوترات التى نستخدمها كتليسكوبات وأدوات ضبط.

نظم البرمجيات التى يغلب اعتمادنا عليها الآن هى نظم تشغيل (لينوكس، ماكنتوش أوس، ويندوز، وغيرها)، ومتصفحات الملفات (إنترنت، إكسبلورار، نتيسكيب كميونيكاتور، وغيرها). نظم التشغيل عناصر وصل تربط المستخدمين بالكمبيوترات؛ وهى مرتبطة بالكمبيوتر عند أحد الأطراف وبالمستخدم عند الآخر. والمتصفحات تربط المستخدمين بكمبيوترات قصية البعد، تربطهم "بخدم" على الإنترنت. ونجد حاليا أن نظم التشغيل والمتصفحات قد فات أوانها لأن الناس لم يعودوا يريدون الارتباط بالكمبيوترات - سواء كانت قريبة منهم "أو" قصية البعد. وربما كانوا لم يريدوا ذلك قط. فهم يريدون أن يرتبطوا بالمعلومات. سوف يتأسس المستقبل الحوسبى على الكيانات المعلوماتية، مجموعات من المعلومات مكتفية ذاتيا، ومرتبة ترتيبا متقنا ومعروضة عرضا جميلا، مثل الحدائق الضخمة التى لا خطأ فيها. سوف تخطو إلى أى "جهاز تضبيط" (كمبيوتر فى البيت أو فى العمل أو فى السوبر ماركت؛ أو جهاز تليفزيون، أو تليفون، أو أى نوع من جهاز إلكترونى) وتزلق داخله "بطاقة نداء"، تعين كيانا معلوماتيا. سوف يقوم جهاز التضبيط بضبطه فى الداخل. ويصل الكيان المعلوماتي ويرسخ فى الداخل، مثل عصفور أزرق يحط على غصن.

ستكون كل حياتك الإلكترونية مختزنة فى كيان معلوماتي. سيكون فى وسعك استدعاؤها لأى جهاز تضبيط فى أى وقت. عندما تزلق بطاقة الاستدعاء

الخاصه بك، فإنك تستخدم حسب الطلب أى جهاز إلكترونى تلمسه؛ ذلك أنك طالما تمسك ببطاقتك، ستعرف الماكينة عاداتك وتفضيلاتك بأحسن مما تعرفه عنها أنت نفسك. سيكون هناك فى المستقبل وجود مكثف للكمبيوترات. ستكون موجودة من حولنا فى كل مكان فى ثمار مزدهرة مثل الطحالب الإسبانية. سوف تحتشد فى أسراب كالجراد على أن السرب ليس مجرد جمهور كبير: يفقد الأفراد هويتهم فى السرب؛ وستجد أن الكمبيوترات التى تصنع هذا السرب الكوكبى ستندمج معا فى مادة المحيط المعلوماتى حيث لا توجد حدود فاصلة. ستكون الكمبيوترات الفردية وهى داخل السرب بلا هوية محددة مثلها مثل جزيئات الهواء. الكيان المعلوماتى سيكون مكررا أو موزعا عبر كمبيوترات كثيرة؛ ويمكنه أن يقطن فى كمبيوترات كثيرة فى الوقت نفسه. إذا كانت كمبيوترات المحيط المعلوماتى تعد مثل البلاطات فى فناء مهمد، فإن الكيان المعلوماتى يعد مثل ظل سحابة تندفع عبر بلاطات عديدة فى الوقت نفسه.

سوف تتغير الإنترنت تغيرا جذريا قبل أن تموت. عندما نتعامل مع موقع لويب بالغ البعد، فإننا نتجاوز إلى حد كبير طاقة كمبيوتر سطح المكتب مفضلين الطاقة البالغة البعد كخادم لويب. وعندما نستخدم كمبيوتر سطح مكتب قوى كمجرد قناة للوصول إلى مواقع ويب - تمتد من خلاله وتتجاوزه، بدلا من أن نستخدمه - فإن الأمر يشبه عندهما أن نستأجر سيارة "هونداى" ونحتفظ بسيارتنا "البورش" فى الجراج، كما يشبه تنفيذ برامج تخرج من مخزون القرص بدلا من استخدام الذاكرة الرئيسية والذاكرة الوسيطة. هكذا فإن ويب تجعل كمبيوتر سطح المكتب عينا. ولكن طاقة ماكينات سطح المكتب هى مغناطيس سيقطب النزعة الحالية التى نقول إن "كل شئ على الويب!" من المحتم أن طاقة كمبيوتر سطح المكتب سوف تشد المعلومات لتخرج من الخدم البعيدين إلى كمبيوتر سطح المكتب. هل يعنى ذلك أنه إذا استخدم مليون فرد موقعا لويب فى الوقت نفسه فإننا سنحتاج إلى خادم عن بعد يكون متينا ولا يبلى سريعا ليجعلهم جميعا سعداء؟ لا. نستطيع أن ننقل الموقع ليكون على مليون جهاز لسطح المكتب ثم نستخدم الإنترنت للتنسيق. الموقع يماثل وحدة عسكرية فى الميدان، والقائد يتحرك مع قواته، أو هو يماثل فريق هوكى فى حركة محتشدة دائمة.

(استخدمنا أساسا هذا التكنيك لبنى أول تنفيذات لمجموعات العلاقات المكانية. وهى تبدو وكأنها تعتمد على خادم مشترك، إلا أن هذا الخادم كان وهما؛ ليس هناك أى خادم، وإنما فقط سرب من العملاء) هل يمكن للأمازون دوت كوم أن يصبح كجماعة بدو رحل بدلا من أن يكون موقع قيادة مركزى ثابت؟ نعم، يمكنه ذلك.

مشاكل فوق السطح

ومشاكل تحت السطح

النوافذ / قوائم الاختيار، الفأر / واجهة تعامل جهاز سطح المكتب، وكلها قد اخترعتها شركتا زيروكس وآبل وانتشرت الآن معممة، كلها كانت اختراعات متألفة ولكنها الآن قد عفا زمنها. فهى تهدر مساحة الشاشة على صور بلا معنى، وتتشغل فى أن تزودنا بمفاتيح كافية عما يكون داخل الملفات التى تمثلها تلك الصور الصغيرة غير الواضحة، وتجبر المستخدم على اختيار أيقونات لجهاز سطح المكتب فى حين أن النظام يستطيع هو نفسه اختيارها على نحو أفضل، وهى تبقى المستخدم وهو يناور بالنوافذ تماما مثلما يفعل عمال ساحة انتظار السيارات وهم يعيدون تنظيمها فى ساحة ضيقة فى مانهاتن، وتدور معركة خاسرة من أجل الحصول على مشهد لكمبيوتر المكتب بلا عائق لمساحة العمل، الأمر الذى لا يمكن التوصل له فى النهاية. ليس هناك وجود لمشهد بلا عائق.

تبدو لنا الأيقونات و"المشاهد المقلصة" وكأنها أمور جديدة، ولكننا قد لاقيناها من قبل. لكل كتاب مشهد "مقلص" أو "أيقونى"، وذلك هو صفحة ظهر الكتاب. الأيقونة تنقل معلومات أقل كثيرا من صفحة ظهر الكتاب المتوسط وأصغر منها كثيرا. هل "ينبغى" أن تكون أصغر كثيرا؟ هل يمكن أن يكون التكديس الأفقى لصفحات الظهر على الشاشة أكثر فائدة من تراكم غير منظم من الأيقونات؟

كان فأر الكمبيوتر اختراعا متألقا، ولكننا نستطيع حاليا أن ندرك أنه تصميم سيئ. فهو، مثل كل أداة يجب تحريكها ووضعها بدقة فى مكانها، كان ينبغى أن يزودنا بتغذية مرتدة ملموسة؛ ولكنه لا يفعل.

الاستعارات المجازية لها تأثير عميق في الحوسبة. استعارة جهاز سطح المكتب توقعنا في فخ تنظيم عريض للمعلومات بدلا من أن يكون تنظيمًا عميقًا، وهذا أساسا يعد خطأ بالنسبة لشاشات الكمبيوتر. يمكننا بسهولة أن نوسع من أداء جهاز سطح المكتب (فنستخدم أدرجا، وأدرجا أخرى، والطاولات، والأرضية)؛ أما شاشة الكمبيوتر فلا يمكن توسيعها. كان من الممكن أن نصف آبل واجهة التعامل لديها بأنها "مشهد خلوى للمعلومات" بدلا من "جهاز سطح مكتب". كان يمكنهم تفسير الأمر بأنهم اخترعوا هذا المشهد الخلوى مثلما يتم اختراع مشهد خلوى بواسطة مهندس المعماري أو مثلما اخترعه مصمم مجموعة معارض خلوية. لقد اخترعنا مساحة مثالية لرؤية وتناول المعلومات المحوسبة. ومشهدنا الخلوى مشهد متخيل، ولكننا مازلنا نستطيع أن نلجه ونتحرك فيه هنا وهناك. شاشة الكمبيوتر هي الزجاج الأمامي لسيارتك، الدرع الواقي للوجه في خوذتك للغوص. إلا أننا سنجد في استعارة جهاز المكتب أن الشاشة "هي" واجهة التعامل، قدم مربع أو قدامان من ألوان متوهجة فوق لوح زجاجي. الشاشة في استعارة المشهد الخلوى هي مجرد لوح زجاجي للعرض. وإذا نظرت من خلالها، سترى واجهة التعامل الفعلية كامنة وراءها.

تتأسس الحوسبة الحديثة على التناظر بين الكمبيوترات وخزانات الملفات، وهذا أمر خطأ ويؤثر تقريبا في كل حركة نقوم بها. الكمبيوترات تختلف اختلافا أساسيا عن خزانات الملفات، لأنها تستطيع أن "تفعل". فهي ماكينات وليست قطع أثاث. استعارة خزانة الملف توقعنا في فخ أسلوب سلبي وليس إيجابيا في تناول المعلومات. نحن نتعثر مرتبكين في النظام الجامد للملف - الدليل في جهازنا من نوع ماك أو الجهاز الشخصي لأن هذا نظام صممه مبرمجون لمبرمجين - ولا يزال يعد نظاما جيدا للمبرمجين. ولكنه ليس جيدا لغير المبرمجين. وهو لم يكن قط صالحا لغير المبرمجين، ولم يقصد به قط أن يكون صالحا لهم.

عندما يكون لدينا ثلاثة كلاب أليفة فإننا نمنحها أسماء، أما إذا كان لدينا ١٠٠٠٠ رأس ماشية فلن تكون هناك أهمية للأسماء. والفكرة الحالية من إعطاء اسم لكل ملف

على كمبيوترك فكرة مضحكة. السياسة المعتادة بشأن أسماء الملفات لها نتائج بعيدة المدى: فهي لا تقتصر على مجرد أن تجبرنا على صنع أسماء حيث الأمر لا يستدعي أى أسماء؛ ولكنها أيضا تفرض قيودا على تناولنا لفئة مهمة من الوثائق، فئة تصل من العالم الخارجى. عندما تصل حديثا رسالة بريد إلكترونى (مثلا) فإنها لا تستطيع أن تقوم بذاتها كوثيقة منفصلة، لا تستطيع أن تظهر بجوار الملفات الأخرى عند القيام ببحث، أو أن تقع بذاتها على جهاز سطح المكتب، أو أن تفتح أو تطبع على نحو مستقل. فهي لا تمتلك اسما، وينبغى طمرها عند وصولها داخل بعض ملف موجود (ملف البريد) له اسم بالفعل. ويصدق الشيء نفسه على ما يرد من صور فوتوغرافية وفاكسات، ومؤشرات كتب ويب، والصور الممسوحة، إلخ.

ينبغى ألا يلزم علينا وضع الملفات فى كتب دليل. وإنما ينبغى أن نتوصل لها الأدلة وتأخذها. إذا كان الملف ينتمى إلى ستة من الأدلة، ينبغى أن تصل إليه كل الأدلة الستة وتمسك به أوتوماتيكيا، فى نفس الوقت. ينبغى أن يتاح للملف ألا يكون له اسم، أو أن يكون له اسم واحد، أو عدة أسماء. ينبغى أن يتاح لملفات كثيرة أن تتشارك فى اسم واحد. ينبغى أن يتاح للملف الواحد ألا يكون فى أى دليل، أو أن يكون فى دليل واحد، أو أدلة عديدة. ينبغى لملفات عديدة أن تتشارك فى دليل واحد. سنجد أنه من بين هذه الاحتمالات الثمانية لا يعتبر قانونيا إلا ثلاثة منها فى حين تم إلغاء الخمسة الآخرين، بلا سبب وجيه.

تيارات الحياة

كانت الكمبيوترات فى البداية تتعامل أساسا بالأرقام والكلمات. أما الآن فهي تتعامل أساسا بالصور. وفى المرحلة التى تبرز الآن، سنجد أنها سوف تتعامل أساسا بالزمن الواقعي، الزمن الذى جعل مرثيا ومحسوسا. تنحو التقويمات الزمنية والخطوط الزمنية إلى أن تكون أمورا مربكة فى عالم الورق البعيد عن الكمبيوتر، ولكنها أمور طبيعية وهى على الخط (On line).

الكمبيوترات تجعل من الترتيب الأبجدي أمرا عفا زمنه. خزانات الملفات هي والعقول البشرية كلاهما نظم اختزان للمعلومات. نستطيع أن نصوغ نموذج اختزان للمعلومات المحوسبة على العقل بدلا من خزانة الملفات، إذا شئنا ذلك. العناصر التي تختزن في العقل ليس لها أسماء ولا ترتب في محافظ ملفات؛ وهي لا تسترجع بالاسم أو الحافظة وإنما تسترجع بالمحتوى. (عند سماع صوت، والتفكير في وجه؛ تسترجع ذكرى تحوى الصوت كأحد عناصرها) نستطيع أن نرى كل شيء في ذاكرتك من موقف من الماضي، والحاضر، والمستقبل. عندما نستخدم خزانة ملفات، فإننا نصنف المعلومات عندما ندخلها فيها؛ أما العقول فتصنف المعلومات عندما تخرجها. (وقفت بالأمس عند الرابعة عصرا مع ناتاشا في الجادة الخامسة تحت المطر) هذا ما يمكنك أن تتذكره عندما تفكر بشأن الجادة الخامسة، أو المطر، أو ناتاشا. ولكنك لم تلتصق أى بطاقات عناوين على الذاكرة "عندما اكتسبتها". فالتصنيف هنا يحدث (باستعادة الاحداث وراء).

ثمة "تيار حياة" ينظم المعلومات، ليس كما تفعل خزانة الملفات، ولكن ذلك يحدث تقريبا بمثل ما يفعله العقل. تيار الحياة تسلسل من كل أنواع الوثائق، كل الوثائق الإلكترونية، والصور الرقمية، والتطبيقات، ومؤشرات كتب ويب، وبطاقات رولودكس، ورسائل البريد الإلكتروني، وكل ما غير ذلك من شدة المعلومات الرقمية في حياتنا، وقد رتبنا من الأقدم إلى الأحدث، وهي تتنامى باستمرار كلما وصلت وثائق جديدة، ويسهل تصفحها والبحث فيها، مع ظهور ماضى وحاضر ومستقبل على شاشتنا وكأننا في نزهة للوراء خلال بطاقات فهرسة. ليس للوثائق أسماء وليس هناك كتب أدلة. وإنما نسترجع المعلومات بالمحتوى: "الجادة الخامسة" تنتج تيارا فرعيا من كل وثيقة تذكر الجادة الخامسة. التيار الفرعى (كالتيار الفرعى "الجادة الخامسة" مثلا) هو أشبه بكتاب الدليل التقليدى، فيما عدا أنه يبنى نفسه أوتوماتيكيا. وهو يتصيد الوثائق الجديدة عند وصولها. قد تكون الوثيقة الواحدة موجودة فى تيارات فرعية كثيرة، وقد يكون للتيار الفرعى البنية نفسها مثل التيار الرئيسى: ماضى، وحاضر، ومستقبل - تدفق مطرد.

يتدفق التيار لأن الزمن يتدفق، والتيار تمثل محسوس للزمان. "الآن" خط يفصل الماضي عن المستقبل. إذا كان لديك اجتماع في العاشرة صباحا من الغد، فإنك تضع وثيقة تذكير في مستقبل تيارك، عند العاشرة صباحا من الغد. وتتدفق الوثيقة مطردة إلى "الآن". عندما يساوى "الآن" العاشرة صباحا من الغد، تقفز المذكرة عبر خط "الآن" وتتدفق في الماضي. عندما تنظر إلى مستقبل تيارك، سترى خططك ومواعيدك وهي تنساب باطراد خارجة من المستقبل إلى الحاضر، ثم إلى الماضي. تيار الحياة مشهد خلوى يمكنك الملاحظة فيه أو الطيران عبره على أى مستوى. الطيران تجاه بدء التيار هو سفر زمانى فى الماضي.

تستطيع أن تتحكم فى تيار الحياة باستخدام عنصرى تحكم أساسيين، أن "تضع" وأن "تركز" الصورة بوضوح: وهما ما يناظران تقريبا اكتساب ذاكرة جديدة وتذكر القديمة. عندما نرسل بريدا إلكترونيا، فإننا نضع وثيقة على تيار شخص آخر. إذا أضفنا لتقويمنا ملحوظة، فإننا نضع وثيقة فى مستقبل تيارنا الخاص بنا. حتى نستمر فى العمل على وثيقة قديمة، فإننا نضع نسخة فى مقدمة تيارنا. عندما نرسل بريدا إلكترونيا، أو نجعل معلومات تقويمنا حديثة، أو نفتح وثيقة فإن هذا يعطى أمثلة ثلاثة للعملية نفسها: وضع وثيقة فى تيار.

ليست النقطة المهمة فى تيارات الحياة أن نتحول من إحدى بنى البرمجيات إلى الأخرى، وإنما هى فى أن نتحول كل المقدمة المنطقية للمعلومات المحوسبة: أن نتوقف عن بناء الخزانات المجيدة للملفات ونبدأ فى بناء عقول صناعية تجريدية مبسطة، نخزن فيها حياتنا الإلكترونية. سوف يصبح تيار الحياة (هو أو أى نظام آخر له الخصائص نفسها) أهم بنية تنظيم للمعلومات فى الحوسبة، وسبب ذلك أنه حتى المحاكاة التقريبية للعقل البشرى يكون لها قوة أوسع كثيرا من أى خزانة ملفات بأقصى درجة رقى يمكن تصورها. تيارات الحياة (فى شكلها التمهيدى) هى الآن منتج تجارى ناجح، إلا أن تنبؤاتى لا علاقة لها بهذا المنتج. المنتج فى النهاية قد ينجح أو يفشل؛ ولكن الفكرة ستتجج. فى أواخر ٢٠٠٢ أطلقنا نسخة بيتا لنظام تيار الحياة لجهازنا المكتبى وشهدنا ١٠٠٠٠ تحميل مرحلى فى أسبوعين؛ لم يعد بعد من المستحيل تماما أن نؤمن بأن برمجياتنا ستكون هى الفائزة.

سوف يخزن في تيارات حياتنا الأفلام، وعروض التلفزيون، والمتاحف الخائلية، وكل الأنواع الأخرى من المنتجات الثقافية، ابتداء من السيمفونيات حتى مباريات البيسبول. المؤسسات أيضا سوف تطفو في المحيط المعلوماتي. ستكون سيارة الواحد منا، ومدرسته، وشركته، وهو ذاته، كلها عربات تسير في مسار واحد وهي تتحرك قدما خلال الزمان، وكل منها يخلف كيانا معلوماتيا له شكل انسيابي (مثل ذيل البخار الذي تخلفه الطائرة وراءها) يتبعها أينما ذهبت. هذه الذبول البخارية من الخبرة المتبلورة ستمثل أول إجابة قوية لنا عن سؤال صعب: ماذا "تكون" الشركة، أو الجامعة، أو أي نوع يتواصل من التنظيم أو المؤسسات، إذا كان يمكن تغيير كل هيئة العاملين فيها وعملاتها وملاكها، وأن تهدم مبانيها بالبولدوزر، وأن يعاد تحديد موقعها؟ ما الذي يتبقى؟ ما الذي "تكونه"؟ الإجابة هي: تيار حياة في المحيط المعلوماتي. سيكون لكل موظف نظرتة الخاصة (ومدخله الخاص) لتيار الشركة الجموعى. سيكون موقع الشركة على ويب هو التيار الفرعى من التيار الرئيسى للشركة، تيار فرعى متاح ليدخل الجميع فيه. تيار حياة الشركة الرئيسى هو تقريب إلكترونى لذكريات الشركة، وعقلها الجموعى.

لن تنتج تيارات الحياة المكاتب الخالية من الأوراق. فكرة المكاتب الخالية من الأوراق فكرة سيئة، لأن الورق أحد أقدم وأقيم الوسائط التى اخترعت بأى حال. إلا أن تيارات الحياة سوف تحول ورق المكاتب إلى وسيط "مؤقت"، للاستعمال وليس للتخزين. وجود شيء "على الورق" مكان جيد للمعلومات التى نريد استعمالها؛ وهو مكان سيئ للمعلومات التى نريد تخزينها. المكتب المؤسس على التيار نستطيع فيه أن نجرى مسحا لكل وثيقة ورقية تخلفت حديثا أو وصلت حديثا لداخل التيار ونلقى بالنسخة الورقية بعيدا. عندما نحاج لنسخة ورقية، سنجدتها فى التيار، وسنطبعها، ونستعملها. إذا كتبنا على الورقة فى أثناء استخدامنا لها، سوف نمسحها لندخلها ثانية ثم نرميها بعيدا.

نستخدم الآن جهاز مسح لنقل صورة إلكترونية للوثيقة داخل الكمبيوتر. سرعان ما سيكون جهاز المسح منفذ دخول للمحيط المعلوماتي، دخول للصندوق

صالح لكل الأغراض. ضع أى شىء داخل الصندوق وسوف ينشئ النظام نسخة فيزيقية دقيقة ثلاثية الأبعاد، ويسقط النسخة فى البئر المظلم البارد للمحيط المعلوماتى. وهكذا يبدأ المحيط المعلوماتى فى أخذ لمحة لا غير لثراء قماشة الحياة الحقيقية. سنعرف أن النظام الجديد يعمل عندما تجول فراشة داخل الصندوق وتخفق فيما بعد ضربات قليلة لأجنحتها، وفى هذه الفترة الوجيزة سيكون النظام قد نسخ مظهر ذلك الكائن وحل طريقة حركته. ستترك الفراشة الحقيقية شبح فراشة وراءها. وفى بعض وقت يلى ذلك سريعا، سوف نعمل فى فحص بعض وثيقة إلكترونية مملّة فتظهر فراشة معلوماتية فى الركن الأيسر السفلى من شاشتنا (علها من نوع هاميريس ليوسينا) وتتوقف الفراشة هناك، وهى تحجب النص لفترة وجيزة وتظهر أجنحتها التى طويت ببراعة بلونها البنى الصدئ مع النقط المركزية البرتقالية، مثل نسيج صوف "البيسلى" الفكتورى، وبعد لحظات لاحقة تكون قد عبرت الشاشة واختفت.

دعنا نتخيل المستقبل بهذه الطريقة. إذا كان لديك مال وافر، فإن أفضل ما يترتب على ذلك (كما يقولون) أنك لا تعود بعد فى حاجة للتفكير فى النقود. سيكون لدينا فى المستقبل تكنولوجيا وافرة، وأفضل ما يترتب على ذل هو أننا لن نكون بعد فى حاجة للتفكير فى التكنولوجيا. سنعود ممتنين ومرتاحين إلى الموضوعات الرئيسية التى لها أهمية فى الحقيقة.

صنع النظم الحية

رودنى بروكس^(٨)

كانت أزمة منتصف عمرى فى البحث هى أن أتحرك بعيدا عن النظر فى أمر الروبوتات الشبيهة بالبشر وأن أتجه إلى النظر فى أمر سؤال بسيط جدا عما يجعل شيئا ما حيا، تلك القواعد التنظيمية التى تتواصل داخل النظم الحية. نحن نحاول فى معملى بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا أن نبني روبوتات لها خصائص النظم الحية التى لم تكن لدى الروبوتات من قبل.

(٨) رودنى بروكس مدير معمل الذكاء الاصطناعى فى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (م م ت) وأستاذ كرسى فوجيتسو لعلم الكمبيوتر بالمعهد. وهو أيضا رئيس شركة "إيربوت" للروبوتيات ورئيس لقسم التكنولوجيا بها. ظهر د. بروكس كواحد من أربع شخصيات رئيسية فى فيلم لإيروول موريس ١٩٩٧، اسمه "سريم، ورخيص، وغير متحكم فيه" (وقد سمي على اسم ورقة بحث علمى لبروكس ظهرت فى "جورنال أوف ذا بريتيش إنتر بلا نيتارى موسيتى" (مجلة المجتمع البريطانى لما بين الكواكب). وقد ألف كتابى "اللحم والماكينة" و"الذكاء الكبير".

يحدث كل تسع سنوات أو ما يقرب أنى غير ما أؤديه علميا. انتقلت فى ٢٠٠١ من بناء روبونات شبيهة بالبشر إلى التفكير فى الفارق بين المادة الحية واللاحية. يحدث هاهنا تنظيم للجزيئات فإذا لدينا خلية حية؛ ويحدث هنالك تنظيم للجزيئات فتصبح مجرد مادة. ما الذى يجعل شيئا ما حيا؟

أصبحنا كلنا متهورين على الحوسبة عبر السنوات القليلة الأخيرة. نحن ننحو إلى الاعتقاد بأن الحوسبة تفسر كل شيء. عندما كنت صبيًا، كان لدى كتاب يصف المخ كأنه شبكة تليفونية. وقد وصفته كتب أقدم على أنه نظام هيدرو دينامى أو محرك بخارى. ثم أصبح فى ستينيات القرن العشرين كمبيوتر رقمى. وصار فى الثمانينيات كمبيوتر رقمى بالتوازي بدرجة هائلة. ولعل هناك كتاب للصبيان سيخرج فى مكان ما ليقول إن المخ يماثل بالضبط شبكة ويب العالمية بسبب كل ماله من ترابطات. نحن دائما نأخذ أفضل ما لدينا من تكنولوجيا ونستخدمها كاستعارة مجازية لأكثر شيء مركب نعرفه، المخ. ونحن الآن نتحدث عن الحوسبة.

ولكن ربما يكون لدينا ما هو أكثر من الحوسبة. لعل هناك شيئا يتجاوز الحوسبة، بمعنى أننا لا نفهم ولا نستطيع أن نصف ما الذى يجرى داخل النظم الحية باستخدام الحوسبة وحدها. عندما نبني نماذج حوسبية للنظم الحية - مثل نظام يتطور ذاتيا أو نظام مناعة اصطناعى - فإنها لا تكون بقوة أو ثراء النظم الحية الحقيقية. ربما كان الأمر أننا تغفل شيئا ما، ولكن ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء؟

يمكننا افتراض أن ما نفعله قد يكون بعض جانب من الفيزياء لا نفهمه بعد. استخدم الفيلسوف دافيد تشالمرز هذه الفكرة وهو يحاول تفسير الوعي. واستخدم عالم الرياضة روجر بنروز هذه الفكرة إلى حد ما وهو يقول إن الفكر ينشأ عن تأثيرات كمومية فى الأنابيب الدقيقة لعصبوناتنا؛ فهو يلتمس بعض فيزياء نفهمها من قبل ولكننا فحسب لا نجيد وصفها الإجابة الكافية.

استطاع الناس فى زمن كبلر وكوبرنيكوس أن يصفوا ما يحدث فى المنظومة الشمسية باستخدام الملاحظة والهندسة والجبر، إلا أنه لم يحدث إلا بعد أن

أصبح لديهم حساب التفاضل والتكامل أن صار عندهم نموذج جيد لما يحدث فاستطاعوا صنع التنبؤات. الفرض العملى عندى هو أننا فى فهمنا للتركيب قد توقفنا عند مرحلة الجبر/الهندسة. ثمة أداة ما أخرى - بعض قاعدة تنظيمية - نحتاج لفهمها حتى نصف ما يجرى حقا.

وهكذا كانت أزمة منتصف عمرى فى البحث هى أن أتحرك بعيدا عن النظر فى أمر الروبوتات الشبيهة بالبشر وأن أتجه إلى النظر فى أمر سؤال بسيط جدا عما يجعل شيئا ما حيا، تلك القواعد التنظيمية التى تتواصل داخل النظم الحية. نحن نحاول فى معملى بمعهد (م م ت)، أن نبني روبوتات لها خصائص النظم الحية التى لم تكن لدى الروبوتات من قبل. ومعملى فيه فروع معرفة بينية متداخلة، حيث الطلبة فيه يأتون من كل أرجاء المعهد، وإن كانت الأغلبية العظمى منهم قد درست علم الكمبيوتر كمادة رئيسية. لدينا من درسوا الهندسة الإلكترونية كمادة رئيسية، وطلبة درسوا المخ وعلم الإدراك، وطلبة درسوا الهندسة الميكانيكية، بل ولدينا فى هذه الأيام بعض طلبة علوم الهوائيات والفضائيات، لأن هناك انطلاقة فى اتجاه النظم المستقلة ذاتيا فى الفضاء. نحن نبحت فى مزيج من الأمور التطبيقية والنظرية. ونحن نحاول بناء روبوتات تستطيع أن ترمم نفسها، وتستطيع أن تتكاثر (وإن كنا مازلنا بعيدين جدا عن التكاثر الذاتى)، روبوتات فيها أيض، وتطلق لتلتمس طاقة لتبقى على أنفسها. لدينا الآن روبوت يجول فى الممرات، ويعثر على مخارج القوة الكهربائية، ويثبت نفسه فيها بقابس. والخطوة التالية هى أن نجعله يختفى فى أثناء النهار ويخرج فى الليل ويثبت نفسه بالقابس. نحن نحاول أن نبني روبوتات ليست مصنوعة من السليكون والصلب وإنما مصنوعة من مواد أقل صلابة، وأقل تقليدية، مواد أكثر شبيها بالمواد التى بنينا نحن بها. هدفنا المقدس هو أننا سنبنى روبوتا من (جيلى - أو = Jell-O). لانتصد هذا بمعناه الحرفى، ولكن تلك هى الصورة التى لدينا فى عقولنا.

يجمع بحثنا بين النظرية والتطبيق. الروبوت الذى نعمل على إنتاجه فى شركة "إيروبوت"، سيحدث بعد ثلاثة أعوام من الاختبار أن يهبط لأسفل فى آبار

الزيت. قطر الروبوت خمسة سنتيمترات وطوله ١٤ مترا، ومن اللازم أن يكون تلقائيا، لأننا لا نستطيع الاتصال به بأسفل الراديو. وحسب ما جرى الأمر عليه الآن، إذا أردنا التعامل مع آبار الزيت في أثناء قيامها بالإنتاج، سنحتاج لبنية تحتية على السطح لنُدفع بكابل سميك أسفل البئر. وهذا قد يعنى أميالا وأميالا من الكابل، الأمر الذى يعنى وجود أطنان من الكابل عند السطح، أو أن تقع سفينة فوق بئر الزيت، وتدفع هذا الكابل لأسفل خلال مقاطع أنابيب من ثلاثين قدما تهبط الواحد بعد الآخر بعد الآخر لأيام وأيام. تستطيع روبوتاتنا أن تهبط أسفل آبار الزيت - حيث يصل الضغط إلى ١٠٠٠٠ رطل للبوصة المربعة وتصل درجة الحرارة إلى ١٥٠° مئوية - وذلك وهى تحمل آلات، وتجرى قياسات مختلفة، وتكتشف أن المياه ربما تدخل إلى البئر بأكثر مما ينبغى. عندما يكون لدينا بئر زيت متحكم فيه، نستطيع أن نزيد الإنتاج طول حياة البئر بعامل يقرب من اثنين، إلا أن التحكم فى آبار البترول مكلف بأعلى كثيرا مما ينبغى، لأننا نحتاج لهذه البنية التحتية الضخمة. تكلف هذه الروبوتات مبلغا يصل قدره إلى ١٠٠٠٠٠ دولار. وهى روبوتات يمكن استرجاعها، لأننا لا نريد أن نبقىها هناك بأسفل وهى تسد تدفق الزيت. فحتى هذا الروبوت بقطره الصغير من خمسة سنتيمترات عندما يكون فى بريمة زيت من الحجم العيارى، فإنه سرعان ما يأخذ فى سد الأشياء. نحن لا نستطيع الاتصال بهذه الروبوتات، ولكننا ندفع بها إلى أن تفشل اصطناعيا كما أنه تقع لنا بعض إخفاقات بأسفل غير متنبأ بها، وفى كل هذه الحالات تتمكن الروبوتات من أن تعيد تشكيل أنفسها وأن تصل إلى الخروج بنفسها.

أكثر التطبيقات نجاحا عبر السنوات الخمس الأخيرة هى ما كان فى الجراحة. أمكننا باستخدام تكتيكات الرؤية الكمبيوترية أن نبني روبوتات تقوم بكل الأنواع المختلفة من التصوير فى أثناء الجراحة. نستطيع أن ندخل مريضا فى جهاز أشعة الرنين المغناطيسى فى أثناء أداء الجراحة. ونأخذ قياسات تقريبية ن جدولها مع القياسات الدقيقة بالرنين المغناطيسى التى أجريت من قبل فى ماكينة أكبر، ثم نعطي الجراح صورة زمنية واقعية بالأبعاد الثلاثية تصور كل شئ داخل

مخ مريض تجرى عليه جراحة مخ. لو ذهبنا إلى إحدى المستشفيات الرئيسية فى بوسطن لجراحة المخ، سنجد أن الجراح ينال المساعدة من نظم ذكاء اصطناعى طورت فى معملنا. فى المرات القليلة الأولى التى استخدمت فيها هذه المعدات كان هناك طلبه دراسات عليا فى غرفة العمليات يعيدون إجراءات بدء تشغيل "يونكس" عند نقطة حاسمة. أما الآن فقد تجاوزنا هذا بكثير، ولم تعد هناك حاجة لوجود أى من الأفراد العاملين لدينا هناك. فقد تم تسليم كل شئ للجراحين والأفراد العاملين فى المستشفى وكل شئ يسير على ما يرام.

نحن ننشئ أيضا تجارب حوسبة بمقاييس كبيرة. ربما يسميها الناس محاكاة، ولكن حيث إنه لا يحدث بالضرورة أننا نحاكى بها أى شئ واقعى، فإننى أفضل أن أسميها تجارب. ننظر فى أمر مدى من الأسئلة التى تدور حول النظم الحية. ينظر أحد الطلبة مثلا، أمر الطريقة التى يمكن بها لتكاثر متعدد الخلايا أن ينشأ عن تكاثر لأحادى الخلية. فى وسعنا أن نرى كيف يعمل تكاثر الخلية الواحدة، ولكن كيف يتحول ذلك إلى تكاثر الخلايا المتعددة، الذى يبدو عند مستوى معين من التنظيم مختلفا تماما عما يحدث فى تكاثر الخلية الواحدة؟ فى تكاثر الخلية الواحدة يصبح أحد الأشياء أكبر حجما ثم ينقسم إلى اثنين؛ فى تكاثر الخلايا المتعددة، يتم بناء أنواع مختلفة من الخلايا. لهذا السؤال أهميته فى التخمين عن الانبثاق قبل الحيوى للتنظيم الذاتى فى حساء الكيموايات الذى كان يشكل الأرض يوما. نحن نحاول أن نستببط كيف حدث التنظيم الذاتى، وكيف كانت إجراءات بدء التشغيل للتطور الداروينى، وكيف خرج لنا حمض دنا من ذلك، وهلم جرا. العقيدة السائدة هى أن دنا هو المحور المركزى، ولكن دنا ربما يكون قد أتى متأخرا بكثير، كميكانزم منظم.

ننظر فى تجارب حوسبية أخرى أمر حيوانات بسيطة جدا وصياغة نموذج لتناميها العصبى. نحن ننظر أمر الديدان المفلطة متعددة الأغشية، والتى لديها مخ بدائى ولكنه متكيف، وفيه ٢٠٠٠ عصبون أو ما يقرب. إذا أخذت دودة مفلطة متعددة الأغشية وقطعت مخها خارجا، فإنها لن تودى كل أوجه سلوكها المعتادة،

ولكنها تظل قادرة على البقاء. إذا أخذنا بعدها مخا من دودة أخرى مفلطحة متعددة الأغشية وأدخلناه إلى الدودة التي بلا مخ، سنجد بعد أيام قليلة أنها تستطيع أن تؤدي كل أوجه سلوكها على نحو جيد إلى حد كبير. إذا لففنا المخ بمائة وثمانين درجة وأدخلناه ثانية، سنجد أن الدودة المفلطحة ستمشى للوراء قليلا في أول أيام معدودة، ولكنها بعدة أيام قليلة ستعود إلى ما هو طبيعي، وقد ساعدها هذا المخ على ذلك. المخ هنا يتكيف ويعيد نموه. كيف تحدث هذه الإعادة للنمو وهذا التنظيم الذاتي في هذا النظام البسيط إلى حد كبير؟ تنتظر هذه المشروعات كلها أمر الطريقة التي يحدث بها التنظيم الذاتي.

تتنامى النظم البيولوجية مما هو بسيط إلى ما هو أكثر وأكثر تركبا. ما الطريقة التي تحدث بها ميكانيكيات هذا النمو؟ كيف يحدث أن تخرج لنا هذه الصلابة من مواد رخوة إلى حد كبير؟ أحاول من الناحية الحوسبية بناء كيمياء مثيرة للاهتمام لها علاقة بالفيزياء ولها بنية حيث نحصل على رياضيات توليفية مهمة ناتجة عن مكونات بسيطة في محاكيات فيزيائية، بحيث يمكن أن تنشأ خصائص النظم الحية من خلال تنظيم ذاتي تلقائي. السؤال هنا هو، ما نوع المؤثرات البيئية التي نحتاجها؟ سنجد في الحساء قبل الحيوى على الأرض أن هناك موجات مد وجزر، وهي مهمة جدا لعملية الفرز. تحدث هنا عواصف رعدية منتظمة كل ثلاثة أو أربعة أيام، لها فائدتها أيضا في إجراء عمليات فرز منتظمة. ثم هناك دورة النهار والليل، والتسخين والتبريد. يحدث هكذا تنقية حرارية - ديناميكية للكيمائيات، ربما يحدث معها أن بعض أنواع الطفل تتماسك معا لتبدأ عملية تنظيم ذاتي، إلا أنه ينبغي أن يبدأ الأمر من بنية بلورية ليصل إلى هذا النوع من التنظيم. ما أبسط كيمياء يمكن الحصول عليها لينشأ فيها هذا التنظيم الذاتي؟ ما خصائصها المفتاحية؟ من الواضح أنها موجودة في كيميائنا.

قطعنا طريقا طويلا منذ الأيام الباكورة لأموال الذكاء الاصطناعي. في خمسينيات القرن العشرين عقد جون مكارثي ذلك الاجتماع الشهير الذي استمر لستة أسابيع في دارتماوث والذي صك فيه مصطلح "الذكاء الاصطناعي"، وعندها

اعتقد الناس أن مفتاح فهم الذكاء هو أن يستطيع المرء أن يحل المشاكل التي يجد خريجو معهدى (م م ت) وكارنيجى للتكنولوجيا أنها مشاكل صعبة. وكمثل، فقد أنشأ آلان نويل وهربرت سيمون برامج تستطيع أن تبدأ فى إثبات بعض مبرهنات راسل وهوايتيد فى كتابهما "مبادئ الرياضيات". واهتم أفراد آخرون مثل آلان تورنج ونوربرت واينر بالشطرنج، وهذا شيء مازال بعض الحاصلين على درجات تكتيكية يجدونه صعبا. كان التركيز كله على متابعة مواضيع عن الذكاء. ما فات هؤلاء الناس هو مدى أهمية تجسدها نحن أنفسنا، وإدراكنا نحن أنفسنا للعالم كأساس لتفكيرنا. لقد أهملوا إلى حد كبير الرؤية التي تؤدي الكثير من عمليات المعالجة التي تجرى داخل رعوينا. نستطيع الآن فى خوارزمات رؤيتنا فى الروبوتيات، أن نخلق أشياء مثل التعرف على الوجه ومتابعة الوجه. نحن الآن نجيد تماما بالفعل أداء متابعة الحركة. ولكننا مازلنا لا نستطيع أداء التعرف على الشيء الأساسى. ليس فى إمكاننا أن نحوز نظاما ينظر إلى طاولة ويعين مسجل كاسيت أو نظارة، أو أى شيء مما يستطيع طفل فى الثالثة أن يفعله. كان ينظر إلى هذه المهام فى الأيام الباكرة على أنها بالغة السهولة؛ يستطيع كل واحد أن يؤديها، وبالتالي فما من أحد كان يعتقد أنها يمكن أن تكون مفاتيح. تعودت أن أحمل معى جهاز ذاكرة من (ميمو - ممت) ١٩٦٦ وهو جهاز الذكاء الاصطناعى "ميمو #١٠٠" الذى ابتكره سيمور بابرت. خصص بابرت لأحد الطلبة الجامعيين مشروعا صيفيا لحل للإبصار. وكان يعتقد أنها ستكون مهمة سهلة بحيث يتمكن طالب الجامعة من إنجازها فى ثلاثة شهور. ولكن ثبت فى النهاية أن الأمر ليس هكذا. بمرور الوقت وجد إدراك بأن الإبصار، ومعالجة الصوت، واللغة المبكرة قد تكون حقا هى المفاتيح لطريقة تنظيم مخنا، وأن كل ما يبنى من فوق ذلك هو الذى يجعل منا بشرا ويعطينا ذكاءنا. هناك طريقة تتناول جديدة بالكامل لتخلق روبوتات ذكية، إذا شئنا ذلك، تتأسس على الإدراك واللغة، وهذه طريقة تتناول لم تكن توجد فى الأيام الباكرة.

نحاول أن نولد بعض قواعد رياضية من هذه الروبوتات ومن التجارب الحوسبية. لاريب أن القواعد هى ما نلتمسه حقا، إلا أن منهج أبحاثى ليس بأن

أذهب مباشرة وراء شيء مثل هذا، ذلك لأننا نستطيع أن نجلس ونعبث بأصبعنا ونظل نخمن لسنين وسنين. أحاول إنشاء نظم حقيقية ثم أحاول الوصول للتعميم منها. إذا نجحنا نحن أو آخرون في هذه المحاولات واستطعنا الحصول على فهم حقيقى للطريقة التى تتفاعل بها المسارات المختلفة داخل نظام حى لتخليق هذا النظام، سنتمكن عندها من إنشاء مستوى جديد من التكنولوجيا يبنى من فوق ذلك. سنكون عندها قادرين بطريقة قاعدية على التعامل مع المادة البيولوجية، تماما بمثل ما تعلمنا فى القرنين الأخيرين أن نتعامل مع الصلب والسليكون. ربما سيحدث بعد مرور خمسين سنة من الآن أن تصبح بنيتنا التحتية التكنولوجية مما لا يمكن تمييزه عن أجسادنا، من حيث إنهما سيصبحان النوع نفسه من العمليات.

صنع العقول

هانز مورافيك^(٩)

ربما يكون الأمر كما يتخيل المفكرون التقليديون للذكاء الاصطناعي من أن البرامج التي تحقق ذكاء مشابها للبشر بدرجة عالية من التجريد هي برامج ممكنة على الكمبيوترات الموجودة. وربما يكون الأمر، كما يتخيلون أيضا، وهو أن ابتكار هذه البرامج يتطلب زمن حيويا بأكملها من البحث بواسطة عباقرة عالميين. إلا أن هذا قد لا يكون شيئا بالغ السهولة.

(٩) هانز مورافيك عالم رئيس للبحث في معهد الروبوتيات بجامعة كارنيجي ميلون، وهو مؤلف كتابي "أطفال العقل" و"الروبوت".

اخترعت الكمبيوترات فى الأزمنة الحديثة لميكنة إجراءات معلوماتية يدوية شاقة. كانت هذه الإجراءات قد اخترعت هى نفسها خلال الألفيات العشر الأخيرة، عندما تفوق نمو الحضارات الزراعية على نمو الغرائز الاجتماعية على مستوى القرية. نشأت هذه الغرائز عند أسلافنا من أشباه البشر خلال ملايين عديدة من سنى الحياة فى البرية، وبنيت هذه الغرائز على ميكانزمات حسية وحركية تطورت فى سلالة للفقرات امتدت عبر مئات الملايين من الأعوام.

استغلت عمليات مسك الدفاتر وتطوراتها المتقنة ما لدى أسلافنا من ملكات، وذلك من أجل التحكم فى الأمور واتباع التعليمات. نحن ندرك الرموز المكتوبة بالطريقة التى تعرف بها أسلافنا على ثمار التوت وعلى فطر عيش الغراب؛ نحن نشغل الأقلام مثلما كانوا يستخدمون الرماح؛ ونحن نتعلم حساب الضرب وتكامل الأجزاء بمثل الطريقة التى اكتسبوا بها عمليات القرية للطهى وصنع الخيام. استخدامات العمل الورقى أدت لتطوير المهارات، إلا أن هذا تم بنظرة غير طبيعية من حيث ضيقها وعدم تسامحها. وإذا كان أسلافنا قد عملوا فى أوضاع معقدة بصريا وحسيا واجتماعيا، وهم متنبهون لما هو رهيف من الفرص أو التهديدات، فإن ما يفعله الواحد من كتبة الحسابات أنه يعالج حفنة من الرموز البسيطة فى مجال بلا معالم. وبينما لا تكون هناك بالنسبة للسلف جامع الفاكهة أى أهمية لوقوع ثمرة توت، فإن إغفال رقم واحد قد يبطل مصداقية عملية حسابية بأسرها.

التيقظ للمحيط الخارجى قد نتج عنه بقاء أسلافنا أحياء، ولكنه يؤدى إلى تشتت انتباه الكتبة. قد يؤدى الانتباه لقماشة الورق، ورائحة الحبر، وشكل الرموز، والشعور بالمقعد، والضجة هناك فى البهو، وقرقرة الهضم، والمتاعب العائلية وما إلى ذلك، قد يؤدى أى من هذا إلى فساد مسار أحد الإجراءات. تزيد صعوبة مهنة كتابة الحسابات بسبب وجود نشاط عقلى غالب يجب قمعه حتى لا يغلب على ذلك الجزء الصغير الذى نستخدمه بفعالية.

الحساب هو والأنواع الأخرى من الفكر الإجرائى يماثل التموجات الصغيرة على سطح بركة عميقة مضطربة، ذلك أن الحساب هو وهذه الأنواع من الفكر

تكون ممكنة فحسب عندما يتم قمع الاضطراب الكامن فى الأساس. يتوصل البشر بالتركيز الشديد إلى هذا الحال من الهدوء، ولكن ذلك على نحو ينقصه الكمال. سيكون من الأسهل جدا أن نهمل هذه اللجة بالكامل: التمرجات تعمل بأفضل فى البركة الضحلة. الأرقام يتم التحكم فيها كحجارة للعد أو كخرز المعداد بأفضل مما تكون فى ذاكرة الإنسان. وجود تروس معدودة فى آلة حاسب بليز باسكال فى القرن السابع عشر نتج عنه أداء عملية الجمع بأفضل وأسرع من العقل البشرى. صمم شارلز باباج فى القرن التاسع عشر آلة تحليل كانت ستتفوق حسابيا على عشرات من الحواسيب البشر وتتخلص من أخطائهم. كانت هذه الابتكارات فعالة لأنها كانت تشفر شدة المعلومات السطحية التى تستخدم فى الحساب ولا تشفر ملايين العمليات المشتتة للانتباه التى تهز بعنف أعماق المخ البشرى.

على أن العمليات العميقة تكون لها فائدة أحيانا. نحن نخمن أرقام خارج القسمة فى عمليات القسمة الطويلة بحس بالنسبة والتناسب ربما يكون أسلافنا قد استخدموه لتقسيم الطعام على الأقواء. آلات الحساب الميكانيكية ليست لها القدرة على التخمين، وهكذا فإنها تتناقل خلال عمليات الطرح المتكررة. والأكثر أهمية من ذلك، أن البراهين الهندسية تستهدى (وتحفز!) بواسطة قدرتنا العميقة على رؤية النقاط، والخطوط، والأشكال، وسيمترياتها، وتشابهاتها، وتطابقاتها. كذلك فإن العمل الخلاق الحقيقى يتشكل بواسطة انبثاقات من الأعماق أكثر مما يتشكل من عملية مفتوحة.

سلمت الحاسبات المقاليد إلى كمبيوترات آلان تورنج الشاملة، فتنامت فيها مواقع التخزين وخطوات العمليات وهى تجرى بمعدل كان بالآلاف فى كل ثانية، ثم تنامى إلى الملايين التى تقرب الآن من البلايين. وإذا جرى لها ذلك فقد تسامت على أصولها من العمل الورقى واكتسبت أعماقها الخاصة المظلمة. وكمثل، فإن آفات هينة فى نظام التشغيل قد تجعل إحدى عمليات الكمبيوتر تفسد عملية أخرى، مثلما يحدث لأحد الكتب عندما يفسد عمله بسبب شرود أفكاره. ومن الجانب الإيجابى، فإن ثمة وسائل بحث هائلة تفوق البشر، ووسائل للبحث فى القوائم، وما أشبه، مما يمكن أحيانا أن يكون له وظيفة مثلما فى العمليات البشرية العميقة. فى ١٩٥٦ كان هناك ثلاثة من المنظرين المنطقيين، آلان نيوييل وهربرت سيمون

وجون شو، أجروا عمليات بحث ضخمة أدت للعثور على براهين من النوع الذى يستطيع أن يجده أى منطقى بشرى مبتدئ. فى ١٩٦٣ استخدم هيربرت جيلرنتير برنامج "إثبات المبرهنات الهندسية"، فى عمليات بحث كبيرة وحسابات إحدائية ديكارتية ليصل إلى ما يعادل البديهيات البصرية لإنسان مختص بالهندسة له قدر معقول من الموهبة. أدت عمليات بحث بمقياس الجيجا فى مشروع "الأزرق الغامق"، مع طرق الاقتراح، وكتب المباريات النهائية، وتقييمات اللوحة التى ضببطت بدقة، أدى هذا كله إلى هزيمة أقوى لاعب شطرنج فى العالم فى ١٩٩٧.

على الرغم مما أنجزته هذه المجسات المنفصلة، فإن الكمبيوترات بقيت كالبرك الضحلة. لا يوجد برنامج للاستدلال يقرب حتى من الأعماق الحسية والعقلية التى تظهر على نحو اعتيادى على السطح من الفكر البشرى. يلجأ نقاد كثيرون إلى إظهار المفارقة بين تفوق الكمبيوترات فى أعمال الاستظهار وعيوبها فى التفهم ويستنجون أن الكمبيوترات مفعمة بقوة هائلة، إلا أن الحوسبة ينقصها بعض مبدأ عقلى بشرى (من نوع فيزيقى، أو موقفى، أو فوق طبيعى، حسب ذوق المرء). يتخذ بعض ممارسى أبحاث الذكاء الاصطناعى وجهة نظر مشابهة: عتاد الكمبيوتر فيه الكفاية، ولكن هناك مشاكل للتفهم صعبة وبلا حل تمنعنا من إدماج ذكاء حقيقى. تبدو هذه المقدمة المنطقية معقولة طالما يكون مجال اهتمامنا هو الاستدلال، ولكنها تنافى العقل بالنسبة للإحساس. الأصوات والصور التى تتم معالجتها بواسطة الأذان والأعين البشرية تمثل بيانات خام بمقدار منيجابايات لكل ثانية، وهذا مقدار يكفى لإرباك أى كمبيوتر حتى ما يوجد حالياً. برامج النص، والكلام، والرؤية كلها تستقى المعنى من نثق من بيانات من هذا النوع بواسطة عملية وزن وإعادة وزن لآلاف أو ملايين من الفروض. سنجد أن بعضاً على الأقل من المخ البشرى يعمل بطريقة مماثلة. يحدث تقريباً بمعدل عشر مرات لكل ثانية عند كل واحد من ملايين البكسلات^(١٠) الفعالة بالشبكية، أن تقوم عشرات

(١٠) البكسل أصغر عنصر فى الصورة له لون ولعمان ويمكن التحكم فيه فى عروض الفيديو أو رسوم الكمبيوتر. (المترجم)

العصبونات بوزن الفروض عما إذا كان ما يرى هنا أو هناك هو حد ساكن أو متحرك. يوجد في قشرة المخ البصرية ١٠ بلايين عصبون تتناول ببراعة هذه النتائج، وتقيم في كل لحظة ما يمكن من توجهات مكانية وألوان عند كل مواضع الصورة. تتطلب برامج الكمبيوتر البصرية الكفنة مايزيد عن مائة عملية حسابية لكل لتصنع تقييمات مماثلة. لايزال معظم المخ وقد بقي ملغزا، إلا أنه يبدو أن كل عصبوناته تؤدي عملها بإتقان مثل عصبونات الجهاز البصري. ذكرت تفصيليا في مكان آخر حسابات الشبكية واستنتجت أنها يصل حجمها إلى مقدار من ١٠٠ تريليون عملية حسابية لكل ثانية من الحوسبة - أو ما يقرب من أداء مليون كمبيوتر شخصي مما يوجد حاليا - حتى تضاهي المخ وظيفيا.

يفترض هذا الرقم مضاهاة للمخ بمقياس كشافات الحرف - الصورة، حيث تقوم بضع مئات الآلاف من العمليات الحسابية لكل ثانية بأداء مهمة بضع مئات من العصبونات. سنجد أن متطلبات الحوسبة ستزيد (ربما زيادة كبيرة) إذا أردنا أن تكون المضاهاة على مستوى أدق حجما بما يصل مثلا لتمثل محدد لكل عصبون. عندما نصر على المستوى الدقيق، فإننا نقيد من حيز الحل ونبطل فعاليات التعميم؛ وعل كل فإننا بتقييد الحيز نبسط من عملية البحث! لن تعود هناك حاجة إلى العثور على خوارزمات ذات كفاءة للكشف عن الحرف أو لغير ذلك من وظائف الجهاز العصبي التي يبلغ عددها مائة بمقياس العصبون. لو كان لدينا نماذج جيدة للعصبونات وشكل توضيحي للتوصيلات في المخ لأمكننا أن نضاهية كمحاكاة شبكية مباشرة. وسوف ينخفض مستوى مشاكل الذكاء الاصطناعي ليصبح مجرد بحث مثبت أدواتها وحوسبيا.

يمكننا كبديل لذلك أن نحاول تنفيذ وظيفة المخ على مستوى أكبر حجما بكثير. وهكذا يتسع حيز الحل، وتتسع معه صعوبة العثور على خوارزمات ذات كفاءة معممة، إلا أن متطلباتها الحوسبية تصبح أقل. ربما يكون الأمر، كما يتخيل المفكرون التقليديون للذكاء الاصطناعي، من أن البرامج التي تحقق ذكاء مشابها للبشر بدرجة عالية من التجريد هي برامج ممكنة على الكمبيوترات الموجودة.

وربما يكون الأمر، كما يتخيلون أيضا، وهو أن ابتكار هذه البرامج يتطلب زمن حيويا بأكملها من البحث بواسطة عباقرة عالميين. إلا أن هذا قد لا يكون شيئا بالغ السهولة. ذلك أن أكفأ البرامج في تقديم نكاه بشري قد تفوق قوة وذاكرة الكمبيوترات الشخصية الحالية بعدة أمثال، كما أن ابتكارها قد يكون صعبا صعبة فوق بشرية. ما من أحد يدري، البركة مظلمة أقصى الظلمة أسفل التموجات وهي لم تسبر بعد.

كل محاولة تناول من أجل مضاهاة الأداء البشري يكون فيها ما يثير الاهتمام عقليا ولها فوائد برامجية مباشرة. برامج الاستدلال، كما يحدث، تفوق أداء البشر في مهام لها أهميتها، وتوجد برامج كثيرة منها قد اكتسبت حق البقاء. صياغة النماذج العصبية لها أهمية بيولوجية كبيرة وقد تكون لها فوائد طبية. برامج الإدراك ذات الكفاءة تثير اهتمام البيولوجيين وتفيد في أتمتة العمليات الصناعية وإدخال البيانات. ولكن ما الطريقة التي ستجح أولا؟ الإجابة ولاريب، في توليفة من كل هذه التكنيكات وغيرها، ولكني أعتقد أن طريق الإدراك، الذي يضطهد حاليا، سوف يلعب أكبر الأدوار.

برامج الاستدلال ممتازة بالنسبة للمهام التي تقبل التفسير بالوعي ولكنها تصبح صعبة الانقياد عند تطبيقها على العمليات الأعمق. وسبب هذا يرجع ببساطة في جزء منه إلى أن المهام العميقة في ظلمة ما تحت الوعي تراوغ الملاحظة، كما أن العمليات العميقة أيضا تكون مختلفة كميا. هناك نفث قليلة من بيانات المشكلة تتموج عبر سطح الوعي، إلا أن هناك بلايين من الإشارات الضاجة العصبية تزبد في أسفل. ستصبح برامج الاستدلال أكثر قوة وفائدة في العقود القادمة، ولكني أعتقد أن الحس المشترك اللفظي الشامل سيستمر في مراوغتها، ناهيك عن فهم الأحاسيس.

ربما ستصبح أجهزة عصبية حيوانية بأكملها - بما في ذلك الإشارات الهرمونية والمرونة في الروابط البينية - أجهزة قابلة للمحاكاة في العقود القادمة، مع ما سيحدث من تحسن سريع في أجهزة التصوير ومصادر الحوسبة. وستؤدي

هذه المحاكيات إلى أن تسرع كثيرا من فهمنا لعلوم الأعصاب البيولوجية، ولكنى أعتقد أن ذلك لن يكون بالسرعة الكافية لكسب السباق. كان فالنتينو برايتتبرج المدير السابق لمعهد ماكس بلانك للسيبرنطيقا^(١١) البيولوجية، وقد قام بتحليل الأجهزة العصبية الصغيرة، وصمم أجهزة اصطناعية منها، وقد لاحظ وجود قاعدة "التركيب بسهولة والتحليل بصعوبة": إنشاء دائرة تتجزأ أوجه سلوك معينة يكون عادة أسهل من أن نصف الطريقة التي تتمكن بها دائرة موجودة من قبل من أن تتجزأ ذلك. سيؤدي هزال الفهم وما يترتب من تعديل التصميمات، وتكلفة المحاكاة على المستوى الدقيق جدا في الصغر، وما يظهر من العقبات الأخلاقية عند اقتراب المحاكيات من مستوى الإنسان، ستؤدي كل هذه الأمور إلى الإبطاء من تطبيقات المحاكيات العصبية. وفي حدود ما نعرفه، لم يحدث قط أن ذكاء بالمقياس البشرى قد نشأ عن استدلال بالوعي أو عن محاكيات للعمليات العصبية، ونحن لا نعرف حقا مدى ما يمكن أن تكون عليه صعوبة أى منها. إلا أن طريقة التناول الثالثة ستكون هي الأساس المألوف.

ظهرت الحيوانات المتعددة الخلايا بخلاياها المتخصصة في بث الإشارات في الانفجار الكمبرى^(١٢) الذي حدث منذ نصف بليون سنة. حدث في مباراة التطور لاكتساب ميزة تتفوق على ما عند الآخرين، أن تضاعفت الكتل القصوى للجهاز العصبى بمعدل يقارب مرة كل ١٥ مليون سنة، لتتطور من كسور من الميكروجرام، تصل الآن إلى العديد من الكيلوجرامات، وإن يكن ذلك مصحوبا بنكسات حادة عديدة (كثيرا ما كان يتبعها تسارع في إعادة النمو) عندما أدت أحداث كارثية إلى محو الحيوانات الأكبر. تتزايد أدواتنا أيضا في تركيبها تزايدا أسيا، إلا أن هذا بسرعة أكبر من ذلك بعشرة ملايين مثل. تؤدي بصيرة الإنسان النافذة وثقافة الإنسان إلى تحريك الأمور قدما بأسرع من التطور الداروينى الأعمى.

(١١) السيبرنطيقا الدراسة النظرية لعمليات الاتصال والتحكم فى الأنظمة البيولوجية والميكانيكية والإلكترونية وخاصة مع مقارنة هذه العمليات فى النظم البيولوجية والصناعية. (المترجم)

(١٢) الانفجار الكمبرى: تفجر الحياة بالكائنات المتعددة الخلايا فى الدور الأول من حقبة الحياة القديمة الباليوزية وهو زمن يعرف حيولوجيا بالعصر الكمبرى. (المترجم)

تتضاعف قوة الكمبيوترات الشخصية سنويا منذ منتصف تسعينيات القرن العشرين؛ للكمبيوترات الشخصية الحالية يمكن مقارنتها فحسب بالأجهزة العصبية للحشرات أو أصغر الفقرات مما يقاس بالمليجرام (مثلا كما في سمكة القوبيون^(١٣)) القزمة التي تقاس بسنتيمتر واحد)، أما الكمبيوتر الذي له قوة شبه بشرية فمازال بعيدا بثلاثين سنة لا غير. إذا حدث تنامي نشط نشاطا كافيا بعناصر منتقاة حسن اختيارها فإن هذا ينبغي أن يمكننا من نصوغ على نحو متزايد تلك القدرة المتنامية في مراحل تناظر تلك التي حدثت في التطور العقلي للفقرات. أعتقد أن نوعا معينا من صناعة الروبوت سينجز ذلك طبيعيا. لن تكون هناك حاجة فيما ينبغي لطفرات عقلية كبيرة. عندما يفشل التبصر، سيكون في منهج التجربة والخطأ الدارويني الكفاية. كل سلف بطول السلالة من أول الفقرات دقيقة الصغر حتى نحن أنفسنا قد أصبح هكذا عن طريق كونه قد نجا في زمنه، وبالمثل فإن الحيوية التجارية المستمرة سوف تختار العقول الروبوتية الوسطية.

يشبه إنشاء الآلات الذكية بهذا الطريق أن يحدث ببطء فيض للبريكات حتى تصنع بركا. تبدو البرامج الحالية لتحكم وإدراك الروبوتات وكأنها بريكات موحلة، لأنها تتنافس في مناطق من أعماق مناطق خبرة الإنسان والحيوان. أما برامج الاستدلال فهي وإن كانت تساوي ذلك ضحالة، إلا أنها بالمقارنة تتألق بأدائها بكفاءة لمهام يقوم بها البشر على نحو أخرق لا براعة فيه ولا تؤديها الحيوانات مطلقا. ولكننا لو واصلنا صب الماء فلا ريب في أن البريكات ستصير أعمق. قد لا يصدق هذا على برامج الاستدلال: هل يمكن ملأ البرك من السطح لأسفل؟

تطورت الكثير من قدراتنا الحسية، والمكانية، والعقلية لتتعامل مع أسلوب حياة متنقل؛ الحيوان وهو يتنقل يواجه تيارا لايلين مما هو جديد من الفرص والمخاطر. نشأت مهارات أخرى لتجابه تحديات التعاون والتنافس في المجموعات الاجتماعية. وصفت في مكان آخر الخطوط التمهيدية لخطة لإنشاء روبوت تجارى

(١٣) القوبيون سمك بحري صغير شائك الزعانف. (المترجم)

يزود بتحديات مماثلة. سوف يتطلب ذلك صناعة نشطة كبيرة للبحث عن الحلول المناظرة. الصناعة الآن ضئيلة الحجم. الروبوتات المتقدمة لها عقليات مثل الحشرات، وهى لا تتفوق إلا نادرا على العمل البشرى، وذلك فى الأشغال التى يكون فيها على نحو استثنائى تكرار أو مخاطرة. إلا أنى أتوقع ظهور سوق كبير فى هذا العقد. ستكون أول منتجات واسعة الاستعمال هى نظم إرشادية للنقل الصناعى، وماكينات تنظيف تصنع خرائط ثلاثية الأبعاد وتقوم بالملاحة بكفاءة فى أماكن غير مألوفة ويمكن أن تتعلم بسرعة الطرق الجديدة بواسطة عمال عاديين. عملت فى إنشاء برامج تفعل ذلك. وهى تحتاج لما يقرب من بليون عملية حساب فى الثانية، بما يماثل قدرة مخ سمكة من نوع جابى^(١٤). سيتبع الماكينات الصناعية إنشاء روبوتات نافعة منزليا وتسوق بكميات كبيرة. ربما سيكون أولها روبوت مكنسة شفط صغير تلقائى يصنع خريطة لمقر عمله، ويخطط ما يخصه من طرق ومواعيد عمل، ويبقى نفسه مشحونا، ويفرغ كيس التراب عندما يلزم ذلك فى أحد الأوعية. قد يتبع ذلك إنتاج ماكينات أكبر لها أذرع تتعامل بها ولها القدرة على أداء مهام عديدة مختلفة، لتصل فى النهاية إلى الذروة فى روبوتات "شاملة" بالمقياس الإنسانى تستطيع أن تدير برامج تطبيقية لأبسط الأعمال الروتينية، برامج فيها عمليات حسابية بمعدل عشرة بلايين فى الثانية، عقول بمستوى السحالى، تنفذ المهام بأسلوب الزواحف الذى لا مرونة فيه.

هذا المسار إلى ذكاء الآلة - المسار المتضايغ، المتفاعل، الانتهاءى، والذى يدفعه السوق - لا يتطلب خريطة تكون بمدى طويل، ولكنه لديه خريطة موجودة فى تطورنا نحن. أتوقع خلال العقود التى ستلى أول الروبوتات الشاملة، أن ينشأ جيل ثان يكون له ما يماثل الثدييات من قوة المخ وقدرة الإدراك. سيكون عند هذه الروبوتات ميكائزم للتعليم الشرطى ولأن تتخذ وجهتها بين المسالك البديلة فى برامجها التطبيقية على أساس الخبرة السابقة، بحيث تتكيف تدريجيا مع ظروفها الخاصة. سيظهر جيل ثالث يفكر أفراداه مثل الرئيسيات الصغيرة ويحافظون على

(١٤) جابى: سمكة صغيرة ملونه تعيش فى المياه العذبة. (المترجم)

نماذج فيزيقية، وثقافية، ونفسية لعالمهم، وذلك لإجراء بروفات عقلية للمهام لجعلها أكثر فعالية، وذلك قبل أدائها فيزيقيا. أما الجيل الرابع شبيه الإنسان فسيقوم بالتجريد والاستنباط من نموذج العالم. أتوقع أن يتم اتخاذ النظم الاستدلالية حسب طريقة التناول التقليدية للذكاء الاصطناعي التي عيب أمرها فيما سبق من هذا المقال. ستكون البريكات قد وصلت إلى مستوى التموجات.

ينبغي أن تصبح الصناعة الروبوتية أكبر صناعة على كوكبنا في وقت مبكر من هذا التطور، بما يؤدي إلى خسوف صناعة المعلومات. لقد وصلت صناعة المعلومات إلى وضعها الرفيع بأن أتمنت مهامها هامشية اعتدنا أن نسميها بالأعمال الورقية. أما صناعة الروبوتات فسوف تقوم بأتمنة كل شيء آخر!

الحوسبة الكمومية

دافيد دويتش^(١٥)

بالنسبة لى فإن التطبيق الرئيسى للنظرية (نظرية الحوسبة الكمومية) هو أن تغير حسنا بطبيعة الواقع. بصرف النظر عن التطبيقات العملية للنظرية فى المستقبل البعيد، فإن الأمر المهم حقا هو الدلالات الفلسفية - الإستمولوجية والميتافيزيقية - والدلالات بالنسبة للفيزياء النظرية نفسها. إحدى أهم الدلالات هى تلك التى حصلنا عليها حتى قبل أن نبني أول كيوبتة (بتة كمومية). إن بنية النظرية نفسها تفرض علينا النظر إلى الواقع الفيزيقي على أنه كون متعدد.

(١٥) كتب دافيد دويتش أوراق بحث علمية عن الحوسبة الكمومية أرست الأساس لهذا المجال، فمهدت أرضا جديدة فى كل من الفيزياء ونظرية الحوسبة معا وكشحت الزناد لتفجر الجهود لأبحاث على نطاق العالم كله. كشفت أبحاث دويتش عن أهمية تأثيرات الكم فى فيزياء السفر فى الزمان، وهو أبرز باحث معاصر فى نظرية الكم للأكوان المتوازية. وقد نال فى ١٩٩٨ 'جائزة بول ديراك' التى منحها له معهد الفيزياء البريطانى 'لبحته الرائد فى الحوسبة الكمومية بما قاد إلى مفهوم الكمبيوتر الكمومي وإلى الإسهام فى فهم الطريقة التى يمكن أن تنشأ بها هذه الأجهزة من بوابات الكم المنطقية فى شبكات الكم". وهو عضو مؤسس فى 'مركز الحوسبة الكمومية فى معمل كلاريندون"، بجامعة أوكسفورد، ومؤلف كتاب 'قامشة الحقيقة'.

تتجه أسئلتى إلى تلك الروابط الأعمق بين الفيزياء ونظرية الحوسبة. علينا أن نعتبر أن نظرية تورنج - وهى النظرية التقليدية للحوسبة - مجرد تقريب كلاسيكى للنظرية الحقيقية الكمومية للحوسبة. لدينا من قبل معرفة بالقليل من قضايا الفيزياء النظرية يمكن على نحو مفيد أن نعتبرها أسئلة حوسبية، أسئلة حول الطريقة التى يمكن بها، أو لا يمكن، معالجة المعلومات. أحد الأمور التى أهدف إليها هو الوصول إلى "توع" جديد من النظرية - نظرية إنشاء كمومية، هى نظرية لما يمكن إنشاؤه، أو على نحو أكثر عمومية، نظرية لما يمكن فعله فيزيائيا.

ما أنواع الحوسبة التى تتأخرها العمليات الفيزيائية؟ أى من تلك الحوسبات يمكن تحقيقه بأى من تلك الموارد، وما أنواعها التى يمكن تحقيقها بأى حال؟ يتشكل القليل الذى نعرفه حول هذا الموضوع الجديد من بضعة قيود عريضة، مثل تنهاى سرعة الضوء. تعطينا نظرية القابلية للحوسبة ونظرية التركيب تفاصيل أكثر من ناحية الكم. على أن هناك سؤالا تكنولوجيا كبيرا فى مجالى هذا لا جواب له فى لحظتنا هذه وهو، هل يمكن فعلا إنشاء كمبيوترات كمومية "مفيدة"؟ تسمح لنا قوانين الفيزياء الأساسية بذلك، فى حدود ما نعرفه. نستطيع نظريا أن نصمم هذه الكمبيوترات؛ ونحن نعرف العمليات الفيزيائية التى سيكون عليها أدائها. إلا أنه لا يزال هناك مجال للشك فيما إذا كنا نستطيع إنشاءها من ذرات واقعية وأن نجعلها تعمل بطريقة مفيدة. والجدل حول هذا ليس حتى جدلا علميا فى هذه اللحظة، لأنه لا توجد نظرية علمية عما يمكن ولا يمكن إنشاؤه.

تثار أسئلة مماثلة بواسطة كل مدى النانوتكنولوجيا التى تم من حيث المبدأ طرحها. وبالتالي فإنه ها هنا يكون موضع احتياجنا لنظرية إنشاء كمومية. نحن نحتاجها لأن نظرية الكم هى نظريتنا الأساسية للعالم الفيزيقي. كل إنشاء كمومى. الحوسبة الكمومية هى معالجة للمعلومات تعتمد فى مفعولها على بعض خاصية كمومية متأصلة، وتعتمد بوجه خاص على التركيب. نستطيع على نحو نمطى تركيب عددا هائلا من الحوسبات المختلفة - بما يحتمل أن يكون أكثر من الذرات الموجودة فى الكون - وأن نأتى بها معا بالتدخل الكمومى لنحصل على

نتيجة. وفيما عدا الكتابة الشفرية الكمومية، فإنه من غير المرجح أن يكون لهذا البحث تطبيقات عملية كثيرة على مدى المستقبل القريب أو المتوسط؛ ومع ذلك فإننا ننال منه بالفعل بعض فوائد مباشرة. إليكم مثل حديث لذلك من بحث يخصنى.

فيما يبدو، فإن ميكانيكا الكم بالصياغة التقليدية ليس لها طابع محلى، بمعنى أن الأمور التى نفعلها "هنا" يبدو فى التو أنها تؤثر فى الأمور التى تحدث "هناك". ظل معروفا منذ البداية أن هذه اللامحلية كما تسمى لا يمكن استخدامها لإرسال إشارات - أى معلومات. ومع ذلك ما الذى نستطيع أن نفهمه من ذلك من الوجهة الفلسفية؟ ما نوع الواقع الذى تخبرنا ميكانيكا الكم بأننا نعيش فيه؟ ولاريب أنه من الصعب ألا نتساءل قائلين، "حسن، إذا كان هناك (شئ ما) يصل إلى هناك تَوا، فإن هذا الشئ ينتقل بأسرع من الضوء. وبالتالي، فإنه فى إطار مرجعى آخر ينتقل لداخل الماضى. وبالتالي فإنه يستطيع أن يخلق مفارقات؛ ألا يمكن أن يؤدى ذلك إلى حل مشكلة الوعى، وتفسير التخاطر عن بعد (التليثاى)، ويستدعى الأشباح؟ أو أيا مما تشاء. سنجد أن هذه "اللامحلية" هى إحدى الأفكار التى أعطت وقودا للغموض المروع والحديث المخادع اللذين ظلا يتناميان من حول ميكانيكا الكم عبر العقود.

إلا أننا ما إن نفهم أن الفكرة كلها تدور حول معالجة المعلومات، حتى يصبح من الأسهل جدا التوقف عن الهتاف والتلويح وأن نبدأ فى حساب المكان الذى تذهب إليه المعلومات بالفعل فى ظواهر الكم. وهذا هو ما فعلته أنا وزميلي باتريك هابدن فى ورقة بحث: ("تدفق المعلومات فى النظم الكمومية ذات التشابك المتداخل،" مجلة "بروسيدنجز أوف ذا رويال سوسيتى"، لندن، (مجلة وقائع الجمعية الملكية بلندن، رقم العدد ٨٤٥٦، ص ١٧٥٩ - ١٧٧٤، ٢٠٠٠). أدت نتائج هذا البحث إلى هدم إساءة تصور مفهوم لامحلية الكم. أداء الأمور "هنا" يمكن أن يؤثر فى الأمور "هناك" - على نحو مرئى أو غير مرئى - وذلك فقط عندما يحدث أن تنتقل إلى "هناك" المعلومات عما أديناه "هنا" وذلك من داخل بعض شئ فيزيقى يحمل المعلومات. لا يوجد أى مما يحدث تَوا، ولا أى من اللامحلية، ولا أى من الإلغاز.

التجارب التى يفترض أنها تبرهن عمليا على لامحلية الكم فى المعمل هى فى الواقع تجارب لا تفعل ذلك. فهى تبرهن عمليا على "تشابك متداخل" للكم، وهذه إحدى ظواهر الكم الأساسية، ولكنها ظاهرة محلية. يثبت فى النهاية أنه عندما يبدو الأمر وكأن هناك تأثير لامحلي، فإن ما يحدث فى الواقع أن بعض المعلومات فى الأشياء الكمومية يصبح من غير المتاح التوصل لها بالملاحظة المباشرة. ما يحدث بالفعل فى تحليلنا، أننا نتابع طريقة انتقال هذه المعلومة فى أثناء ظواهر التشابك المتداخل. ولا يحدث قط أن سرعتها تفوق سرعة الضوء، وهى دائما تتفاعل بطريقة محلية خالصة. وفيما يعرض، فإن وجود هذه المعلومة التى لا يتاح التوصل لها مباشرة يمكن أن نعتبر أنه المسئول أساسا عن قوة الكمبيوترات الكمومية. كما أن التبصرات التى اكتسبناها من هذا البحث تودى أيضا إلى اتجاهات أخرى واعدة جدا.

أبحث حاليا فى اتجاهين تفرعا من هذه الورقة البحثية: أحدهما بحث عن بنية "الكون المتعدد"، وذلك بتدقيق ما نعنيه بالضبط من تلك المصطلحات السابقة الهتافية مثل مصطلح "الأكوان الموازية". ثبت فى النهاية أن بنية الكون المتعدد تتحدد إلى درجة كبيرة بتدفق المعلومات الكمومية من داخله، وأنا أطبق التكنيكات التى استخدمناها فى تلك الورقة البحثية لأحلل هذا التدفق المعلوماتى. البحث الآخر تعميم للنظرية الكمومية للحوسبة حتى يتاح لها أن تصف أنواعا دخيلة من تدفق المعلومات مثل ما نتوقع وجوده فى الثقوب السوداء وعلى مستوى الكم - جاذبية.

يجرى هذا كله فى سياق من اقتناعى، الذى يتزايد دائما فى قوته، بأن نظرية كم الحوسبة "هى" نظرية كم. توفر لنا نظرية كم الحوسبة أوضح وأبسط لغة وصياغة رياضية لعرض نظرية الكم نفسها. أعتقد أنه سرعان ما سوف يحدث أن تأخذ الكتب الدراسية لميكانيكا الكم فى استخدام الحوسبات الكمومية كأمثلة تمهيدية لها، بدلا من حسابات مستويات الطاقة لذرة الهيدروجين وما أشبه، تلك الأمثلة التى تحوى نسبة كبيرة من أشياء لا علاقة لها بالأمر. الحوسبة الكمومية تصل مباشرة إلى الأساسيات لأن الحوسبة الكمومية "هى" الأساسيات.

بالنسبة لى، فإن التطبيق الرئيسى للنظرية هو أن تغير حسنا بطبيعة الواقع. بصرف النظر عن التطبيقات العملية للنظرية فى المستقبل البعيد، فإن الأمر المهم حقا هو الدلالات الفلسفية - الإبستمولوجية والميتافيزيقية - والدلالات بالنسبة للفيزياء النظرية نفسها. إحدى أهم الدلالات هى تلك التى حصلنا عليها حتى قبل أن نبني أول كيوبتة (بتة كمومية). إن بنية النظرية نفسها تفرض علينا النظر إلى الواقع الفيزيقي على أنه كون متعدد. سواء أسمينا هذا "الكون المتعدد" أو "الأكوان المتوازية" أو "التواريخ المتوازية"، أو "التواريخ الكثيرة"، أو "العقول الكثيرة" - يوجد الآن حوالى نصف الدسنة أو أكثر من تغيرات لهذه الفكرة - فإن ما تجبرنا نظرية الحوسبة الكمومية على أن نفعله هو أن نراجع نظرياتنا التفسيرية للعالم، لنذكر أن العالم أكبر كثيرا مما يبدو عليه.

عندما استخدم كلمة "أكبر" فإننى أهدف التوصل للتالى: دعنا نفترض أننا سنقيس أحجام الأشياء بلغة من كمية المعلومات اللازمة لوصفها. حتى أحدد أوضاع الذرات فى إحدى الحجرات، سأحتاج لثلاثة أرقام لكل ذرة. وكلما أردت أن أصف مزيدا من الذرات، سأحتاج للمزيد من الأرقام. وكلما زادت رغبتى فى أن أفعل ذلك بدقة أكبر، زادت حاجتى إلى استخدام المزيد من الخانات العشرية. أستطيع التفكير فى فعل ذلك بالنسبة للكون كله. سيبدو أن هذا فيه كم كبير من المعلومات، لأن هناك 10^{80} من الذرات فى الكون المعروف، ناهيك عن غير ذلك من درجات الحرية أو درجة القدرة على التغير. وبالتالى فإن كمية المعلومات قد تبدو ضخمة بما لا يمكن تصوره. إلا أنها مجرد قطرة عند مقارنتها بكمية المعلومات اللازمة لتحديد الحالة الحوسبية لكمبيوتر كمومى واحد قابع فوق نضد بعض معمل فى المستقبل. وبالتالى فإنه بمصطلح تصور هذا المفهوم يكون الكمبيوتر الكمومى شيئا أكبر كثيرا من كل الكون الكلاسيكى. وهذه الحقيقة تجبرنا على أن نغير تماما من نظرتنا للعالم.

الكمبيوتر الكمى سيكون شيئا أكثر تركبا بكثير من الكون الكلاسيكى كله. لاريب فى أن الواقع الفيزيقي كله هو أيضا يماثل ذلك، ونحن نسميه أحيانا بالكون

المتعدد. ونحن نرى هناك بالخارج ذلك الكون الكلاسيكى، لأن معظم الكون المتعدد لا يتيح لنا التوصل له مباشرة. يمكننا فحسب استنتاج وجود المعلومات الكمومية المخبوءة بطريقة غير مباشرة، كما فى تجارب الاشتباك المتداخل التى ذكرتها.

يفرض هذا الاستنتاج نفسه فرضا قويا للنسبة لأناس كثيرين حتى قبل كمبيوترات الكم. طرح التفسير بالأكوان الكثيرة فى ١٩٥٧. إلا أننا نستطيع أن نؤول كل الحجج المبكرة على أنها حجج حوسبية أيضا. لم يكن الناس الذين يحاجون بها يظنون أنها كذلك، إلا أن هذا هو ما كانته. كانوا يقولون، "عندما ننظر من حولنا نرى شيئا ما هو على وجه التقريب كون كلاسيكى، ونحن نتوقع أننا لو أخذنا ميكانيكا الكم فى الحساب فإنها قد تضيف قدرا معينا من "خامة" إضافية - تماما مثلما فعلت النسبية - خامة تسلك سلوكا مختلفا، إلا أنه مازال يوجد تقريبا نفس القدر من الواقع مثلما كنا نعتقد بوجوده". ولكن هذا "ليس" هو ما يحدث عندما نأخذ ميكانيكا الكم فى الحساب. عندما نأخذ ميكانيكا الكم فى الحساب، يحدث بدرجة هائلة أن يصبح الواقع أكبر أسيا وأكثر تركبا مما كإنه حسب الفيزياء الكلاسيكية.

إذا كان النظام هو كمبيوتر كمومى، نستطيع أن ندرك أن هناك "معلومات مخبوءة" فيه بسبب الإجابات التى يعطيها لنا. لنأخذ مثلا الخوارزم الكمومى للبحث عند جروفر. إنه يعمل هكذا: دعنا نفترض أنك تحاول اختراق إحدى الشفرات، أن تخمن مثلا المفتاح السرى. سوف تبحث خلال كل المفاتيح الممكنة. من المبرهنات المبتدلة للحوسبة الكلاسيكية أنك إذا كنت تريد البحث خلال تريليون من الأشياء المجهولة، سيكون عليك عموما أداء تريليون عملية فيزيقية من نوع ما. ربما يمكنك أداء بعض منها بالتوازي، إلا أن كمبيوترا بعينه لن يتمكن إلا من أن يودى بالتوازي عددا محددا فى كل مرة. سيكون عليك بطريقة أو بأخرى أن تؤدى تريليون شىء، وبالتالي لو أردت استخدام الكمبيوتر نفسه للبحث خلال تريليونين من الأشياء فإنه ينبغى أن يستغرق على الأقل زمنا من مثلين، وهلم جرا.

أما مع الكمبيوتر الكمومي فإنك تستطيع الأداء أفضل. أول كل شيء، أنك عند البحث خلال تريليون شيء، ستحتاج فحسب إلى مليون عملية. وعموما فإنك حتى تبحث خلال العدد (ن) من الاحتمالات، ستحتاج فحسب إلى أداء الجذر التربيعي لنون من العمليات الفيزيائية. وبعدها، إذا سمحت لأدائك لاختراق الشفرة بأن تفكر لمدة تصل إلى المثلين، فإنها ستفحص مقداراً من المفاتيح يصل "لأربعة" أمثال. وإذا فكرت لزمن من ثلاثة أمثال ستفحص ما يصل إلى تسعة أمثال، وهكذا دواليك. تفسير هذا بلغة من أكوان كثيرة، تفسير بسيط جداً. الأمر لا غير أن هناك جذر تربيعي للعدد "ن" من الأكوان يساهم في هذه المهمة. ولكن مرة أخرى دعنا لا نهتم بمسألة التفسير هكذا. إذا فكرنا فحسب في دلالة هذه الحوسبة بالنسبة للواقع الذي نجد أنفسنا فيه، ستكون الإجابة ثانية أن الواقع أكبر كثيراً مما يبدو عليه. العثور على المفتاح الصحيح كان يعتمد منطقياً على البحث خلال كل المفاتيح الأخرى. وبالتالي، فإن من الأمور المنطقية، أن هذه المفاتيح الأخرى الممكنة يجب أن تكون كلها موجودة في مكان ما وتم تفحصها بواسطة شيء ما لمعرفة ما إذا كانت مناسبة.

وفي النهاية يلزم أن يكون للمعلومات تحقق فيزيقي؛ وهذا هو السبب في أنها تتأتى فعلاً في النهاية كذرات أو نجوم أو أي مما يكون. ولكننا بسبب شمولية الحوسبة لا نكون بحاجة للتفكير بلغة من عمليات تنفيذ محددة. لسنا بحاجة لأن نعرف إذا كانت معلوماتنا سوف تختزن فوق قرص مغناطيسي أو أي مما يكون؛ نحن نعرف لا غير أن المزيد من المعلومات يعنى شيئاً أكبر.

إذا كان للكمبيوترات أن تواصل أن تصير أكثر قوة، يجب أن تصير عناصر المعالجة والذاكرة أصغر. ولهذا السبب وحده يجب أن يتم تسخير العمليات الكمومية. وليس من المهم حقاً أن نصنع أو لا نصنع كمبيوترات كمومية. بل وحتى إذا صنعنا كمبيوترات كلاسيكية بعناصر لها مقاييس ذرية، سيكون علينا استخدام فيزياء الكم وأن نستخدم في النهاية نظرية الكم للحوسبة. وما إن نصنع ذلك حتى يمكن فيما يحتمل أن تصنع التكنولوجيا نفسها أيضاً كمبيوترات كمومية. وسيكون الحافز موجوداً هناك، بسبب المزايا المختلفة المتأصلة في الحوسبة الكمومية.

التكنولوجيات المطروحة لبناء هذه الكمبيوترات حاليا فى حالة تنافس. لا ندرى إلى أى طريق سوف تتجه المنافسة. ربما تكون فى شرك أيونية أو فى نقاط كمومية أو أدوات أخرى من حالة الصلابة، أو ربما تكون أنشوطات فائقة التوصيل. وربما تكون جزيئات، أو تكون شيئا ما لا نعرفه بعد.

أكبر كمبيوتر كمومى موجود فى العالم حاليا لديه ما يقرب من ثلاث كيوبتات. وليس له فائدة عملية كبيرة، وهو يتطلب حجما كبيرا من الأجهزة حتى يعمل. إلا أننا مع هذه الكيوبتات الثلاث نستطيع بالفعل أن ننفذ خوارزمات كمومية لا يستطيع أن يحاكيها أى كمبيوتر كلاسيكى يستخدم ثلاث بتات عادية.

أجهزة الكتابة الشفرية الكمومية موجودة بالفعل فى المعامل. وسوف يؤدى هذا فى النهاية إلى توفير وسيلة اتصال آمنة تماما. لن تعود الكتابة الشفرية تعتمد على أنها عسيرة أو صعبة فى تخمين مفتاح مجهول. سيكون الأمر ببساطة أن من المستحيل فيزيقيا اكتشاف المفتاح إذا لم يكن لدينا الشيء الفيزيقي المتعلق بالأمر؛ وهذه هى الغاية القصوى فى الكتابة الشفرية. المشكلة هى أن التشفير الكمومى فى الوقت الحالى بالضبط له مدى محدود تماما. فهو ليس مما يمكن صنعه فى الهواء الطلق. وإنما يجب صنعه من خلال كابل من ألياف ضوئية، وأعتقد أن الرقم القياسى العالمى هو حوالى ١٠٠ كيلو متر. إلا أننا مع ذلك نستطيع عمل توصيلات لمدينة لندن، أو العاصمة المركزية واشنطن بواسطة وسائل اتصال آمنة أمانا مطلقا. لا أرى سببا لأن هذا لم يصنع بعد. على أنى أظن أن هذا لا علاقة له بأى مكائد حكومية شريرة؛ لعل الأمر فحسب أن أى فكرة تستغرق زمنا حتى تصبح حقا قابلة للحياة تجاريا. نحن نعرف بالفعل طريقة إنشاء وسائل اتصال آمنة أمانا مطلقا إذا شئنا ذلك، بمدى من كيلومترات معدودة. أما على الأمد الأبعد فإن هذا سيكون فيه مشكلة، على أن هناك على الأقل مجموعة واحدة فى لوس الاموس تبحث أمر نظام سوف يتيح لنا أن نترد رسائل مشفرة كموميا من قمر صناعى، وهذا سوف يحل المشكلة حلا جوهريا. يمكن أيضا حل المشكلة على المدى الطويل بواسطة محطات كمومية متكررة، ولسوء الحظ فإن هذه سوف تتطلب حوسبة

كمومية أكثر تعقدا بكثير مما تؤديه عمليات الشفرة الخام. على أنها سوف تصل لنا في النهاية، ربما بعد عقد أو اثنين.

سيصل إلينا شيء آخر - ربما بعد أكثر من عقد أو عقدين - وهو استخدام الكمبيوتر الكمي لاختراق شفرة ما يوجد الآن من شفرات، كما وصفت في التو. ماكينات اختراق الكتابة الشفرية ستجعل النظم الشفرية الموجودة حاليا شيئا قد عفا زمنه. تكرر شعوري بالدهشة من الطريقة التي يجيد بها التجريبيون التمكن من تنفيذ المفاهيم النظرية في الحوسبة الكمومية. وبصرف النظر عن التشفير الحوسبي، سيصينى الذهول لو نتج عن الحوسبة الكمومية أى شيء مفيد تكنولوجيا خلال عشر سنوات، بل عشرين سنة، بل حتى مدة أطول. ولكنى قد سبق لى أن أصابنى الذهول.

ماذا سيأتى بعد العقول

مارفن مينسكى^(١٦)

هناك الآن عشرات الآلاف من الباحثين فى المجال المسمى بالذكاء الاصطناعى، وكلهم يعملون جاهدين ليضيفوا على الماكينات... قدرات شبه بشرية. أنشأ هؤلاء الباحثون برامج يفوق أداؤها أداء البشر فى كثير من المجالات المتخصصة، فبعضها يحل مسائل رياضية عويصة أو يعمل بمهارة فى إرشاد السفن والطائرات. وبعضها الآخر يستطيع التعرف على الأصوات والوجوه أو الأشياء التى على خطوط التجميع. إلا أن أحدا منها لا يستطيع بعد أن يلبس نفسه، أو أن يفهم أشياء من النوع الذى يستطيع الأطفال الصغار فهمه. ما السبب فى أنه لا يوجد حتى الآن أى كمبيوتر لديه ما نسميه كل يوم، بأنه معرفة الحس المشترك أو كمبيوتر يودى أنواع الاستدلال التى نعتبرها واضحة؟

(١٦) مارفن مينسكى أستاذ "توشيا" لفنون وعلوم وسائل الإعلام وأستاذ الهندسة الكهربائية وعلم الكمبيوتر فى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. وقد أدت أبحاثه إلى أوجه تقدم نظرية وكذلك تطبيقية فى الرياضيات، وعلم الكمبيوتر، والفيزياء، وعلم النفس، والذكاء الاصطناعى، مع إسهامات ملحوظة فى مجالات الدلالات الحوسبية وتمثل المعرفة، وإدراك وتعلم الماكينة، ونظريات حل الإنسان للمشاكل. ومينسكى هو أيضا مخترع الميكروسكوب المشهور لإجراء مسح البؤر المتحدة، مما أحدث ثورة فى قدرتنا على رؤية البنى الميكروسكوبية الكثيفة. وهو مؤلف كتاب "مجتمع العقل".

لماذا ظل من الصعب اكتشاف الطريقة التي تعمل بها العقول؟ كلما زاد ما نعرفه عن طريقة عمل العقول البشرية، سنتمكن بشكل أفضل من توجيه تنامي خفاءنا بالوراثة أو نماء تلك الكائنات التي سنشرف على صنعها. ولكن لماذا ينبغي أن نغير من أنفسنا بدلا من أن نبقي كما نحن عليه للأبد؟ السبب هو أن ليس لدينا بديلا لذلك. لو بقينا على وضعنا الحالي بلا تغيير، سيكون من المرجح أننا لن نبقي موجودين لزمن جد طويل - لا بمقياس الزمن الكوني ولا بمقياس الزمن البشري. نحن معرضون خلال مايلي من مئات أو آلاف السنين لأن ندمر أنفسنا، ومع ذلك فإنه من المحتمل إلى حد كبير أننا وحدنا المسئولون ليس فحسب عن بقاء نوعنا وإنما أيضا عن استمرار الذكاء فوق هذا الكوكب وعن استمراره في هذا الكون. حتى يصبح في قدرتنا تنمية إمكانات مستقبلنا، سيكون علينا حماية بيئتنا من أمرين معا هما الاحترار والتلج المناخي. كما يجب علينا أيضا تجنب الفناء بواسطة أنواع أخرى من الحوادث، مثل الاصطدام بالمذنبات أو الكويكبات التي سبق لأكثر من مرة أن دمرت معظم الأنواع في الماضي. نحن متنبهون أيضا إلى أن شمسنا سوف تبتلعنا فيما لا يزيد عن بضعة بلايين أخرى من السنين، بل وفيما يحتمل في زمن أسرع إلى حد ما من ذلك. رأينا اقتراحات كثيرة حول التعامل مع هذه الأمور، إلا أن أيا منها لا يبدو أنه عملي. قد يكون السياق الأكثر عملية هو ببساطة أن نفكر بقدر أقل في هذه القضايا نفسها وأن نركز بدلا من ذلك على إيجاد طرائق لأن نجعل أنفسنا أكثر ذكاء!

لا يزال علم النفس في طفولته. سنجد أفكارا كثيرة في "الخطابة" لأرسطو، كتبت منذ ثلاثة وعشرين قرنا، عن طريقة عمل التفكير، والكثير من هذه النصوص مازالت تبدو وكأنها عصرية، وهذا أمر لا يصدق على معظم العلوم الأخرى. يطرح هذا أننا ينبغي أن نتفحص مليا السبب في أن أفكارا أكثر تقدما بكثير بشأن العقول لم تبدأ في الظهور إلا بعد وقت متأخر من القرن التاسع عشر، وذلك مثلا عندما ظهرت أبحاث مفكرين مثل ويلهلم فوننت، وفرانسيس جالتون، وويليام جيمس، وسيجموند فرويد. بل حتى وقتذاك كان التقدم بطيئا. ما الذي منع علم النفس من التقدم بسرعة أكبر؟ إليكم بعض الأسباب الممكنة:

- "نموذج (الذات الواحدة)": كانت إحدى العقبات الرئيسية للتقدم هي نموذج عقل "الذات الواحدة"، أى فكرة الحس المشترك بأن كل واحد منا لديه هوية واحدة مركزية لها ما هو محدد من مقاصد وأهداف. والمشكلة أن هذه الفكرة فى حد ذاتها تنحو لأن تمنع الواحد منا من التفكير حول ما تكونه العقول وطريقة عملها. كان فرويد واحدا من أول من تحدوا هذا النموذج، بأن طرح نظرية معمارية، يتألف فيها العقل من عدد من المنظومات، بحيث يندج "التفكير" عن الطرائق التى تتصارع بها هذه المنظومات.
- "عدم وجود طرائق جيدة لتوصيف المعلومات": من الواضح أن العمليات العقلية تتعامل مع رموز، نجد أن "معانيها" تشير، على الأقل لبعض الوقت، إلى تأملات ذاتية حول هذه العمليات نفسها. لم يكن لدينا فى الأزمنة القديمة طرائق للعمل بنظم مثل هذه أو لتمثيلها، ولم يكن لأى من هذه التكنيكات أن تظهر قبل بزوغ فجر علم الكمبيوتر.
- "النظم المركبة والحسد للفيزياء": أحس معظم علماء النفس القدامى بإعجاب بالغ بتقدم الفيزياء حتى إنهم ظلوا يحاولون محاكاة ماكسويل أو نيوتن^(١٧) بالبحث عن مجموعات صغيرة جدا من القوانين لتفسير السلوك البشرى. كثيرا ما كان هذا القيد يجعل فى شكل مادي تحت اسم "تصل أو كام"^(١٨): علينا ألا نفترض قط وجود أى كيانات يبدو منطقيا ألا ضرورة لها. على أننا قد تعلمنا حتى من أيام علم الأعصاب الباكورة، أن أمخاخنا لديها مئات من الميكانيزمات المختلفة. وهذا يطرح لنا أن نبحث عن نظريات فيها أجزاء أكثر وليست أقل.
- "تفكير الحس المشترك": أدى علم النفس الحديث إلى تقدم عظيم تجاه فهمنا للإدراك البشرى والتفاعلات البسيطة. على أننا مازلنا لا نحاول بعد محاولة فيها

(١٧) ماكسويل (جيمس كلارك) ١٨٣١ - ١٨٧٩، فيزيائى إسكتلندى له دور كبير فى الفيزياء الكهرومغناطيسية. ونيوتن (إسحق) ١٦٦٣ - ١٧٢٧ فيزيائى إنجليزى وضع قوانين للحركة والجاذبية تستخدم حتى الآن. وكلاهما علامة طريق فى الفيزياء الحديثة. (المترجم)

(١٨) نصل أو كام مبدأ بالآ يكون للكيانات أجزاء كثيرة تتجاوز الضرورة وبالتالي فإن النظرية العلمية الأفضل هي الأقل فروضا أو أجزاء. (المترجم)

الجهد الكافى للكشف عن أسرار الطريقة التى نتمثل بها معرفة الحس المشترك،
أو طريقة استخدامنا لما لدينا من معرفة فى حل المشاكل الصعبة.

الذات الواحدة إزاء النموذج الفرويدى

دعنا نتخيل أن طفلا يريد دمية يلعب بها طفل أصغر منه سنا. أوضح حل
لذلك هو أن يأخذ الدمية بالقوة، إلا أن قيمنا الثقافية تمنع ذلك وعلى طفلنا أن يتعامل
مع هذا المنع. على أن من الصعب تمثل صراع فى نموذج "الذات الواحدة"، لأن
من الصعب تصور أن عقلا واحدا يمكنه أن يفكر فى أفكار عديدة متصارعة.

عالج فرويد هذه المشكلة بأن نظر إلى العقل على أنه يحوز أجزاء عديدة
تكاد تكون منفصلة، وكل منها له آلياته الخاصة. ثمة صورة مبسطة لفكرته هذه -
أفكر أنا فيها على أنها "شظيرة فرويدية" - حيث يبدأ المرء فيها (مثل الحيوانات
الأخرى) بالشهوات، والبواعث، والحوافز الملحة، والدوافع، التى تتجسد فى
منظومة فطرية سماها فرويد "الهو" (Id). ولكننا أيضا ننمو داخل عالم اجتماعى
نكتسب منه أهدافا إضافية، من أنواع نسميها أحيانا بالمثل العليا. تصور فرويد أن
هذه الأهداف تتجسد فى منظومة ثانية هى "الأنا العليا" (Superego). ثم مضى
فرويد إلى توصيف باقى العقل على أنه تشكيلة من مخططات باللغة التباين:
مجموعة سماها "الأنا" (Ego). ورأى هذه المنظومة (التي تتضمن ما نسميه
الاستدلال بالحس المشترك) كأنها داخل شظيرة من المنظومتين الأخريين؛ ومهمة
"الأنا" هى أن تجد طرائق مقبولة لوضع حل للصراعات التى كثيرا ما تنشأ بين
أهدافنا الغريزية وأرقى مثلنا.

نستطيع أيضا أن نفرس فكرة فرويد بأنها تطرح أن الكثير مما يفعله العقل
مرتبط بما نسميه الآن "تصحيح الأعطال". سلوكنا لا يتأسس على قوانين بسيطة
مثل تلك التى توجد فى نظرية رياضية منمقة، ولهذا السبب فإن عقولنا تعمل مثل
حزم كبيرة من البرمجيات، كل جزء منها يعانى من أوجه عطل مختلفة. (ليس هذا

هو حال المخ وحده، فهذا عموماً ثمرة من ثمرات التطور. فبدلاً من أن تكون كل منظومة فرعية محكمة الكمال، نجد أن المنظومات القديمة تتلصق معاً فى رقع بإضافة منظومات أخرى، تساعد كل منها فى تثبيت بعض عطل قديم، وبالتالي فإنها تخلق أعطالاً إضافية) تصور فرويد على وجه الخصوص أن بعض أجزاء العقل تماثل أجهزة متابعة تراقب الأجزاء الأخرى وتتعلم عندما يصيب العطب هذه الأجزاء كيف تكبحها وتشغل أجزاء أخرى.

ليس من اللازم علينا أن نوافق على نظريات فرويد على وجه الخصوص؛ بل إنه فى الحقيقة داوم على تغييرها عبر السنين. وإنما ينبغى أن ندرك مغزى طريقة تناوله: فهى تطرح بدائل للرأى بأن العقل يحتاج إلى "شخص" مركزى أو "روح" مركزية. نستطيع بدلاً من ذلك أن ندرك العقل على أنه مجموعة من البنَى تستطيع أن تتعاون وكذلك أن تتعارض إحداها مع الأخرى من أجل العثور على طرائق للتعامل مع الأهداف المتصارعة. والحقيقة أن نظرية فرويد لها أكثر من ثلاثة أجزاء؛ فقد تصور أيضاً وجود مختلف الأنواع من نقاد العقل ورقبائه، وكابحيه، كما تصور أيضاً طرائق عديدة لصنع التمثيلات. ومع ذلك، لم تكن هناك بعد فى تلك الأزمنة القديمة أى طريقة لصنع توصيفات جيدة لأمر من هذا النوع؛ حتى يحدث ذلك كان لابد من انتظار أفكار أحدث كثيراً حول تمثل المعرفة وكذلك انتظار طرائق أفضل لتمثل العمليات.

ومن ثم، فإنه بدلاً من البحث عن قواعد متناسقة تنطبق على كل وظائفنا العقلية، نجد أن هذا الرأى بوجود "تعدد للعامل الفعال" يتيح حيزاً أكبر لأنواع أخرى كثيرة من الموارد الوافرة، ذلك أن كل واحدة من تلك المنظومات المنفصلة جزئياً تستطيع أن تعمل حسب قوانين مختلفة. لاريب أن التبصر وحده لن يفيد هنا، ذلك أننا فى حاجة لأن نعرف الطريقة التى تنتظم بها هذه المنظومات. كان ينبغى أن تؤدى أفكار فرويد إلى أن يتابع المزيد من علماء النفس المشكلة ذات المستوى الأعلى، مشكلة توصيف معمار العقول. فعل أتباع فرويد بعضاً من هذا، إلا أنه لم ينتج عما فعلوه الشيء الكثير، ذلك لأن تلك الأفكار لم تؤثر كثيراً فى التيارات

الرئيسية لعلم النفس. أظن أن هذا ربما يكون بسبب ما وصفته بأنه الحسد للفيزياء؛ استطاع قلة من العلماء فحسب أن يتصوروا طرائق لتجسير الفجوة بين النظريات البسيطة المؤسسة على قواعد شائعة وبين تلك المخططات المعمارية التى وإن كانت سامقة إلا أنها تتسم بالغموض. وجهت مؤخرا سؤالاً لفصل كبير من طلبة تلقى معظمهم مقررات فى "علم الإدراك"، وهو سؤال عما يعرفونه من أفكار فرويد، ولم يذكر سوى قلة منهم أى شىء عنها. والواقع أن أفكار فرويد قد أقصيت فى المنفى، ربما لأنها فى السنوات الباكورة قد نظر إليها باعتبارها خطأ من الوجهة السياسية. وبالإضافة لم يكن هناك وسيلة عملية للتنبؤ بالطريقة التى سيكون عليها سلوك منظومة كبيرة هكذا؛ كان على ذلك أن ينتظر حتى تصل الكمبيوترات الكبيرة.

فيما يتعلق ببرامج الكمبيوتر الحديثة، يحدث أحياناً أن تدخل أجزاؤها المختلفة فى صراع، على أن مبرمجينا ينزعون إلى اعتبار أن هذا الأمر ليس بالطريقة المقبولة لمواصلة العمل. وبدلاً من ذلك فإنهم يحاولون العثور على طرائق تجعل كل برنامج يعمل بصورة كاملة الإحكام. لست أقول إن هذه فكرة سيئة، وإنما أقول لا غير إنها لن تتجح قط نجاحاً كاملاً، وبالتالي فإن علينا إنشاء البدائل. لا بد من أن أحد أسباب أن أمآخنا النثبية لديها "مراكز" متخصصة مختلفة كثيرة هكذا هو أنه فى أثناء تطور أسلافنا، كان على أمآخهم أن تتسمى ميكائزمات جديدة للتكيف مع مواقع إيكولوجية جديدة، فى حين أن معظم الحيوانات الأخرى فشلت فى أن تطور "طرائق تفكير" مختلفة متعددة، وهذا هو السبب فى أن أحد الأنواع يستطيع نمطياً أن يبقى موجوداً فحسب فى نوع واحد من البيئة، هو موقعه الإيكولوجى. ونجد فى تباين مع ذلك أن أمآخنا أصبحت شيئاً كالخلط العظيم للأمور، ومازال على علم النفس أن يدرك هذا عن طريق نظريات تدور حول الطريقة التى يستطيع بها التفكير أن يعمل على الرغم من ذلك أو بأن يجد طرائق لاستغلال ذلك.

لاتزال معظم برامج الكمبيوتر الحالية مشابهة لتلك الحيوانات المتخصصة نمطياً؛ لو أننا طبعنا أحد الأوامر وفيه حتى أهون خطأ، فإن هذا البرنامج سيموت

سريعا، فى حين أننا لو قلنا لأحد الأفراد أمورا متضاربة، فسوف نتلقى فيما يحتمل إجابات مثل "هذا عجيب"، أو "أنا لا أصدقك" أو "سأحاول فهم وجهة نظرك". لدى كل فرد طرائق مختلفة كثيرة للتعامل مع كل موقف مختلف. مبحثى الرئيسى فى كتاب "ماكينة الانفعال" هو أنه "لا" يوجد مخطط متسق يودى إلى ماكينات لها وفرة موارد مثلما للمخ البشرى. وأنا مقتنع بدلا من ذلك بأن هذا سيتطلب "طرائق تفكير" كثيرة مختلفة - مصحوبة بكيانات معرفية حول طريقة ووقت استخدام كل طريقة منها.

مغزى علم الكمبيوتر

ثمة حدث وقع فى منتصف القرن العشرين، أتوقع أنه سيؤدى فى النهاية إلى تحول فى حضارتنا: إنه نشأة علم الكمبيوتر. يفترض معظم الناس أن "علم الكمبيوتر" يشير إلى أنواع الأمور التى تؤديها الكمبيوترات، إلا أن هذا الفرض يتجاهل أهمية هذا العلم. وأنا لا أكاد أرى أن علم الكمبيوتر يتعلق بالكمبيوترات بآى حال، وإنما أرى بدلا من ذلك أنه مجموعة جديدة من الطرائق للتصور و(بالتالى) للتفكير بشأن نظم مركبة أقصى التركيب.

وفىما يعرض، فأنا لا أستخدم مصطلح "التركيب" لأعنى أى نظام له أجزاء بالغة الكثرة. وإنما ما يهمنى هو الحالات الخاصة التى تتفاعل فيها هذه الأجزاء بطرائق غير متسقة. وإن، فإن المخ البشرى قد طور بضع مئات من الأجزاء كل منها له أوجه سلوك مختلفة.

هذه النظم غير المتجانسة لا تود أن تدعى لذلك النوع من النظريات التى نجحت نجاحا كبيرا فى ميادين مثل الفيزياء والرياضيات. الرياضيات مجموعة من الطرائق التى تتعامل جيدا مع نظم تتأسس على مبادئ بسيطة، بصرف النظر عن أن أوجه سلوكها الخارجية قد تبدو لأول وهلة مركبة تركيبا هائلا. وبالتالى فإن الرياضيات تستطيع أحيانا أن تتعامل مع نظم لديها أعداد هائلة من الأجزاء، ولكن

هذا يكون فحسب عندما تتفاعل هذه الأجزاء بطرائق يمكن في الغالب تجاهلها! وكمثل، فإن الميكانيكيات الإحصائية تصلح لتفسير بعض خصائص لنظم كبيرة جدا يكون لأجزائها كلها خصائص متماثلة، ولكنها لا تصلح عندما يكون هناك اختلاف بين كثرة بالغة من هذه الأجزاء. ونجد عند الطرف الأقصى الآخر أن "نظريات الشواش" تستطيع أحيانا أن تفسر السبب في أن بعض النظم التي تكون بسيطة ظاهريا تستطيع أن تنتج سلوكا مركبا، عندما تؤدي أوجه اختلاف بسيطة إلى تغيرات تتنامى أسيا. هناك طرائق رياضية أخرى تستطيع أحيانا أن تفسر (من حيث المبدأ) كيف أن بعض النظم المركبة تنتج سلوكا بسيطا. على أنه نادرا ما نفيدنا هذه النظريات في فهم تفاصيل النظم المتخصصة المركبة التي يثبت في النهاية أن أوجه سلوكها تكون "مفيدة" لنا، مثل البرامج التي تتأسس على "ظروف شرطية" يجب أن توصف بلغة من كلمتي "إذا" ف "إن". يحدث في هذا النوع من النظم أن أوجه الاختلاف الصغيرة تستطيع أن تسبب "قورا" تغيرات سلوكية عنيفة، تكون مثلا من نوع ما يحدث فجأة كلما حصلنا على فكرة جديدة!

نرى في تباین مع ذلك، أن علم الكمبيوتر يوفر لنا مجموعة هائلة من مفاهيم جديدة مفيدة يمكن أن نفيدنا في توصيف العمليات العقلية. وكمثل، طرحت معظم النظريات المبكرة عن الذاكرة أن المعرفة تختزن كروابط بسيطة بين بنود منفصلة - بل وبتعبير أبسط من ذلك أنها تختزن كما تختزن العروض في حافظة. يفيدنا علم الكمبيوتر في تصور مدى أوسع كثيرا من الطرائق لتمثل أنواع وأشكال مختلفة من المعرفة كالتالي:

- بنود في قاعدة بيانات،
- روابط داخل شبكة عصبية،
- مجموعات من قواعد التفاعل حسب "إذا/إن"،
- بنى مترابطة في شبكات دلالية،
- مخطوطة تسلسل إجرائية تشبه البرنامج،

- مجموعات أطر مرتبطة فيما بينها،
- مخططات تعرف بشفرة مختلطة،
- مستويات متعددة من مخبّوات الذاكرة، إلخ.

تَعتمد عقولنا على شبكات كبيرة جدا من أنواع مختلفة من العمليات، وأنا أتوقع أننا سنكتشف أنها تستخدم تمثيلات كثيرة متخصصة. هذه الأفكار الجديدة حول تمثّل المعلومات هي وحدها التي توفر لنا طرائق متخصصة وافية لتوصيف أمور كهذه. لا ريب أن على مبرمجينا أن يدفعوا ثمنا غاليا مقابل استخدام هذه المخططات المعقدة بما يلائم؛ لقد جردونا هكذا من اليقين الذي يتأتى مع البراهين الرياضية المحكمة. على أننا قد اكتسبنا في مقابل ذلك استخدام ما يسمّى باحثو الذكاء الصناعى بأنه معرفة موجهة بالتجربة والخطأ، أى معرفة تدور حول ما تكونه العمليات التي نفيدنا عادة في حل كل نوع بعينه من المشاكل. كما أن استخدام الكمبيوترات قد مكّنا من محاكاة ما تفعله هذه النظم، الأمر الذي يوفر لنا بديلا للبرهان الرياضى (وإن كان ذلك أحيانا غير واف).

أسباب توافر الموارد البشرية

يستطيع برنامج الكمبيوتر الحديث على نحو نمطى أن يحل فقط نوعا واحدا معينا من المشاكل وذلك بطريقة واحدة معينة. وفي تباين مع ذلك فإن الشخص الذي يجد تعثرا عند استخدام إحدى الطرائق يستطيع عادة أن يتحول إلى بعض طريقة تناول أخرى. وبالإضافة، فنحن عندما نغير تكنيكنا، لا يكون علينا عادة أن نبدأ العملية كلها من جديد؛ وبدلا من ذلك فإننا نغير تكنيكاتنا وتمثلاتنا مواصليّن العمل من حيث كنا قد انتهينا.

كيف يمكننا أن نغير طريقة تفكيرنا في الأمور دون حاجة إلى البداية من

جديد؟

• "نحن كثيرا ما نستخدم تمثيلات عديدة": إحدى الإجابات عن هذا السؤال تطرح أننا كلما تعلمنا من خبرتنا، فإننا نصنع عادة تمثيلات عديدة لكل شيء مما تعلمناه. حتى نفعل ذلك، فإننا نبني مخططات عديدة مختلفة للذاكرة، يخدم كل منها أغراضا مختلفة أو يفيد في الأنواع المختلفة من المشاكل. وكمثل، فإننا عندما نلقى نوعا جديدا من الأشياء، نستطيع أن نتمثله كشبكة من توصيفات بصرية، وسمعية ولمسية، بل إننا عادة نذهب لأبعد من ذلك، لأن أجزاء مخنا المختلفة تسأل أسئلة مثل "من الذى يمتلك هذا الشيء؟" أو "ما سبب وجود هذا الشيء هنا؟" أو "ما ثمن تكلفته؟" أو "كيف يعمل؟" وأظن أننا أيضا سنسأل عادة، "لأى غرض يحتمل أن نستعمله؟" أو "كيف يمكننا أن نكتسب التحكم فيه؟" وبعدها فإن كلا من هذه الأسئلة قد يؤدي بنا إلى أن نخترن حتى أنواعا إضافية من أوصاف ذلك الشيء، مصحوبة بما يناسب من ترابطات بينية، بحيث إننا عندما نسأل لاحقا أسئلة مختلفة سنستطيع أن نغير بسرعة أسلوبنا في التفكير.

• "الانفعالات طرائق مختلفة للتفكير": حسنا المشترك في "علم النفس الشعبى" ينحو إلى أن يعتبر "التفكير" كأمر بسيط نسبيا، فى حين أننا نحب أن نفكر فى "الانفعالات" على أنها تكون بأقصى درجة من التركيب والغموض. وبالتالي فإن التفكير فى هذا الرأى الشعبى، يتألف مما لا يكاد يزيد شيئا عن أن يكون عمليات منطقية باردة ميكانيكية لا تثير الاهتمام بوجه خاص. وينظر للانفعالات، فى تباين مع ذلك، على أنها مختلفة تماما، بكل ما فيها من ألوان لا يمكن التنبؤ بها ومشاعر لا يمكن تفسيرها. دعنا ننظر أمر التناظر بين ألوان وأشكال الأشياء الفيزيائية هى والمشاعر والأفكار التى تأتى مع تفكراتنا. نحن لا نرى عادة أى إلغاز بشأن الشكل الفيزيقي لأحد الأشياء، لأننا نستطيع توصيفه بلغة من أجزاء صغيرة، مصحوبة بعلاقاتها المكانية. ولكننا ليس عندنا نفس النظرة للألوان، لأنها تبدو مختلفة تماما عن الأشكال، فهى إلى حد بالغ منفصلة عنها ومضافة لها. بل إن الألوان فى الحقيقة تبدو جد مستقلة و"ثانوية" حتى إننا فى الواقع ليس لدينا ما نقوله عنها. ("ما السبب" فى أن الألوان تبدو هكذا جد

مختلفة عن الأشكال؟ أظن أن سبب ذلك ببساطة هو أنها تتعلق بعمليات داخل مخنا تم تطويرها في زمن أحدث، وبالتالي فإنها على درجة أقل من الارتباط جيداً بسائر أفكارنا). وعلى كل، فإن الرأي المطروح في "ماكينة الانفعال" يتخذ ما يكاد يكون وجهة نظر مضادة لذلك: الانفعالات ليست إضافات للأفكار. فأنا أنظر بدلاً من ذلك، إلى كل حالة انفعالية على أنها طريقة للتفكير تختلف اختلافاً متميزاً. بل إنني أحاج بأن الحالة الانفعالية في ظروف كثيرة لا تنتج عن إضافة للتفكير؛ وبدلاً من ذلك فإنها ربما تتأتى من كبت موارد هي بدون هذا الكبت نستخدمها عادة عند التفكير! وكمثل، عندما يؤدي شيء ما إلى استثارة غضبنا بالدرجة الكافية، قد نأخذ عندها في كبت بعض خططنا على المدى الطويل، ونتوقف عن بعض الميكانزمات الدفاعية، ونقيد من مدى تفكيرنا ليصير بمستويات أكثر ضحالة وأقل من حيث التأمل الذاتي. وبكلمات أخرى، فإن هذه الحالة الانفعالية ينتج عنها أسلوب تفكير يتأتى في أغلبه عن توقفاً عن استخدام بعض من مواردنا التي تكون عادة ناشطة.

• "التفكير يتطلب تجميعات هائلة للمعرفة": ما الذي يجعل الناس أكثر ذكاء هكذا عن معظم أنواع الحيوانات الأخرى؟ من الواضح أن سبب هذا في جزء هو أننا نتعلم أكثر، وذلك في أمرين معاً هما مزيد من المعرفة حول أشياء بعينها، وطرائق أفضل للتفكير بشأنها.. كما أننا أيضاً نتعلم هذه الأشياء على مستويات متعددة: فالأمر لا يقتصر على أننا نتعلم طرائق جديدة للتفكير، ولكننا نتعلم أيضاً متى وكيف نستخدمها.

وعلى أي حال، فنحن لم نتعلم بعد الشيء الكثير جداً فيما يتعلق بالطريقة التي نجعل بها ماكيناتنا نتعلم أن تفعل هذا كله. هناك الآن عشرات الآلاف من الباحثين في المجال المسمى بالذكاء الاصطناعي، وكلهم يعملون جاهدين ليضيفوا على الماكينات قدرات من هذا النوع شبه البشرية. أنشأ هؤلاء الباحثون برامج يفوق أداءها أداء البشر في كثير من المجالات المتخصصة. فبعضها يحل مسائل رياضية عويصة أو تعمل بمهارة في إرشاد السفن والطائرات. وبعضها الآخر

يستطيع التعرف على الأصوات والوجوه أو الأشياء التى على خطوط التجمع. إلا أن أحدا منها لا يستطيع بعد أن يلبس نفسه، أو يفهم أشياء من النوع الذى يستطيع صغار الأطفال فهمه. ما السبب فى أنه لا يوجد حتى الآن كمبيوتر لديه ما نسميه كل يوم بأنه معرفة الحس المشترك، أو كمبيوتر يودى أنواع الاستدلال التى نعتبرها واضحة؟

أعتقد أن سبب ذلك إلى حد كبير هو أن هناك فقط حفنة من الباحثين الذين حاولوا صنع نظريات حول الطريقة التى يمكن بها للماكينات أن تودى تفكيراً بالحس المشترك. ما الذى يفعله بدلا من ذلك كل أولئك الآلاف من الباحثين الآخرين فى الذكاء الاصطناعى؟ لدى انطباع بأنهم يهابون القيام بهجوم بالمواجهة على هذه المشكلة، وأنهم بدلا من ذلك يحاولون التوسع فى الطرائق التقليدية التى لاقت نجاحا فى بعض مشكلة تخصصية. ونتيجة ذلك هى تجميع لبعض بدع أرى أنها محاولات لا طائل منها لحل المشاكل؛ وعلى كل فإن التفكير بالحس المشترك مركب تركيبا بالغا بما يفوق قدرة تلك الطرائق القديمة على العمل به بالجودة الكافية.

هاكم أيضا البعض القليل من هذه المحاولات الأخرى، أحرز كل منها تقدما بالنسبة لبعض أنواع من المشاكل ولكنها فشلت فى إنشاء طرائق أكثر عمومية:

- "النماذج الإحصائية": كيف تفهم جملة نمطية ربما يكون لكل كلمة فيها معانى عديدة؟ إحدى طرائق التناول الشائعة هى أن نستخدم شيئا من الإحصائيات. لنفرض أننا قرأنا John picked up his pen. والآن، فإن كلمة Pen قد تعنى (أ) شيئا يكتب به، أو (ب) خم لخنزير أو (ج) الغلاف الداخلى القرنى لحبار. إذا كنا لا نعرف أى شئ آخر عن جون فإن (أ) ستكون الأكثر ترجيحاً عن (ب)، و(ب) أكثر ترجيحاً عن (ج). وإذا كنا نعرف عن جون أنه عالم بيولوجيا كثيرا مايجرى أبحاثا على رأسيات الأرجل ربما تكون (ج) عندها هى الأرجح. وإذا كنا نعرف عن جون أنه مزارع، يكون من المحتمل أن نختار (ب) لأن هذا له علاقة ارتباط أكبر، إلا أننا سيكون لدينا أيضا موضع خلاف، لأن معظم أخمام

الخنازير تكون أكبر من أن يلتقطها شخص واحد. يؤدي استخدام الإحصائيات اللغوية إلى ما ينبغي أن يتوقعه المرء تقريبا. وكلما وسعنا من كيان الأدلة، سيؤدي إلى خيارات تتزايد صحتها، ولكننا في النهاية سنقترب من بعض حدود لا يمكن عندها التمييز بين المعاني البديلة، لأنها ستعتمد على سياقات بمقاييس أكبر كثيرا، كأن يكون ذلك مثلا إشارات مرجعية لنصوص أخرى.

- "الروبوتات شبيهة الحشرات": لعل أكثر البدع كلها تذكيرا هي بناء روبوتات بسيطة صغيرة تنتمي للعالم الواقعي، تتأسس فيما يحتمل على فكرة أن الحيوان لا بد أن "يتعلم الزحف قبل أن يتمكن من المشي" (وهذا مثل شعبي هو ببساطة لا صدق فيه!). هكذا نرى الآن في حشد من الجامعات أناسا يصنعون روبوتات تستطيع أن تتعلم المشي خلال حيز مملوء بالعقبات أو أن تكسب مباريات بسيطة ضد منافسين. وعلى أي حال، في حدود ما أراه، فقد فشلت آلاف من هذه التجارب في أن تنتج أفكارا جديدة مهمة لا يمكن الوصول إليها بتأمل فيه تفكير أعمق.

رأينا في السنوات الأخيرة طرائق تتناول أخرى قليلة نوعا، مثل الشبكات العصبية، والنظم الخبيرة المؤسسة على قواعد، والتعلم بالطريقة "الباييزية" Bayesian، ونماذج "ماركوف"، والمنطق الحملّي، ونظريات التركيب، وما إلى ذلك. معظم هذه المخططات يتأسس تقريبا على مفهوم أن كل ما يحتاجه المرء هو كمبيوتر كبير كبرا كافيا. لن أعرض هذه النظم هنا فيما عدا البرمجة الوراثية، التي يمكن أن تصبح واحدة أقصى الوعد، لو أمكننا التغلب على عيوبها.

- "البرمجة الوراثية": الفكرة الأساسية هنا هي ببساطة أن نحاكى التطور الدارويني: نبدأ ببعض برنامج معين، وإذا لم يحل لنا مشكلتنا، نصنع طفرة واحدة أو أكثر في البرنامج ونحاول التجربة مرة أخرى. وبصورة أعم قد يكون من المفيد أيضا صنع مجموعة كبيرة من هذه البرامج كأنها عشيرة سكانية وتنظم منافسات فيما بينها. الفكرة فيها ما يغري نتيجة أسباب قليلة إلى حد ما، أهمها أن هذه هي الطريقة التي تطور بها البشر، وبالتالي فنحن نعرف أنها، من حيث المبدأ، يمكن أن تنتج بعض أمور رائعة. على أي حال، فإن الفكرة جذابة

لأنها تطرح طريقة لحل المشاكل دون أى جهد من تخطيط أو تفكير. يحب الكثيرون من ممارسيها أن يصفوها بأنها طريقة تناول طازجة وغير مسبقة، ولكنها تبدو لى وكأنها نسخة تولدت ثانية مما كان الباحثون الأوائل فى الذكاء الاصطناعى يحاولونه ثم نبذوه لأنه كان بطيئا بأكثر مما ينبغى. والآن، مع استخدام كمبيوترات أسرع بملايين المرات، فإن هذه المخططات للبحث تنجح سريعا فى بعض أنواع المشاكل. ولكن الأمر (الذى لم يلاحظه معظم الممارسين) هو أن بعضا من تلك الطرائق القديمة الطراز تنجح أيضا فى ذلك. ولاشك أن هناك أمل فى أننا عندما نجعل هذه البرامج أكبر، فإنها سوف تنمو لتحل مشاكل أصعب كثيرا، وهذه الفكرة أيضا قد انتشرت عبر العالم لتشغل آلاف من الطلبة والأفراد الآخرين. ولكننى سأحاول هنا أن أبين بإيجاز أنه على الرغم من أن التطور الداروينى أمر "طبيعى" فإن فيه أيضا بعض أخطاء خطيرة.

- "جينوماتنا لا تخزن أهدافا واضحة": أولا، التطور الداروينى ليس فيه موضع يضع فيه أهدافا، وبناء على ذلك ليس فيه موضع أيضا لأهداف فرعية. ويعنى هذا أن التطور الداروينى ليس مجهزا تجهيزا جيدا لأن يقسم المشاكل العويصة إلى أجزاء ويستخدم بعدها طرائق "فرق تسد". وبسبب هذا العيب لا يستطيع التطور أن يستغل تلك التقنيات التى كان يمكن بغير ذلك أن تقلل من حجم عملية البحث التى تتنامى أسيا. (والحقيقة أن نظمتنا البيولوجية قد اتخذت بعض خطوات فى فعل ذلك، عن طريق ابتكار ميكانيزمات مثل صناديق تعيين الموضع^(١٩) وغير ذلك من عناصر التحكم المتقنة فى التعبير الجينى). لو كانت الحيوانات قد طورت أولا طرائق واضحة لتمثل الأهداف، لنتج عن ذلك أن بعض الخطوات ربما تتحقق خلال أجيال معدودة بدلا من أن يلزم لتحقيقها الانتظار لملايين السنين. لقد استغرقنا مئات عديدة من ملايين السنين للتطور من سلفنا من خلايا الخميرة؛ ولعل وجود مخطط تطورى أكثر انتظاما فى

(١٩) صناديق تحديد الموضع: مجموعة الجينات التى تنظم أوضاع محاور الجسم ومواقع أجزائه فى أثناء تنامى الجنين. (المترجم)

طبقاته كان سيؤدي إلى اختصار هذه الفترة لزمان أقل بعدة أمثال. ربما نكون على وشك أن نبتكر نحن أنفسنا بعض مخططات من هذا النوع. هناك أيضا القليل من البرامج التي تتمثل أهدافها، ربما مع استثناء ما يكون منها كتعليقات على شفرة (أو لغة) المصدر؛ وعلى أي حال فقد نشأت فئة من البرامج حوالى ١٩٦٠ بواسطة آلان نيوويل، وكليفورد شو وهربرتسيمون لها بالفعل ما هو واضح من الأهداف والأهداف الفرعية وأدت إلى حل بعض المشاكل المهمة. وقد أسموها "الحلال العام للمشاكل"؛ ومما يؤسف له أنها لم يسمع بها سوى قلة من المبرمجين الحاليين، ويواصل المبرمجون إعادة اختراعها وإن كان ذلك بأشكال أقل كثيرا فى قوتها ووضوحها.

- "جينوماتنا لا تمثل سجلات للفشل": ثانيا، التطور الدارويني ينتخب الحيوانات التي تبقى حية، ولكنه ليس لديه طرائق واضحة ليتذكر ما الذى سبب موت الحيوانات التي لم تبقى موجودة! وبالتالي، فإنه يستطيع أن يتعلم فقط طريقة التعامل مع أكثر أنواع الخطأ شيوعا. وهكذا، فإننا نستطيع أن نتوقع أن نوعا مثل الفئران سينمى أوجه سلوك معينة تفيدهم فى حماية أنفسهم مثلا من القحط والثعابين. إلا أنه لا يوجد أى نوع يستطيع أن يتعامل وراثيا مع عدد هائل من الأخطاء غير الشائعة. نستطيع ولا ريب أن نحاج بأن جيناتنا "تتذكر"، ولكن الجينات تختزن فحسب الحيل التي تجعل الكائنات تبقى موجودة، دون أى تسجيلات مطلقا لأسباب نجاح هذه الحيل، وبوجه خاص، ليس عند جيناتنا طريقة لتتذكر أعداد كبيرة من الأخطاء النادرة، وبالتالي فإن الحيوانات لا تستطيع أن ترث معرفة لأعداد كبيرة من الأخطاء. وسبب ذلك أن أى حيوان لديه فقط آلاف من الجينات. على أن المخ عندما يكون كبيرا بما يكفى يستطيع أن يتعلم ملايين كثيرة من الميمات^(٢٠). تنامي "الذكاء" فى الفرد من البشر يعتمد فى جزء كبير منه على تعلم تجنب كيان كبير من الأخطاء الشائعة، لو حدث

(٢٠) الميمات وحدات تمرير الثقافة من جيل إلى آخر مثلما تكون الجينات وحدات تمرير الصفات الوراثية. (المترجم)

له أن تنامي متغمسا في ثقافة لها طرائق فعالة لتمرير أمور كهذه. وبهذه الطريقة يستطيع كل جيل أن يمرر كتالوجات هائلة من الأخطاء المروعة التي سببت موت أفراد آخرين. كلما صنع الواحد منا خطأ مهما، فإنه يستطيع أن يتذكر ألا يكرره أبداً - ويستطيع إخبار أصدقائه بذلك - وبالتالي تتمكن ثقافتنا من أن تنمو، لأن الأجيال الجديدة لن يكون عليها أن تبدأ ثانية من جديد.

الكمبيوترات والحس المشترك

الكمبيوتر حاليا أقوى ملايين المرات مما كانت عليه الكمبيوترات من ثلاثين سنة، ولكن البرامج والنظم التي تجريها الكمبيوترات لم تتغير بهذا القدر، على الأقل فيما يتعلق بجوانب معينة مهمة. والحقيقة أننا نرى الآن ارتدادا بمقياس كبير عن نظم مثل ويندوز (النوافذ) - لأنها جد متصلبة ويصعب الحفاظ عليها - ويعود بنا هذا الارتداد إلى نظام أبسط اسمه "يونكس" صمم في ١٩٦٩. وعلى أي حال، ليس هذا هو السبب الرئيسي في أن الكمبيوترات لا يبدو عليها أنها تغيرت.

الأمر الرئيسي الذي بقي كما هو، أن الكمبيوترات مازالت لا تعرف إلا القليل عن عالمها. وعلى وجه الخصوص فإنها ليس لديها أي أفكار عن أهداف الناس الذين يستخدمونها. وهذا هو السبب مثلا في أن معظم البرامج ستموت كلما صنع مستخدموها أحد الأخطاء، سواء كان ذلك خطأ خطيرا في التصور الذهني أو مجرد خطأ في طبع حرف غير صحيح. وعلى أي حال، سيحدث ذات يوم أن يكون لدى الكمبيوترات أنواع من معرفة الحس المشترك التي يشارك فيها معظمنا، ملايين من حقائق الحياة اليومية بشأن العالم ومن طرائق الحس المشترك في التفكير بشأنها. هناك بعض مشاريع موجهة لذلك، على أنه بدلا من أن نستعرض الحالة البدائية لبرامجنا، دعنا نتصور ما قد يحدث لو أنها نجحت. لو أنها تعلمت أن تفكر في شأنها هي أنفسها وأن تتبكر طرائق جديدة لتحسين أنفسها، سيحدث عندها أن يتغير كل شيء نعرفه ولن نكون في حاجة قط للعمل ثانية (إذا استطعنا الاحتفاظ بتحكمنا فيها).

المفردة

راى كيرزويل^(٢١)

ندخل الآن فى عصر جديد. وأنا أسميه المفردة. إنه اندماج بين الذكاء البشرى وذكاء الماكينة مما سيخلق شيئاً أكبر من ذاته. إنه الطليعة الفعالة للتطور فوق كوكبنا. نستطيع عرض حجج قوية بأنه بالفعل طليعة تطور الذكاء بوجه عام، لأنه ليس هناك ما يدل على أن هذا يحدث فى أى مكان آخر. وفى رأى أن هذا هو كل ما تدور حوله الحضارة البشرية. إنه لجزء من قدرنا، وجزء من قدر التطور، أن نواصل التقدم بسرعة تتزايد أبداً وأن ننمى قوة الذكاء نمواً أسياً.

(٢١) راى كيرزويل مخترع ومدير مشروعات، وقد ظل لسنوات يعمل على زيادة القدرات التكنولوجية فى مجال تخصصه فى إدراك النمط. وهو المطور الرئيسى لأول ماكينة لنظام حروف مطبعية شامل للتمييز البصرى للحروف، وأول ماكينة للمكتوفين تحول الطباعة لكلام، وأول أداة مسح بجهاز شحن مقرون له قاعدة مسطحة، وأول جهاز للتركيب "من النص إلى الكلام"، وأول جهاز تركيب للموسيقى له القدرة على إعادة تخليق البيانو الكبير وغيره من آلات الأوركسترا، وأول نظام كبير لتمييز مفردات الكلام يتم تسويقه تجارياً. وقد تلقى فى ١٩٩٩ الميدالية القومية للتكنولوجيا من الرئيس كلينتون. وتم فى ٢٠٠٢ تنصيبه كعضو فى "قاعة المشاهير من المخترعين القوميين بمكتب الولايات المتحدة لبراءات الاختراع". وقد ألف كتابى "عصر الماكينات الذكية" و"عصر الماكينات الروحانية".

ينبع اهتمامى بالمستقبل من اهتمامى بأن أكون مخترعا. كانت لدى الفكرة بأن أكون مخترعا منذ كان عمري خمس سنوات، وأدركت سريعا أن على أن أحوز فكرة جيدة عن المستقبل إذا كنت أريد النجاح كمخترع. الأمر يشبه نوعا رياضة ركوب الأمواج؛ ينبغي أن نلحق بإحدى الموجات فى الوقت المناسب. مع حلول الوقت الذى تنجز فيه شيئا، يكون العالم قد أصبح مكانا مختلفا عما كأنه عندما بدأت العمل. يفشل معظم المخترعين ليس بسبب أنهم لا يستطيعون أن يجعلوا شيئا ينجح وإنما بسبب أن القوى التمكينية للسوق لا تكون كلها فى الموضع الملائم فى الوقت الملائم.

هكذا أصبحت طالبا فى دراسة للاتجاهات التكنولوجية، وأنشأت نماذج رياضية للطريقة التى تتطور بها التكنولوجيا فى مجالات مختلفة؛ مثل الكمبيوترات، والإلكترونيات عموما، وأجهزة تخزين الاتصالات، والتكنولوجيات البيولوجية مثل المسح الوراثى، والهندسة العكسية^(٢٢) للمخ البشرى، والتصغير المنمنم للأحجام، وحجم التكنولوجيا، وسرعة تغير النموذج الأساسى (الباراديم). أصبح لهذا الاهتمام بالاتجاهات حياته القائمة بذاتها، وأخذت أصنع خططا للبعض منها مستخدما ما أسميه بأنه " قانون تعجيل المعاودة = Law of accelerating returns " وهو قانون اعتقد أنه فى الأساس من تطور التكنولوجيا. ألفت كتابا فى ثمانينيات القرن العشرين أسميته "عصر الماكينات الذكية"، كان بمثابة خارطة طريق لما ستكون عليه سنوات التسعينيات من القرن العشرين والسنوات الباكورة من الألفية الثانية، وقد نجح الكتاب فى ذلك نجاحا جيدا إلى حد كبير. نقت الآن من هذه النماذج الرياضية وأخذت أتفحص حقا ما الذى سيكون عليه القرن الحادى والعشرين. يتيح لى هذا أن أكون مبتكرا فى تكنولوجيات القرن الحادى والعشرين، لأن لدى مفهوم لما ستكون عليه الأمور فى ٢٠١٠ و ٢٠٢٠ و ٢٠٣٠، بالنسبة للتكنولوجيا، والاتصالات، وحجم التكنولوجيا، ومعرفتنا بالمخ البشرى. لست قادرا بعد على أن

(٢٢) الهندسة العكسية هى تفكيك منتج مناقص لمعرفة طريقة عمله وذلك مثلا بهدف إنتاج نسخ له أو تحسينه. (المترجم)

أخلق بالفعل هذه التكنولوجيات، ولكنى أستطيع الكتابة عنها. توصلت إلى رؤية للمستقبل تخرج من هذه النماذج، وهى رؤية أعتقد أنها لها مصداقية نتيجة نوعين معا من الأسباب، أسباب نظرية وبسبب أنها أيضا تتوافق مع البيانات الإمبريقية للقرن العشرين.

أحد الأمور التى لا يدركها الملاحظون إدراكا كاملا، والتى يفشل أفراد كثيرون فى وضعها موضع الاعتبار الوافى، وإن كانوا فيما عدا ذلك أفرادا عميقي التفكير، هو أن معدل التغير نفسه قد زادت سرعته. منذ قرون من السنوات لم يكن الناس يعتقدون أن العالم يتغير بأى حال. فأجدادهم قد عاشوا الحياة نفسها التى عاشوها، وهم يتوقعون لأحفادهم حياة مماثلة، وكان توقعهم هذا يتحقق إلى حد كبير. أما الآن فإن من البديهيات أن الحياة تتغير وأن التكنولوجيا تؤثر فى طبيعة المجتمع. أما ما لم يفهم فهمها كاملا فهو أن السنوات العشرين الأخيرة ليست بالمرشد الجيد للسنوات العشرين القادمة. نحن نضاعف فى كل عقد معدل سرعة تغير النموذج الأساسى، أو معدل سرعة التقدم. سوف يضاهى هذا بالفعل مقدار كل التقدم الذى صنعناه فى كل القرن العشرين، لأننا قد زدنا معدل السرعة إلى هذه الدرجة. يماثل ما حدث فى القرن العشرين مقدار ما سيحدث من تغير فى عشرين سنة بمعدل التغير الحالى. سنكون فى السنوات الخمس والعشرين التالية قد صنعنا تقدما بثلاثة أمثال التقدم الذى رأيناه فى القرن العشرين. سوف نصنع فى القرن الحادى والعشرين تقدما يقدر بعشرين ألف سنة، وهذا يقارب تغيرا تكنولوجيا يزيد بألف مثل عما رأيناه فى القرن العشرين.

الحوسبة على وجه الخصوص تنمو نموا أسيا. الاتجاه الأسى الوحيد الذى يتنبه له الناس هو "قانون مور". ولكن قانون مور ليس إلا طريقة واحدة من طرائق جلب النمو الأسى إلى الكمبيوترات. يمكننا حسب قانون مور أن نضع كمية الضعف من الترانزستورات فوق دائرة متكاملة كل ٢٤ شهرا. ولما كانت هذه أصغر، فإنها أيضا أسرع، وبالتالي فإن هذا يصل كما إلى أن يزيد القوة الحوسبية بأربعة أمثال كل ١٢ شهرا. (الفهم الشائع بأن فترة القانون هى ١٨ شهرا ليس صحيحا وليس هو ما لاحظته مور أصلا).

الأمر الذى لا يدرك إدراكا كاملا هو أن قانون مور ليس أول نموذج أساسى يجلب النمو الأسى إلى الكمبيوترات وإنما هو الخامس. لدينا آلات حاسبة كهروميكانيكية، وكمبيوترات مؤسسة على الترحيل، وأنابيب المفرغة، وترانزيستورات. كلما استنفد أحد النماذج الأساسية وقوده، حل مكانه نموذج أساسى آخر. كانت هناك لفترة ما الأنابيب المفرغة المنكمشة، ثم انتهى بها الأمر إلى أننا لا يمكننا أن نجعلها فى حجم أصغر ثم تبقى محتفظة بالتقريب، وهكذا أتت بعدها الترانزيستورات كطريقة تتاول مختلفة تماما. ثار نقاش كثير حول أن قانون مور سوف يستنفد وقوده فيما يقرب من ١٢ عاما، لأنه بحلول ذلك الوقت سيكون عرض الترانزيستورات ذرات معدودة لا غير ولن نستطيع بعدها أن نكمشها لأصغر، وبالتالي فإن هذا النموذج الأساسى بالذات سوف يستنفد وقوده أيضا.

سنواصل بعدها السير إلى النموذج الأساسى السادس، وهو يماثل إلى حد كبير الحوسبة بأبعاد ثلاثية. نعيش فى عالم ثلاثى الأبعاد، وقد نظمت أمخاذا فى أبعاد ثلاثة، ومن ثم فإن لنا أيضا أن نحوسب بأبعاد ثلاثة. يعالج المخ المعلومات باستخدام طريقة كهروكيميائية أبطأ من الإلكترونات بعشرة ملايين مرة. ولكن المخ يعوض ذلك بأنه ثلاثى الأبعاد. تقوم كل الوصلات ما بين العصبونات بالحوسبة فى وقت متزامن، وبهذا يكون لدينا ١٠٠ ترليون وحدة تواصل العمل فى الوقت نفسه. هذا هو الاتجاه الذى سنسير فيه. نجد فى وقتنا الحالى أن الرقائق وإن كانت كثيفة جدا، إلا أنها مسطحة. بعد ١٥ أو ٢٠ سنة من الآن ستكون الكمبيوترات على التوازي بكثافة وسوف تتأسس على نماذج مسئلةمة بيولوجيا، سوف نصممها إلى حد كبير بواسطة فهمنا لطريقة عمل المخ.

هناك إدراك عام بأننا سيكون لدينا العتاد الحوسبى اللازم لإعادة خلق الذكاء البشرى خلال فترة زمنية وجيزة، سأقول إنها تقرب من عشرين سنة. أما الأمر الذى يثير خلافا أكثر فهو عما إذا كنا سنحوز البرمجيات اللازمة. يقر الراصدون بأننا ستكون لدينا كمبيوترات سريعة جدا لها القدرة نظريا على محاكاة المخ البشرى، ولكننا لا نعرف حقا كيف يعمل المخ، ولن نكون لدينا البرمجيات، أو

الطرائق، أو المعرفة لخلق ذكاء بالمستوى البشرى. وبدون هذا، سيكون ما لدينا هو مجرد آلة حاسبة سريعة.

على أن معرفتنا بطريقة عمل المخ تنمو هي أيضا نموا أسيا. تركيب المخ ليس بالتركيب اللانهائى. إنه كيان مركب جدا، لن نتوصل إلى فهم كلى له خلال عملية اختراق واحدة بسيطة، ولكننا نتقدم فى فهمنا لمبادئ تشغيل المخ بأكثر مما يدركه معظم الناس. تتنامى أسيا تكنولوجيا مسح المخ البشرى؛ كما تتنامى قدرتنا على أن نرى بالفعل أنماط التوصيلات الداخلية، ونحن ننشئ المزيد والمزيد من النماذج الرياضية التفصيلية للعصبونات البيولوجية. لدينا بالفعل نماذج رياضية تفصيلية جدا لعشرات عديدة من مناطق المخ البشرى، وطريقة عملها، وقد أعدنا تخليق مناهجها باستخدام الحوسبة التقليدية. وخرجت لنا نتائج من هذه النماذج التخليقية لمناطق المخ التى أعيدت هندستها أو أعيد تجهيزها تضاهى المخ البشرى مضاهاة دقيقة جدا.

نحن أيضا نصنع إحلالا لأجزاء المخ التى تتحلل أو تتوقف عن العمل بسبب أوجه عجز أو مرض. هناك عمليات زراعة أعصاب لمرض باركنسون وعمليات زرع لقوقعة الأذن فى حالة الصمم. ثمة جيل جديد بازغ من هذه القواقع للزرع يوفر ألف درجة من الوضوح فى الترددات، سوف نتيج للأفراد الصم أن يسمعوا الموسيقى لأول مرة. تحل العصبونات المزروعة فى مرض باركنسون محل عصبونات قشرة المخ التى دمرها المرض. وبالتالي فقد أوضحنا أن من الممكن فهم مناطق للمخ البشرى والجهاز العصبى وأن نعيد تجهيز هذه المناطق بواسطة حوسبة تقليدية إلكترونية تتفاعل مع المخ وتؤدي تلك الوظائف.

إذا تابعنا هذه التطورات واستبطننا ما فيها من رياضيات، سيكون السيناريو الذى نتحدث به متحفظا إذا قلنا إننا خلال ثلاثين سنة - أو ربما خلال زمن أسرع كثيرا - سيكون لدينا خريطة كاملة للمخ البشرى، وستكون لدينا نماذج رياضية كاملة عن طريقة عمل كل منطقة، وسوف نتمكن من إعادة تنفيذ طرائق المخ البشرى، التى تختلف تماما عن طرائق كثيرة مما يستخدم فى الذكاء الاصطناعى

المعاصر. ولكنها تماثل الطرائق المستخدمة في المجال الخاص بى، مجال إدراك النمط، وهو أحد القدرات الأساسية للمخ البشرى. مازلنا لا نستطيع التفكير بالسرعة الكافية لأن نحلل المواقف المنطقية تحليلا سريعا، وبالتالي فإننا نعتمد على قدرتنا على التعرف على النمط. سوف نتمكن خلال ثلاثين عاما من تخليق ذكاء غير بيولوجى يقبل المقارنة بالذكاء البشرى.

سيكون عملنا أن نوفر له طريقة للتعليم، بما يماثل تماما ما يجرى فى النظام البيولوجى، ولكننا هنا نستطيع أن نحشد بعض مزايا ذكاء الماكينة. بمجرد أن نتقن إحدى الماكينات مهارات معينة، فإنها تستطيع عندها تطبيق هذه المهارات بسرعة ودقة أكبر كثيرا مما عند البشر غير المدعومين بها. يستطيع كمبيوتر ثمنه ١٠٠٠ دولار أن يتذكر بليون من الأشياء بدقة - بينما يعاني أغلبنا من صعوبة فى تذكر حفنة من أرقام التليفونات. الماكينات بمجرد أن تتعلم شيئا، فإنها تستطيع أيضا أن تشرك الماكينات الأخرى فى معرفتها هذه. ليس لدينا منافذ سريعة للنقل بالتحميل على مستوى أنماط التوصيل ما بين العصبونات ومستوى ما لدينا من تركيزات للمواد الناقلة العصبية، وبالتالي فنحن وحسب لا نستطيع نقل المعرفة تحمليا. فأننا لا أستطيع أن آخذ معرفتى بالفرنسية وأنقلها بالتحميل إليك، أما الماكينات فتستطيع أن تتشارك إحداها مع الأخرى فى أنماط معرفتها. نستطيع أن نعلم الماكينات بعملية تكون أسرع مئات أو آلاف المرات من العمليات المماثلة فى البشر. تستطيع عملية كهذه أن توفر لإحدى الماكينات تعليم عشرين سنة بالمستوى البشرى وذلك فى فترة ربما تكون من أسابيع أو أيام معدودة، ثم تستطيع تلك الماكينات التشارك فيما تعرفه.

الدلالة الأساسية لكل هذا هو دعم ذكائنا البشرى. سوف نصل إلى أن نضع هذه الماكينات داخل أمخاخنا. بدأنا الآن نفعل ذلك، فى أفراد لديهم مشاكل طبية وأوجه عجز شديدة، ولكن هذا سيحدث فى النهاية لنا كلها. سنتمكن بغير جراحة من أن ندخل ماكينات مهندسة نانويا داخل تيار الدم وتستطيع هذه الماكينات أن تمر من خلال الشعيرات الدموية للمخ. هذه الروبوتات الذكية الدقيقة الحجم أو "النانوبوتات"

التي في حجم خلية النمل، سوف تكون قادرة بالفعل على الذهاب إلى المخ وعلى التفاعل مع العصبونات البيولوجية. تمت بالفعل البرهنة علميا على أن من الممكن أساسا أن يحدث التواصل في كلا الاتجاهين بين الأجهزة الإلكترونية والعصبونات البيولوجية.

أحد تطبيقات إرسال بلايين النانوبوتات داخل المخ هي الانغماس الكامل في الواقع الخائلى. عندما تريد أن تكون موجودا في الواقع الحقيقى، ستظل النانوبوتات قابعة وهي لا تفعل شيئا، أما إذا أردت أن تمضى داخل الواقع الخائلى، ستوقف النانوبوتات الإشارات الآتية من حواسنا الحقيقية وتضع محلها الإشارات التى سنتلقهاها إن كنا فى البيئة الخائلية. يستطيع الواحد منا أن يذهب إلى هناك مع أفراد آخرين؛ ويستطيع أن ينال كل شىء ابتداء من لقاءات جنس وإثارة حسية ووصولاً إلى مقاضات أعمال مالية فى انغماس كامل ببينات واقع خائلى تشمل كل الحواس. سيعرض الناس على "ويب" تيارهم الخاص من الخبرات الحسية هي وما يتعلق عصبيا بانفعالاتهم، بمثل الطريقة التى يعرضون بها الآن صوراً من "كامات ويب"^(٢٣) فى غرف معيشتهم ونومهم. سوف يمكننا هذا من أن نثبت للواحد منا قابسه ليمارس بالفعل ما يبدو به الأمر عندما يكون الواحد شخصا آخر، بما فى ذلك تفاعلاته الانفعالية، بمثل مفهوم الحكمة فى رواية "أن تكون جون مالكوفتش". لا يلزم عليك فى الواقع الخائلى أن تكون الشخص نفسه. تستطيع أن تكون شخصا آخر؛ تستطيع أن تعرض نفسك كشخص آخر. أهم أمر هو، أننا سنتمكن من دعم نكائنا البيولوجى بنكاء غير بيولوجى عن طريق توصيلات حميمة. لا يعنى هذا أنه ستكون هناك مجرد أنبوبة رقيقة واحدة بين المخ والنظام غير البيولوجى وإنما يعنى أن يكون هناك بالفعل نكاء غير بيولوجى فى بلايين من الأماكن المختلفة بالمخ. لست أدري شيئا عما يوده القارئ، ولكنى أود أن أقرأ كتباً كثيرة، وهناك مواقع كثيرة على ويب أود زيارتها، إلا أنني أجد أن عرض نطاق^(٢٤) العقل عندى فيه قيد

(٢٣) الكام: اختصار الكلمات الإنجليزية التى تعنى إنتاجا مصنعا بمساعدة الكمبيوتر. (المترجم)

(٢٤) عرض النطاق: سعة الإرسال (أو الاستقبال) فى قناة اتصال. (المترجم)

على. وبالتالي فبدلاً من أن يكون لدينا مجرد ١٠٠ تريليون وصلة، سيكون لدينا فى النهاية مائة تريليون لمليون مرة. سوف نتمكن من دعم قدراتنا المعرفية لإدراك النمط دعماً هائلاً، ونتمكن من التفكير بأسرع، وأن ننقل المعرفة بالتحميل.

لو تابعنا هذه الاتجاهات لأبعد، سنصل إلى نقطة حيث يحدث التغير بمعدل سريع جداً حتى يظهر ما يبدو كتفجر فى قماشة التاريخ البشرى. يشير بعض الناس إلى هذا على أنه "مفردة"^(٢٥). وهذا مصطلح مستعار من الفيزياء، ويعنى نقطة من كثافة وطاقة لانهائيتين هى نوع من تفجر فى قماشة الزمكان. وهى تطبق هنا على التاريخ البشرى كقياس بالتمثيل، مع النقطة التى يكون عندها معدل التقدم التكنولوجى بالغ السرعة حتى يبدو كتفجر فى قماشة التاريخ البشرى. من المستحيل فى الفيزياء أن نرى ما وراء المفردة، الأمر الذى يخلق حداً للحدث، وقد افترض بعض الأفراد أنه سيكون من المستحيل وضع خواص للحياة البشرية بعد المفردة. سؤالى هو، "ما الذى ستبدو الحياة البشرية عليه بعد المفردة؟" وأنا أتنبأ بأن المفردة ستحدث فى وقت ما يسبق مباشرة منتصف القرن الحادى والعشرين.

يطرح الكثير مما لدينا من المفاهيم عن طبيعة الحياة البشرية - مثل مدى طول العمر - أن لدينا قدرة محدودة ككيانات مفكرة بيولوجية. ستخضع هذه المفاهيم كلها لتغير له قدره فى أثناء اندماجنا اندماجاً أساسياً مع تكنولوجيا. لقد استقرت فترة من الزمن ليحيط عقلى بهذه القضايا. انهيت كتابى "عصر الماكينات الذكية" بمدى طيف الماكينات التى يضاهى ذكاؤها البشر فى بعض زمن بين ٢٠٢٠ و ٢٠٥٠، ولم أغير تغييراً أساسياً من رأى حول هذا الإطار الزمنى، وإن كنت قد تخليت عن رأى بأن هذا المدى للطيف نهائى. ألقت كتاباً بعد ذلك بعشرة أعوام هو "عصر الماكينات الروحانية"، وفيه أخذت أنظر إلى ما ستبدو عليه الحياة عند تجاوز الماكينات لنقطة إمكان منافستنا. أحاول الآن النظر فيما سيعنيه ذلك بالنسبة للمجتمع البشرى.

(٢٥) المفردة هنا تشبيه بمفردة الانفجار الكبير الذى يبدأ به الكون نتيجة التركز فى نقطة من كثافة وطاقة لانهائيتين. (المترجم)

أحد الأمور التى يجب أن نبقىها فى ذهننا هو أن الذكاء البيولوجى الفطرى ذكاء ثابت. لدينا فى الجنس البشرى ٢٦١٠ عملية حسابية فى كل ثانية (بما يقرب من ١٠ بليون من الأمخاخ البشرية، كل واحد منها فيه ما يقرب من ١٠٠ بليون عصبون، بمتوسط انتشار ١٠٠٠ وصلة لكل عصبون، وكل وصلة لها قدرة على ما يقرب من ٢٠٠ عملية حسابية لكل ثانية). سنجد بعد خمسين سنة من الآن أن الذكاء البيولوجى البشرى لايزال بنفس القدر كميا. أما ذكاء الآلة فإنه ينمو أسيا، وهو الآن أقل بمليون مرة عن هذا الرقم البيولوجى. وبالتالي، فإنه على الرغم من أن الذكاء البشرى مازال مسيطرا، ستكون هناك نقطة تلاقى عند حوالى ٢٠٣٠، ثم يستمر الذكاء غير البيولوجى فى الزيادة أسيا.

يؤدى هذا ببعض الناس إلى التساؤل عن الطريقة التى نستطيع بها معرفة أن هناك نوعا آخر أو كيانا آخر أذكى مما نحن عليه. أليست المعرفة تحصيل حاصل؟ كيف يمكننا أن نعرف أكثر مما نعرفه بالفعل؟ من الذى سيعرف ذلك إلا إيانا؟

إحدى الإجابات هى أننا لا نريد أى دعم ولا نريد أن تكون لنا نانوبوتات. يقول الكثير من الأفراد إنهم يريدون فحسب أن يبقى كل واحد منهم كشخص بيولوجى. ولكن ماذا ستبدو عليه المفردة بالنسبة للناس الذين يريدون أن يبقوا بيولوجيين؟ الإجابة هى أنهم فى الحقيقة لن يلحظوا وجودها، فيما عدا حقيقة أن ذكاء الماكينة سيبدو للبشر البيولوجيين وكأنه خادم لهم من نوع متعالى. ستبدو هذه الماكينات ودودة جدا، وترعى كل احتياجاتنا. على أن ذلك بشرط أن تلك الخدمة التى تفى بكل الاحتياجات المادية والعاطفية للبشر البيولوجيين تشكل فحسب جزءا صغيرا جدا من المنتج العقلى للعنصر غير البيولوجى لحضارتنا. ومن ثم، فإن هناك أمورا كثيرة لن يلحظها البشر البيولوجيون.

لدينا هنا مستويان لاعتبار الأمر. أحدهما أنه على المستوى الاقتصادى، يكون المنتج العقلى هو المعيار الأساسى. نحن نقترّب بالفعل من النقطة التى تكون فيها المعلومات هى الشئ الوحيد الذى له قيمة. المعلومات لها قيمة لدرجة أنها تعكس معرفة وليس مجرد بيانات خام. ومثلا، فإن الساعة، والكاميرا، ومسجل

الشروط أشياء فيزيقية، إلا أن قيمتها الحقيقية هي في المعلومات التي تدخل في تصميمها: تصميم ما فيها من رقائق، والبرمجيات التي تستخدم في ابتكارها وتصنيعها. لا تساوى المواد الخام الفعلية إلا قروشا معدودة، فهي حفنة من رمال وبعض معادن وما إلى ذلك، ولكن هذه المنتجات لها قيمتها بسبب كل المعرفة التي دخلت في تخليقها. كما أن عنصر المعرفة في المنتجات والخدمات عنصر من خط مقارب^(٢٦) يتجه لنسبة مائة في المائة. عندما يأتي زمن وصولنا إلى ٢٠٣٠، سيكون أساسا خطأ مقاربا بمائة في المائة. سنتمكن من خلال توليف النانوتكنولوجيا والذكاء الاصطناعي من أن نخلق في الواقع أى منتج فيزيقى وأن نفى بكل احتياجاتنا المادية. عندما تصبح كل الأشياء برمجيات ومعلومات، نصير المسألة مجرد نقل بالتحميل للبرمجيات المناسبة، وقد أصبحنا بالفعل قريبين من ذلك إلى حد كبير.

أما على المستوى الروحاني، فإن قضية ما يكونه الوعي قضية مهمة أيضا. سيكون لدينا بحلول ٢٠٣٠ كيانات تبدو واعية وسوف تزعم أن لديها مشاعر. لدينا الآن كيانات - شخصيات في أفلام فيديو أولادنا مثلا - تستطيع أن تزعم مزاعم تشبه ذلك، ولكنها مزاعم ليست جد مقنعة. فهذه كيانات برمجيات لاتزال أبسط بمليون مرة عن المخ البشرى. لن يكون الحال هكذا في ٢٠٣٠. ولنقل مثلا إننا سنلاقي في الواقع الخائلى شخصا آخر يبدو مشابها تماما للإنسان ولكن لا يوجد إنسان بشرى من ورائه، إنه بالكامل ذكاء اصطناعي يعرض شكلا مشابها للإنسان في الواقع الخائلى، أو هو حتى صورة لشبه الإنسان في الواقع الحقيقى تستخدم تكنولوجيا روبوتية لشكل بشرى. سيبود هذه الكيانات وكأنها بشرية. لن تكون أبسط بمليون مرة عن البشر؛ ستكون مركبة مثل البشر. ستكون لديها كل الإشارات الرهيفة لكونها من البشر. ستكون قادرة على أن تجلس ها هنا وأن تجرى معها مقابلة وتكون مقنعة بالضبط مثل الإنسان، ومركبة بالضبط مثله، ومثيرة للاهتمام مثله بالضبط. وعندما تزعم أنها غاضبة أو سعيدة، ستكون مقنعة في ذلك بما يماثل بالضبط إنسانا عندما يزعم تلك المزاعم.

(٢٦) الخط المقارب في الرياضة يقترب باستمرار من منحنى ولكنه لا يلتقى به أبدا. (المترجم)

نصل عند هذه النقطة إلى قضية فلسفية عميقة. هل مثل هذا الكيان هو مجرد محاكاة بارعة جدا بالدرجة الكافية لخداعنا، أو أنه له وعى حقا بالطريقة التى نفترض بها أن الناس الآخرين واعون؟ فى رأى الشخصى أنه لا توجد طريقة حقيقية لاختبار ذلك علميا. ليست هناك ماكينة يمكننا أن نزلق هذا الكيان داخلها، ويكون فيها ضوء أخضر ينبىء ويقول "حسن، هذا كيان له وعى"، أو "هذا كيان لا وعى له". يمكننا صنع هذه الماكينة، ولكنها ستكون لديها افتراضات فلسفية مبنية من داخلها. سيقول بعض الفلاسفة إنه ما لم يكن لدى هذا الكيان نبضات تنبجس من خلال ناقلات عصبية بيولوجية، فإنها لن تكون واعية، أو إنه ما لم تكن إنسانا بيولوجيا له أم وأب بيولوجيان، فإنها لن تكون واعية. على أن الوعى سيصبح مسألة جدل فلسفى؛ إنه غير قابل للحل علميا.

الثورة الكبيرة التالية - الثورة التى ستؤثر فىنا تأثيرا فوريا - هى التكنولوجيا البيولوجية، لأننا قد دمجنا المعرفة البيولوجية مع معالجة المعلومات. نحن فى الأطوار المبكرة من فهم عمليات الحياة وعمليات المرضى عن طريق فهم الجينوم والطريقة التى يعبر بها الجينوم عن نفسه فى بروتينات. سوف نجد عندنا هناك منحدرًا زلقًا وأنه لا يوجد تحديد واضح لوقت بدء الحياة، وقد كان هذا أمرا واضحا طول الوقت. ظل أفراد كل جانب من جانبي النزاع حول الإجهاض يخافون من أن يفلت منهم أحد طرفى هذا النزاع: طرف بأن الحياة تبدأ بالحمل، أو طرف بأن الحياة تبدأ بالميلاد. وهم لا يريدون إفلات هذين الطرفين لأنهم يدركون أن الأمر كله منحدر زلق تماما يمتد من أحد الطرفين لآخر. بل إننا سنجعله حتى أكثر انزلاقا. سوف نتمكن من تخليق خلايا جذع دون أن نمر بالفعل مطلقا بمرحلة البويضة المخصبة. ما الفارق بين خلية جلد يحوى كل الجينوم، وبين البويضة المخصبة؟ الفارق الوحيد هو بعض بروتينات فى البويضة وبعض عوامل لإرسال الإشارات لا نفهمها بعد فهما كاملا، هى أساسا بروتينات (من الواضح أن جزيئات صغيرة من RNA تلعب هنا دورا كبيرا). سنصل إلى نقطة نتمكن عندها من أن نأخذ بعض مزيج بروتينى - هو مجرد حزمة من الكيماويات ومن الواضح أنها ليست إنسانا - ونضيف له خلية جلد لنخلق بويضة مخصبة يمكننا بعدها أن نجعلها تتمايز فى التو

إلى أى نوع من خلايا الجسد. عندما أفرك يدي معا وأنفض بعيدا آلافا من خلايا الجلد، فأنا عندها أدمر آلافا من أفراد بشر محتملين. لن يوجد أى حد فاصل واضح.

هذه طريقه أخرى لأن نقول إن العلم والتكنولوجيا ستجد طريقا للالتفاف حول النزاع. سوف نتمكن فى المستقبل من تنفيذ استئصال (استئساخ) علاجي، وهذه تكنولوجيا مهمة جدا، ونتفادى بالكامل مفهوم الجنين. سنكون قادرين على أخذ خلايا جلدية لنخلق منها كل الخلايا التى نحتاجها، بطريقة مباشرة إلى حد كبير، دون أن نستعمل قط جنينا. حدثت أوجه تقدم مهمة فى أداء ذلك فى العام الماضى لا غير: تمكن العلماء من أن يحولوا مباشرة الخلايا الجلدية إلى خلايا المناعة وخلايا عصبية دون استخدام الاستئصال أو خلايا جذع جنينية.

نحن لسنا ببيعيدين كل البعد عن أن نكون قادرين على تخليق خلايا جديدة. وكمثل، يبلغ عمري الآن أربعة وخمسين، ولكنى سأتمكن بواسطة ما لدى من دنا من أن أخلق خلايا قلب لرجل يبلغ عمره الخامسة والعشرين، وسأتمكن من أن أجعل هذه الخلايا تحل محل قلبى دون جراحة وإنما بمجرد إرسالها خلال تيار دمي. سوف تتخذ مستقرها فى القلب، وبالتالي سيكون لدى فى أول الأمر قلب فيه نسبة واحد فى المائة من الخلايا صغيرة السن و ٩٩ فى المائة من الخلايا الأكبر سنا. ولكنى عندما أوصل فعل ذلك يوميا، سيكون قلبى بعد سنة مكونا من ٩٩ فى المائة من الخلايا صغيرة السن. نستطيع فى النهاية عن طريق هذا النوع من العلاج أن نجدد خلايا كل الأنسجة والأعضاء فى الجسم. هذا أمر لن يحدث غدا، ولكن هذا هو نوع العمليات الثورية التى وصلنا إلى حافتها.

لو نظرنا أمر مدى طول العمر البشرى - وهذا فيه اتجاه أسى آخر - سنلاحظ أنه كانت تضاف أيام معدودة سنويا إلى العمر المتوقع للإنسان فى القرن الثامن عشر. ثم أصبح يضاف أسابيع معدودة سنويا فى القرن التاسع عشر، أما الآن فنحن نضيف ما يزيد عن مائة يوم سنويا بسبب كل تلك الأوجه من التقدم التى ستظل مستمرة فى تسارع عجلتها. يشعر الكثيرون من الراصدين العارفين، بما فيهم أنا نفسى، بأننا خلال عشر سنوات سوف نضيف ما يزيد عن سنة سنويا إلى

العمر المتوقع. وبالتالي فإننا كلما وصلنا لسن أكبر، يتسع مدى العمر المتوقع للإنسان بمعدل أسرع من تقدمنا في العمر. لو أمكننا أن نثابر باقين ها هنا سيكون جيلنا عند الحافة مباشرة. سيكون علينا أن نرعى أحوالنا الصحية لبعض زمن بالأسلوب القديم، حتى لا نكون آخر جيل يموت قبل الأوان. إلا أنه بحلول الوقت الذي يصل فيه عمر أطفالنا إلى الثلاثين أو الأربعين، ستكون تلك التكنولوجيات قد بلغت درجة من التقدم بحيث إن العمر المتوقع للإنسان سيزيد زيادة هائلة.

هناك أيضا تلك القضية الأساسية عما إذا كانت النزاعات الأخلاقية ستؤدي إلى توقف هذه التطورات التي أتحدث عنها. ستكون الأمور على أفضل ما يكون لو كان لدينا هذه النماذج والاتجاهات الرياضية، ولكن السؤال هو، هل سيحدث أن نصطدم بجدار مسدود لأن الناس لسبب أو لآخر سوف يوقفون نمو هذا التطور الذي يتواصل أسيا، عن طريق الحرب ضده أو عن طريق النزاعات الأخلاقية من نوع الخلاف الذي يدور حول الخلايا الجذعية؟

أعتقد اعتقادا قويا أن هذا لن يحدث. النزاعات الأخلاقية تشبه حجارة في جدول. ستواصل المياه جريانها من حولها. لم يحدث أن رأينا أى تكنولوجيات حيوية وقد توقفت عن السير بواسطة أى من هذه النزاعات، ولو لأسبوع واحد. سيكون علينا إلى حد ما أن نجد سبلا أخرى لندور حول بعض القيود، ولكن هناك الكثير جدا من التطورات التي تواصل الطريق. هناك عشرات من الأفكار المثيرة جدا تدور حول طريقة استخدام معلومات الجينوم ومعلومات البروتيوم. وعلى الرغم من أن الخلافات قد تلتصق بإحدى الأفكار هنا أو هناك، فإن هناك نهرا يتدفق بأوجه التقدم - ذلك أن صميم مفهوم التقدم التكنولوجي مغروس غرسا عيمقا في مجتمعا - وهذه حقيقة ملحة هائلة. أنا موافق على وجود مخاطر، ولكن ليس من المحتمل أن يتوقف التقدم المتسارع للتكنولوجيا إلا لو استخدم لذلك سيناريو لحكومة شمولية مثلما ورد في رواية "عالم شجاع جديد"^(٢٧) حيث تستخدم التكنولوجيا لحظر أى نمو تكنولوجي.

(٢٧) رواية خيال علمي ألفها أندوس هكسلى الإنجليزي (١٨٩٤ - ١٩٦٣) عن نظام دكتاتوري يسيطر على الشعب بتكنولوجيا العقاقير والإعلام. (المترجم)

أتحدث عن أنواع من السيناريو ستحدث بعد ما يقرب من عشرين أو ثلاثين سنة من الآن لن تكون نشأتها بسبب أن هناك معمل ما قابع هناك حيث يخلق فى إحدى الماكينات ذكاء بالمستوى البشرى. وإنما تحدث هذه السيناريوهات لأن هذه هى النتيجة الحتمية لآلاف من الخطوات الصغيرة. وكل خطوة صغيرة منها هى خطوة متحفظة، غير راديكالية، ولها معنى بكمال محكم. وكل خطوة هى مجرد الجيل التالى فى منتجات لشركة ما. وعندما نأخذ الآلاف من تلك الخطوات الصغيرة - التى تحدث بمعدل أسرع وأسرع - ينتهى بنا الأمر إلى تغيرات ملحوظة بعد عشرة أو عشرين أو ثلاثين عاما من الآن. يعمل بيل جوى كبيراً لعلماء شركة "سن ميكروسيستمز"، ومع كل ما يبدىه من أوجه قلق مشروعة إلا أننا لم نسمع أن شركته تقول إن الدلالات المستقبلية لهذه التكنولوجيات تنصف بالخطر لدرجة أن الشركة ستوقف تخليق الشبكات الأكثر ذكاء والكمبيوترات الأكثر قوة. ليس فى استطاعة شركة سن أن تتوقف. لا توجد شركة تستطيع التوقف، لأنها عندها ستخرج من نطاق أعمال المال. ها هنا حقيقة اقتصادية ملحة إلحاحاً هائلاً.

هناك أيضاً حقيقة أخلاقية ملحة إلحاحاً عظيماً. لا يزال يوجد الملايين بل البلايين من الناس الذين يعانون من المرض والفقر، ولدينا الفرصة للتغلب على هذه المشاكل من خلال أوجه التقدم التكنولوجية. لن نستطيع أن نخبر ملايين الأفراد الذين يعانون من السرطان أننا عل وشك إنجاز نجاحات مخترقة عظيمة سوف تتقدمهم من السرطان، إلا أننا سنوقف كل ذلك لأن الإرهابيين ربما سيستخدمون المعرفة نفسها لتخليق جراثيم مرضية مهندسة بيولوجياً. سيكون للمصادرة هكذا جانب له مصداقيته كعامل يثير القلق، ولكننا لن نتوقف. يوجد فى مجتمعنا إيمان هائل بالفوائد الناتجة عن تواصل التقدم الاقتصادى والتكنولوجى. ومع ذلك يظل يثار بالفعل السؤال عن مخاطر هذه التكنولوجيات. وأنا أوافق على أننا نحتاج لتركيز انتباهنا فى أن نتعامل على وجه التحديد مع سيناريوهات الخطر هذه. وفى رأى الشخصى أنها التحدى الرئيسى للقرن الحادى والعشرين.

يوجد جانب آخر فى كل هذه التغيرات وهى أنها تجبرنا على إعادة تقييم مفهومنا عما يعنيه أن نكون بشراً. ثمة اعتراض عام بالنسبة لتقدم التكنولوجيا

ودلالاته فيما يتعلق بالبشرية. وهو يجرى كالتالى: سيكون لدينا كمبيوترات قوية جدا، ولكننا لم نحل مشكلة البرمجيات، وكنتيجة لأن البرمجيات أمر مركب إلى حد لا يصدق، فإننا لا نستطيع التحكم فيها. سارد على هذا الاعتراض بأن أقول إن البرمجيات المطلوبة لمحاكاة الذكاء البشرى أصبحت بالفعل من الأمور التي لا تتجاوز قدرتنا الحالية. علينا أن نستخدم تكنيكات مختلفة - طرائق مختلفة من تنظيم ذاتي - نلهمنا بها البيولوجيا. نعم، إن المخ معقد، ولكنه ليس بالمعقد إلى تلك الدرجة. علينا أن نبقى في الذهن أنه يتميز بوجود جينوم له فحسب ٢٣ مليون بايئة. الجينوم فيه ٦ بلايين بئة - أى ٨٠٠ مليون بايئة - وهذا فيه قدر هائل من الحشو. هناك تتابع طويل نوعا يسمى "آلو" Alu يتكرر ٣٠٠٠٠٠ مرة. لو استخدمنا الضغط التقليدي للبيانات التي على الجينوم، سنحصل على ما يقرب من ٢٣ مليون بايئة (وهذا جزء صغير من حجم "ميكروسوفت وورد" (= كلمة ميكروسوفت)، أى أنه بمستوى من التركيب يمكننا أن نتعامل معه. ولكننا لم نجر بعد تحليل هندسة عكسية لهذه المعلومات، أى أننا لا نفهم بعد مبادئ تشغيل المخ البشرى.

لعل القارئ سيتساءل كيف لشيء به ٢٣ مليون بايئة أن يتمكن من تخليق مخ بشرى هو معقد أكثر منه هو نفسه بمليون مرة. ليس من الصعب فهم ذلك. الجينوم يخلق عملية من توصيلات في منطقة من المخ البشرى تتضمن الكثير من العشوائية. وبعدها حين يصبح الجنين وليدا يأخذ في التفاعل مع عالم معقد جدا، تحدث عملية تطورية داخل المخ تموت فيها الكثير من الوصلات، ويدعم البعض الآخر، ويتم تنظيمه ذاتيا ليتمثل ماله معنى من المعرفة والمهارات. هذا نظام بارع جدا، ونحن لا نفهمه بعد، ولكننا سوف نفهمه، لأنه ليس على مستوى من التركيب يتجاوز ما نقدر عليه من الهندسة.

فى رأى الشخصى أن هناك شيئا خاصا فيما يتعلق بالبشر يختلف عما نراه فى أى من الحيوانات الأخرى. أصبحنا بصدفة من التطور، أول نوع يصير قادرا على خلق التكنولوجيا. الواقع أنه كان هناك أنواع أخرى، ولكننا النوع الوحيد الذى

بقى حيا فى هذا الموقع الإيكولوجى. لقد ولفنا بين ملكة عقلانية، والقدرة على التفكير منطقيا، وخلق التجريدات، وخلق نماذج للعالم فى عقولنا الخاصة، والتحكم فى العالم. لدينا إيهام يقابل باقى الأصابع، بحيث أمكننا خلق التكنولوجيا، ولكن التكنولوجيا ليست مجرد أدوات. تستخدم الحيوانات الأخرى أدوات بدائية. وجه الاختلاف هو وجود كيان للمعرفة يتغير ويتطور من جيل لآخر. المعرفة التى يحوزها النوع البشرى هى اتجاه آخر من تلك الاتجاهات الأسية.

نحن نستخدم إحدى مراحل التكنولوجيا لتخليق المرحلة التالية، وهذا هو السبب فى تسارع عجلة التكنولوجيا، والسبب فى تنامى قوتها. يحدث الآن مثلا أن مصمم الكمبيوتر لديه أدوات تصميم لنظام الكمبيوتر ذات قوة هائلة من أجل خلق الكمبيوترات، بحيث إنها تستطيع فى يومين اثنين خلق نظام بالغ التركيب ويمكن تحقيقه كله فى زمن سريع جدا. أما مصممى أجهزة الكمبيوتر الأوائل فقد كان عليهم أن يرسموها كلها بالفعل باستخدام القلم والورق. يخلق كل جيل من الأدوات القدرة على خلق الجيل التالى.

هكذا فإن التكنولوجيا نفسها عملية تطويرية أسية، استمرار للتطور البيولوجى الذى خلق البشرية فى المكان الأول. التطور البيولوجى قد تطور بأسلوب أسى. أدى كل طور منه إلى خلق أدوات أكثر قوة للطور التالى، وبالتالي فإنه إذ خلق التطور البيولوجى حمض دنا أصبح لديه عندها وسيلة لحفظ سجلات تجاربه بحيث يمكن للتطور أن يستمر بسرعة أكبر. وكنتيجة لذلك لم يبق الانفجار الكمبرى إلا لعشرات قليلة من ملايين السنين، فى حين استغرقت المرحلة الأولى - مرحلة تخليق دنا والخلايا الأولية - البلايين من الأعوام. وأخيرا فإن التطور البيولوجى خلق نوعا يستطيع التعامل مع بيئته ولديه بعض ملكات عقلانية، وقد تحول الآن هذا العامل الطليعى الفعال للتطور ليتغير من التطور البيولوجى إلى شىء ينفذه أحد مخلوقاته هو نفسه، "الهوموسابينز"، ويتمثل هذا الشىء فى التكنولوجيا. سنجد فى الفترة التالية أن هذا النوع الذى يتدخل فى عملية تطويره هو نفسه - فيما يخصه من تطور ثقافى وتكنولوجى، وبما لم يفعله أى نوع آخر، سوف يتحد مع ما يخلقه

هو نفسه. فهو سيندمج مع تكنولوجيايته. يحدث هذا حاليا بالفعل عند بعض المستويات - حتى وإن كان معظمنا لا يحوزونه بالضرورة في الداخل من أجسادهم ومخهم - ذلك أننا الآن على علاقة حميمة جدا بالتكنولوجيا. إنها في الداخل من جيوبنا.

نصف واحد من بيان

جارون لانيير^(٢٨)

نحن نتخيل نظاما سيرنطيقية "خالصة"، ولكننا نستطيع فقط أن نبرهن على أننا نعرف طريقة لإنشاء نظم منها تنسم إلى حد كبير بالخلل الوظيفي. نحن نخدع أنفسنا عندما نظن أننا نفهم شيئا ما، حتى ولو كان كمبيوترا، لمجرد أننا نستطيع نمذجته أو رقمته.

(٢٨) جارون لانيير عالم كمبيوتر وموسيقى، وهو عالم مرموق في هيئة "المبادرة القومية للتعليم عن بعد"، وهي هيئة ائتلاف بين جامعات بحثية تدرس تطبيقات متقدمة لشبكة "الإنترنت ٢". ومع ما اشتهر به من أبحاث "الواقع الخائلي"، وهذا مصطلح قد سكه هو، فإن لانيير ساعد في إنشاء أول ما تم تنفيذه من العوالم الخائلية لأشخاص متعددين باستخدام أجهزة عرض تتركب على الرأس، كما شارك أيضا في إنشاء أول ما تم تنفيذه من الواقع الخائلي في المحاكيات الجراحية، وتصميم النماذج الأولية للعربات، وتطبيقات أخرى مختلفة. وكوموسيقى فإنه يؤلف موسيقى للأوركسترا، ويعزف على عدد كبير من الآلات من أرجاء العالم كله، وهو يؤدي العزف بالاشتراك مع عازفين متنوعين تنوعا واسعا بدءا من فيليب جلاس حتى جورج كلينتون.

وجدت نفسى طوال السنوات العشرين الأخيرة فى الداخل من إحدى الثورات وإن بقيت فى الخارج مما لها من "الدوجما" المتألفة. والآن فإن هذه الثورة لم تقتصر على أن تصطدم بالتيار الرئيسى وإنما هى أيضا قد أكرهته على الإذعان بأن سيطرت على الاقتصاد، ولعل الوقت قد حان بالنسبة لى لأن أصرخ معلنا معارضتى لها بصور أعلى من أى مما فعلته من قبل.

تتألف الدوجما التى أعارضها من مجموعة من اعتقادات متشابهة ومع ذلك ليس لها للآن اسم متفق عليه عموما ليغطيها، وإن كنت أسميها أحيانا بأنها المذهب "الشمولى السبيرنطيقى". لهذا المذهب إمكانية إحداث تحول فى الخبرة البشرية بدرجة أقوى من أى أيديولوجية مسبقة، أو دين أو نظام سياسى مسبق، وسبب ذلك فى جزء منه هو أنه يمكنه أن يمتع العقل إمتاعا بالغا (على الأقل فى أول الأمر) ولكن السبب فى معظمه هو أن هذا المذهب يمتطى مجانا التكنولوجيات القوية التى يخلقها أناس هم إلى حد كبير يؤمنون به إيمانا حقيقيا.

من المؤكد أن الاستخدام الأصلى لمصطلح "السبيرنطيقا" كما صاغه نوربرت واينر، لم يكن يقتصر على الكمبيوترات الرقمية. فقد كان معناه أصلا أنه يطرح استعارة مجاز بين الملاحة البحرية وجهاز للتغذية المرتدة يتحكم فى نظام ميكانيكى مثل الثروموستات. ومن المؤكد أن واينر قد أدرك واستكشف بشريا الامتداد الخارق للمعتاد لهذه الاستعارة، وهى إحدى أقوى الاستعارات التى تم التعبير عنها بأى حال. أرجو ألا يظن أحد أنى أسوى بين السبيرنطيقا وما أسميه المذهب الشمولى السبيرنطيقى. هناك بون شاسع بين إدراك استعارة عظيمة وبين معاملتها على أنها الاستعارة الوحيدة وهى مسافة تماثل البعد بين العلم المتواضع والعقيدة الدوجماتية.

إليك جزء من قائمة الاعتقادات التى يتكون منها المذهب الشمولى السبيرنطيقى:

١ - أن الأنماط السبيرنطيقية للمعلومات تمدنا بأفضل طريقة نهائية لفهم الحقيقة.

٢ - أن الناس لا يزدوا عن كونهم أنماطا سبيرنطيقية.

- ٣ - أن الخبرة الذاتية إما أنها لا وجود لها أو أنها غير مهمة لأنها بعض نوع من تأثير في المحيط الخارجى أو الأطراف.
- ٤ - أن ما وصفه داروين فى البيولوجيا، أو ما يشبه ذلك، هو أيضا فى الحقيقة التوصيف المتفرد الفائق لكل ما يمكن من الإبداع والثقافة.
- ٥ - أن الجوانب الكيفية وكذلك أيضا الجوانب الكمية لنظم المعلومات سوف تتسارع حسب "قانون مور". وأخيرا والأكثر درامية:
- ٦ - أن البيولوجيا والفيزياء ستندمج مع علم الكمبيوتر، لتصبح بيوتكنولوجيا ونانو تكنولوجيا، بما سينتج عنه أن الحياة والكون الفيزيقي سيصبحان كيانا زئبقيا، ويتم التوصل إلى الطبيعة المفترضة لبرمجيات الكمبيوتر. وبالإضافة، فإن هذا كله سوف يحدث سريعا جدا! بما أن الكمبيوترات تتحسن بسرعة بالغة، فسوف تغطي على كل العمليات السيبرنطيقية الأخرى (مثل البشر) وتغير تغييرا أساسيا من طبيعة ما يجرى فى الجيرة المألوفة من الأرض عند لحظة معينة عندما يتم التوصل إلى "كتلة حرجة" جديدة، ربما فى وقت يقرب من ٢٠٢٠. سوف يستحيل بعد هذه اللحظة أن نكون بشرا، أو أننا سنكون شيئا مختلف تماما عما نعرفه الآن.

ظهر خلال السنوات العشرين الأخيرة تدفق من الكتب التى زودت تدريجيا أكبر عدد من الجمهور بالمعلومات حول بنية عقائد الحلقة الداخلية للنخبة من أتباع الرقمية، بدأت أولا بصوت خافت، كما مثلا فى مؤلف دوجلاس هوفستادتر "جودل وإشر، وباخ"^(٢٩) ثم زاد الصوت ارتفاعا مع المداخلات الحديثة مثل كتاب راي كيرزويل^(٣٠) "عصر الماكينة الروحانية".

حدث مؤخرا أن جذب انتباه الجمهور فى النهاية إلى الاعتقاد السادس، الإيمان المذهل بجائحة غيبية تقع فى أثناء حياتنا، وتنتج عندما تصبح الكمبيوترات

(٢٩) كتاب هوفستادتر عن "جودل وإشر وباخ" كتاب عن التشابه البينوى بين المنطق الرياضى عند جودل، وأعمال إشر فنان الحفر التشكلى، وأعمال باخ الموسيقية، (المترجم)

(٣٠) راي كيرزويل: كتب المقال السابق "المفردة" فى هذا الجزء من الكتاب، وفيه يطرح آخر آرائه. (المترجم)

السادة فائقى الذكاء للمادة الفيزيائية والحياة. وفى حدود ما أستطيع معرفته، فإن هناك عددا كبيرا من أصدقائى وزملائى يؤمنون ببعض صورة من هذا القدر المشنوم الوشيك. عندى فضول لأن أعرف من من بين المفكرين المشهورين الذين يتقبلون إلى حد كبير بعض صورة للنقاط الخمس الأولى، يتقبلون أيضا برضى النقطة السادسة، نقطة الجائحة الغيبية. وجدت عموما أن التكنولوجيين، بأولى من العلماء الطبيعيين، يكون لديهم النزعة لأن يصرحوا بإمكان وقوع حدث حرج على المدى القريب. على أى حال، ليس لدى أى فكرة عما تكونه الأرقام التى يستنتجها بهذ الشأن البيولوجى ريتشارد دوكنز أو الفيلسوف دانييل دينيت. وأنا على نحو ما لا أستطيع أن أتخيل هذين المنظرين الرائعين وهما يخمنان ما إذا كانت النانوروبونات قد تسيطر على كوكبنا فى عشرين سنة. يبدو أن هذا أمرا أقل مما تسمح به كرامتهم. ومع ذلك فإن الجائحات الغيبية عند كيرزويل، وهانز مورافيك، وإريك وديكسلر تتبع مباشرة - وبما يبدو حتميا - من فهم للعالم ثم التعبير عنه بأفصح بيان، ليس عن طريق أحد إلا دوكنز ودينيت. هل الأمر أن دوكنز ودينيت، وغيرهما ممن فى معسكرهما، عندهم خطأ منطقى يفصل بين تفكيرهم ودلالات الجائحة الغيبية؟ فيما أرى، فإن أول ما يرشح كعنصر لهذا الخطأ هو أن المؤمنين بجائحة المعلومات يخلطون بين الكمبيوترات المثالية والكمبيوترات الحقيقية التى تسلك سلوكا مختلفا. وموقفى بالنسبة لهذه النقطة يمكن تقييمه على نحو منفصل عن موافقى بالنسبة للنقط الخمس الأولى وهى مواقف لا يمكن إنكار أنها استقرازية، وآمل أنه أيضا سيكون كذلك.

لماذا يكون هذا المقال "نصف واحد لبيان"؟ أمل ألا يظن القراء أنى غارقا فى بعض نوع من الرفض الكئيب للتكنولوجيا الرقمية. الحقيقة أنى سعيد أكثر من أى وقت آخر بأنى أعمل فى علم الكمبيوتر، وأجد أن من السهل إلى حد كبير أن نتخذ إطارا إنسانيا لتصميم الأدوات الرقمية. يحدث الآن بالفعل ازدهار رائع كوكبى لثقافة الكمبيوتر، نشأ فى معظمه مستقلا عن النخبة التكنولوجية، التى ترفض ضمنا الأفكار التى أهاجمها هنا. لو كان البيان كاملا لحاول أن يوصف ويروج هذه الثقافة الإيجابية.

سأتفحص الآن الاعتقادات الخمسة التي يجب أن تسبق تقبل الجائحة الغيبية الجديدة، ثم أنظر بعدها في الجائحة الغيبية نفسها.

- "الاعتقاد الأول في المذهب الشمولي السيرنطيقى: أن الأنماط السيرنطيقية للمعلومات تمدنا بأفضل طريقة نهائية لفهم الحقيقة". هناك دفعة لا تتكرر من الإثارة التي يخبرها أولئك الذين يتمكنون لأول مرة من إدراك إحدى الظواهر سيرنطيقيا. وكمثل، بينما أعتقد أنني أستطيع تخيل قدر ما، لابد من أن عملية الإثارة كانت عليه عند استخدام المعدات الفوتوغرافية الأولى في القرن التاسع عشر، فإني لا أستطيع أن أتخيل أن أى شخص من الخارج يمكنه فهم إحساس من يوجد أمام التكنولوجيا الباكورة لرسوم الكمبيوتر فى سبعينيات القرن العشرين. ذلك أن هذه لم تكن مجرد طريقة لصنع وعرض الصور وإنما هى نظام إطار جامع فوقى تصنف فيه كل الصور الممكنة. بمجرد أن نستطيع فهم شىء ما بالطريقة التي نجعلنا نتمكن من دفعه داخل أحد الكمبيوترات، فإننا نكون قد اخترقنا شفرته، وتفوقنا على أى ميزة خاصة قد تكون لديه فى وقت بعينه. الأمر يشبه أن نكون قد أصبحنا آلهة فن الرؤية الذين يبتكرون بفعالية كل الصور الممكنة، ذلك أنها ستكون مجرد إعادة ترتيب للشداف التي فى داخل الكمبيوترات الموجودة أمامنا، ولكنها تحت سيطرتنا.

الدافع السيرنطيقى تسوقه أصلا الأنا "ego" (وإن كنا سوف نرى عند نهاية المباراة، التي لم تحل بعد، أنه سيصير عدو الأنا). وكمثل، فإن أتباع المذهب الشمولى السيرنطيقى ينظرون إلى الثقافة فيرون "الميمات" - تعبيرات عقلية مجازية مستقلة ذاتيا وتتنافس على حيز المخ عند البشر - بما يشبه نوعا تنافس الفيروسات. عندما يفعل ذلك أتباع المذهب الشمولى السيرنطيقى فإنهم لا يقتصرون على إنجاز نصر لفريقهم الإمبريالى، واضعين أنفسهم فى موضع وهمى من الفهم الفائق إزاء كل ما فى الإنسانية، وإنما هم أيضا يتفادون ما يلزم عليهم من بذل انتباه كثير للتفاصيل الموجودة فى إحدى الثقافات فى وقت ومكان معينين. عندما نصنف شيئا ما فى مختزله السيرنطيقى، سيبدو فى التو أن أى إعادة تنظيم بعينها لشدفة ليست بالأمر المهم.

الاعتقاد الأول ظهر مباشرة تقريبا مع الكمبيوترات الأولى. وقد عبر عنه بوضوح الجيل الأول من علماء الكمبيوتر، جيل ويز، وشانون، وتورنج. ومن الأمور الأساسية أنه لم يعد له بعد أى ذكر حتى بين أفراد الحلقة الداخلية. كما أنه أيضا له جذوره المغروسة عميقا حتى أنى أجد من الصعب على أن أبتعد بنفسى عن كل تلك البيئة العقلية المحيطة بى بعدا كافيا لأن أعبر بوضوح عن وجود بديل له. على أن البديل قد يكون كالتالى: النموذج السيرنطيقى لإحدى الظواهر لا يمكن أبدا أن يكون النموذج الوحيد المفضل، لأننا لا نستطيع حتى أن نبني كمبيوترات تتوافق مع هذه النماذج. الكمبيوترات الحقيقية تختلف اختلافا كاملا عن الكمبيوترات المثالية النظرية. ففى تصاب بالعطب لأسباب ليست دائما مما يمكن تحليله كما أنها فيما يبدو تقاوم بحكم بنيتها الداخلية الكثير من محاولاتنا لتحسينها، يرجع سبب ذلك فى جزء كبير منه إلى مشاكل تراث المصطلح والرموز والانغلاق عليها، وذلك من بين مشاكل أخرى. نحن نتخيل نظاما سيرنطيقى "خالصة"، ولكننا نستطيع فقط أن نبرهن على أننا نعرف طريقة لإنشاء نظم منها تتسم إلى حد كبير بالخلل الوظيفى. نحن نخدع أنفسنا عندما نظن أننا نفهم شيئا ما، حتى ولو كان كمبيوترا، لمجرد أننا نستطيع نمذجته أو رقمته.

هناك أيضا مشكلة إبستمولوجية تثير قلقى، وإن كان زملائى عموما على استعداد لتجاهلها. أعتقد أننا لا نستطيع قياس وظيفة الكمبيوتر أو حتى وجوده، من غير السياق الثقافى لذلك. أعتقد أن سكان المريخ لن يستطيعوا بالضرورة تمييز جهاز ماكنتوش من جهاز تدفئة الحجرة.

تؤدى أوجه الخلاف السابقة فى النهاية إلى مجموعة من المناقشات التكنيكية عن نظرية المعلومات والمواقف الفلسفية التى تنشأ غالبا عن أمور من الذوق والاعتقاد. وهكذا فأنا أحاول تعزيز موقفى باعتبارات برجماتية، وبعض هذه الاعتبارات سيأخذ فى الظهور فى أفكارى.

- "الاعتقاد الثانى: أن الناس لا يزدوا عن كونهم أنماطا سيرنطيقىة". تعتمد كل أوام المذهب الشمولى السيرنطيقى على الذكاء الاصطناعى. ربما لا يكون من

الواضح بطريقة مباشرة السبب فى أن هذه الأوهام ضرورية بالنسبة لأصحابها. إذا كان للكمبيوترات أن تكون ذكية الذكاء الكافى لأن تصمم خلفاءها أنفسهم، وتبدأ عملية تؤدى إلى أن يكون لها وجود شامل فى كل زمان ومكان وذلك بعد عدد من التمريرات التى تتزايد سرعتها دائما من أحد أجيال الكمبيوتر للجيل التالى، إذا كان للكمبيوترات أن تكون كذلك، سيكون على أحدهم عندها أن يؤلف البرمجيات التى تجعل هذه العملية تتواصل، على أن البشر لم يعطوا مطلقا أى برهان على قدرتهم على تأليف برمجيات كهذه. ومن هنا تأتى فكرة أن الكمبيوترات ستصير بطريقة ما ذكية بذاتها وتؤلف برمجياتها الخاصة بها.

اعتراضى الرئيسى على هذه الطريقة من التفكير اعتراض برجماتى. فهى تؤدى حاليا فى العالم الواقعى إلى برمجيات من نوع سيئ. أتباع المذهب الشمولى السبرنطيقى يعيشون وعقولهم فى المستقبل، وهم على استعداد لتقبل أخطاء واضحة فى البرمجيات الحالية ليدعموا أفكارهم عن عالم وهمى ربما لن يظهر أبدا.

يتأسس كل مشروع الذكاء الاصطناعى على خطأ عقلى، وهو يواصل إنتاج برمجيات سيئة والتصميم وباهظة التكلفة، يعاد تسويقها تحت اسم جديد لكل جيل جديد من المبرمجين. وقد سميت مؤخرا بأنها "العوامل الفعالة للذكاء"، وكانت آخر تسمية سابقة لها هى "النظم الخبيرة".

هيا نبدأ منذ البداية، عندما ظهرت الفكرة لأول مرة. فى تجربة تورنج الفكرية الشهيرة، يطلب من حكم بشرى أن يحدد أيا من المخاطبين هو الإنسان وأيها هو الآلة. إذا لم يستطع الحكم معرفة ذلك، يؤكد تورنج عندها أن الكمبيوتر ينبغي أن يعامل على أنه قد توصل أساسا إلى الوضع المعنوى والعقلى للشخصنة. وقد أخطأ تورنج هنا لأنه يفترض أن التفسير الوحيد لاشتراك الكمبيوتر الناجح فى المباراة هو أن يرتفع مستواه بطريقة ما، بأن يصير أكثر ذكاء وأكثر إنسانية. على أنه يوجد تفسير آخر لانتصار الكمبيوتر يساوى التفسير السابق فى مصداقيته، وهو أن الإنسان قد أصبح أقل ذكاء، وأقل شيها بالإنسان. يقام اختبار تورنج رسميا فى كل سنة، وفى حين أنه لم يحدث للآن أن طالب أحد البرامج بالجائزة النقدية

السخية، إلا أنه سيحدث بالتأكيد أن يتم الفوز بها في وقت ما من السنين القادمة. ورأى الشخصى هو أن هذا الحدث يشئت انتباه الجميع عن اختبارات تورنج الحقيقية التى يتم الفوز بها بالفعل. وهى حقيقة وإن كانت بشكل مصغر. تحدث اختبارات تورنج كل الوقت يوميا، كلما تحمل شخص بصبر برمجيات الكمبيوتر الغبية.

وكمثل، فإننا ننظم حياتنا المالية فى الولايات المتحدة من أجل أن تبدو فى حال أحسن عند برامج الكمبيوتر التى تبسط بما يثير الشفقة والتى تحدد معدلات انتمائنا. نفترض النقود ونحن لا نحتاجها، وذلك مثلا لنغذى البرامج بنوع البيانات التى نعرف أنها برمجت للاستجابة لها استجابة تحبب. عندما نفعل ذلك، فإننا نجعل أنفسنا أغبياء، حتى نجعل برمجيات الكمبيوتر تبدو ذكية. والحقيقة أننا نواصل الثقة فى برمجيات حساب معدل الائتمان حتى وإن كان هناك وباء من حالات الإفلاس الشخصية يحدث خلال وقت تكون البطالة فيه منخفضة جدا مع ازدهار اقتصادى كبير. وهكذا بسبب اجتياز اختبار تورنج بالقسر. لا يوجد فارق إبستمولوجى بين الذكاء الاصطناعى وبين تقبل برمجيات كمبيوتر سيئة التصميم.

من الممكن أن تؤخذ حاجتى على أنها هجوم ضد الاعتقاد بقدرة الكمبيوتر على أن يصبح له إحساس فى نهاية الأمر، إلا أن ثمة طريقة أرقى لفهم هذه الحاجة، وهى أنها حاجة توفر ميزة براجماتية للمناداة بعقيدة ضد الذكاء الاصطناعى، حيث إن من يؤمنون بالذكاء الاصطناعى هم الذين يحتمل بأكثر أن يصبروا بجلد على البرمجيات السيئة. والأهم من ذلك هو أنى أمل أن يستطيع القارئ أن يعرف أن فهم الذكاء الاصطناعى كنظام للاعتقاد أفضل من فهمه على أنه تكنولوجيا.

- "الاعتقاد الثالث: أن الخبرة الذاتية إما أنها لا وجود لها أو أنها غير مهمة لأنها بعض نوع من تأثير فى المحيط الخارجى أو الأطراف". يوجد صراع أخلاقى جديد أخذ يتشكل حول مسألة متى ينبغى إضفاء "الروح" على الأنماط المدركة فى العالم. الكمبيوترات، والجينات، والاقتصاد هى بعض الكيانات التى يفكر

فيها أتباع المذهب الشمولى السيبرنطيقى على أنها الآن حقيقة سكانية توجد مع البشر. لاريب أن من الحقيقى أننا نجابه فى حياتنا مجابهة متصلة بمؤدين لأفعال هم غير بشريين وفوق بشريين، ويبدو هؤلاء المؤدين أحيانا أكثر قوة منا. ومن ثم فإن السؤال الأخلاقى الجديد هو، هل نحن نتخذ القرارات على أساس يتكون فقط من احتياجات ورغبات البشر البيولوجيين "النقليدين"، أو أن أيا من أولئك المؤدين الآخرين جديرون حقا بالاعتبار فى هذا الشأن؟

أقترح أن نستفيد من صورة بسيطة لننظر فى وجهات النظر البديلة. الصورة هى لدوائر متخيلة يرسمها كل شخص حول نفسه. سنسميها بأنها "دائرة التعاطف". توجد داخل الدائرة تلك الأشياء التى يعتبر أنها جديرة بالتعاطف وما يقابل ذلك من احترام، وحقوق، والتعامل معها عمليا معاملة من يساويها تقريبا. أما ما يوجد خارج الدائرة فهو تلك الأشياء التى تعتبر أقل أهمية، وأقل حيوية، وأقل جدارة بالحقوق. (هذه الصورة ليست سوى أداة للتفكير، ولا ريب فى أنها ينبغي ألا تؤخذ على أنها نموذجى الكامل عن السيكلوجيا البشرية أو المآزق الأخلاقية). يمكننا القول عل وجه التقريب بأن اللبراليين يأملون أن يوسعوا من الدائرة، بينما يود المحافظون كمشها.

هل مما ينبغي أن الكمبيوترات ربما ستوضع فى وقت ما من المستقبل فى الداخل من دائرة التعاطف؟ يرى أتباع المذهب الشمولى السيبرنطيقى أن فكرة أنه ينبغي وضع الكمبيوترات داخل الدائرة فكرة قريبة كل القرب إلى قلوبهم، وهؤلاء هم جمهور الشاغلين للأكاديميات التكنولوجية النخبوية ودوائر الأعمال المالية " للاقتصاد الجديد".

كثيرا ما نجد دعاية مؤلمة وإن كانت غير مقصودة، فى الكتابات الخلاقية لأتباع علم الكمبيوتر النهائى. ذلك أن التماس البرهنة عقلانيا على إمكان وجود حس فى الكمبيوتر (أو ربما فى الإنترنت) هو النسخة الحديثة من محاولة البرهنة على وجود ميتافيزيقى. وكما كان الحال فى تاريخ الميتافيزيقا، حيث بذلك الكثير من العقول العظيمة طاقات فائقة حول هذا الملتمس، فإننا سنجد أخيرا وكان نسخة

للفيلسوف "كانت" لها تفكير سيبرنطيقى ستظهر فى القرن الحادى والعشرين حتى تقدم "برهاناً" مملا على أن المغامرات التى من هذا النوع لا ترجى منها فائدة. وأنا ببساطة ليس لدى ما يكفى من الصبر لأن أكون ذلك الشخص وكما يتفق، فقد حدث فى السنوات الخمس الأخيرة أو ما يقرب، أن أخذت تفتت المناقشات التى تدور حول حس الكمبيوتر. يفترض معظم زملائي أن هذه فكرة حقيقية؛ وهكذا فإن المناقشة منتهية بالنسبة لهم. ولكنها لم تنته بالنسبة لى.

يجب أن أسجل هنا أنه فيما مضى، حينما كانت هذه المناقشات لاتزال ساخنة جداً، كان مما يثير أغرب المشاعر أن يناقش المرء واحداً مثل دانييل دينيت أحد فلاسفة الشمولية السيبرنطيقية. يقرر دينيت أن البشر ببساطة هم كمبيوترات متخصصة، وأنا عندما نفرض وجود بعض تمييز أنطولوجى^(٣١) أساسى بين البشر والكمبيوترات نضيع بذلك وقتنا على نحو عاطفى. ولو أنى سألته، "ولكن أليس مما يحدث لك أنك تخبر حياتك؟"، أليست هذه الخبرة شيئاً أبعد مما يمكن لك أن تقيسه فى أحد الكمبيوترات؟" سؤالى هذا سوف يجابهه خصمى فى الجدل بطريقة نمطية بأن يقول شيئاً ما مثل، "الخبرة مجرد توهم يتخلق لأن هناك جزءاً من ماكينة (هى أنت) يحتاج لتخليق نموذج لوظيفة باقى الماكينة - هذا الجزء هو محور خبرتك"، سوف أرد محتجاً بأن الخبرة هى الشئ الوحيد الذى لا يختزل بالتوهم، بل إن التوهم نفسه خبرة. ويرتبط بذلك، بكل الحسرة، أن الخبرة هى صميم ذلك الشئ الذى لا يمكن إلا أن يخبر. يودى بى هذا إلى وضع شاذ حيث أتساءل علناً عما إذا كان بعض خصومى فى هذا النقاش هم ببساطة ممن ينقصهم وجود خبرات داخلية. (طرحت ذات مرة، أن المرء يمكنه بكل تأكيد أن يبرهن على أنه من بين كل البشر لن يوجد نقص فى الخبرة الداخلية إلا عند بعض أفراد معينين من الفلاسفة المحترفين). والحقيقة أنى أعتقد أن خصومى الخالدين لديهم بالفعل خبرات داخلية ولكنهم قد اختاروا ألا يقرروا بذلك علناً، لأسباب مختلفة، وكثيراً ما يكون ذلك بسبب أنهم يستمتعون بإزعاج الناس.

(٣١) الأنطولوجيا مبحث رئيسى فى الفلسفة يتناول النظر فى الوجود بإطلاق أو هو علم الموجود بما هو موجود وبهذا فهو مبحث الميتافيزيقا العام. (المترجم)

ربما يكون أحد الدوافع الأخرى هو "الفريق الإمبريالى" الذى سبق ذكره. يؤكد ممثلو كل فرع معرفى أكاديمى من آن لآخر أن لديهم وجهة نظر متميزة تحتوى بطريقة ما على وجهات نظر خصومهم أو تضمها كإحدى فئاتها المصنفة. كان الفيزيائيون فى المقدمة من الأكاديميين فى أغلب القرن العشرين، وإن كان مفكرو إنسانيات "مابعد الحداثة" قد تمكنوا فى العقود الأخيرة من الظهور نوعا على المسرح مستعدين بعض مركزهم السابق، أو هذا على الأقل ما يخطر ببالهم. إلا أن التكنولوجيين هم الذين سيكسبون حتما هذه المباراة، عندما يشدون جواهر مكونات حياتنا ليخرجوا به من تحت إهابنا. من الظاهر أن هناك ما يغرى الكثيرين منهم بدعم هذه القدرة بأن يطرحوا أنهم يحوزون أيضا فهما نهائيا للحقيقة، وهذا أمر منفصل تماما عن أن يكون لهم تأثير هائل فيها.

قد يكون الحافز الثالث هو الفرويدية الجديدة، باعتار أن آلان تورنج، أول نصير لفكرة حس الماكينة، كان روحا تعاني عذابا هائلا. مات تورنج فى حادث انتحار صريح نشأ عن أنه ظهر له ثديان نتيجة اتباعه لنظام علاج هرمونى قصد به أن يعكس شذوذه المثلى جنسيا. كان تورنج فى أثناء هذه الفترة المأساوية الأخيرة فى حياته قد أخذ يدلى بحججه بحماس عن حس الماكينة، الأمر الذى جعلنى أتساءل عما إذا كان مستغرقا فى شكل أصيل عنيف من هروب وإنكار سيكولوجى - فيهرب بعيدا عن الجنسانية والمنية بأن يصبح كمبيوترا.

على أى حال فإن الأمر الخاص والكاشف هنا أن أصدقائى من أتباع الشمولية السيبرنيطيقية يخلطون بين حيوية منظور ما وبين تفوقه منتصرا. من الحق تماما أن المرء يستطيع أن يتحدث عن أحد الأشخاص على أنه وسيلة أحد الجينات فى تكثير ذاته، حسب قول دوكنز، أو على أنه عضو جنسى تستخدمه الماكينات لصنع المزيد من الماكينات، حسب قول مارشال ماك لوهان (كما يستشهد به فى ترويسة كل إصدار من مجلة "وايرد")، بل والحقيقة أن من الممكن أن يكون من الأمور الجميلة أن نفكر عن طريق هذه المنظورات من آن للآخر. على أنه كما يوضح عالم الأنثروبولوجيا ستيف بارنيت، قد يكون مما يماثل ذلك فى معقوليته أن نؤكد على أن "أحد الأشخاص هو طريقة البراز فى صنع مزيد من البراز".

وإذن، دعنا نزعّم أن "كانط" الجديد قد ظهر فعلا وأنجز مهمته الحتمية. يمكننا عندها أن نقول: تعيين دائرة التعاطف الخاصة بالمرء هو فى النهاية أمر من الإيمان. يجب علينا أن نتقبل حقيقة أننا مجبرين على أن نضع هذه الدائرة فى مكان ما، ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نستبعد من اختيارنا لمكان لوضعها أن هناك فى ذلك عنصرا من الإيمان يخرج عن النطاق العقلانى.. واختيارى أنا الشخصى هو ألا أضع الكمبيوترات داخل الدائرة. وأنا فى هذا المقال أذكر بعض أسبابى لهذا الاختيار، أسباب براجماتية، وجمالية، وسياسية، وإن كان قرارى فى النهاية يستند إلى إيمانى الخاص.

- "الاعتقاد الرابع: أن ما وصفه داروين فى البيولوجيا، أو ما يشبه ذلك، هو أيضا فى الحقيقة التوصيف المتفرد الفائق لكل ما يمكن من الإبداع والثقافة". أنصار الشمولية السيبرنطيقية استحوذ عليهم داروين، لأنه قد وصف شيئا فينا هو الأقرب لأن يكون خوارزما للإبداع. يجب داروين عن مسألة ستشكل بغير ذلك ثغرة كبيرة فى الدوجما: كيف ستكون النظم السيبرنطيقية ذكية وخلاقة بالدرجة الكافية لاختراع عالم ما بعد البشرية؟ حتى يتم اعتناق الإيمان بغيبيات تصير فيها الكمبيوترات ذكية بأن تصبح سريعة، ينبغى أن نستدعى لذلك بعض نوع من "حل غيبى" للمسرحية، وستكون له لحية.

ينبغى لسوء الحظ فى هذا المناخ السائد أن أتوقف لحظة لأذكر أنى لست من أتباع مذهب التكوينية. أنا أنتقد فى هذا المقال ما أدركت أنه كسل عقلى، التراجع عن محاولة فهم المشاكل وأن يأمل المرء بدلا من ذلك أن تقوم البرمجيات بتطوير نفسها. وأنا "لا" أطرح أن الطبيعة قد تطلبت بعض عنصر خارجى يتجاوز التطور الطبيعى لتكوين الناس. كما أنى لا أعنى أن أقول ضمنا أن هناك كتلة من الناس توجد بالكامل لتعارضنى، وكلهم يفكرون الأفكار نفسها بالضبط. هناك فى الحقيقة العديد من التتويجات لأوجه الإيمان الغيبى الداروينى. تأتى لنا بعض أوجه الأداء الدرامية لأقصى درجة، لا على يد علماء أو مهندسين وإنما على يد كتاب مثل كيفن كيلى وروبرت رايت اللذين افترضت عقولهم بتفسيرات موسعة لداروين وهم فى

مؤلفاتهم يدركون الحقيقة على أنها برنامج كبير للكمبيوتر يجرى فيه الخوارزم الداروينى، ربما فى توجه إلى بعض نوع من "القدر".

هناك أيضا الكثيرون من زملائى التكنولوجيا الذين يرون على الأقل وجود بعض نوع من سهم سببى فى التطور يشير إلى شىء يحدث له مع مرور الوقت أن تزداد دائما درجة صعوبة تمييزه. تستخدم لوصف هذا الشىء كلمات هى نفسها مما يصعب تحديده؛ فيقال عنه إنه يحوى على نحو متزايد تركبا، وانتظاما، وتمثلا. يبدو بالنسبة لعالم الكمبيوتر داني هيليس أن الناس لديهم من هذا الشىء ما يبلغ مقداره أكثر مثلا مما لدى الكائنات وحيدة الخلية، ومن الطبيعى أن نتساءل عما إذا كان من المحتمل أن يوجد فى يوم من الأيام بعض كائنات جديدة لديها من هذا الشىء ما هو أكثر حتى مما يوجد الآن فى الناس. (وبالطبع يقال عادة إن مولد هذه الأنواع "التي لديها المزيد من الشىء" فى المستقبل هو أمر له علاقة بالكمبيوترات). دعنا ننظر ما يوجد من مفارقة بين هذا المنظور ومنظور ستيفن جاى جولد فى كتابه "مجموعة أوراق رابحة فى لعبة البوكر" الذى يحاج فيه بأنه إذا كان هناك سهم فى التطور، فإنه يتجه إلى تنوع أعظم عبر الزمن. ونحن البشر تلك المخلوقات بعيدة الاحتمال التى تسمى بالإنسان، والذين نشأنا كأحد المظاهر الدقيقة الصغر لاستكشاف هائل أعمى للمخلوقات المحتملة، نحن نتخيل لا غير أن هذه العملية كلها قد صممت لتؤدى إلى وجودنا.

لا يوجد فكرة يكون اختبارها أصعب، أو تفنيدها أصعب، من فكرة المبدأ الإنسانى^(٣٢). وأنا أقر بأنى أميل إلى أن أكون فى جانب جولد بشأن هذه الفكرة، إلا أن الأكثر أهمية من ذلك هو أن أشير إلى وجود أحجية إبستمولوجية ينبغى أن يضعها الغيبىون الداروينيون موضع الاعتبار. لو كان الجنس البشرى هو المقياس للتطور حتى الآن، فإننا سنكون عندها أيضا مقياس الأنواع اللاحقة التى ربما يزعم أنها "أكثر تطورا" عنا. سيكون علينا أن نقوم بعملية أنسنه للأشياء حتى ندرك هذا

(٣٢) المبدأ الإنسانى An thropic principle مبدأ بأن المخلوق الذكى الوحيد فى الكون هو الإنسان، الذى يتساءل عن نشأته ومصيره. (المترجم)

الشكل من الحياة "الأعظم من الشكل البشرى"، خاصة إذا كان موجودا داخل حيز معلوماتى مثل الإنترنت.

بكلمات أخرى، سنكون جديرين بالثقة فى تقييمنا لوضع هذه الكائنات الفائقة الجديدة، بمثل جدارتنا بالثقة حاليا فى تقييمنا لصفات الكلاب الأليفة. نحن لسنا قادرين على أداء هذه المهمة. عليك أن تزور معرضا للكلاب قبل أن نقول لى إن الأمر سيكون واضحا أبلغ الوضوح عندما يتم وصول هذه الكائنات السيبرية الجديدة فائقة الذكاء. أو أن تزور تجمعا من أناس ممن يعتقدون أنهم قد خطفهم غرباء عن الأرض فى أطباق طائرة. يصبح الناس مجانين جنونا بينا عندما تصل الأمور إلى تقييم وجود حس غير بشرى.

على أى حال، لاريب فى أن الحركة التى تعمل على تفسير داروين على نحو أوسع، وتعمل خاصة على إدخال الداروينية فى علم النفس والإنسانيات، قد أدت إلى طرح بعض تبصرات نيرة ستصبح ذات يوم جزءا من فهم أفضل للطبيعة، بما فى ذلك الطبيعة البشرية. يمتعنى هذا التيار الفكرى على مستويات شتى. دعنى أقر بأن من الأمور المستحيلة أيضا ألا يشعر عالم كمبيوتر بما يشبع غروره من تلك الأبحاث التى تضع فى المركز من الواقع ما يكون أساسا شكلا من أشكال الحوسبة الخوارزمية، وينحو هؤلاء المفكرون إلى أن يكونوا واثقين وجازمين وإلى أن يكون لديهم أحيانا أفكار جديدة وجيدة.

ومع ذلك فإنى أعتقد أن الداروينيين من أتباع الشمولية السيبرنطيقية، كثيرا ما يكونون غير أكفاء فى خطاب الجماهير وهم قد يكونوا مسئولين جزئيا، وإن كان ذلك بغير قصد، عن إثارة تولد جديد لرد فعل عقيدى أصولى ضد البيولوجيا العقلانية. ويبدو أنهم يخرجون علينا بافتراضات عن داروين حسب حسابها ليس فقط لتثير خصومة من لا يشاركونهم فى آرائهم وإنما أيضا لتثير نفورهم. هناك تصريحات لعلماء نفس تطوريين على أقصى درجة من السلوك غير الاجتماعى، هى تصريحات يمكن أن تثير السخط بوجه خاص. أحد أمثلة ذلك كتاب ظهر حديثا من تأليف راندى ثورنيل وكريج ت. بالمر عنوانه "التاريخ الطبيعى للاغتصاب"،

وهو كتاب يعلن أن الاغتصاب طريقة "طبيعية" لنشر الجينات هنا وهناك. رأينا كل أنواع الافتراضات التي تربط بداروين باستخدام قشرة خادعة من العقلانية. والحقيقة أنك تستطيع أن تدلى بحجج عما يكاد يكون أى موقف مستخدما فى ذلك إستراتيجية داروينية. وكمثل، فإن ثورنهيل وبالمر يطرحان أن من يخالفونهما فى رأى هم ضحايا برمجة تطورية من أجل الحاجة إلى الإيمان بوجود سلوك إثارى خيالى فى الطبيعة البشرية. يقول المؤلفان إنه يبدو وكأن هناك إثارية فى عدم الإيمان بعلم النفس التطورى، لأن التشكك من هذا النوع فيه إظهار علنى لإيمان المرء بالحب الأخوى. ويزعم أن إظهار الإثارية أمر جذاب وبالتالي فإنه يحسن من قدرة المرء على إغراء الرفيق أو الرفيقة. وبهذا المنطق، سنجد أن علماء السيكولوجيا التطورية هم فيما ينبغى سيكاثرون سريعا من أنفسهم بعيدا عن السكان. هذا فيما عدا أن يلجأوا للاغتصاب.

على أى حال، فإن فكرة داروين عن التطور كانت من نوع مختلف عن النظريات العلمية السابقة، وذلك لسببين اثنين على الأقل. أكثر الأسباب وضوحا وتفجرا هو أن مادة الموضوع كانت قريبة قريبا وثيقا من النفوس إلى حد يثير المشاعر. كان من الأمور التى تصدم العقل فى القرن التاسع عشر أن نفكر فى الحيوانات كأقرباء لنا بالدم، وهذه صدمة مازالت مستمرة للآن. والسبب الثانى أقل فى إدراكه. اخترع داروين أسلوبا اختزاليا يبنى على ما ينبثق من مبادئ بدلا من أن يبنى على قوانين توجد فى الأساس. لا توجد أى "قوة" تطورية تتأظر مثلا القوة الكهرومغناطيسية. التطور مبدأ يمكن تمييزه كأمر ينبثق فى أحداث، ولكن لا يمكن وصفه بالضبط كقوة توجه الأحداث. هذا تمييز رهيف. إذا كان لكل فوتون قصة متماثلة، فإن لكل حيوان ونبات قصة مختلفة. (لاشك أن هناك أمثلة رائعة عن مقولات كمية دقيقة فى النظرية الداروينية وما يناظرها من تجارب، ولكنها لا تحدث فى أى مكان وثيق القرب من مستوى خبرة الكائنات البشرية، التى هى كائنات بأكملها لها أوجه سلوك مركبة فى البيانات المتعددة). كلمة "القصة" هى الكلمة العملية هنا. ظل الفكر التطورى يطبق بصورة دائمة تقريبا على مواقف محددة من خلال القصص. والقصة بخلاف النظرية، تدعو إلى الزخرفة والتغاير؛

بل والحقيقة أن القصص تكتسب قدرتها الاتصالية من أن يكون لها صدى من قصص أولية بأكثر. يمكننا أن نتعلم الفيزياء دون اختراع لراوية في رأسنا يعطينا معنى الفوتونات والنقوب السوداء. إلا أنه يبدو من المستحيل أن نتعلم التطور الدارويني دون أن ننشئ أيضا راوية داخلية ليضعها في علاقة مع حكايات أخرى نعرفها. وفيما يبدو لا يوجد أى مفكر عام في هذا الموضوع قد واجه داروين دون أن يبنى جسرا إلى بعض نظم لقيم شخصية.

على أنه فيما يتجاوز مسألة إعطاء نكهة ذاتية، تبقى لدينا مشكلة ما إذا كان داروين قد أعطى تفسيرا وافيا. ليس من الممكن أن هناك فكرة باقية لاتزال غير واضحة في التعبير ولكنها ستفسر جوانب من الإنجاز والإبداع لا يفسرها داروين؟ وكمثل، هل التفسير بالأسلوب الدارويني يعد كافيا لفهم عملية التفكير العقلاني؟ ثمة عدد وافر من النظريات الحديثة يزعم فيها أن المخ ينتج توزيعات عشوائية من أفكار ما تحت الوعي التى تتنافس إحداها مع الأخرى حتى لا يبقى موجودا إلا أفضلها، ولكن هل هذه النظريات تتلاءم حقا مع ما يفعله الناس؟ يظهر التطور في الطبيعة كعامل متألق فى التوصل إلى الوضع الأمثل ولكنه عامل غبى فى وضع الإستراتيجيات. (الصورة الرياضية التى تعبر عن هذه الفكرة هى أن التطور "الأعمى" يجد صعوبة هائلة فى أن يخلص نفسه من الحدود الدنيا فى المشهد العام للطاقة). سيكون السؤال الكلاسيكى هو، كيف استطاع التطور أن يصنع كل هذه الروائع من الأقدام، والمخالب، والزعانف، والبرائن، ولكنه أغفل صنع العجلة؟ هناك عدد وافر من البيانات التى تستفيد فيها الكائنات من العجل، لماذا إذن لم يظهر أى منها؟ ولا حتى لمرة واحدة؟ (ثمة مشروع فى الفن له مداه الطويل لصبى ثورى هو الآن فى المدرسة: مشروع هندسة وراثية لحيوان له عجل! هيا نرى إن كان يمكن جعل دنا يصنع ذلك).

أنشأ الناس العجلة واختراعات أخرى عديد مفيدة يبدو أنها امتنعت على التطور. من الممكن أن يكون التفسير ببساطة أن الأيدي قد توصلت إلى مجموعة من الاختراعات تختلف عما اخترعه دنا، حتى وإن كان الاثنان قد تم إرشادهما

بعمليات ممتائلة. إلا أنه يبدو لى أن من السابق لأوانه أن نتعامل مع هذا التفسير على أنه أمر أكيد. أليس ممكنا أن المخ فى تفكيره العقلانى يفعل أمرا مازال غير واضح ربما يكون قد نشأ فى عملية داروينية ولكنها لا يمكن تفسيرها به؟

أول جيلين أو ثلاثة أجيال من الباحثين فى الذكاء الاصطناعى اعتبروا أن من البديهيات أن التطور الأعمى فى حد ذاته لا يمكن أن يكون فيه القصة كلها وافترضوا أن هناك عناصر تميز النشاط العقلى البشرى عن غيره من العمليات الأرضية. وكمثل، كان الكثيرون يعتقدون أن البشر ينون فى عقولهم تمثلات تجريدية للعالم، فى حين أن عملية التطور لا تحتاج إلى أن تفعل ذلك. وبالإضافة، يبدو أن هذه التمثلات تحوز صفات خارقة للمعتاد، مثل "الحس المشترك" ذلك الحس المروغ دائما والذى يثير الخوف. حدثت لعقود من السنين محاولات فاشلة لبناء تجريدات ممتائلة فى الكمبيوترات، وبعد ذلك استسلم مجال الذكاء الاصطناعى: ولكن دون أن يقر بذلك. وبسط من شأن هذا الاستسلام على أنه مجرد سلسلة من تقهر تكتيكى. كثيرا ما ينظر إلى الذكاء الاصطناعى الآن على أنه حرفة أكثر من أن يكون فرعا من العلم أو الهندسة. تأمل كثرة كبيرة من ممارسى المهنة التى تحدثت إليهم مؤخرا، أن يروا تطورا لبرمجيات تؤدى أمورا مختلفة، ولكنهم فيما يبدو قد غاصوا فى اتجاه يكاد يكون اتجاها "بعد حدائى"، أو فى اتجاه متشائم فيه عدم اهتمام بفهم الطريقة التى ربما تعمل بها فعلا هذه الأدوات.

من المهم أن نتذكر أن الثقافات المبينة على حرف تستطيع أن تنشئ الكثير من التكنولوجيات المفيدة، وأن الدافع الذى حرك أسلافنا لاعتناق "التتوير" هو وصعود العقلانية، لم يكن مجرد صنع مزيد من التكنولوجيا بمزيد من السرعة، وإنما كانت هناك أيضا فكرة النزعة الإنسانية والإيمان بجودة التفكير والفهم العقلانيين. هل نحن حقا على استعداد لنبد ذلك؟

وأخيرا ثمة نقطة إمبريقية للإيضاح: استمر البحث طيلة عقد فى العالم كله بطرائق تناول داروينية لتوليد البرمجيات، وفى حين أنه ظهرت بعض نتائج منعزلة خلاصة ومثيرة للإعجاب (وأنا أستمتع حقا بالمساهمة فى أبحاث من هذا النوع) إلا

أنه لم يظهر من الأبحاث أى شىء يجعل البرمجيات عموما أفضل حالا. وبالتالي، فمع حبى لداروين، إلا أنى لا أعتمد عليه فى كتابة شفرة.

• "الاعتقاد الخامس: أن الجوانب الكيفية وكذلك أيضا الجوانب الكمية لنظم المعلومات سوف تتسارع حسب قانون مور". يواصل جانب العناد فى الكمبيوترات تقدمه للأحسن والأرخص بمعدل تسارع أسى يعرف باسم قانون "مور": يحدث كل عام ونصف العام أو ما يقرب أن تزيد سرعة الحوسبة لما يصل إلى المثلين تقريبا بالنسبة للسعر المعين. دلالات ذلك فيها ما يؤدى إلى الدوار وهى جد عميقة بحيث إنها تحدث دوخة عند إبراكها للمرة الأولى. ترى ما الذى يستطيع أن يفعله كمبيوتر تزيد سرعته عن "مليون" مثل للكمبيوتر الذى أكتب به هذا النص؟ هل يكون هذا الكمبيوتر عاجزا حقا عن فعل أى شىء مما يفعله مخى البشرى؟ مقدار "المليون" لا يقتصر على أنه أكبر مما يمكن استيعابه بديهيا، وإنما هو أيضا مما لا يتاح التوصل له تجريبيا لأهدافنا الحالية، وبالتالي فإن التخمين هنا ليس غير عقلانى. الأمر الذى يؤدى للذهول هو أن ندرك أن الكثيرين منا سيكتشفون الإجابة فى أثناء سنوات حياتنا، ذلك أن هذا النوع من الكمبيوتر ربما سيصبح سلعة استهلاكية رخيصة فيما يقرب من ثلاثين سنة مثلا.

يجب أن نرى ما فى هذه الصورة الذهنية الأخاذة عن المستقبل من مفارقة صارخة مع "العار العظيم" الموجود فى علم الكمبيوتر، عار أننا فيما يبدو عاجزون عن تأليف برمجيات أحسن بدرجة كبيرة مع ما يحدث من زيادة سرعة الكمبيوترات زيادة كبيرة. تستمر برمجيات الكمبيوتر فى أن تخيب آمالنا. كم كرهت "يونكس" فيما مضى فى السبعينيات، فهو نوع من تكس شيطانى لحثالة البيانات، تزداد وظيفته غموضا، ويعادى من يستخدمه! لو أن أى فرد أخبرنى عندها أن العودة وراء إلى برنامج يونكس البدائى المربك ستكون الأمل الكبير والفكرة الاستثمارية المستحوذة لسنة ٢٠٠٠، وأن سبب ذلك هو مجرد أن اسمها قد تغير إلى "لينوكس" وأعيد ثنائية فتح شفرة مصدرها، لو أخبرنى أحدهم بذلك لما توفر لدى قط العزيمة والشجاعة للاستمرار فى علم الكمبيوتر.

إذا كان هناك أى قانون يرصد بشأن البرمجيات فهو عكس قانون مور: كلما زادت عناصر المعالجة سرعة وعناصر الذاكرة رخصا، زادت البرمجيات فى مقابل ذلك بطنا وحشوا، مستنفذة كل الموارد المتاحة. والآن، أعرف أنى لست بالمنصف تماما هنا. لدينا الآن مثلا من حيث التعرف على الكلام وترجمة اللغة ما هو أفضل مما تعودنا عليه، وقد أخذنا نتعلم العمل بقواعد بيانات وشبكات أكبر. ولكن الأمر ببساطة أن اللب من تكتيكاتنا وتكنولوجياتنا للبرمجيات مازال لا يلاحق تقدم العتاد. (وكما أن نوعا من جنس وليد جديد من الروبوتات فائقة الذكاء على وشك أن يلتهم كل الإنسانية، فإنه يحتمل بمثل ذلك تماما أن يتم إنقاذ نوعنا البشرى القديم العزيز بانهييار "ويندوز". وسنجد أن الروبوتات البائسة سوف تسير متناقلة على نحو يثير الشفقة، وهى تتوسل إلينا لنعيد إجراءات تشغيلها، حتى رغم أنها تعرف أن إعادة إجراءات التشغيل لن تنفيدها).

توجد أسباب مختلفة لنزعة البرمجيات لأن تكون غير طيعة، إلا أن أحد الأسباب الأولية هى ما أحب أن أسميه "بالهشاشة". البرمجيات تتقصف قبل أن تتحنى، وبالتالي فإنها تتطلب الكمال فى كون يفضل الإحصائيات. وهذا بدوره يؤدى إلى كل معاناة التراث/الانغلاق وغير ذلك من أوجه الانحراف. توجد مسافة شاسعة بين الكمبيوترات المثالية التى نتخيلها فى تجاربنا الفكرية وبين الكمبيوترات الحقيقية التى نعرف طريقة إطلاق العنان لها فى عالمنا، وهذه المسافة الشاسعة فيها ما يحبط كل الإحباط.

قانون مور فيه نوع من السحر يخلب لب الباحثين ويجعلهم راضين عن أنفسهم. عندما يكون لدينا عامل قوة أسية فى صفنا، فمن المؤكد أنه سيتغلب على كل التحديات: من الذى سيهتم عندها بأى فهم عقلائى، عندما نستطيع بدلا من ذلك أن نعتمد على نوع من سحر أسى من خارج البشر؟ ولكن قوة المعالجة ليست الشيء الوحيد الذى يزيد حجمه بما يثير الإعجاب؛ فهناك أيضا زيادة حجم المشاكل التى ينبغى أن نحلها عناصر المعالجة.

هاكم مثال أقدمه للأفراد غير التكنيكيين ليوضح هذه النقطة. منذ عشر سنوات كان عندى كمبيوتر حجر له برنامج فهرسة يتيح لى البحث عن الملفات

حسب المحتوى. حتى يستجيب البرنامج بالسرعة الكافية عندما أجرى عملية بحث، كان البرنامج يتفحص كل الملفات مقدما ويفهرسها، تماما بمثل ما تفعله الآن آلات البحث من نوع فهرس "جوجل" في الإنترنت. تستغرق عملية الفهرسة ما يقرب من الساعة. عندئذ الآن كمبيوتر حجر له سعة أكبر بدرجة هائلة وأسرع بكل الأبعاد، بمثل ما يتنبأ به قانون مور. إلا أن على الآن أن أجعل برنامجي للفهرسة يعمل طوال الليل حتى يقوم بمهمته. هناك أمثلة كثيرة أخرى تبدو الكمبيوترات فيها وقد صارت أبطأ حتى مع أن عناصر المعالجة المركزية قد أصبحت أسرع. واجهات تعامل المستخدم للكمبيوتر تنحو إلى أن يكون معدل زمن استجابتها لإجراءات المستخدم، مثل ضغطه لأحد المفاتيح، معدلا أبطأ في السرعة مما كان عليه الأمر مثلا منذ خمسة عشر عاما. ما وجه الخطأ؟

الإجابة عن ذلك معقدة.

أحد أجزاء الإجابة جزء أساسي فيها. ثبت في النهاية أنه عندما يزداد حجم البرامج ومجموعات البيانات (مع زيادة في سعة التخزين والبت مدفوعة بنفس العمليات التي تدفع زيادة السرعة أسيا في قانون مور)، فإنه كثيرا ما يحدث عندها زيادة في الأعباء الداخلية للحوسبة بمعدل أسوأ من أن يكون خطيا. وسبب ذلك أنه توجد بعض حقائق الحياة الرياضية الكريهة فيما يتعلق بالخوارزمات. عندما نجعل إحدى المسائل أكبر بمثلين فإن هذا عادة يجعل الحل يستغرق زمنا يزيد كثيرا عن المثلين. بعض الخوارزمات تكون بهذه الطريقة أسوأ من غيرها، وأحد أركان التعليم المتين لطلبة الجامعة في علم الكمبيوتر هي أن يتعلموا ما يتعلق بهذه الخوارزمات. يوجد الكثير من المسائل التي تصل أعباؤها الإضافية إلى مقياس هو حتى شاهق بأكثر من قانون مور. ومما يثير الدهشة أن هناك عددا قليلا من الخوارزمات المهمة لأقصى درجة يقاس تزايد أعبائها بمعدل خطي لاغير.

ولكن هذا لا يشكل إلا بداية القصة. من الحقيقي أيضا أنه عندما يكون للأجزاء المختلفة من أحد النظم معدلات سرعة بمقاييس مختلفة (وهذا هو الحال عادة)، فإن أحد هذه الأجزاء قد يصيب الآخر بالارتباك. في حالة برنامجي

للفهرسة، كان حجم فهرس الأقراص الصلبة ينمو بالفعل بمعدل يتجاوز سرعة التعامل بها. من الممكن أن يتضخم حجم تكلفة الأعباء الإضافية بسبب أمثلة من هذا النوع من الاختلاف المربك في المقاييس الذى يؤدي إلى أن أحد أجزاء النظام لا يستطيع ملاحقة الآخر. سيظهر عندها عنق زجاجة، بما يشبه تقاطع طرق مختق في طريق رئيسى سيئ التصميم، وينتج عن ذلك طفح للانسداد يماثل فى سونه مواصلات الصباح فى نظام طرق يتسم نمطيا بعدم الكفاءة. كما أنه يماثلها فيما ينتج من تكلفة باهظة وصعوبة عند العمل على التخطيط لحل لها ولتوقيها. (كانت الانتقالات فى شوارع مانهاتن منذ مائة عام أسرع مما هى عليه الآن. والخيال الآن أسرع من السيارات).

ثم نأتى "بعدها" إلى خصمنا القديم، الهشاشة. كلما زاد حجم قطعة من برمجيات الكمبيوتر، زاد ما يرجح من احتمال أن يسيطر عليها شكل من شفرة تراث وزاد توحش الأعباء الإضافية للتعامل مع الأمثلة التى لا تنتهى من عدم التوافق الرهيف الذى ينشأ حتما بين شدف البرمجيات التى شكلت أساسا فى سياقات مختلفة. بل وحتى عند تجاوز هذه التأثيرات، سنجد أن هناك أوجه فشل لخصائص بشرية تزيد من سوء حال البرمجيات، والكثير من هذه الخصائص تكون نسقية وقد تنشأ حتى عندما تكتب الشفرة بواسطة عوامل غير بشرية. سنجد مثلا أن الأمر يستهلك زمنا طويلا جدا وتكلفة باهظة عندما نخطط مقدما لجعل مهام مبرمجى المستقبل أسهل، بحيث ينحو كل مبرمج لاختيار إستراتيجيات تزيد من سوء تأثيرات الهشاشة. عندما يواجه المبرمجون الانسحاق مع الزمان فإن هذا الأمر لا يدفعه أى شىء غير قانون مور، الذى يدفع دائما إلى تحويل مسار مراجعات البرمجيات بمعدل تسارع دائما، من أجل أن نحصل على الأقل على بعض زيادة فى المسافة التى نقطعها نتيجة زيادة سرعات عناصر المعالجة. وبالتالي فإن النتيجة كثيرا ما تكون أن تصبح البرمجيات أقل كفاءة فى بعض السبل حتى عندما تصبح عناصر المعالجة أسرع.

لست أرى أى برهان على أن قانون مور شاق بالحد الكافى لأن يتفوق فى السرعة على كل هذه المشاكل إلا إذا حدثت إنجازات فكرية إضافية غير متوقعة.

إحدى المقولات الأساسية في السؤال الذى أبحثه هنا هى، هل السبب فى أن البرمجيات تنحو إلى أن تكون غير طبيعة هو فقط وجود خطأ بشري، أو أن الصعوبة هنا سمة متأصلة داخل طبيعة البرمجيات نفسها؟ إذا كان هناك مصداقية بأى حال للسيناريوهات الغيبية عند كيرزويل، وديكسلر، ومورافيك، وغيرهم، يكون هذا إذن أهم سؤال واحد فيما يتعلق بمستقبل البشرية.

هناك على الأقل بعض دعم من استعارة مجازية، تدعم احتمال أن يكون اتصاف البرمجيات بأنها غير طبيعة صفة متأصلة. حتى أختبر هذا الاحتمال سيكون على أن أكسر قاعدتى التى التزم بها لأصبح للحظة أحد أتباع المذهب الشمولى السيبرنطيقى. الطبيعة قد تبدو أقل هشاشة من البرمجيات الرقمية، ولكننا لو فكرنا فى الأنواع الحية على أنها "برامج"، ستبدو الطبيعة عندها وكأنها هى أيضا لديها أزمة برمجيات. لقد حدث تطور للتطور نفسه - بإدخال الجنس Sex مثلا - ولكن التطور لم يجد أبدا طريقة لأن يصل معدل سرعته لأى شيء إلا أن يكون بطيئا. ربما يكون سبب هذا، فى جزء منه على الأقل، أن التطور يستغرق زمنا طويلا لاستكشاف حيز التغيرات الممكنة لنظام سببى له قدر هائل من الاتساع والتركب، وذلك حتى يجد صيغة أشكال جديدة لها القدرة على الحياة. من الواضح أن هذا البطء فى التطور الطبيعى كوسط للتحول هو أمر نسقى، بدلا من أن يكون ناتجا عن بعض بطء متأصل فى الأجزاء المكونة له. وعلى عكس ذلك، نجد أن التكيف له القدرة على التوصل إلى سرعة مذهلة، فى الظروف المنتقاة. أحد أمثلة هذا التغير السريع هو تكيف الجراثيم إزاء مجهوداتنا لإبادتها. مقاومة المضادات الحيوية مثل معاصر مشهور للسرعة البيولوجية.

يبدو أن البرمجيات التى يخلقها الإنسان هى والانتخاب الطبيعى معا تؤدي إلى تراكم طبقات تراتبية تختلف فى إمكاناتها من حيث سرعة التغير. هناك طبقات بطيئة التغير تحمى مساح محلية تحوى من داخلها إمكانات لتغير أسرع. وهذا هو الحد الفاصل فى الكمبيوترات بين نظم التشغيل والتطبيقات، أو بين عناصر تصفح الملفات وصفحات ويب. يمكننا رؤية ذلك فى البيولوجيا كما مثلا فى الحد الفاصل

بين الديناميات التي يسيطر عليها الطبع وتلك التي يسيطر عليها التطبع في العقل البشرى. إلا أنه يبدو أن الطبقات المحبطة هي التي تعين عادة ما لأحد الأنظمة من الخواص وإمكانات عامة.

يخطر بعقل بعض الزملاء أن كل ما علينا أن نفعله هو أن نعين طبقة واحدة في نظام سيرنطيقى تكون لها القدرة على التغير السريع ثم نترقب أن يعمل قانون مور سحره. وحتى لو كنا مغرورين مثلاً في مبرمجة لينوكس، فربما ننفذ فيها برنامج شبكة عصبية تنمو في النهاية إلى درجة من الضخامة والسرعة تكفى (بسبب قانون مور) لأن نتوصل إلى لحظة من نفاذ البصيرة فنعيد كتابة نظام التشغيل الخاص بها. المشكلة هي أننا نجد في كل مثل نعرفه أن الطبقة التي يمكنها أن تتغير سريعاً لا يمكنها أيضاً أن تتغير تغيراً كثيراً جداً. تستطيع الجراثيم أن تتكيف بسرعة للأدوية الجديدة ولكنها تظل تستغرق زمناً طويلاً جداً للتطور إلى طيور اليوم. ربما يكون هذا نوع متأصل من المقايضة. وكمثل فإننا في العالم الرقعى نستطيع أن نكتب برمجيات "جافا" جديدة بسرعة لها قدرها، ولكنها لن تبدو مختلفة اختلافاً كثيراً عن الأجزاء الإضافية من برمجيات أخرى التي تكتب سريعاً؛ عندما نلقى نظرة لما تم إنجازه بهذه الإضافات سنرى أن هذا الأمر حقيقى.

نأتى الآن فى النهاية إلى..

- الاعتقاد السادس، "الجائحة السيرنطيقية الوافدة". عندما يذهل شخص عميق التفكير من قانون مور، فإن ذهوله قد يكون فيه روع وقد يكون فيه رعب. عبر بيل جوى مؤخراً عن إحدى صور هذا الرعب فى قصة غلاف لمجلة "وايرد". يتقبل بيل تصريحات راي كيرزويل والآخرين ممن يعتقدون أن قانون مور سيؤدى إلى ماكينات مستقلة ذاتياً، ربما بحلول سنة ٢٠٢٠. ستصبح للكمبيوترات عندها، حسب بعض التقديرات، قدرة تماثل تقريباً قدرة المخ البشرى. (ليس بمعنى أن هناك أى فرد لديه بعد المعرفة الكافية لأن يقيس حقاً المخ إزاء الكمبيوتر. ولكن دعنا، بغرض النقاش، نفترض أن لهذه المقارنة معناها). حسب سيناريو "الرعب" هذا، لن تكون الكمبيوترات مثبته داخل

صناديق. ستكون أكثر شبها بالروبوتات، وكلها متصلة معا على شبكة النت، وسيكون لديها كيس من الحيل له قدره.

ستكون الكمبيوترات قادرة على إنجاز أمور عديدة، أحدها هو الإنتاج النانوى. وسوف نتعلم سريعا أن تتكاثر وتحسن من نفسها. سيحدث ذات يوم رائع، دون أى إنذار، أن تتمكن الماكينات الفائقة الجديدة من إزاحة البشر جانبا على نحو عارض يماثل ما يفعله البشر عندما يخلصون من غابة لإقامة إنشاءات جديدة. أو ربما ستترك الماكينات البشر موجودين هنا وهناك ليعانوا نوع المهانة الذى صورته فيلم "النسيج الداخلى"، بل وحتى لو اختارت الماكينات غير ذلك فأبقت على أسلافها من البشر، فإن الأشرار من هؤلاء البشر سيتمكنون من استغلال الماكينات لإلحاق أضرار هائلة بسائر البشر. هاك سيناريو مختلف استكشفه أيضا بيل. سوف تتقدم البيوتكنولوجيا إلى الدرجة التى ستكون برامج الكمبيوترات عندها قدرة على استغلال دنا وكأنه مخطوطة سلسلة لجافا. إذا استطاعت الكمبيوترات إجراء الحسابات لتأثير الأدوية، والتعديلات الوراثية، وغير ذلك من التحايلات البيولوجية، وإذا أصبحت أدوات تنفيذ هذه الحيل رخيصة، عندها لن يتطلب الأمر إلا رجلا واحدا مجنونا، يقوم مثلا بتخليق وباء يستهدف عرقا واحدا. البيوتكنولوجيا بدون عنصر قوى رخيص من تكنولوجيا المعلومات لن تكون لها الفعالية الكافية لأن تحقق تنفيذ هذا السيناريو. والأحرى أن القدرة على تشغيل البرمجيات على كمبيوترات سريعة سرعة خرافية لإيجاد طريقة رخيصة لنمذجة وإرشاد استغلال البيولوجيا، هذه القدرة هى العامل المتأصل فى جذور ذلك الرعب أو العامل المتغاير. لن أتمكن من أوصل على نحو كامل عوامل قلق بيل فى هذا السرد لمختصر، ولكن لعل القارئ قد تفهم الفكرة.

عندى نسخة لقصة "رعب" مختلفة. نستطيع بالفعل أن نرى كيف أن صناعة البيوتكنولوجيا ظلت تجهز نفسها طيلة عقود من السنوات لمشاكل البرمجيات باهظة الثمن. فى حين تنشئ مصانع ومعامل البيوتكنولوجيا كل الأنواع المفيدة من قواعد البيانات وحزم النمذجة، إلا أن كل هذا موجود فى فقاعات تتنامى منفصلة. تتوقع

كل أداة من هذه أن يتوافق العالم مع متطلباتها. ولما كانت هذه الأدوات جد قيمة، فإن هذا هو ما سيفعله العالم بالضبط، على أننا ينبغي أن نتوقع استخدام موارد هائلة في مشكلة نقل البيانات من إحدى الفقاعات للأخرى. لم يحدث تخليق لمخ إلكتروني ماردمتسق يتكون مع معرفة بيولوجية. يوجد بدلا من ذلك بيانات ممزقة في فوضى وقطاعات للنمذجة. سيظل الوسطاء لنقل البيانات البيولوجية هم أفراد من الباحثين البشر المحرومين من النوم حتى يحل بعض زمن خرافي في المستقبل نعرف عنده كيف نصنع برمجيات تصلح في حد ذاتها لتجسير الفقاعات.

ما الذي سيبدو عليه سيناريو المستقبل على المدى الطويل عندما يواصل عتاد الكمبيوتر أن يصبح أفضل بينما تبقى البرمجيات متدنية؟ الشيء العظيم فيما يتعلق بتلك البرمجيات الزرية هو كمية الوظائف التي تولدها. لو بقي قانون مور يعمل لعشرين أو ثلاثين سنة أخرى، لن يقتصر الأمر على أن تجري كمية هائلة من الحوسبة فوق كوكب الأرض، وإنما سنجد أيضا أن صيانة هذه الحوسبة تكاد تستنفد جهود كل شخص حي. نحن هنا نتحدث عن كوكب من المكاتب الداعمة.

ناقشت في مكان آخر كيف أن هذا المستقبل سيكون أمرا عظيما، يحقق الحلم الاشتراكي بالعمالة الكاملة بواسطة وسائل رأسمالية. ولكن دعنا ننظر هنا أمر الجانب المظلم.

هناك عمليات كثيرة تجعلها نظم المعلومات أكثر كفاءة، من بينها عملية الرأسمالية نفسها. تتيح البيئة الاقتصادية التي تكاد تخلو من الاحتكاك، أن تتراكم الثروات في عدة شهور بدلا من عدة عقود من السنين، إلا أن الأفراد الذين ينجزون التراكم يستمرون على أن يعيشوا زمنا مماثلا لما اعتادوا أن يعيشوه، بل وزمنا أطول في الحقيقة. وهكذا فإن هؤلاء الأفراد الذين يبرعون في أن يصبحوا أغنيى تكون لديهم الفرصة لأن يصيروا قبل موتهم أغنيى من أسلافهم الذين يساوونهم في الموهبة. ثمة خطران في ذلك. الخطر الأصغر خطر أكثر مباشرة، وهو أن الأفراد من الشباب الذين تأقلموا على بيئة اقتصادية بتفتح هائج للتقى قد يصابون بجروح عاطفية بواسطة ما يعتبره سائرا فترات وجيزة من العودة إلى الحالة السوية. أما

الخطر الأعظم فهو أن الهوة بين الأفراد الأغنى وسائر الناس يمكن أن تصير أخطر على نحو متصاعد. بمعنى أنه حتى لو اتفقنا على أن ارتفاع المد يرفع من مستوى كل السفن، ولكن إذا كان معدل ارتفاع أعلى السفن معدلا أكبر من معدل ارتفاع أكثرها انخفاضاً، فإن الفارق الذى يفصل بينهما يظل يتزايد أبداً. بل ونجد حقا أن تركيز الثروة والفقر قد زاد فى أثناء سنوات الإنترنت المزدهرة فى أمريكا. إذا كان قانون مور، أو ما يشبهه، هو الذى يدير العرض، سنجد أن الفارق قد يصل إلى مقياس مذهل. ها هنا يكمن "رعبى"، عندما نأخذ بعين الاعتبار النتيجة النهائية للانقسام المتزايد ما بين الأثرياء ثراء فائقا وأولئك الذين يعيشون بمجرد الستر.

مع ما يوجد الآن من تكنولوجيات فإن الفرد من الأثرياء والفرد من سائر الناس لن يكون بينهما كل هذا الاختلاف؛ فكلهما، حسب المثل الكلاسيكى، سينزف دما إذا أصابته وخزة. أما مع تكنولوجيا السنوات العشرين أو الثلاثين القادمة، فإنهما ربما يصيران حقا مختلفين تماما. هل سيحدث فى منتصف القرن الجديد أن يكون هناك قابلية لإدراك الأفراد فائقى الغنى كأفراد ينتمون للنوع نفسه مثل سائر الأفراد؟ هناك احتمالات بأنهم سيصيرون نوعا مختلفا اختلافا جوهريا، وهذه الاحتمالات يبلغ من وضوحها ومن إرغابها أن يكون فى ذكرها بعض من الابتذال. سيتمكن الأغنياء من أن يستخدموا أساليب وراثية تجعل أطفالهم أكثر ذكاء، وجمالا، وبهجة. بل وربما سيصبح لهم من الناحية الوراثية نزعة أكبر لأن يكون لديهم قدرة فائقة على التعاطف، ولكنه تعاطف يقتصر على أن يكون مع أفراد يفون ببعض مدى ضيق من المعايير. إن مجرد ذكر هذه الأمور يبدو بالنسبة لى وكأن فيه بعض التندى، وكأنى أكتب رواية خيال علمى للإثارة، ومع ذلك لا يوجد مفر لنا مما فى هذا الاحتمال من منطق.

دعنا نستكشف احتمالا واحدا لا غير، بغرض إكمال النقاش. سيتمكن أكثرنا ثراء من أن يتحولوا ذات يوم إلى ما يكاد يكون خلودا، ليصبحوا بالنسبة لسائر الناس وكأنهم لا يأتيهم الموت فعلا: (ثبت عمليا فى المعمل إمكان عدم وجود أى شيخوخة سواء فى تزيينات للخلايا أو فى كائنات كاملة). دعنا لا نركز هنا على

المسائل الأساسية في الوضع الذي يقرب من حالة الخلود، فلا نركز على ما إذا كانت هذه الحالة أخلاقية أو حتى مرغوبة، أو أين سنجد المتسع لو أن الخالدين أصروا على مواصلة إنجاب الأطفال. دعنا بدلا من ذلك نركز على مسألة ما إذا كان من المرجح أن يكون الخلود باهظ التكلفة.

فيما أخمن، سيكون الخلود رخيصا لو حدث أن تحسنت تكنولوجيا المعرفة تحسنا كبيرا وسيكون باهظ التكلفة لو بقيت البرمجيات متدنية كما هي الآن.

في ظني أن ثنائية العتاد/البرمجيات ستعاود الظهور في البيوتكنولوجيا، بل وستعاود الظهور في الحقيقة فيما يتعلق بالتكنولوجيات الأخرى للقرن الحادي والعشرين. يمكننا أن ننظر إلى البيوتكنولوجيا على أنها محاولة لإضفاء الحياة على الكمبيوتر، بمعنى أن البيوتكنولوجيا تأمل أن تعالج عمليات البيولوجيا بتفصيل يتزايد دائما، بما يؤدي عند بعض زمن بعيد إلى التحكم فيها بالكامل. وبمثل ذلك فإن النانوتكنولوجيا تحاول أن تفعل الشيء نفسه بالنسبة لعلوم المواد. عندما يصبح الجسد وعالم المادة بصفة عامة أكثر قابلية للتحكم فيهما، وأكثر مشابهاة لذاكرة الكمبيوتر، عندها سيكون العامل المقيد هو مدى جودة البرمجيات التي تسيطر على هذا التحكم.

على الرغم من أنه يمكن برمجة الكمبيوتر ليؤدي بالفعل أي شيء، فإننا كلنا نعرف أن هذا في الواقع ليس بالوصف الوافي للكمبيوترات. وكما حاجبت فيما سبق، فإن من المستحيل أساسا أن نجعل الكمبيوترات تؤدي مهام محددة ذات تركيب له قدره، بطريقة موثوقة وإن كانت قابلة للتعديل، دون التعرض لأحداث انهيار أو اختراق للأمن. نستطيع فقط أن نصل إلى ما يقرب من هذا الهدف، ولن يكون هذا إلا بتكلفة عظيمة.

سنجد بما يماثل ذلك أننا نستطيع على وجه الافتراض أن نبرمج دنا لنصنع بالفعل أي تعديل في كائن حي، ومع ذلك فإن تصميم تعديل معين وتنفيذه بإحكام في الحياة أمر سيظل على الأرجح صعبا صعوبة هائلة. (وكما حاجبت من قبل، قد

يكون هذا أحد الأسباب في أن التطور البيولوجي لم يجد قط طريقا لأن تكون له سرعة غير سرعته البطيئة جدا). سنجد بما يماثل ذلك أننا نستطيع على وجه الافتراض أن نستخدم النانوتكنولوجيا لنجعل المادة تفعل ما يكاد يكون أى شيء قابل للتصور، إلا أنه ربما سيثبت في النهاية أن الأمر أصعب كثيرا مما نتخيله الآن عندما نحاول أن نجعل المادة تؤدي أى شيء فيه تركيب دون إحداث آثار جانبية خطيرة. نتنبأ سيناريوهات بأن البيوتكنولوجيا والنانوتكنولوجيا سوف تتمكن من أن تخلق بسرعة وبتكلفة رخيصة أشياء جديدة مذهلة ستوجد تحت شمسنا، ولكن يجب أن نتخيل هذه السيناريوهات أيضا أن الكمبيوترات سيصبح منها مهندسون من العلامة شبه المستقلين وفائقى الذكاء. ولكن الكمبيوترات لن تفعل أى شيء من هذا، إذا اتخذنا من درجة تقدم البرمجيات في نصف القرن الأخير الأداة للتنبؤ بنصف القرن التالي.

بكلمات أخرى، سنجد أن البرمجيات الرديئة ستجعل من الرذائل البيولوجية مثل حالة الاقتراب من الخلود، أشياء باهظة التكلفة في المستقبل بدلا من أن تكون رخيصة. بل وحتى لو حدث أن صار كل شيء آخر أرخص، إلا أن تكنولوجيا المعلومات، إلى جانب ما يبذل فيها من مجهود، ستصبح أبهظ تكلفة.

أن تكون حالة "ما يقرب من الخلود" حالة رخيصة بالنسبة لكل فرد، افتراض فيه قيد ذاتي. لا يوجد حيز كاف يتسع لهذه المغامرة. وسنجد أيضا، إذا تحدثنا على وجه التقريب، أنه لو حدث وصار الخلود رخيصا، ستصير أيضا الأسلحة البيولوجية المرعبة في سيناريو بيل جوى أسلحة رخيصة. ومن الجانب الآخر، فإن حالة "ما يقرب من الخلود" عندما تكون بتكلفة غالية سيتمكن العالم عندها من تشربها، على الأقل لفترة طويلة نوعا، لأنها ستضمن عددا أقل من الأفراد. بل ولعلهم يستطيعون الإبقاء على التكنم على هذه الحالة.

وإنز، هاكم وجه السخرية. فنفس معالم الكمبيوترات التي تدفعنا الآن إلى الجنون وتبقى عددا كبيرا منا في وظائف مريحة، هذه المعالم نفسها فيها أفضل ضمان لنوعنا لأن يظل باقيا في الوجود على المدى البعيد في أثناء استكشافنا

للأبعاد السحيقة للإمكانات التكنولوجية. إلا أن هذه الخصائص المزعجة نفسها هي التي يمكنها أن تجعل من القرن الحادى والعشرين بيت مجانيين تكتب له مسرحية مفعمة بالأوهام والطموحات اليائسة للأفراد فائقى الغنى.

هذا وأنا أشارك زملائى أتباع الشمولية السيبرنطيقية فيما يعتقدون من أنه ستحدث تغيرات هائلة مفاجئة فى المستقبل القريب تجلبها التكنولوجيا. أما الفارق بيننا فهو أنى أعتقد أنه أيا كان ما سيحدث فسيكون من مسئولية أفراد يؤدون أمورا محددة. أعتقد أن معاملة التكنولوجيا وكأنها شيء مستقل ذاتيا هو أقصى ما تصل إليه نبوءة تحقيق الذات. ليس هناك فارق بين الاستقلال الذاتى للماكينة والتخلى عن المسئولية البشرية.

دعنا ننظر فى سيناريو "استيلاء النانوبوتات على مقاليد الأمور". يبدو لى أن أكثر السيناريوهات ترجيحا تتضمن أيا من التالى:

(أ) وجود نانوبوتات فائقة فى كل مكان تدير المبرمجات القديمة، مثل "لينوكس". قد يكون هذا مثيرا للاهتمام. وعلى أى حال سيكون من المتاح الحصول على أفلام جيدة لمباريات الفيديو.

(ب) وجود نانوبوتات فائقة تتطور بالسرعة نفسها مثل النانوبوتات الطبيعية، وبالتالي تفعل شيئا لملايين السنين.

(ج) وجود نانوبوتات فائقة تفعل أشياء جديدة ولكنها تعتمد على البشر. فى هذه الأحوال سيكون البشر هم المتحكمين، للأفضل أو للأسوأ.

هكذا فإننى بالتالى. أحس بالانزعاج بشأن مستقبل الثقافة البشرية أكثر من الانزعاج بشأن تلك الأجهزة. الأمر الذى سيزعجنى بشأن المزاج الثقافى العنيف الذى نراه عند أتباع الشمولية السيبرنطيقية هو أنهم فيما يبدو لم ينالوا تعليما بأسلوب التشكيك العلمى التقليدى. وأنا أنفهم سبب ثملهم عاطفيا. هناك "بالفعل" وراء تفكيرهم منطق بسيط يفرض نفسه بقوة، وأناقة الفكر هكذا فيها مايعدى.

هناك فرصة حقيقية لأن يحدث للسيكولوجيا التطورية، والذكاء الاصطناعي، ومفعول قانون مور السحري، وكل سائر تلك الحزمة، أن تروج بمقياس كبير، مثلما راج فرويد أو ماركس في زمنهما. أو حتى تكون لها فرصة لأن تروج بأكثر من ذلك، حيث إن هذه الأفكار قد ينتهي بها الأمر وقد أصبحت أساساً مبنية داخليا في البرمجيات التي تدير شئون مجتمعنا وحياتنا. لو حدث هذا، سنجد أن أيديولوجية متقنى الشمولية السيبرنطيقية سوف تتضخم من بدعة إلى قوة يمكنها أن تسبب معاناة ملايين الناس.

لم تكن أعظم جريمة للماركسية أن الكثير مما ادعته هو ببساطة، زائف وإنما كانت أعظم جرائمها أنها زعمت أنها المسار الوحيد الكامل كاملاً مطلقاً من أجل فهم الحياة والحقيقة. الغيبيات السيبرنطيقية تتشارك مع بعض أسوأ أيديولوجيات التاريخ في مبدأ المصير الحتمى المسبق تاريخياً. لا يوجد ما هو أشد كآبة، أو إحباطاً، أو إثارة للكرب، من حياة نعيش داخل أغلال إحدى النظريات. دعنا نأمل أن يتعلم أتباع الشمولية السيبرنطيقية التواضع قبل أن يحل لهم يوم تحت الشمس.

الجزء الثالث

أَكْوَانٌ تَتَطَوَّرُ

ما مدى سرعته، وصغر حجمه وقوته ؟ قانون مور وكمبيوتر الحجر النهائي

سيث لويد^(١)

قد خلقنا الآن أجهزة تسمى كمبيوترات، تستطيع أن تسجل وتعالج كميات هائلة من المعلومات، أو جزءا له قدره من كمية المعلومات التي يستطيع البشر أنفسهم، كأحد الأنواع، أن يعالجوها. عندما أفكر في كل المعلومات التي عولجت بهذه الطريقة... أرى نوعنا وقد وصل عند نقطة مهمة جدا في تاريخه، النقطة التي سرعان ما سيحدث عندها أن تعالج مصنوعاتنا معلومات أكثر مما نستطيع نحن أن نعالجه فيزيقيا.

(١) سيث لويد أستاذ الهندسة الميكانيكية في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وباحث رئيسي في معمل الأبحاث الإلكترونية بالمعهد. يبحث في مشاكل تتعلق بالمعلومات والنظم المركبة، بدءا مما هو صغير جدا (كيف تعالج الذرات المعلومات؟ كيف يمكننا أن نجعلها تحوسب؟) ووصولا إلى ما هو كبير جدا (كيف يعالج المجتمع المعلومات؟ كيف نستطيع أن نفهم المجتمع بلغة من قدرته على معالجة المعلومات؟).

تتخلل الحوسبة العلوم كلها. يبدو أن هذا التخطي للحدود قد بدأ منذ ما يقرب من ٢٠٠ سنة، كما يتضح عندما تلقى نظرة على الفقرة الأولى من كتاب "اللويثان" لهوبز^(٢). وهو يقول فيه إنه كما أننا نعتبر أن الجسد البشرى يشبه الماكينة - يشبه الساعة، حيث لدينا أوتار وعضلات تحرك الطاقة، ودقات نبض كالبندول، وقلب يضخ الطاقة بالطريقة نفسها التي يوفر بها أحد الأتقال الطاقة لبندول الساعة، فإننا بمثل ذلك تماما يمكننا أن نعتبر أن الدولة نظير مماثل للجسد، حيث إن الدولة لها أمير عند الرأس، وأفراد أناس يشكلون أجزاءها الفردية، وكيانات تشريعية تشكل أعضائها، وهكذا دواليك. ثم يتساءل هوبز، ألا يمكننا في هذه الحالة أن نعتبر أن الدولة نفسها لها حياة اصطناعية؟

كان هذا، في حدود ما أعرف، أول استخدام لعبارة "الحياة الاصطناعية" بالطريقة التي نستخدمها الآن. عندما يكون لدينا نظام فيزيائي يتطور بطريقة فيزيائية حسب مجموعة من القواعد، أفلا يمكننا أن نعتبر أنه اصطناعي وأنه مع ذلك حي؟ لم يكن هوبز يتحدث على نحو واضح عن معالجة المعلومات، إلا أن الأمثلة التي استخدمها كانت في الحقيقة أمثلة من معالجة المعلومات. استخدم هوبز مثل الساعة كشيء صمم لمعالجة المعلومات: فهي تعطينا معلومات عن الزمن. ومعظم قطع الساعة التي وصفها هوبز أدوات لا تقتصر على أنها تحول الطاقة وإنما أيضا تزود بمعلومات. وكمثل، يعطينا البندول معلومات زمنية منتظمة. وهو عندما يناقش أمر الدولة ويتخيل أن لها حياة اصطناعية، يتحدث أولا عن "الرأس"، موضع عمليات تفكير الدولة، وهذا القياس بالتمثيل ينجز فيما أرى شيئين اثنين. الأول أن هوبز مهتم ضمنا بالمعلومات، والثاني أنه يبنى الاستعارة المجازية الأساسية عن البحث العلمي والتكنولوجي. عندما نفكر في ماكينة على أنها تحوى نوعا من الحياة داخلها ويخصصها هي نفسها، وعندما نفكر في الماكينات على أنها

(٢) اللويثان وحش بحري أسطوري ورد ذكره في الكتاب المقدس، كما يرمز أيضا للدولة خاصة عندما تكون دكتاتورية. توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) فيلسوف إنجليزي داعية للحكم الملكي المطلق. (المترجم)

تؤدى النوع نفسه من الأمور التى نؤديها، فإننا بذلك نفكر أيضا فى النتيجة الطبيعية لذلك، وهى أننا نؤدى نوع الأمور نفسها التى تؤديها الماكينات. هذه الاستعارة التى تعد من أشد الاستعارات قوة فى عصر "التتوير"، كانت تتخلل كل الثقافة الرائجة وقتها. ويمكن للمرء أن يحاج فى النهاية بأنها أدت إلى نشأة صورة نيوتن الدينامية عن العالم هى والأبحاث العظيمة فى الديناميكا الحرارية والحرارة التى وفدت بعد ذلك بمائة وخمسين سنة وأصبحت هى الاستعارة الميكانيكية المركزية التى ظلت تنير كل العلم بالمعلومات حتى القرن العشرين.

متى بدأ الناس لأول مرة يتحدثون عن المعلومات بهذه اللغة بحيث إن معالجة المعلومات أصبحت، بدلا من الساعة، الاستعارة المركزية لزمنا؟ لم يبدأ الناس التفكير فى الاستعارة الميكانيكية إلا بعد أن بدأوا بناء الماكينات وصار لديهم بعض أمثلة ميكانيكية جيدة - كالساعات مثلا. كان القرن السابع عشر قرنا رائعا لصنع الساعات؛ والحقيقة أن القرنين السابع عشر والثامن عشر كانا قرنين رائعين كفترة لبناء الماكينات. وكما أن الناس لم يأخذوا فى تصور العالم باستخدام الاستعارات الميكانيكية إلا بعد أن بنوا الماكينات، فبمثل ذلك تماما لم يأخذ الناس فى تصور العالم بلغة من المعلومات ومعالجة المعلومات إلا بعد أن أخذوا يتعاملون مع المعلومات ومعالجة المعلومات. أتيت عند نهاية القرن التاسع عشر كل المواد الرياضية والنظرية اللازمة للتفكير فى العالم بلغة من المعلومات، وسبب ذلك أن كل المعادلات الأساسية للميكانيكا الإحصائية كانت قد أبدعت بواسطة جيمس كلارك ماكسويل، ولودفيج بولتزمان، وويلارد جيبز. عرفت معادلة المعلومات من زمن يرجع إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر، ولكن الناس لم يدركوا أنها تعالج المعلومات؛ وبدلا من ذلك، فإنهم بسبب من درايتهم بأمور كالحرارة والنظم الميكانيكية التى تعالج الحرارة، أطلقوا على المعلومات فى مظهرها الميكانيكى أو الدينامي الحرارى، اسم "الإنتروبيا".^(٣)

(٣) الإنتروبيا عامل رياضى لقياس الطاقة غير المستفاد منها فى نظام ديناميكي حرارى. وهى أيضا مبدأ بأن ترتيب جزيئات المادة يزع دائما للتغير من الانتظام إلى ما هو أكثر اضطرابا وفوضى أو زيادة فى الإنتروبيا. (المترجم)

ثم أنت فكرة إنشاء ماكينات تعالج بالفعل المعلومات. حاول تشارلز باباج، فيما يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر، أن ينشئ ماكينة من هذا النوع، ولكن محاولته باءت بفشل مدوي باهظ التكلفة ولم تصل إلى دخول تيار العلم الرئيسى. ولم يحدث إلا فى ثلاثينيات القرن العشرين أن أفرادا مثل كلود شانون وروبرت واينر ومن قبلهما هارى نيكويست، أخذوا يفكرون فى معالجة المعلومات لأغراض الاتصال، والتغذية المرتدة، والتحكم - المجال الذى عرف بعدها بالسيبرنطيقا. ظهرت فى أواخر خمسينيات وأوائل ستينيات القرن العشرين فكرة بأن السيبرنطيقا ستحل لنا كل مشاكلنا - فنتيح لنا مثلا أن نكتشف أمورا مثل طريقة عمل نظمنا الاجتماعية - إلا أن هذه الفكرة فشلت فشلا هائلا، ليس بسبب أنها بالضرورة فكرة خطأ وإنما بسبب أن التكنيكات اللازمة لأداء ذلك لم يكن لها وجود وقتها (وإذا كنا واقعيين، فإنها فى الحقيقة قد لا توجد قط). بل إن التطبيقات الناجحة للسيبرنطيقا لم تعد حتى تسمى الآن بالسيبرنطيقا، لأنها مغروسة إلى حد بالغ فى تكنولوجيا مجالات مثل نظرية التحكم وتكنيكات علم الهواء والفضاء التى استخدمت فى وضع الإنسان فوق القمر. يأتى بنا هذا إلى القرن العشرين والإنترنت، وهى بمعنى ما تكاد تكون التوأم الشرير للسيبرنطيقا. كلمة السيبرنطيقا مأخوذة عن الكلمة اليونانية "kybernetos" التى تعنى الحاكم، أو تعنى فى الواقع مدير الدفة. فالـ "kybernetos" هو ربان السفينة. والسيبرنطيقا كما فهمت فى أول الأمر كانت تتعلق بشأن الحكم، أو التحكم، أو الإرشاد. فيما أرى، فإن الشئ العظيم بشأن الإنترنت هو أنها خارج نطاق التحكم بالكامل.

أنا بحكم تأهيلي فيزيائى وقد تعلمت أن يكون تفكيرى عن العالم بلغة من الطاقة، والعزم، والضغط، والإنتروبيا. لدينا كل هذه الطاقة، وثمة أشياء تحدث، وأشياء تتدافع فوق أشياء أخرى، وأشياء تتوالت فيما حولنا. ولكن هذا هو نصف القصة لا غير. أما نصف القصة الآخر، نصفها المكمل، فهو القصة التى تدور حول المعلومات، وههنا تكون السيبرنطيقا أساسا فى الطريق الصحيح. يمكننا بإحدى الطرائق أن نفكر فيما يجرى فى العالم على أنه طاقة، الأشياء تتحرك هنا وهناك، الأشياء يتوالت أحدها بعيدا عن الآخر، تلك هى الطريقة التى ظل الناس

يفكرون بها عن العالم لما يزيد عن ٤٠٠ سنة، منذ جاليليو ونيوتن. إلا أن ما يفتقد في تلك الصورة هو ما تؤديه " تلك الأشياء. هذا سؤال يدور حول المعلومات. ما الذى جرى؟ التفكير فى العالم بلغة المعلومات أمر مكمل للتفكير عن العالم بلغة الطاقة. فيما أرى فإن هذا هو موضع وجود الفعل، التفكير فى العالم كموضع التقاء للمعلومات والطاقة وكيف تعمل إحداهما بالإثارة ضد الأخرى. وهذا بالضبط ما كانت السيبرنطيقا تدور حوله. فكر نوربرت واينر فى السيبرنطيقا، وهو الأب لها، بلغة المعلومات، فى أمور مثل تحكم التغذية المرتدة. وكمثل، ما مقدار المعلومات التى نحتاجها لنجعل شيئاً ما يحدث؟ كان أول أفراد درسوا هذه المشاكل علماء تصادف أن كانوا فيزيائيين، وأول شخص كان يعى بوضوح الصلة بين المعلومات، والإنتروبيا، والكميات الفيزيائية كالطاقة، كان ماكسويل، وهو الذى كتب فى خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر المعادلات التى تحدد العلاقة بين ما نسميه الآن بالمعلومات وبين أمور مثل الطاقة والإنتروبيا.

ما يفرق أساساً بين البشر ومعظم الكائنات الحية الأخرى هى الطريقة التى نتعامل بها مع المعلومات. أنشأنا اللغة الطبيعية فى وقت ما من خط الأحداث، ربما يكون منذ ١٠٠٠٠٠ سنة، وكان من هذه اللغة طريقة عامة لمعالجة المعلومات، ومنذ ذلك الوقت أخذ تاريخ البشر يتكون من إنشاء طرائق تتزايد أبداً فى رقيها لتسجيل المعلومات، ومعالجتها، وتحويلها، والتعامل معها. وقد خلفنا الآن أجهزة تسمى كمبيوترات، تستطيع أن تسجل وتعالج كميات هائلة من المعلومات، أو جزءاً له قدره من كمية المعلومات التى يستطيع البشر أنفسهم كأحد الأنواع أن يعالجوها. عندما أفكر فى كل المعلومات التى عولجت بهذه الطريقة - كل المعلومات التى يتم توصيلها عبر الإنترنت؛ والكمية الإجمالية التى تتم معالجتها بواسطة البشر هم ومصنوعاتهم - أرى نوعاً قد وصل عند نقطة مهمة جداً فى تاريخه، النقطة التى سرعان ما سيحدث عندها أن تعالج مصنوعاتنا معلومات أكثر مما نستطيع نحن أن نعالجها فيزيائياً. وهكذا أجد على أن أتساءل، ما عدد البتات التى أعالجها فى كل ثانية فى رأسى؟ أستطيع أن أقدر ذلك. هناك ما يقرب من ١٠ بلايين عصبون، يعالج كل واحد منها ما يقرب من مائة بتة فى كل ١/١٠٠٠ من الثانية، وإذن فإن

إجمالي قدرة المخ على معالجة المعلومات يقرب من مليون بليون بته في الثانية. إذا كنت تعتقد أن معالجة المعلومات هي موضع وجود الفعل، فإن هذا قد يعنى أن البشر لن يصيروا بعد ذلك في موضع وجود الفعل. ولكن حيث أننا نحن الذين خلقنا هذه الأجهزة التي تؤدي هذه المعالجة الضخمة للمعلومات، فإننا كنوع، قد استقر بنا الوضع على نحو فريد لنجعل حياتنا مثيرة للاهتمام والاستمتاع بطرائق لا يمكن التنبؤ بها بالكامل.

كل نظام فيزيائي يستطيع عن طريق مجرد وجوده أن يسجل المعلومات. وكل نظام فيزيائي يستطيع عن طريق مجرد تطوره حسب دينامياته الخاصة به أن يعالج تلك المعلومات. وأنا أهتم بالطريقة التي يسجل العالم بها المعلومات، والطريقة التي يعالجها بها. ولكن لما كنت عالما يتعامل بفيزياء الطريقة التي تعالج بها الأشياء المعلومات، فإنني أهتم بتلك الفكرة بطريقة أكثر تحديدا. ما أود أن أكتشفه لا يقتصر على الطريقة التي يعالج العالم بها المعلومات، وإنما أود أيضا أن أكتشف "مقدار" المعلومات التي يعالجها. أخذت مؤخرا أبحث في طرائق تحديد القيم العددية لكمية المعلومات التي تعالج، وذلك بأن نستخدم لا غير ديناميات فيزيائية عادية. خطر لى من سنين معدودة فكرة أن أوجه السؤال التالي: باعتبار أن القيود الأساسية على الطريقة التي رتب بها العالم هي: (١) سرعة الضوء التي تقيد السرعة التي تستطيع بها المعلومات الانتقال من مكان لآخر؛ و(٢) ثابت بلانك الذي يخبرنا بما يكونه المقياس الكمومي، ومدى صغر الحجم الذي يمكن أن تصل له الأشياء فعلا قبل أن تختفى كلياً؛ و(٣) آخر ثابت أساسى فى الطبيعة، ثابت الجاذبية، الذى يخبرنا أساسا بمدى كبر الحجم الذى يمكن أن تصل إليه الأشياء قبل أن تنقلص على نفسها، باعتبار هذه القيود ماذا يكون كم المعلومات التي يمكن فيما يحتمل معالجتها؟ يثبت فى النهاية أن الجزء الصعب من هذا السؤال كان فى المقام الأول القيام بتصميمه. فبمجرد أن تمكنت من وضع السؤال، لم يستغرق استنتاج طريقة الإجابة عنه إلا فترة من سنة أشهر إلى سنة، ذلك أن جوانب الفيزياء المتضمنة فيه هي جوانب مباشرة إلى حد كبير. فهو يتضمن ميكانيكا الكم، والجاذبية، وربما يدخله

بعض جزء من الجاذبية الكمومية، ولكن ليس كبيراً بما يكفي لأن يجعل الأمور بالغة الصعوبة.

الدافع الآخر لمحاولة الإجابة عن هذا السؤال هو تحليل "قانون مور". الكثير من أهداف مجتمعنا الثمينة هي نتاج لهذا القانون اللافت للنظر الذي يدور حول التصغير. أصبح الناس بارعون " إلى أقصى حد " في تصغير مكونات النظم "إلى أقصى حد". هذا هو ما يكمن وراء التزايد الذي لا يصدق في قدرة الكمبيوترات، وما يكمن وراء التزايد المذهل في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات (مثل الإنترنت)، وما يكمن وراء الجزء الكثير من كل تقدم في التكنولوجيا يمكننا التفكير فيه، بما في ذلك مجالات علوم مثل علم المواد. وأنا أحب أن أعتبر أنه أعظم ما توصلنا له في تاريخ البشرية من استحواذ على الأشياء.

سنجد من المنظور الهندسي أن هناك طريقتين لجعل شيء ما أكبر. إحداها أن نجعل الشيء أكبر فيزيقياً، وقد أنفق البشر وقتاً كثيراً لجعل الأشياء أكبر فيزيقياً، مستبطين طرائق لإضفاء قوة أكبر على النظم، فيبنون مباني أكبر، ويوسعون منطقة أرضهم على حساب الآخرين، وهلم جرا. إلا أن هناك طريقة أخرى لجعل الأشياء أكبر وهي أن نجعل الأشياء أصغر. الحجم الحقيقي لأحد النظم ليس هو مدى كبر حجمه في الواقع؛ الحجم الحقيقي هو النسبة بين حجم أكبر جزء في النظام وأصغر جزء فيه، بمعنى ما يكونه أصغر جزء في النظام يمكننا بالفعل أن نجعله موضع استخدامنا. وكمثل، فإن السبب في أن الكمبيوترات الآن قد زادت قوتها أكثر بكثير عما كانت عليه من عشر سنوات هو أنه يحدث كل عام ونصف العام أو ما يقرب، أن ينخفض حجم المكونات الأساسية للكمبيوترات (الأسلاك، ورقائق المنطق، وما إلى ذلك) انخفاضاً بعامل من اثنين. ويسمى هذا " قانون مور"، وهو مجرد حقيقة تاريخية عن تكنولوجيانا.

في كل مرة ينخفض حجم شيء ما بعامل من اثنين، سنفتمكن من حشد ضعف كميته في أحد الصناديق، وبالتالي فإن قوة الكمبيوترات تصل إلى الضعف كل عامين أو ما يقرب، وقد ارتفعت قوة الكمبيوترات على مر خمسين سنة بعامل

من المليون أو أكثر. وبهذا المعنى، فإن العالم قد أصبح أكبر بمليون مثل، لأننا صرنا قادرين على أن نجعل أصغر الأجزاء القابلة للاستخدام فى العالم أقل حجماً بمليون مثل. وهكذا فإننا نعيش فى زمن مثير. على أن ثمة سؤالاً معقولاً نسأله، إلى أين سينتهى هذا كله؟ منذ طرح مور قانونه فى أوائل ستينيات القرن العشرين تم إلغاؤه فى مرات عديدة. فقد ألغى فى أوائل السبعينيات لأن الناس اعتقدوا أن تكتيكات تصنيع الدوائر المتكاملة سوف تنهار وأننا لن نستطيع جعل الأشياء أصغر من حجم يقاس بعشرة ميكرونات. يحدث الآن مرة أخرى إلغاء لقانون مور، لأن الناس يقولون إن الحواجز العازلة بين الأسلاك فى الكمبيوتر ستصل إلى أن تكون بسبك لا يتجاوز سمك عدة ذرات، وعندما يكون لدينا عازل لا يزيد سمكه عن عدة ذرات، ستمكن الإلكترونيات من شق مسار من خلاله كالنفق فلا يعود بعد عازلاً جيداً. حسن، ربما سيؤدى هذا إلى إيقاف قانون مور، إلا أن شيئاً لم يوقفه حتى الآن.

هل هناك بعض حد يجب عنده أن يتوقف قانون مور؟ يشمل هذا السؤال القيود الفيزيائية النهائية للحوسبة: نحن لا نستطيع أن نرسل إشارات بسرعة أكبر من سرعة الضوء، ولا نستطيع تصغير حجم الأشياء لأصغر مما تسمح به قوانين ميكانيكا الكم، وإذا جعلنا الأشياء أكبر مما ينبغي فإنها ستتقلص لا غير إلى ثقب أسود مارداً. من المستحيل أن نغش أمننا الطبيعية، فى حدود ما نعرف.

رأيت أن من المثير للاهتمام أن نعرف ما تقوله القوانين الأساسية للفيزياء عن مدى السرعة التى يمكن أن تصل لها الكمبيوترات، ومدى صغر حجمها، ومدى قوتها. الواقع أنه يثبت فى النهاية أن هذين السؤالين هما السؤال نفسه، وأولهما السؤال عن أنه "باعتبار قوانين الفيزياء، إلى أى مدى من القوة يمكن أن تصير الكمبيوترات؟" وهما السؤال نفسه لأن الإجابة عنهما تكون فى نفس الموضع، وهو الموضع الذى نستخدم فيه كل مورد فيزيائى متاح لأداء الحوسبة - كل جسم صغير تحت ذرى، كل أوقية من الطاقة، كل فوتون فى نظامنا. فالسؤال هو "ما مقدار الحوسبة فى ذلك؟" حتى نبحث هذا، رأيت أن أحد الأشكال المعقولة

للمقارنة هو أن أنظر أمر ما أسميه "كمبيوتر الحجر النهائي". دعنا نسأل عما يمكن أن تكون عليه قوة هذا الكمبيوتر.

الفكرة هنا هي أننا نستطيع أن نضع علاقة بين قوانين الفيزياء والقيود الأساسية على الحوسبة، وبين شيء نكون على دراية به، شيء له بمقياس بشري كتلة تقترب من الكيلو جرام، مثل كمبيوتر حجر لطيف، وله حجم يقرب من اللتر، لأن ما يقاس بالكيلوجرامات واللترات يصلح إلى حد كبير لأن يوضع في الحجر ويكون له حجم معقول عند النظر إليه، ومعقول لأن يوضح في حقيبة أوراق صغيرة، إلخ. بحثت هذه المشكلة لما يقرب من سنة، أمكنني بعدها أن أبين أن قوانين الفيزياء تعطى إجابات مطلقة عن كمية المعلومات التي نستطيع معالجتها بكيلوجرام من المادة مقيد بحجم من لتر واحد. تتعلق كمية المعلومات التي يمكننا معالجتها، وعدد البتات التي يمكننا تسجيلها في الكمبيوتر، وعدد العمليات التي يمكننا إجراؤها في كل ثانية على هذه البتات، يتعلق كل هذا بالكميات الفيزيائية الأساسية: ثوابت الطبيعة السابق ذكرها؛ سرعة الضوء، وثابت بلانك، وثابت الجاذبية. ويمكننا بوجه خاص أن نبين دون مشاكل كثيرة أن عدد العمليات المنطقية التي يمكننا إجراؤها في كل ثانية باستخدام كمية معينة من المادة هو عدد يتناسب مع طاقة هذه المادة.

أن يكون من الصعب جدا بالنسبة للقراء ذوى التفكير التكنيكي أن يتناولوا سريعا المعادلة المشهورة $E = mc^2$ (الطاقة = الكتلة \times مربع سرعة الضوء)، ويستخدموا بحث نورمان مارجولوس وليف لفيتين، ليبينوا أن إجمالي عدد العمليات المنطقية الأولية التي نستطيع إجراؤها في الثانية باستخدام كيلوجرام من المادة هو مقدار الطاقة، E ، مضروبا في c^2 ، ومقسوما على h (ثابت بلانك)، مضروبا في Pi (باي)^(٤). حسن، لا يتوجب أن تكون أينشتين لإجراء هذه العملية الحسابية. الكتلة هي كيلو جرام واحد، وسرعة الضوء هي 3×10^8 من الأمتار

(٤) باي: الحرف السادس عشر في الأبجدية الإغريقية وله قيمة رقمية في المعادلات. (المترجم)

فى كل ثانية، وبالتالي فإن ك س ٢ هى ما يقرب من 10^{17} جول. (٥) هذا كم له قدره من الطاقة، أعتقد أنه على وجه التقريب يساوى مقدار الطاقة الذى تستخدمه محطات الطاقة النووية فى العالم كله على مر أسبوع أو ما يقرب. هذا إذن كم له قدره من الطاقة، ولكن دعنا نفترض أننا نستطيع استخدامه لإجراء عمليات حوسبية. لدينا هكذا 10^{17} جول، ويصل (h -bar) بالتقريب إلى 10^{-34} جول فى الثانية. وإن كان لدينا 10^{17} جول مقسومة على 10^{-34} جول/ثانية، فيكون الناتج هو عدد العمليات: 10^{51} عملية فى الثانية. وبالتالي فإننا نستطيع أداء 10^{51} عملية فى الثانية، و 10^{51} هى تقريبا مليون مليون بليون بليون بليون عملية فى الثانية، بما هو أسرع كثيرا من كمبيوتر الحجر التقليدى. وهذه هى الإجابة. لن نستطيع فعل ما هو أفضل من ذلك، فى حدود ما يتعلق بقوانين الفيزياء.

كتب هذا فى مجلة "ناتشر" (الطبيعة) منذ سنتين، ويواصل الناس من وقتها الاتصال بى لطلب كمبيوتر من كمبيوترات الحجر هذه. وأساء الحظ أنه لم ينشأ بعد المصنع اللازم لصنعها. يمكننا أيضا أن نسأل، ما السبب فى أن كمبيوتراتنا التقليدية للحجر هى بالمقارنة بطيئة هكذا هذا البطء البالغ، فى حين أننا واصلنا اتباع قانون مور هذا لما يقرب الآن من خمسين سنة؟" والإجابة هى أن الكمبيوترات التقليدية ترتكب خطأ (يمكن النظر إليه على أنه خاصية أمان لكمبيوتر الحجر) وهو أنها تحبس معظم طاقتها فى شكل مادة، بحيث إنها بدلا من أن تستخدم تلك الطاقة فى التعامل مع المعلومات وتحويلها، فإن معظمها يروح فى جعل كمبيوتر الحجر قابعا هناك ليكون كمبيوتر حجر. لو حدث أنى أخذت مخرج طاقة أسبوع من المحطات النووية للعالم كله وأطلقتها فى التو، سيكون لدى ما يشبه كثيرا الانفجار النووى الحرارى، لأن الانفجار النووى الحرارى هو أساسا أن تأخذ ما يقرب من كيلو جرام من المادة وتحوله إلى طاقة. هكذا نستطيع أن نفهم مباشرة أن كمبيوتر الحجر النهائى ستكون لديه مشاكل شديدة فى طريقة تعبئته وصنعه. لن

(٥) الجول وحدة لقياس الشغل والطاقة تساوى الشغل الذى تبذله قوة من نيوتن واحد لإحداث إزاحة متر واحد فى اتجاه القوة. (المترجم)

يكون من السهل أن نمنع هذا الشيء، ليس فقط من أن يقضى على الواحد منا، وإنما من أن يقضى أيضا على مدينة بوسطن بأسرها عندما نبدأ إجراءات تشغيله لأول مرة.

لا حاجة للقول بأنى لم أستكشف الطريقة التى سنعبئ بها فى صندوق هذا الكمبيوتر النهائى للحجر، وإن كان ذلك جزءا من متعة إجراء الحسابات طبقا للقوانين النهائية فى الفيزياء. قررت أن أحسب عدد العمليات التى يمكننا أداؤها فى الثانية وأن أوجل قلقى بشأن تعبئة الكمبيوتر لوقت لاحق. الآن وقد وصلنا إلى ١٠^٥ عملية فى الثانية سيكون السؤال التالى، ما هو حيز ذاكرة هذا الكمبيوتر الحجرى.

عندما أذهب لشراء كمبيوتر حجر جديد، سأسأل أولا عن عدد ما يمكن له إجراؤه من العمليات فى الثانية. إذا كان هذا العدد شيئا مثل ١٠٠ ميغاهرتز^(٦)، سيكون الجهاز بطيئا نوعا بالمعايير الحالية، وإذا كان العدد جيغا هيرتز فإن هذا سريع نوعا، وإن كان لا يزال بعيدا جدا عن سرعة ١٠^٥ عملية فى الثانية. نقترّب عند الجيغا هرتز من ١٠^١، أو ١٠^{١١} أو ١٠^{١٢}، بما يعتمد على الطريقة التى يجرى بها حاليا عد العمليات فى الثانية. يلى ذلك أن نسأل عن عدد ما لدينا من البتات. ماذا يكون حجم مسير القرص الصلب^(٧) لهذا الكمبيوتر أو ما حجم ذاكرته من نوع (رام RAM = ^(٨)). نستطيع أيضا أن نستخدم قوانين الفيزياء لحساب هذا الرقم، وحوسبة قدرة الذاكرة أمر كان سيمكن للناس فعله فى زمن يرجع إلى العقود الأولى من هذا القرن.

نحن نعرف كيف نعد البتات. نأخذ عدد حالات المادة، وعدد الحالات هو رقم (٢) مرفوعا لأس عدد البتات. عند ١٠ بتات يكون الرقم ١٠^٢ حالة. ونواصل

(٦) الهيرتز: وحدة التردد فى النظام الدولى وتعنى دورة فى الثانية. والميجا = مليون، والجيغا = بليون.

(المترجم)

(٧) المسير: أداة لنقل البيانات من القرص لذاكرة الكمبيوتر أو العكس. (المترجم)

(٨) رام اختصار الكلمات الإنجليزية التى تعنى ذاكرة النفاذ العشوائى. (المترجم)

ذلك حتى نجد أننا عندما يقرب من ٣٠٠ بنة سيكون الرقم ٢٠٠٢، وهذا يقرب من ١٠٠١٠ حالة، وهذا فى جوهره رقم أكبر نوعا من عدد الجسيمات فى كل الكون. لو كان لدينا ٣٠٠ بنة فإننا نستطيع أن نخصص رقما مسلسلا لكل جسيم فى الكون، وهذه وسيلة للاستفادة بقوة بالمعلومات. نستطيع أن نستخدم عددا صغيرا جدا من البتات لوضع بطاقة مميزة لعدد هائل من الأشياء.

ما عدد البتات التى يحوزها هذا الكمبيوتر النهائى للحجر؟

لدينا كيلو جرام من المادة مقيد فى حجم لتر واحد. ما عدد الحالات التى يمكن وجودها هنا، أى عدد الحالات الممكنة للمادة المقيدة فى حجم لتر واحد؟ تصادف أن هذه عملية حسابية أعرف طريقة القيام بها، لأننى درست علم الكون، وهذا العلم يوجد فيه ذلك الحدث المسمى "بالانفجار الكبير"، الذى وقع منذ ما يقرب من ١٣ بليون سنة. فى أثناء الانفجار الكبير كانت المادة فى درجات قصوى من الكثافة والضغط. تعلمت من علم الكون كيف أجرى حساب عدد حالات المادة التى لها درجة مرتفعة جدا من الكثافات والضغط. وبالطبع فإن كثافة كمبيوتر حجرى يست بهذا المقدار الهائل؛ فهى كيلو جرام من المادة فى حجم لتر. على أننا إذا أردنا أن نسأل عن عدد الحالات لهذه المادة وهى فى لتر، سيكون علينا أن نجرى حسابا لكل تشكّل ممكن، ولكل حالة كمومية أولية ممكنة لهذا الكيلوجرام من المادة فى حجم اللتر الواحد. يثبت فى النهاية أننا عندما نحصى معظم هذه الحالات، ستبدو هذه المادة وكأنها موجودة وسط انفجار نووى حرارى، وكأنها قطعة صغيرة من الانفجار الكبير بعد لحظات قليلة من ولادة الكون، عندما كانت الحرارة حوالى بليون درجة. وعندما نسأل عما تكونه معظم حالات المادة عند درجة حرارة البليون، إذا تم إطلاقها بالكامل وتمكنت من أن تفعل أيا مما تريده، فسنجد أنها عندها ستشبه كثيرا البلازما^(٩) عند درجة حرارة بليون بمقياس كلفن. تتكون الإلكترونات والبوزيترونات من لا شيء وتعود ثانية إلى حالة الفوتونات، ويكون

(٩) البلازما مرحلة تأين على للغازات فى درجات حرارة عالية جدا، وتتساوى فى البلازما عدد الأيونات الموجبة وعدد الإلكترونات السالبة فتعامل كهربائية. (المترجم)

هناك الكثير من الجسيمات الأولية تنز فيما حولها، والحرارة ساخنة جدا. تحدث أمور كثيرة، ولكننا مازلنا نستطيع أن نحسب عدد الحالات الممكنة باستخدام الطرائق التقليدية التى يستخدمها الناس لحساب عدد الحالات فى الكون المبكر. سنأخذ لو غاريتم عدد الحالات فنحصل على مقدار كمى يعد طبيعيا أنه إنتروپيا النظام. سيعطينا هذا عدد البتات؛ سنجد أن هناك تقريبا 2^{10} بتة متاحة. يعنى هذا أن هناك اثنين بأس 2^{10} من الحالات الممكنة التى يمكن أن تكون هذه المادة عليها. هذا عدد كثير من الحالات، ولكننا نستطيع عدھا. ما يثير الاهتمام هنا هو أن لدينا 2^{10} بتة، وأننا نودى 2^{10} عملية فى الثانية، وبالتالي فإن كل بتة تستطيع أداء ما يقرب من 2^{10} عملية فى الثانية. ما الذى يعنيه هذا المقدار؟

ثبت فى النهاية أن هذا المقدار - أو ذا شئت عدد العمليات فى كل ثانية لكل بتة - هو أساسا درجة حرارة البلازما. نأخذ هذا الرقم ونضربه فى ثابت بلانك فيكون ما نحصل عليه هو أساسا الطاقة لكل بتة. هذا ما تكونه الحرارة؛ فهو يخبرك عن الطاقة لكل بتة. وهو يخبرك عن كمية الطاقة المتاحة للبتة حتى تودى عملية منطقية. لما كنا نعرف أننا عندما يكون لدينا كمية معينة من الطاقة نستطيع أداء عدد معين من العمليات فى كل ثانية، فإن الحرارة إذن تخبرنا عن عدد العمليات لكل بتة لكل ثانية التى يمكن أداؤها بواسطة كمبيوتر الحجر النهائى، أى كيلوجرام من المادة فى حجم لتر: إنه عدد العمليات لكل بتة لكل ثانية الذى يمكن أداؤه بتلك الجسيمات الأولية التى وجدت فيما مضى عند بدء الزمان، فى الانفجار الكبير، عدد المرات التى تستطيع فيها البتة أن تتقلب، أو عدد المرات التى يمكن أن تتفاعل فيها مع البتات المجاورة لها، أو عدد العمليات المنطقية الأولية. لدينا هكذا رقم، أليس كذلك؟ 2^{10} . وهذا يماثل تماما أن العدد الإجمالى للعمليات، 2^{10} ، هو رقم، معلمة فيزيائية تميز كيلو جراما من المادة فى حجم من لتر. ويمثل ذلك فإن 2^{10} عملية فى الثانية هو رقم العمليات فى كل ثانية، الذى يميز كيلو جراما من المادة، سواء كان أو لم يكن فى حجم من لتر.

أما وقد قطعنا شوطا كبيرا فى طريقنا هذا، فإنه ليس من داع لأن نتوقف، على الأقل بالنسبة لهذه التمارين النظرية التى لا تضر أحدا. قد استخدمنا حتى الآن

الثوابت الأولية للطبيعة: سرعة الضوء التى تخبرنا بكمية الطاقة التى نحصل عليها من كتلة معينة، ومقياس بلانك الذى يخبرنا بأمرين معاً، عدد العمليات فى كل ثانية الذى نستطيع الحصول عليه من كمية معينة من الطاقة وكذلك الطريقة التى نحسب بها عدد الحالات المتاحة من قدر معين من الطاقة. وبالتالي نستطيع أن نحسب عدد العمليات لكل ثانية الذى يمكن أن تؤديه كمية معينة من المادة وكمية حيز الذاكرة الذى يكون متاحاً لنا فى كمبيوترنا النهائى.

نستطيع بعد ذلك أن نحسب أيضاً أى نوع من القضايا المثيرة للاهتمام، كأن نحسب مثلاً ما يكونه المعدل الممكن للمدخل/المخرج لكل هذه البتات فى حجم من اللتر. يمكننا أن نقول، "طيب، هاكم كل هذه البتات التى تقع فى حجم لتر، دعنا ننقل هذا الحجم من لتر ليفسح متسعاً بقدر مسافة بعد بسرعة الضوء"، لن نستطيع الحصول على معلومات تدخل أو تخرج بسرعة أبر من ذلك. سنجد أننا نستطيع الحصول على ما يقرب من 10^{10} أو 10^{11} من البتات فى كل ثانية، تدخل وتخرج من كمبيوترنا الحبرى النهائى. يخبرنا ذلك بمدى سرعة المودم^(١٠) Modem الذى يمكن أن يكون عندك لهذا الجهاز: ما هو عدد البتات فى كل ثانية الذى يمكن الحصول عليه داخلاً أو خارجاً عبر "الإنترنت النهائية"، أياً ما ستكونه هذه "الإنترنت النهائية". أعتقد أن الإنترنت النهائية هى لا أقل من الزمكان نفسه فى هذه الصورة.

ذكرت أننا فيما يحتمل لا نستطيع أن نفعل ما هو أفضل من ذلك؛ فهذه هى قوانين الفيزياء. ولكننا ربما سنتمكن من أن نفعل ما هو أفضل بطرائق أخرى. دعنا مثلاً نفكر فى معمار هذا الكمبيوتر. إنه يؤدي 10^{10} عملية فى الثانية، مع وجود 10^{11} بته. نستطيع كل بته أن نتقلب 10^{10} مرة فى كل ثانية. وهذه سرعة كبيرة نوعاً. سيكون سؤالنا التالى، ما الزمن الذى تستغرقه بته على هذا الجانب من الكمبيوتر لترسل إشارة لبته على ذلك الجانب الآخر من الكمبيوتر فى سياق أدائها لعملية ما؟

(١٠) المودم أداة إلكترونية للاستقبال والإرسال، تحول البيانات الرقمية من الكمبيوتر إلى إشارة تناظر يمكن بثها لكمبيوتر آخر عبر نظام تليفونى. (المترجم)

كما أثبتنا فان هذا الكمبيوتر له حجم لتر، وهذا يقرب من ١٠ سنتيمترات عند كل جانب، وبالتالي فإن الأمر يستغرق ما يقرب من ١٠^{١٠} ثانية - جزء من عشرة بلايين من الثانية - حتى ينتقل الضوء من جانب إلى الآخر. تتقلب البتات بمعدل ١٠٠ بليون بليون مرة في الثانية، وهكذا فإن هذه البتة تتقلب ١٠ بلايين مرة في الوقت الذي تستغرقه إشارة لتذهب من أحد جانبي الكمبيوتر للآخر. ولكن هذا ليس بحوسبة تسلسل بتوالى بأقصى حد؛ ثمة فعل كثير يحدث هنا في أثناء الوقت المستغرق للاتصال بالجانب الآخر من الكمبيوتر. وهذا هو ما يسمى بالحوسبة الموازية. يمكننا أن نقول إنه - في أنواع الكثافات التي لنا دراية بها مثل كثافة الكيلوجرام لحجم من لتر، وهى كثافة الماء - سنتمكن فقط من أداء الحوسبة من النوع المتوازي جدا إذا كنا سنجرى عملياتنا بالحدود النهائية للحوسبة؛ سيحدث فعل حوسبي بكميات كبيرة في أثناء الوقت الذي يستغرق لنقل إشارة من هنا إلى هناك ثم عودتها ثانية.

كيف يمكننا أن نؤدى أداء أفضل؟ كيف يمكننا أن نجعل الحوسبة أكثر تسلسلا بالتوالى.

دعنا نفترض أننا نريد لماكينتنا أن تؤدى حوسبة أكثر تسلسلا بالتوالى، بحيث إنه في الوقت الذي يستغرق لإرسال إشارة من جانب الكمبيوتر للآخر يكون هناك أداء لعمليات أقل عددا. الحل الواضح هو أن نجعل الكمبيوتر أصغر، وذلك لأننا عندما نجعل الكمبيوتر أصغر بعامل من اثنين سيستغرق الضوء نصف الوقت فقط - أى بالنسبة لإشارة معلومات - لينتقل من أحد جانبي الكمبيوتر للآخر. وإذا جعلناه أصغر بعامل من ١٠ بلايين تستغرق الإشارة فقط جزءا واحدا من عشرة بلايين من الوقت لتذهب من أحد جانبي الكمبيوتر للآخر. سنجد أيضا أننا عندما نجعل الكمبيوتر أصغر فإن هذه الأجزاء من الكمبيوتر تنحو إلى أن تكون أسرع، لأننا ننحو لأن يكون لدينا فى كل حالة طاقة أكبر لكل بتة متاحة. وإذا واصلنا إجراء الحسابات سنجد أنه كلما أصبح الكمبيوتر أصغر وأصغر، وكلما انضغطت المادة فى حجم أصغر وأصغر، فإننا نستطيع إجراء حوسبة أكثر تسلسلا بالتوالى.

متى تتوقف هذه العملية؟ متى يمكن لكل بثة في الكمبيوتر أن تتحدث مع كل بثة أخرى في سياق الزمن الذى تستغرقه البثة لتتقلب؟ متى يمكن لكل فرد أن يتحدث مع كل فرد آخر في كمية الزمن نفسها التى يستغرقونها للتحدث مع جيرانهم؟

كلما جعلنا الكمبيوتر أصغر وأصغر، فإنه يصبح أكثر وأكثر كثافة؛ لدينا كيلو جرام من المادة فى حجم يتناقص دائما. تتخذ المادة فى النهاية تشكيلات تصبح أكثر إثارة للاهتمام، حتى يتطلب الأمر بالفعل ضغطا عاليا جدا للإبقاء على هذا النظام فى هذا الحجم الصغير جدا. تتخذ المادة تشكيلات أغرب وأغرب وتتحو إلى أن تصبح أسخن وأسخن وأسخن، حتى نصل إلى نقطة معينة يحدث عندها شئ سيئ. لن يستطيع الضوء بعد أن يهرب منها. فقد أصبحت ثقبا أسود.

ماذا سيحدث لحوسبتنا عند هذه النقطة؟ هذا فيما يحتمل أمر سيئ جدا للحوسبة، أليس كذلك؟ أو الأخرى أنه يكون سيئا بالنسبة للمدخل /المخرج. سيكون المدخل على ما يرام، لأن المادة مستخل، ولكن المخرج سيكون سيئا، لأن المادة لن تخرج، حيث إن هذا ثقب أسود. على أننا لحسن الحظ سنكون آمنين فى هذا الشأن، لأننا نستخدم قوانين ميكانيكا الكم لحساب كمية المعلومات التى يستطيع نظام فيزيائى حوسبتها، ومدى سرعة أدائه لهذه الحوسبات، ومدى كمية المعلومات التى يستطيع تسجيلها، وهذه القوانين تظل صالحة هنا.

بين ستيفن هوكنج فى سبعينيات القرن العشرين أن الثقوب السوداء عند التعامل معها بأسلوب ميكانيكا الكم، يمكن أن تشع للخارج معلومات. ثمة خلاف يثير الاهتمام حول ما إذا كان لهذه المعلومات أى علاقة بالمعلومات التى دخلت. وهناك رهان مشهور بين هوكنج وجون بريسل عالم الفيزياء النظرية فى معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا: يقول بريسل أن نعم، المعلومات التى تخرج من الثقب الأسود تعكس المعلومات التى دخلت فيه؛ ويقول هوكنج أن لا، المعلومات التى تخرج من الثقب الأسود عندما يشع لا تكون لها أى علاقة بالمعلومات التى دخلت، والمعلومات التى دخلته تذهب بعيدا. لست أعرف الإجابة عن ذلك.

ولكن دعنا نفترض للحظة أن هوكنج خطأ ويريسكل مصيب. هذا الثقب الأسود ذى الكيلوجرام سوف يشع بمعدل سرعة هائلة؛ إنه يشع فوتونات بموجات طولها 10^{-27} من الأمتار، وهذا شئ لن نرغب فعلا أن نكون قريبين منه. والحقيقة أن ذلك سيثبه كثيرا انفجارا هائلا. ولكن دعنا نفترض أن المعلومات التى يشعها الثقب الأسود هى فى الحقيقة المعلومات التى دخلته فى المقام الأول لتثبته، ولكنها ببساطة حدث لها تحول بطريقة معينة. وما نراه إذن هو أن هذا الثقب الأسود يمكن التفكير فيه بمعنى ما على أنه يجرى حوسبة.

سنأخذ المعلومات حول المادة التى عرف أنها تشكل الثقب الأسود، وسوف نبرمجها (بمعنى أننا سنعطىها شكلا معيناً، فنضع أحد الإلكترونات هنا والآخر هناك، ونجعل هذا الشئ يتذبذب بمثل ذلك)، ثم نقلص ذلك فى ثقب أسود. وهكذا بعد ذلك بوقت من 10^{-27} من الثانية - أى فى جزء من مائة بليون بليون من الثانية - يحدث لهذا الشئ سحر مفاجئ! ونحصل فى الخارج على كل هذه المعلومات ثانية، ولكن المعلومات قد أصابها الآن تحول بواسطة ديناميات مجهولة. سنحتاج فى الحقيقة إلى معرفة شئ مثل نظرية للأوتار أو نظرية جاذبية كم لنكتشف كيف حدث تحول للمعلومات. ولكننا نستطيع أن نتخيل أن هذا الثقب الأسود يمكن فى الحقيقة أن يعمل كمبيوتر. ونحن لا نعرف الطريقة التى تجعله يحوسب، ولكنه فى الحقيقة يأخذ معلومات للداخل، وهو يحولها إلى شكل نسقى حسب قوانين الفيزياء، ثم تحدث المفاجأة! فهو يعيد لفظها للخارج. لنفترض أننا نستطيع بطريقة ما أن نفهم المعلومات التى تخرج من الثقب الأسود. سنكون عندها قد أجرينا فى الحقيقة الحوسبة النهائية التى يمكننا إجراؤها باستخدام كيلوجرام من المادة، نكون فى هذه الحالة قد قيدناه فى حجم من 10^{-81} من الأمتار المكعبة.

هل هناك أى مزيد فى هذه القصة؟ بعد أن أرسلت ورقة بحثى عن كمبيوتر الحجر النهائى إلى مجلة "ناشر"، أدركت أنى كنت طموحا على نحو غير كاف، وأن السؤال الواضح الذى علينا أن نسأله ليس عن ماذا تكون القدرة الحوسبية النهائية لكيلو جرام من المادة، وإنما السؤال هو "ماذا تكون القدرة الحوسبية النهائية

للكون ككل؟" فالكون على أى حال يعالج المعلومات، أليس كذلك؟ النظم الفيزيائية كلها، عن طريق مجرد وجودها، تسجل معلومات. وهى عن طريق مجرد تطوير ما يخصها من ديناميات فيزيائية طبيعية، تحول هذه المعلومات، فهى تعالجها. السؤال الحقيقى هو، ماذا تكون كمية المعلومات التى عالجها الكون منذ الانفجار الكبير؟

العصر الذهبي لعلم الكون

آلان جوث^(١١)

النظرية الكلاسيكية لم تكن أبداً في الحقيقة نظرية عن انفجار؛ وإنما كانت نظرية عن النتائج التي تعقب انفجاراً. تبدأ النظرية وكل المادة التي في الكون موجودة بالفعل في الموضع الملائم، ويحدث لها بالفعل أنها تتمدد سريعاً، ويحدث لها بالفعل أنها ساخنة بما لا يصدق. لم يكن هناك أى تفسير للطريقة التي أصبح بها الكون هكذا. التضخم^(١٢) محاولة للإجابة عن السؤال عما جعل الكون ينفجر، وفيما يبدو الآن فإن هذه الإجابة هي الإجابة الصحيحة بما يكاد يكون مؤكداً.

(١١) يعد آلان جوث الأب الروحي لنظرية تضخم الكون، وهو أستاذ كرسى فكتور ف. وايسكوبف للفيزياء في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. تدور اهتمامات جوث البحثية في مجال نظرية الجسيمات الأولية وتطبيق نظرية الجسيمات على الكون المبكر. وقد فاز في ٢٠٠٢ بميدالية ديرك للمركز الدولي للفيزياء النظرية، ومعه بول شتاينهارت وأندريه ليند، وذلك عن إنشاء مفهوم التضخم في علم الكون. وهو مؤلف كتاب "الكون التضخمي".

(١٢) نظرية تضخم الكون (Inflation) نظرية عن الكون المبكر جداً بعد الانفجار الكبير بزمن من ١٠^{-١٤} ثانية، حيث يتمدد الكون لفترة مؤقتة بسرعة كبيرة جداً. ولعل الترجمة الحرفية لكلمة Inflation هي الانتفاخ، ولكنها تعني أيضاً في الإنجليزية التضخم المالي. وكتب علم الكون الجماهيرية كثيراً ما تقارن تضخم الكون بالتضخم المالي. ولهذا فضلنا كلمة تضخم على انتفاخ. (المترجم)

كثيرا ما يقال إننا فى العصر الذهبى لعلم الكون، وأعتقد أن هذه المقولة أصلها دافيد شرام عالم الفيزياء الفلكية الراحل. وهى مقولة صادقة حقا. يمر علم الكون بمرحلة انتقالية وبعد أن كان مجموعة من التخمينات أصبح فرعا أصليا من العلم المتين، حيث يمكن إنشاء النظريات ثم اختبارها إزاء أرصاد دقيقة. أحد أكثر المجالات إثارة للاهتمام مجال التنبؤ بالتراوحات، أو أوجه عدم الاتساق، فى إشعاع خلفية الكون. نحن ننظر إلى هذا الإشعاع على أنه الومىض المتبقى من حرارة الانفجار الكبير؛ وهو متسق فى كل الاتجاهات بدرجة من الدقة تصل إلى جزء واحد من ١٠٠٠٠٠ بعد أن نطرح الحد المتعلق بحركة الأرض خلال إشعاع الخلفية.

شاركت بقوة فى نظرية تسمى الكون التضخمى، يبدو أنها أفضل تفسير لنا لهذا الاتساق. الاتساق الذى يصعب فهمه. قد يعتقد المرء فى أول الأمر أنه يمكن تفسيره بالمبادئ الفيزيائية نفسها التى تسبب أن تبرد شريحة ساخنة من البيتزا عندما تخرج من الفرن: فتتحو الأمور إلى الوصول إلى حرارة متسقة. إلا أنه تم استنباط معادلات لعلم الكون بحيث يمكن للمرء أن يحسب مدى سرعة تمدد الكون عند أى وقت معين، وما إن تم ذلك حتى تمكن الفيزيائيون من حساب قدر الفترة الزمنية اللازمة لبدء هذا الاتساق. ووجدوا أنه حتى يتأتى للكون أن يصبح متسقا بالسرعة الكافية لأن تفسر الاتساق الذى نراه فى إشعاع خلفية الكون، سيكون من اللازم أن تنتقل المعلومات بمعدل يقرب من مائة مثل لسرعة الضوء. ولكننا نعرف حسب كل نظرياتنا الفيزيائية أنه لا يوجد شىء يستطيع الانتقال بأسرع من الضوء. وبالتالي كان من اللازم أن تفترض النسخة الكلاسيكية من نظرية الانفجار الكبير أن الكون ببساطة كان متجانسا - متسقا بالكامل - منذ البداية الأولى.

نظرية الكون التضخمى هى إضافة للنظرية المعيارية عن الانفجار الكبير، وما تضيفه أساسا هو وصفة لما دفع الكون فى المقام الأول إلى التمدد. سنجد فى النسخة الكلاسيكية من نظرية الانفجار الكبير، أن هذا التمدد كان جزءا من الافتراضات الأولى؛ ولم يكن هناك تفسير له أيا ما يكون. النظرية الكلاسيكية لم

تكن أبداً في الحقيقة نظرية عن انفجار؛ وإنما كانت نظرية عن النتائج التي تعقب انفجاراً. تبدأ النظرية وكل المادة التي في الكون موجودة بالفعل في وضعها الملائم، ويحدث لها بالفعل أنها تتمدد سريعاً، ويحدث لها بالفعل أنها ساخنة بما لا يصدق. لم يكن هناك أى تفسير للطريقة التي أصبح بها الكون هكذا. التضخم محاولة للإجابة عن السؤال عما جعل الكون ينفجر، وفيما يبدو الآن، فإن هذه الإجابة هي الإجابة الصحيحة بما يكاد يكون شبه مؤكد. وهي لا تقتصر على أن تفسر فقط السبب الذي جعل الكون يتمدد، وإنما تفسر أيضاً في الوقت نفسه أصل ما تكونه أساساً كل مادة الكون. وأنا أقول "أساساً" لأننا سنجد في النسخة النمطية من النظرية، أن التضخم يحتاج لما يساوي تقريباً جراماً واحداً من المادة حتى يبدأ. وبالتالي فإن التضخم ليس بالضبط نظرية عن البداية المطلقة، ولكنه نظرية من التطور تفسر ما نراه حولنا ابتداءً مما "يكاد يكون" لا شيء.

تستفيد نظرية التضخم من النتائج المتاحة من الفيزياء الحديثة للجسيمات، والتي تتنبأ بأنه عند الدرجات العالية جداً من الطاقة ينبغي أن توجد أنواع غريبة من المواد التي تقلب الجاذبية رأساً على عقب وتنتج قوى جاذبية تنافرية^(١٣). التفسير التضخمي هو فكرة أن الكون المبكر يحوى على الأقل رقعة من هذه المادة الغريبة. كل ما نحتاجه هو رقعة؛ ويمكن أن يكون حجمها بالفعل أصغر من البروتون صغراً يزيد عن بليون مثل. إلا أنه ما إن توجد هذه الرقعة، حتى نجد أن ما بها من تنافر جذوى يسبب نموها، لتصبح سريعاً كبيرة بالحجم الكافى لأن تشمل كل الكون المرصود.

منذ الوقت الذي طرح فيه أينشتين أصلاً النسبية العامة، تنبأت هذه النظرية بإمكان وجود جاذبية تنافرية؛ نحتاج في سياق النسبية العامة إلى مادة لها ضغط سلبي لخلق جاذبية تنافرية. حسب النسبية العامة فإن تخليق المجالات الجذبوية لا يتم فقط بناء على كثافات المادة أو كثافات الطاقة؛ وإنما هناك أيضاً الضغط. الضغط

(١٣) الجاذبية التنافرية عبارة فيها تناقض ظاهري، إلا أن المقصود أن قوة الجاذبية قد تكون موجبة فتؤدى إلى التجاذب أو قد تكون سالبة فتؤدى إلى التنافر. (المترجم)

الموجب يخلق مجالا جذبويا طبيعيا من النوع الذى تعودناه، أى فيه تجاذب. والضغط السالب سيخلق نوعا تناقريا من الجاذبية. ثبت فى النهاية، حسب النظريات الحديثة عن الجسيمات، أن المواد التى لها ضغوط سالبة يسهل بناؤها من المجالات التى توجد حسب هذه النظريات. عندما نضع معا هاتين الفكرتين - فكرة أن فيزياء الجسيمات تعطينا حالات فيها ضغوط سالبة وفكرة أن النسبية العامة تقول لنا إن تلك الحالات تسبب تناقرا جذبويا - نصل عندها إلى أصل النظرية التضخمية.

تعطينا النظرية التضخمية تفسيراً بسيطاً لاتساق الكون المرصود، وذلك لأن الكون فى النموذج التضخمي يبدأ وهو صغير صغيراً لا يصدق. سيكون هناك هكذا زمن كاف لأن تصل منطقة صغيرة جداً هكذا إلى حرارة متسقة وكثافة متسقة، وذلك بواسطة الميكانيكيات نفسها التى يصل بها الهواء فى الغرفة إلى كثافة متسقة فى أرجاء الغرفة كلها. سنجد فى الكون المبكر الصغير جداً الذى يفترضه النموذج التضخمي أن الوقت هكذا سيكون كافياً لأن تسبب هذه الميكانيكيات ما يكاد يكون اتساقاً كاملاً. ثم لا يلبث التضخم أن يتولى زمام الأمور ويضخم هذه الرقعة الصغيرة جداً لتصبح كبيرة الكبر الكافى لأن تشمل الكون كله، وهى تحافظ على هذا الاتساق فى أثناء وقوع التمدد.

عند النشأة الأولى للنظرية، شعرنا لفترة بالقلق من أننا سنحصل هكذا على اتساق بدرجة أكثر مما ينبغى. إحدى خواص الكون المذهلة هى مدى اتساقه، ولكنه مع ذلك ليس - بأى حال - متسقاً اتساقاً كاملاً. لدينا فى الكون مجرات ونجوم وحشود عنقودية وكل أنواع البنى المعقدة التى يلزم تفسيرها. لو كان الكون قد بدأ وهو متسق بالكامل، لكان قد بقى متسقاً بالكامل، لأنه لن يكون هناك أى شىء يسبب تجمع المادة هنا أو هناك أو فى أى مكان معين.

فى أعقاب الاقتراحات المبكرة التى طرحها تشيبيزوف وموخانوف، كان ستيفن هوكينج واحداً من أول من حاولوا استكشاف ما نعتقد الآن أن فيه الإجابة عن هذا اللغز. أوضح هوكينج أن تأثيرات الكم قد يكون فيها ما ينقذنا، وإن كانت حساباته الأولى فى هذا الشأن غير دقيقة. العالم الحقيقى لا يتم توصيفه توصيفاً

كاملا بواسطة الفيزيائيين الكلاسيكيين، ومع ذلك فقد كنا نوصف الأمور بطريقة كلاسيكية بالكامل، بالمعادلات الحتمية. العالم الحقيقي، حسب ما نفهمه عن الفيزياء، يتم توصيفه حسب نظرية ميكانيكا الكم، الأمر الذى يعنى فى أعماق أعماقه أن كل شىء يجب أن يكون توصيفه بلغة من الاحتمالات. العالم الكلاسيكى الذى ندركه، الذى يكون فيه لكل شىء موضع محدد ويتحرك بطريقة حتمية، هذا العالم هو فى الحقيقة مجرد متوسط لاحتمالات التى نتنبأ بها نظرية الكم المكتملة. إذا طبقنا هذه الفكرة هنا، سنجد على الأقل أن من الواضح من البداية أنها من حيث الكيف نضعنا فى الاتجاه الذى نريد الذهاب فيه، بمعنى أن الكثافة المتسقة التى تتبأت بها معادلاتنا الكلاسيكية ستكون فى الحقيقة مجرد متوسط كثافات من نوع ميكانيكى كمى، حيث يكون لها مدى من قيم تختلف من مكان لآخر. سيؤدى عدم اليقين فى ميكانيكا الكم إلى أن يجعل كثافة الكون المبكر أكبر هونا فى بعض الأماكن وأصغر هونا فى أماكن أخرى. ستكون هناك تراوحات، وبالتالي فإننا سننتوقع أن يكون لدينا عند نهاية التضخم تموجات تملو ما يكاد يكون كثافة متسقة للمادة.

فى إمكاننا أن نحسب هذه التموجات. ينبغى أن أقر بأننا لا نعرف بعد من فيزياء الجسيمات ما يكفى لتحديد سعة (amplitude) التموجات، شدة التموجات، أما ما "نستطيع" أن نحسبه فهو الطريقة التى تعتمد بها شدة التموجات على طول الموجة. بمعنى أن هناك تموجات من كل الأحجام، وأننا نستطيع أن نقيس شدة تموجات من أحجام مختلفة. هكذا نستطيع أن نقيس ما نسميه بأنه بمدى طيف، ونحن نستخدم الكلمة بالطريقة نفسها بالضبط التى نستخدمها لوصف موجات الصوت. عندما نتحدث عن طيف إحدى موجات الصوت، فإننا نتحدث عن طيف الصوت. نحن نفعل الشئ نفسه بالضبط بالنسبة للكون المبكر؛ نستطيع أن نتحدث عن الطريقة التى تختلف بها شدة التموجات فى كتلة كثافة الكون المبكر حسب اختلاف أطوال الموجات.

نستطيع الآن أن نرى هذه التموجات فى إشعاع خلفية الكون. حقيقة أننا قد استطعنا أن نراها بأى حال لهى نصر مطلق للتكنولوجيا الحديثة. عندما كنا نصنع

لأول مرة هذه التنبؤات فى زمن يرجع إلى ١٩٨٢، كان علماء الفلك قد بدأوا بالكاد يدركون تأثير حركة الأرض من خلال إشعاع الخلفية، تأثير تبلغ دقته ما يقرب من جزء واحد من الألف. أما التموجات التى أتحدث عنها فتبلغ دقتها ما يقرب فحسب من جزء واحد من ١٠٠٠٠٠ - مجرد ١ فى المائة من أرهف تأثير أمكن رصده عندما كنا نجرى هذه الحسابات لأول مرة. لم أعتقد أبدا أننا سنرى التموجات فعلا فى الخلفية الكونية؛ وبدا أن فكرة أن علماء الفلك سيصلون إلى أن يكونوا هم الأفضل بمائة مثل فى قياس هذه الأشياء، بدا وكأن هذه فكرة بعيدة الاحتمال تماما. إلا أنه حدث لدهشتى وسعادتى أن تم فى ١٩٩٢ الكشف عن هذه التموجات بواسطة قمر صناعى اسمه "كوب" (مستكشف الخلفية الكونية The Cosmic Background Explorer). ولدنيا الآن قياسات أفضل كثيرا مما قام به كوب حيث كانت دقة التحدد الزاوى لقياساته تصل إلى حوالى ٧ درجات، بما يتيح لنا أن نرى فقط التموجات التى لها أكبر طول موجة. أما الآن فلدينا قياسات ينخفض فيها هذا التحدد إلى كسر من الدرجة، ونتوصل الآن إلى قياسات دقيقة جدا عن مدى تغير الشدة مع تغير طول الموجة.

أعلنت فى ربيع ٢٠٠٠ مجموعة من التصريحات المثيرة حول تجارب سميت "البوميرانج" (اختصار الكلمات الإنجليزية التى تعنى "أرصاد البالونات للإشعاع المليمترى خارج المجرات والفيزياء الجغرافية") وحول تجارب سميت "ماكسيما" (اختصار "مصفوفة التصوير التجريبي لتباين الخواص المليمترى")، وكلاهما تجارب تتأسس على البالونات ووفرت لنا براهين قوية جدا على أن الكون مسطح هندسيا، وهذا هو ما ينتبأ به التضخم بالضبط. ما نعنيه بكلمة "مسطح" أن المكان بأبعاده الثلاثية فى الكون ليس منحنيا، كما كان يمكن أن يحدث حسب النسبية العامة. عندما نكون فى سياق من النسبية سنجد أن الهندسة الإقليدية لا تكون هى المعيار، وإنما سيكون فيها شذوذ. سنجد فى النسبية العامة أن المكان المنحنى هو الحالة العامة. ما إن نفترض أن الكون فى المتوسط متجانس (يتمثل فى كل الأماكن) وموحد الخواص (يتمثل فى كل الاتجاهات)، حتى نجد أن قضية التسطح تصير متعلقة مباشرة بالعلاقة بين كثافة كتلة الكون وسرعة تمدده. عندما تكون

كثافة الكتلة كبيرة سوف تسبب أن ينحني المكان إلى كون مغلق، كون فى شكل كرة؛ عندما تكون كثافة الكتلة هى المسيطرة، يصبح الكون مكانا مغلقا له حجم محدد وليس له حرف، كون يحدث فيه أن سفينة الفضاء التى تتحرك فيما نظن أنه خط مستقيم لمسافة طويلة طولا كافيا سوف تنتهى إلى أن تعود ثانية إلى المكان الذى بدأت منه رحلتها. فى الحالة البديلة لذلك، عندما يسيطر التمدد، سيصبح الكون مفتوحا هندسيا. الأماكن المفتوحة هندسيا لها خصائص هندسية مضادة لتلك التى للأماكن المغلقة. ستكون لانهائية. المكان المغلق نجد فيه أن الخطيين المتوازيين يأخذان فى التقارب؛ فى المكان المفتوح نجد أن الخطيين المتوازيين يأخذان فى التباعد. على أن ما نراه فى كلا الحالين يختلف تماما عما فى الهندسة الإقليدية. إلا أنه إذا كانت كثافة الكتلة تقع مباشرة عند الخط الفاصل بين الحالين (ما يعرف بأنه "الكثافة الحرجة") تكون الهندسة عندها إقليدية ويكون المكان مسطحا.

لما كان الكون الآن مسطحا، على نحو تقريبي على الأقل، فإن هذه الحقيقة تتطلب أن يكون الكون المبكر مسطحا بدرجة خارقة. الكون ينحو إلى أن يتطور فى ابتعاد عن التسطح، وبالتالي فإنه بناء على ما كنا نعرفه حتى منذ عشر أو عشرين من السنوات، وهو أقل كثيرا مما نعرفه الآن، حتى بناء على ذلك كان يمكننا أن نصل إلى تقديرات استدلالية بالعودة وراء فى الزمان، لنكتشف مثلا أنه بعد ثانية واحدة من الانفجار الكبير لابد من أن كثافة كتلة الكون كانت عند الكثافة الحرجة "درجة من الدقة تصل إلى رقم بكسر عشرى عند الموضع الخامس عشر"، وذلك حتى يكون هناك توازن إزاء معدل التمدد لينتج كونا مسطحا. لا توفر النظرية التقليدية للانفجار الكبير أى ميكانيزم يفسر كيف صارت كثافة الكتلة جد قريبة من المقدار الحرج، إلا أن التفسير السابق هو ما يجب أن تكون عليه الأمور حتى نفسر السبب فى أن الكون يبدو بما يبدو عليه الآن. الحقيقة أن نظرية الانفجار الكبير لا تتجح بدون التضخم، إلا إذا زودت بظروف ابتدائية قد تم تضيقها على نحو دقيق جدا حتى تنتج كونا مثل الكون الذى نراه. النظرية التضخمية تتجنب هذه المشكلة التى تسمى مشكلة التسطح، لأن التضخم يغير الطريقة التى تتطور بها هندسة الكون بمرور الزمن. بل وحتى على الرغم من أن الكون يتطور دائما تجاه

الابتعاد عن التسطح في أثناء كل الفترات الأخرى من تاريخه، فإن الكون في أثناء الفترة التضخمية يكون مدفوعا بالفعل تجاه التسطح بسرعة لا تصدق. احتاج التضخم إلى ما يقرب فقط من 10^{-4} من الثانية أو ما يقرب حتى يدفع الكون إلى ما هو قريب من التسطح بدرجة تكفى لتفسير ما نراه الآن.

سيحدث في كل الحالات تقريبا أن هذا الميكانيزم التضخمي الذي يدفع الكون للتسطح سوف يتجاوز الحد في كل الحالات تقريبا، ويعطينا كونا ليس بالكون الذي يمكن وصفه بأنه الآن قريب من التسطح، وإنما هو كون يوصف بأنه الآن مسطح "بالضبط تقريبا". حاول أفراد مختلفون أن يصمموا صورا من التضخم تتجنب هذا، ولكن هذه الصور بدت وكأن فيها تحايل، وتتطلب أن ينتهي التضخم بالضبط عند النقطة التي يكاد يجعل الكون عندها مسطحا، وإن كان ليس مسطحا تماما. النموذج التضخمي العام يدفع الكون تجاه تسطح كامل، وهذا يعنى أن إحدى تنبؤات هذا النموذج هو أنه الآن "ينبغي أن تكون كثافة كتلة الكون عند القيمة الحرجة التي تجعل الكون مسطحا هندسيا". إلا أنه لم يكن هناك أى عالم فلك يصدق ذلك منذ أربع أو خمس سنوات. وكانوا يقولون لنا إننا إذا نظرنا إلى المادة المرئية لا غير، سنرى فحسب واحدا في المائة مما يلزم لأن يجعل الكون مسطحا. وطرحوا بالفعل مادة تزيد عن ذلك، في شكل "مادة مظلمة". المادة المظلمة مادة نستنتج وجودها من التأثير الجذبوى الذى تمارسه على المادة المرئية. وكمثل فإننا نرى تأثيراتها فى منحنيات دوران المجرات. عندما قاس الفلكيون لأول مرة سرعة دوران المجرات، وجدوا أنها تلف بسرعة بالغة بحيث إنه لو كانت المادة الوحيدة الموجودة هي المادة المرئية لتطايرت المجرات متفرقة. وبالتالي كان على الفلكيين أن يفترضوا أن هناك كمية كبيرة من المادة المظلمة فى كل مجرة - ما يقرب من خمسة إلى عشرة أمثال كمية مادتها المرئية - لتبقى المجرة متماسكة معا. يصدق الشيء نفسه على حركة المجرات داخل الحشود العنقودية للمجرات. وهذه الحركة تكون عشوائية وشواشية بدرجة أكبر كثير من حركة مجرة لولبية مفردة، إلا أننا رغم ذلك نستطيع أن نسأل عن مقدار الكتلة اللازمة للإبقاء على الحشود العنقودية متماسكة معا، وستكون الإجابة أنه مازال يلزم مقدار من المادة أكبر بما له قدره مما نفترض

وجوده فى المجرات. عندما أضاف الفلكيون كل هذا معا توصلوا إلى ما يقرب من ثلث الكثافة الحرجة، وكان لديهم القدرة على أن يضمّنوا إلى حد ما أنه لا يوجد هناك أى مزيد من المادة. وهذا أمر سيئ بالنسبة للنموذج التضخمى، إلا أن الكثيرين منا مازالوا يؤمنون بالنموذج ويعتقدون أن الفلكيين إن أجلا أو عاجلا سوف يتوصلون لشيء ما.

وكان أن توصلوا بالفعل. أخذت الأرصاد بدءا من ١٩٩٨ تدل على حقيقة ملحوظة هى أن من الظاهر أن تمدد الكون يتسارع ولا يتباطأ. تسمح نظرية النسبية العامة بذلك؛ فما يحتاجه الأمر هو مادة لها ضغط سالب. يقتنع الآن معظم علماء الكون بأن كوننا لابد من أنه تتخلله مادة ذات ضغط منخفض تسبب التسارع الذى نراه الآن. مازلنا لا نعرف ما تكونه هذه المادة؛ ونشير إليها بأنها "طاقة مظلمة". ولكن حتى ونحن لا نعرف ما تكونه، إلا أننا نستطيع استخدام النسبية العامة نفسها لحساب مقدار الكتلة التى لابد من أن توجد هناك لتسبب التسارع المرصود، وثبت فى النهاية أن هذا الرقم يكاد يساوى بالضبط الثلثين من الكثافة الحرجة، أى بالضبط المقدار الذى كان منقوصا فى الحسابات السابقة! إذا افترضنا أن هذه الطاقة المظلمة حقيقية، سيكون لدينا الآن اتفاق كامل بين ما أخبرنا به الفلكيون عن كثافة كتلة الكون، وما يتنبأ به التضخم

على أن هناك تناقضا مهما كان قد أثار قلق الناس وقت إعلان نتائج تجارب "بوميرانج" و"ماكسيما"، ولم يكن هناك أى واحد لديه الثقة بإمكان الحصول على فائدة كبيرة منها. يظهر الطيف الذى تقيسه هذه التجارب كرسم فيه من حيث المبدأ نزوات عديدة. توجد علاقة بين هذه النزوات والذبذبات المتتابة لموجات الكثافة فى الكون المبكر وبين ظاهرة تسمى الرنين تجعل بعض أطوال الموجات أكثر شدة من الأخرى. بينت القياسات أن الذروة الأولى موجودة بالضبط حيث توقعنا، وموجودة بالضبط بالشكل المتوقع. ولكننا لم نستطيع رؤية الذروة الثانية. حتى نلائم بين المعطيات والنظرية، كان علينا أن نفترض أنه يوجد فى الكون عدد من البروتونات يقرب من عشرة أمثال ما كنا نعتقده، لأن هذه البروتونات الإضافية

ستؤدي إلى تأثير احتكاكي يمكن أن يجعل الموجة الثانية تختفي. لاريب أن هناك قدرا من عدم اليقين في أي تجربة؛ عندما نجرى تجربة لمرات كثيرة، لن تكون النتائج متماثلة بالضبط في كل مرة. وبالتالي يمكننا أن نريح أنفسنا بفكرة أن الذروة الثانية كانت غير مرئية لسبب من محض سوء الحظ؛ وعلى أي حال، فإن احتمال أن هذه الذروة يمكن أن تكون غير مرئية "بهذا الحد" عندما يحوى الكون كثافة البروتونات التي تدل عليها قياساتنا الأخرى، هذا الاحتمال كان منخفضا إلى مدى واحد في المائة. وبالتالي فإن لدينا هنا تناقضا خطيرا جدا بين ما هو مرصود وما هو متوقع. تغير كل هذا من وقتها تغيرا مثيرا تجاه الأفضل؛ وذلك مع ما تم إعلانه لاحقا من قياسات أكثر دقة. والآن فإن الذروة الثانية لم تعد فحسب مرئية وإنما هي بالضبط بالارتفاع المتوقع، وكل شيء في المعطيات يتلاءم الآن على نحو جميل مع التنبؤات النظرية. هذا في الحقيقة جميل بأكثر مما ينبغي. وأنا واثق من أن الأمور ستصير إلى أسوأ بدلا من أن تواصل أن تصير إلى أحسن، وذلك باعتبار الصعوبات التي نلقاها في هذا النوعي من القياسات. على أنه أصبح لدينا الآن صورة يبدو أنها تثبت نظرية التضخم في الكون المبكر.

نجد حاليا في عصرنا الذهبي لعلم الكون، أن النظرية التضخمية، التي كانت من سنوات قليلة في تناقض له قدره مع الأرصاد، تتجح الآن نجاحا كاملا مع قياساتنا لكثافة الكتلة وللتراوحات. هناك براهين قوية جدا على نظرية هي إما النظرية التي أتحدث عنها أو بعض نظرية قريبة جدا منها. ينبغي أن أؤكد في الختام على أنه على الرغم من أنني استخدم مصطلح "التضخم" في صيغة المفرد، فإن التضخم في الحقيقة فئة من النظريات. إذا كان التضخم صوابا، فإنه لن يكون بأي حال النهاية لدراساتنا عن أصل الكون، بل إنه حقا أقرب إلى أن يكون البداية. هناك نسخ كثيرة مختلفة من التضخم، والحقيقة أن النموذج الدوري الذي يصفه بول شتاينهاردت في الصفحات التالية يجب أن يعتبر كإحدى هذه النسخ، التي تعد نوعا نسخة جديدة، لأنها تضع التضخم في عصر مختلف تماما من تاريخ الكون، ولكن التضخم يظل يفعل الكثير من الأمور نفسها. هناك نسخ كثيرة من التضخم أشبه كثيرا بأنواع النظريات التي أنشأناها في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين،

بحيث إننا عندما نقول إن التضخم "صواب" لا يكون في ذلك بأى حال نهاية القصة. ثمة الكثير من المرونة هنا، والكثير مما يجب تعلمه. وما يجب أن نتعلمه يشمل أمرين معاً، دراسة علم الكون ودراسة علم فيزياء الجسيمات الذى يكمن فى الأساس وله أهميته الجوهرية لهذه النماذج.

الكون الدورى

بول شتاينهاردت^(١٤)

شغلت طول العالم الماضى بإنشاء نظرية بديلة تقلب تاريخ الكوزموس^(١٥) رأسا على عقب. نجد فى هذه النظرية أن كل الأحداث التى خلقت الملامح المهمة لكوننا تقع بترتيب مختلف، ولفيزياء مختلفة، وفى أوقات مختلفة، عبر مقاييس زمنية مختلفة، ومع ذلك يبدو هذا النموذج قادرا على إعادة إنتاج كل التنبؤات الناجحة للصورة المتفق عليها عموما وبنفس التفصيل المتقن.

(١٤) بول شتاينهاردت أستاذ كرسى ألبرت أينشتاين للعلم وأستاذ فى كل من قسم الفيزياء وقسم علوم الفيزياء الفلكية فى جامعة هيرينستون. وهو أحد القادة من المنظرين المسؤولين عن نظرية التضخم، وقد انشغل بإنشاء أول نموذج للتضخم قابل للعمل به وإنشاء نظرية عن كيف أن التضخم يستطيع إنتاج البذور لتكوين المجرات. وهو أيضا واحد من أول من بينوا الأدلة على وجود الطاقة المظلمة وتسارع الكون، طارحا مصطلح "الجوهر الخالص" للإشارة إلى الأشكال الدينامية للطاقة المظلمة. وقد منح فى ٢٠٠٢ ميدالية ديراك للمركز الدولى للفيزياء النظرية، بالاشتراك مع آلان جوث وأندريه لند، وذلك عن إنشاء مفهوم التضخم فى علم الكون.

(١٥) كلمة Cosmos تعنى الكون بوصف أنه نظام نسقى متناغم بما يتعارض مع الشواش. لم يتفق بعد فى العربية على كلمة واحدة تعبر عن ذلك. أحيانا تعرب الكلمة إلى كوزموس وأحيانا تترجم إلى كون. (المترجم)

لو أننا طلبنا من معظم علماء الكون أن يعطوا ملخصاً عن موقفنا الآن مباشرة في هذا المجال، سوف يقولون لنا إننا نعيش في فترة خاصة جداً من تاريخ البشرية، حيث يحدث بفضل حشد كامل من أوجه التقدم في التكنولوجيا، أننا نستطيع أن نرى الكون البعيد جداً والمبكر جداً بطرائق لم نكن نستطيعها من قبل. نستطيع الحصول على لقطة لصورة تبين ما كان عليه الكون وهو وليد، عندما كانت أول الذرات مازالت تتكون. ونستطيع الحصول على لقطة لصورة تبين ما كان الكون يبدو عليه في أثناء مراهقته، عندما كانت أول النجوم والمجرات مازالت تتكون. ونحن نحصل الآن على صورة كاملة التفاصيل بالأبعاد الثلاثة لما يبدو عليه الكون المحلي الآن. عندما نضع هذه المعلومات معا سنحصل على سلسلة بالغة الإحكام من القيود التي تحدد أى نموذج لتطور الكون. جمعنا في العقد الأخير بيانات أدت إلى إلغاء كل نظريات تطور الكون التي ظهرت في أوائل تسعينيات القرن العشرين ما عدا نظرية واحدة، نموذج يمكننا أن نسميه بأنه نموذج الاتفاق العام حالياً. يشمل هذا النموذج توليفة من نموذج الانفجار الكبير كما تنامي في عشرينيات وثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين؛ ونظرية التضخم التي طرحها آلان جوث في أوائل الثمانينيات؛ وتعديل حديث لها سناقشه سريعاً. نظرية الاتفاق العام هذه تتوافق مع الأرصاد التي لدينا الآن عن الكون بتفصيل متقن. ولهذا السبب، يستنتج الكثيرون من علماء الكون أننا في النهاية قد حددنا التاريخ الكوزموى الأساسى للكون.

إلا أن عندي وجهة نظر مختلفة إلى حد ما، وجهة نظر استثنائها حدثان. الأول هو التعديل الحديث الذى أشرت إليه. أود أن أحاج بأن هذا التعديل الحديث ليس مجرد تعديل وإنما هو صدمة حقيقية لكل أفكارنا عن الزمن والتاريخ الكوزموى. والثانى، أنى شغلت طوال العام الماضى بإنشاء نظرية بديلة تقلب تاريخ الكوزموس رأساً على عقب. نجد في هذه النظرية أن كل الأحداث التى خلقت الملامح المهمة لكوننا تقع بترتيب مختلف، وبفيزياء مختلفة، عبر مقاييس زمنية مختلفة، ومع ذلك يبدو هذا النموذج قادراً على إعادة إنتاج كل التنبؤات الناجحة للصورة المتفق عليها عموماً وبفصائل المتقن.

الفارق الأساسى بين هذه الصورة وصورة الاتفاق العام يأتى مباشرة من طبيعة الزمان. يفترض النموذج المعيارى أو نموذج الاتفاق العام، أن الزمان له بداية، وهى ما نشير له عادة بأنها الانفجار الكبير. نجد حسب هذا النموذج، أنه لأسباب لا نفهمها تماما، طلع الكون من اللاشئ إلى بعض شئ، مفعم بالمادة والطاقة، وأنه ظل يتمدد ويبرد طول ١٣,٧ من بلايين السنوات الماضية. ونجد فى النموذج البديل، أن الكون لا نهاية له. فالزمان بلا نهاية بمعنى أنه يتواصل للأبد فى الماضى وللأبد فى المستقبل. كما أن المكان بمعنى ما بلا نهاية. بل والحقيقة أن أبعاد المكان الثلاثية تبقى لا نهائية خلال كل تطور الكون.

يطرح هذا النموذج على نحو أكثر تحديدا وجود كون يكون له تطور دورى. وذلك بمعنى أن الكون يمر خلال فترات من التطور من الساخن إلى البارد، ومن الكثيف إلى الأقل كثافة، ومن الإشعاع الساخن إلى البنية التى نراها الآن ثم فى النهاية إلى كون خاو. ثم تحدث سلسلة من الأحداث تسبب بدء الدورة مرة ثانية. يعاد حقن الكون بالطاقة، بما يخلق فترة جديدة من التمدد والابتعاد. وتتكرر هذه العملية دوريا للأبد. وما نشهده الآن هو ببساطة أحدث دورة.

فكرة الكون الدورى ليست فكرة جديدة. تأمل الناس هذه الفكرة لزمن يرجع إلى بداية التاريخ المسجل. وكمثل فإن قدماء الهندوس كان لديهم علم كون بالغ الرقى والتفاصيل يتأسس على كون دورى. وقد تنبأوا بأن مدة كل دورة هى ٨,٦٤ بليون من الأعوام، وهو تنبؤ فيه دقة للرقم الثالث. وهذا أمر يثير الإعجاب، خاصة وأنهم لم يكن لديهم نظرية ميكانيكا كم ولا نظرية أوتار! ولا يتفق هذا الرقم مع الرقم الذى سأطرحه، وهو من ترليونات من الأعوام بدلا من بلايينها.

ظلت فكرة الدورات مبحثا متعاودا فى الفكر الغربى. وكمثل، نجد أن إدجار آلان بو هو وفردريك نيتشه، كان لكل منهما نموذج دورى للكون، كما نجد فى الأيام الأولى من علم الكون حسب النسبية أن ألبرت أينشتين، وألكسندر فريدمان، وجورج ليميتير، وريتشارد تولمان، كانوا جميعا يهتمون بفكرة الدورات. أعتقد أن السبب واضح فى أن كثيرين هكذا قد وجدوا أن فكرة الدورات جذابة. عندما يكون

لدينا كون له بداية، سنواجه بالتحدي بأن علينا أن نفسر السبب في بدءه والظروف التي تم فيها بدءه. أما إذا كان لدينا كون دورى، فإنه يكون خالداً، وبالتالي لا يكون علينا أن نفسر البداية.

اكتشفت مشاكل تكنولوجية شتى في أثناء محاولات إدخال الأفكار الدورية فى علم الكون الحديث فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. كانت الفكرة السائدة وقتها هى دورة يمر فيها كوننا بأبعاده الثلاثية من خلال فترات تمدد تبدأ بالانفجار الكبير ثم ينعكس الأمر إلى انكماش "فانسحاق كبير". ثم لايلبث الكون أن يثب مرتداً ويبدأ التمدد ثانية. كانت إحدى المشاكل أنه فى كل مره ينكمش فيها الكون إلى "الانسحاق"، سوف ترتفع كثافة وحرارة الكون إلى درجات لانتهائية، ولا يكون من الواضح إن كان يمكن عندها تطبيق القوانين المعتادة للفيزياء. وثانياً، أن كل دورة تمدد ثم انكماش تخلق إنتروبيا من خلال عمليات حرارية - دينامية طبيعية، تضيف إلى الإنتروبيا التي نتجت فى الدورات الأقدم. وبالتالي، سنجد عند بدء الدورة الجديدة، أن هناك كثافة إنتروبيا أعلى مما فى الدورة السابقة. وثبت فى النهاية أن مدة الدورة تعتمد على نحو حساس على كثافة الإنتروبيا. إذا زادت الإنتروبيا، تزيد مدة الدورة أيضاً. وبالتالي، فمع استمرار التقدم زمنياً، تصبح كل دورة أطول من الدورة السابقة. والمشكلة أننا لو قمنا بتقدير استدلالى بالرجوع وراء فى الزمن ستصير الدورات هكذا أقصر وأقصر حتى تتكمش فى زمن محدد إلى مدة من الصفر. وهكذا نكون لم نصل بعد إلى حل مشكلة تجنب وجود بداية؛ وإنما نحن فقط قد دفعناها وراء لعدد محدد من الدورات. إذا كان لنا أن نعيد إدخال فكرة كون دورى حقاً، يجب أن نحل أولاً هاتين المشكلتين. سوف أصف نموذجاً دورياً يستخدم أفكاراً جديدة تؤدي بالضبط إلى التوصل للحل.

حتى ندرك السبب فى أن أى نموذج بديل جدير بالمتابعة، سيكون من المهم أن نحصل على طبعة بتفصيلات أكثر لصورة الاتفاق العام. لاريب أن بعض جوانب نموذج الاتفاق العام فيها ما يجذب، إلا أن هناك أرصاداً حديثة تجبرنا على تعديل هذا النموذج وجعله أكثر تعقداً. وبالتالي اسمحوا لى أن أبدأ بإلقاء نظرة عامة عليه.

تبدأ نظرية الاتفاق العام بالانفجار الكبير: فالكون له بداية. وهذا افتراض اتخذته الناس طوال الخمسين سنة الأخيرة، ولكنه ليس مما يمكن أن نبرهن عليه حالياً من باى من القوانين الأساسية للفيزياء. وبالإضافة، فإن علينا أن نفترض أن الكون قد بدأ بكثافة طاقة مقدارها أقل من القيمة الحرجة. وإلا فبغير ذلك كان سيحدث للكون أن يتوقف عن التمدد وأن يعاود التقلص قبل المرحلة التالية من تطوره، أى عهد التضخم. وبالإضافة، حتى نصل إلى هذه المرحلة التضخمية يجب أن يكون هناك بعض نوع من الطاقة لتدفع التضخم. ويفترض على نحو نمطى أن هذا يرجع إلى وجود مجال "تضخم". علينا أن نفترض أنه يوجد فى تلك الرقع من الكون التى بدأت بكثافة أقل من الحرجة، جزء له قدره من الطاقة مختزن فى طاقة تضخم تستطيع فى النهاية أن تتولى زمام أمور الكون وتبدأ فترة من تمدد متسارع. وهذه كلها افتراضات معقولة، ولكنها على كل ليست إلا افتراضات.

إذا افترضنا أنه تم الإيفاء بكل هذه الشروط، ستتغلب طاقة التضخم على المادة والإشعاع بعد لحظات قليلة ويبدأ عهد التضخم ويتسارع تمدد الكون بسرعة شديدة. يؤدى التضخم إلى عدد من الأمور المعجزة: فيجعل الكون متجانساً، ويجعل الكون مسطحاً، ويخلف وراءه بعض نقاط غير متجانسة، يفترض أنها البذور التى ستشكل المجرات. يصير الكون الآن مهياً ليدخل فى الطور التالى من التطور فى ظروف مناسبة. سنجد حسب النموذج التضخمى أن طاقة التضخم تضمحل إلى غاز ساخن من المادة والإشعاع، وتتشكل بعد ثانية أو ما يقرب أول النوى الخفيفة. وبعد مرور القليل من عشرات الألوف من السنين، تهيم على الكون المادة التى تتحرك بطيئاً. يحدث فى أثناء هذه الفترة أن تتشكل أول الذرات، ويصير الكون شفافاً، وتأخذ بنية الكون فى التشكل - أول النجوم والمجرات. القصة حتى هذه النقطة بسيطة نسبياً.

على أن هناك اكتشافاً حديثاً بأننا قد دخلنا مرحلة جديدة من تطور الكون. حدث أمر غريب نتج عنه أن أخذ تمدد الكون يتسارع ثانية. كان ما يحدث طوال ١٣,٧ من بلايين السنين عندما كانت المادة والإشعاع يسيطران على الكون وبنيت

تتشكل، هو أن تمدد الكون كان يتباطأ، وسبب ذلك أن ما فى داخله من مادة وإشعاع كانا فى حالة جاذبية متجاذبة ويقاومان التمدد. وكان من المفترض حتى وقت قريب جدا أن المادة متواصل أن تكون شكل الطاقة المسيطر فى الكون وأن هذا التباطؤ فى التمدد سيستمر دائما.

إلا أننا اكتشفنا بدلا من ذلك فى أرصادنا الحديثة، أن تمدد الكون يتسارع. يعنى هذا أن معظم طاقة الكون لاهى مادة ولا هى إشعاع. وبدلا من ذلك، فإن شكلا آخر من الطاقة أخذ يغلب على المادة والإشعاع. سميت هذه الطاقة بأنها "الطاقة المظلمة"، حيث مازال يعوزنا مصطلح يكون أفضل من ذلك. الطاقة المظلمة، بخلاف المادة والإشعاع المألوفين لنا، تكون فى حالة تنافر جاذبوا. وهذا هو السبب فى أنها تؤدى إلى تسارع التمدد بدلا من إبطائه. حسب نظرية نيوتن عن الجاذبية، تكون كل كتلة متجاذبة جاذبوا، ولكن نظرية أينشتين عن النسبية العامة تتيح إمكان وجود أشكال من الطاقة تكون جاذبوا متنافرة ذاتيا.

أعتقد أن جماعات علمى الفيزياء والكون لم تتشرب تشربا كاملا دلالات هذه النظرية، بل ولا حتى الجمهور العام. هذه النظرية ثورة بالمعنى التاريخى الكبير - بالمعنى الكوبرنيكى. كوبرنيكوس (الذى استقينا كلمة "الثورة" عنه) هو الذى غير من فكرتنا عن المكان ومركزنا فى الكون. بين كوبرنيكوس أن الأرض تدور حول الشمس، وعندما فعل ذلك فإنه قدح الزناد لسلسلة من الأفكار أدت بنا إلى فكرة أننا نعيش فى مكان ليس له وضع خاص فى الكون؛ لا يوجد أى شئ خاص يتعلق بمكان وجودنا. والآن، فقد اكتشفنا شئنا غريبا جدا حول طبيعة الزمان: فنحن ربما نعيش فى مكان ليس له وضع خاص، ولكننا نعيش "بالفعل" زمانا له وضع خاص. إنه زمن مرحلة انتقال حديثة من التباطؤ إلى التسارع؛ من مرحلة كانت المادة والإشعاع فيها يسودان الكون إلى مرحلة يصيران فيها بسرعة عنصرين غير مهمين؛ انتقال من مرحلة كانت البنية تتشكل فيها بمقاييس تتزايد دائما فى كبرها إلى مرحلة يحدث فيها أن يتوقف تشكيل البنية بسبب هذا التمدد المتسارع. نحن وسط مرحلة انتقال بين طورين من التطور. وكما أن ما طرحه كوبرنيكوس من أن

الأرض لم تعد بعد مركز الكون قد أدى إلى سلسلة من الأفكار التى غيرت نظرتنا إلى بنية المنظومة الشمسية ثم بنية الكون فى النهاية، فبمثل ذلك تماما قد يؤدى اكتشافنا الجديد للتسارع الكونى إلى تغيير نظرتنا لتاريخ الكون.

الآن وهذه الأفكار حول نموذج الاتفاق فى ذهننا، دعنا نتحول إلى الفرض الدورى. حيث إنه دورى، فإن هذا يتيح لى أن أبدأ النقاش عن الدورة عند أى نقطة أختارها. حتى يكون هناك تناظر فى النقاش، سأبدأ عند نقطة مناظرة للانفجار الكبير؛ سأسميها " الانفجار ". هذه نقطة فى الدورة يصل فيها الكون إلى أعلى حرارة وكثافة. إلا أنه فى هذا السيناريو، بخلاف ما فى نموذج الانفجار "الكبير"، ليس هناك تباعد يحدث بين الحرارة والكثافة. هناك حرارة قصوى محددة. إنها درجة حرارة عالية جدا - تقرب من 10^{32} درجة بمقياس كلفن، درجة عالية بما يكفى لتبخر الذرات والنوى إلى مكوناتها الأساسية - ولكنها ليست لا متناهية. والحقيقة أنها أقل بما له قدره مما يسمى مقياس طاقة بلانك، حيث تسود تأثيرات الجاذبية الكمومية. تبدأ النظرية "بالانفجار" ثم تواصل طريقها مباشرة إلى مرحلة يسودها الإشعاع. ليس لدينا فى هذا السيناريو التضخم الذى يوجد فى السيناريو المعيارى. ومع ذلك سيظل علينا أن نفسر السبب فى أن الكون مسطح، وأن نفسر السبب فى أن الكون متجانس، وأن نفسر من أين أتت التراوحات التى تؤدى إلى تكوين المجرات، ولكن هذا لن يفسر بمرحلة مبكرة من التضخم. سوف يفسر ذلك بمرحلة مختلفة فى الكون الدورى، سنصل إليها فيما يلى.

الكون فى هذا النموذج الجديد يواصل طريقه مباشرة إلى طور يسوده الإشعاع ويشكل الكميات الوفيرة المعتادة من النوى؛ ثم إنه يمضى مباشرة إلى طور تسوده المادة وتتشكل المجرات والبنى الكبيرة المقاس؛ ثم يمضى إلى طور تسوده الطاقة المظلمة. فى نموذج الاتفاق العام تأتينا الطاقة المظلمة كمفاجأة، حيث إنها شئء علينا أن نضيفه داخل النظرية لجعلها متماسكة مع ما نرصده. أما فى النموذج الدورى، فنجد أن الطاقة المظلمة تتحرك إلى مركز المسرح لتقوم بدور الممثل الرئيسى الذى يدفع الكون إلى التطور الدورى. أول ما تفعله الطاقة المظلمة

عندما تسود الكون هو ما نرصده الآن: فهي تسبب أن يبدأ تمدد الكون في التسارع. ما أهمية ذلك؟ على الرغم من أن معدل هذا التسارع أقل بمائة مرتبة أسية عن التسارع الذى لدينا فى التضخم، فإننا إذا أعطينا الكون وقتا كافيا فإن هذا التسارع البطيء فى التمدد يصل بالفعل إلى الإنتاج نفسه الذى يصل إليه التضخم. فهو يؤدي بمرور الوقت إلى أن يرقق من توزيع المادة والإشعاع فى الكون، بما يجعل الكون أكثر وأكثر تجانسا وتوحدا فى الخواص، والحقيقة أنه يؤدي إلى هذا على نحو مكتمل، دافعا الكون إلى حالة هي أساسا حالة فراغ.

توجد جسيمات قدرها 10^{80} أو 10^{90} داخل حجم الأفق الكونى (ويقاس نصف قطره بمقدار $13,7$ من بلايين السنين الضوئية)، ولكن لو أننا نظرنا إلى الكون منذ ترليون سنة سنجد أن الجسيمات قد توزعت متباعدة بمسافات كبيرة بحيث إنه يوجد أقل من جسيم واحد فى الحجم نفسه. يود سيث لويد أن ننظر إلى الكون باعتباره أحد الكمبيوترات، حيث تكون البتات - أو الجسيمات - المتاحة للحوسبة هي تلك التى فى نطاق أفق الكون. سنجد فى الكون المتسارع أن كمبيوتر سيث النهائى يفقد البتات بالفعل.

إذا كان الكون يجعل هكذا متجانسا وموحد الخواص فإنه فى الوقت نفسه يجعل أيضا مسطحا. إذا كان فى الكون أى انبعاج أو انحناء، فإن التسارع الذى تسببه الطاقة المظلمة؛ وإن كان يجرى كعملية بطيئة، سوف يجعل المكان مسطحا بدرجة قصوى. لو كان التمدد المتسارع سيستمر إلى الأبد فسيكون فى ذلك ولاريب نهاية القصة. ولكننا نجد فى هذا السيناريو، تماما مثلما فى التضخم، أن الطاقة المظلمة تظل باقية فحسب لفترة محدودة. ثم إنها تقدح زناد سلسلة من الأحداث تؤدي فى النهاية إلى تحول الطاقة من إمكان لطاقة جاذبية إلى نوع جديد من الطاقة والإشعاع، سوف يبدآن بعدها فترة جديدة من تمدد الكون. هذا الإنتاج السريع للمادة والإشعاع وما يصحبه من عكس الانكماش إلى التمدد السريع، هو ما يشكل الانفجار التالى. سيبدو الأمر من وجهة نظر الراصد المحلى وكأن الكون يمر من خلال دورات مضبوطة؛ بمعنى أنه سيبدو أن الكون يحدث له تفريغ فى كل دورة

وتتخلق مادة وإشعاع جديدان، بما يؤدي إلى فترة جديدة من التمدد. وبهذا المعنى فإنه كون دورى.

لو كان الواحد منا راصدا كونيا ويستطيع أن يرى الكون اللانهائى بأسره، سوف يكتشف أن أبعادنا الثلاثة تكون لا نهائية للأبد فى هذه القصة. ما يحدث فى كل مرة يتخلق فيها المادة والإشعاع، هو أنهما يترققان. بعامل كبير ولكنه محدد. فهما يوجدان هناك فى بعض مكان ولكنهما يترققان. يبدو الكون بالنظرة المحلية وكأنه دورى، ولكنه بالنظرة الشاملة له تطور مستقر، تتزايد فيه الإنتروبيا الكلية حسب عامل ثابت من دورة إلى الدورة التالية. عندما نجرى تقديرا استدلاليا بالرجوع إلى الوراء فى الزمان، سنجد أن الكون يتقلص وأن الإنتروبيا تتناقص فى كل دورة حسب عامل ثابت. على أنه إذا كان الكون لانهايا والإنتروبيا لانهاية، فإن التناقص بعامل محدد يظل يخلف حجما لانهايا وإنتروبيا لانهاية. ويمكن للعملية من حيث المبدأ أن تستمر إلى مالا نهاية.

نستطيع أن نصف تفصيليا الطريقة التى يتم بها ذلك بطرائق مختلفة. اخترت أن أطرح صورة هندسية جميلة جدا تدفع إليها نظرية الأوتار الفائقة^(١٦). سنستخدم من نظرية الأوتار الفائقة عددا قليلا فحسب من العناصر الأساسية، وبالتالي لا يلزم علينا حقا أن نعرف أى شىء من نظرية الأوتار الفائقة حتى نفهم ما سأتحدث عنه، فيما عدا أن نفهم أن بعض الأشياء الغريبة التى سأطرحها هى بالفعل جزء من نظرية الأوتار الفائقة، يترقب أن يستفاد به بعض الفائدة.

إحدى الأفكار الموجودة فى نظرية الأوتار الفائقة هى أن هناك أبعادا إضافية، وهذا عنصر أساسى، ضرورى لجعل النظرية متماسكة رياضيا. الكون

(١٦) نظرية الأوتار الفائقة: حسب نظرية الأوتار فإن كل الجسيمات الأساسية فى الكون تكون من أوتار صغيرة جدا بما لا يرى وهى كيانات مرنة ذات بعد واحد. تتحدد الخواص المميزة لكل جسيم حسب ذبذبات ودوران الوتر بما يشابه تحدد صوت وتر آلة الكمان حسب مقدار شد الوتر وغير ذلك من خصائصه. نظرية الأوتار الفائقة تطوير لنظرية الأوتار أدخلت فيه السيمترية الفائقة، وكلمة الفائقة تصف السيمترية وليس الأوتار. (المترجم)

فى إحدى الصياغات الخاصة لتلك النظرية يكون فيه أحد عشر بعدا. تكون ستة من هذه الأبعاد ملفوفة فى كرة يبلغ من صغر حجمها أنى سوف أزع لا غير أنها غير موجودة، حتى أصل إلى ما أهدف إليه. وعلى أى حال، هناك ثلاثة أبعاد مكانية، وبعد زمانى واحد، وكذلك بعد إضافى واحد أريد بالفعل أن أنظر أمرها. سنجد فى هذه الصورة أن أبعادنا المكانية الثلاثة تقع بطول سطح فائق أو غشاء. هذا الغشاء هو حد للبعد المكانى الإضافى. وهناك حد أو غشاء آخر يشكل الحد الآخر للبعد الإضافى. ويوجد البعد الإضافى فيما بينهما داخل ما يسمى "حجم التكتل" Bulk volume، وهو بخلاف أبعادنا الثلاثية المعتادة يمتد فقط لمسافة محددة. الأمر وكأن عالمنا بأبعاده الثلاثية هو أحد الوجيـهين لشطيرة، بينما هناك عالم آخر ثلاثى الأبعاد يشكل وجه الشطيرة الآخر. يشار إلى هذين الوجهين بأنهما "ثنايا مدارية" (Orbi folds) أو "برانات" (branes). (وهذه الكلمة الأخيرة مشتقة من كلمة الأغشية "membranes). البرانات لها خصائص فيزيائية. فليها طاقة وعزم وعندما نستثير البرانات نستطيع أن ننتج كواركات وإلكترونات. نتكون نحن جميعا من الكواركات واللبتونات^(١٧) الموجودة على براناتنا. وحيث إن الكواركات واللبتونات تستطيع أن تتحرك فحسب بطول البرانات، فإننا مقيدون بأن نتحرك بطول براننا وبأن نرى فقط الأبعاد الثلاثة لبراننا. ونحن لا نستطيع أن نرى مباشرة التكتل أو أى مادة فوق البران الآخر.

يحدث فى الكون الدورى، أن هذين البرانين يصطدمان معا على فترات منتظمة من تريليونات الأعوام. يؤدى هذا إلى تخليق كل أنواع الاستثارة - من جسيمات وإشعاع. وما يحدث عندها من اصطدامات يزيد من سخونة البرانين وبعدها فإنهما لا يلبثا أن يرتدا مبتعدين.

يتجاذب البرانان أحدهما للآخر بقوة لها فعل يماثل تماما فعل الزنبرك، فتجعلهما يتقاربان معا على فترات منتظمة. يمر الكون فى أثناء كل دورة بنوعين

(١٧) اللبتونات جسيمات خفيفة تحت ذرية تشمل الإلكترونات والميون والتاو والنيوترينو وهى عكس الباريونات الثقيلة. (المترجم)

من الحركة. عندما يكون ما بداخل الكون هو المادة والإشعاع، تكون الحركة الرئيسية هي أن يمتد البرانان، أو فيما يكافئ ذلك فإن أبعادنا الثلاثة تتمدد. وتبقى البرانات في الوقت نفسه وهي منفصلة بمسافة ثابتة تقريبا. تمتد هذه الفترة بطول ١٣,٧ من بلايين السنين منذ آخر انفجار. التمدد هو ما نفسره عادة بأنه تتمدد الكون. ويحدث طول هذه الفترة أن يقع هناك على بعد ميكروسكوبى بران آخر وهو يتمدد، ولكن حيث إننا لا نستطيع أن نلمس أى شىء أو نشعر به أو نراه عبر التكتل فإننا لا نستطيع الإحساس به مباشرة. وإذا كان هناك تجمع من المادة هناك، فإننا نتمكن من الإحساس بتأثيره الجذوى، ولكننا لا نستطيع أن نرى أى ضوء أو أى شىء آخر بيته، لأن أى شىء بيته سوف يتحرك بطول ذلك البران. ونحن لا نرى إلا الأشياء التى تتحرك بطول البران الخاص بنا.

يحدث لاحقا، عندما يترقق الإشعاع والمادة، أن تسود الكون الطاقة المصاحبة للقوة ما بين البرانين. وفي فرصة مواتية لنا فوق أحد البرانين، فإن هذا يكون له مفعول يماثل تماما الطاقة المظلمة التى نرصدها حاليا. فهو يسبب تسارع البرانين فى مطهما حتى تنبسط كل المادة والإشعاع اللذين نتجا منذ الاصطدام الأخير ويصبح البرانين أساسا سطحين ناعمين مسطحين خاويين. يمكننا إذا شئنا أن نعتبر أنهما يتجعدان ويمتلآن بالمادة بعد ١٣,٧ من بلايين السنين ثم يمتد بقدر خيالى عبر ما يلى من تريليون من الأعوام. يسبب التمدد أن يترقق ما يوجد من كتلة وطاقة فوق البران الخاص بنا وتصبح التجمعات ناعمة. تكون البرانات بعد تريليونات من الأعوام ناعمة ومسطحة وفارغة، فى كل جانب مهم بها.

يحدث بعد ذلك أن القوة ما بين البرانين تقربهما معا ببطء. وهى إذ تقربهما معا تصبح أكثر قوة ويتسارع البرانات أحدهما تجاه الآخر. وعندما يصطدمان يكون لذلك تأثير عنيف - عنفا يكفى لتخليق كثافة عالية للمادة والإشعاع مع حرارة عالية جدا وإن كانت محددة. يرتد البرانان مبتعدين ليعودا تقريبا إلى حيث هما الآن، وبعدها فإن المادة والإشعاع الجديدين (من خلال فعل الجاذبية) يسببان أن يبدأ البرانان فترة جديدة من التمدد.

من الواضح في هذه الصورة أن الكون يمر خلال فترات من التمدد ومن نوع غريب من التقلص. عندما يتقارب البرانان معا لا يكون هذا تقلصا لمقاييسنا وإنما هو تقلص للبعد الإضافي. قبل هذا التقلص، تكون كل المادة والإشعاع قد انبسطتا، ولكنهما بخلاف النماذج الدورية القديمة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين لا يتجمعان ثانية معا في أثناء التقلص، وذلك بسبب أن عالمنا ثلاثى الأبعاد - أى براننا الخاص - يظل ممتطا. ولا يتقلص إلا البعد الإضافي. تكرر هذه العملية نفسها دورة بعد الأخرى.

عندما نقارن النموذج الدورى بنموذج الاتفاق العام نجد أن وظيفتين من وظائف التضخم - وهما تسطیح وتجانس الكون - يتم إنجازهما عن طريق فترة من التمدد المتسارع مثل تلك التى بدأناها فى التو. وبالطبع فقد حدث هذا التسطح والتجانس فى وقت يسبق كثيرا تشكيل المجرات الحالية بكوننا، وهكذا فإن هذا يناظر التمدد الذى حدث منذ دورة واحدة، سبقت أحدث انفجار، وجعلت كوننا متجانسا ومسطحا. ما إن يحدث ذلك، حتى يظل الكون متجانسا ومسطحا تقريبا فى أثناء تقلصه ثم إعادة تمدده ممتلئا بالمادة والإشعاع.

تحدث الوظيفة الثالثة للتضخم - وظيفة إنتاج ترواحات الكثافة - فى أثناء تقارب البرانين معا وتقلص البعد الإضافي. عندما يتقارب البرانان، تسبب ترواحات الكمومية أن يبدأ البرانان فى التجمع. وينتج عن تجعدهما أنهما لا يتصادمان فى كل مكان فى الوقت نفسه. وبدلا من ذلك تتصادم بعض المناطق فى وقت مبكر قليلا عن الأخرى. يعنى هذا أن بعض المناطق تسخن ثانية إلى حرارة محدودة وتأخذ فى الابتعاد قبل المناطق الأخرى بقليل. عندما يتباعد البرانان ثانية، لا تكون حرارة الكون متجانسة تجانسا كاملا بل يكون هناك تباينات مكانية طفيفة فى الحرارة والكثافة خلفت عن التجمعات الكمومية.

على الرغم من أن العمليات الفيزيائية التى تخلق الترواحات فى النموذج الدورى تختلف فيزيائيا اختلافا كاملا عن تلك التى فى النموذج التضخمى ولها أيضا مقياس زمنى مختلف تماما - فتستغرق بلايين السنين بدلا من 10^{-32} ثانية -

إلا أنه ثبت فى النهاية على نحو ملحوظ أن طيف التراوحات فى توزيع الطاقة والحرارة المتولدين فى النموذجين الكونيين هو أساسا متطابق. وبالتالى فإن النموذج الدورى يتفق أيضا اتفاقا رائعا مع ما لدينا الآن من قياسات كونية للحرارة وتوزيع الكتلة.^(١٨)

العمليات الفيزيائية التى تولد التراوحات فى النموذجين ينتج عنها تمييز رهيف، ولكنه مهم، ومن الممكن أن يتم فحصه بالتجارب فى المستقبل. يحدث فى التضخم تراوحات فى الزمكان نفسه، تسمى بالموجات الجذبوية، وهى تتخلق بالإضافة إلى تراوحات الطاقة والحرارة. وهذه خاصية نأمل أن نبحث عنها فى التجارب التى تنفذ فى العقود التالية للتحقق من نموذج الاتفاق العام. لا نحصل فى النموذج الدورى على هذه الموجات الجذبوية. الفارق الجوهرى هو أن التراوحات التضخمية تتخلق فى عملية عنيفة فائقة السرعة قوية بما يكفى لتخليق موجات جذبوية، فى حين أن التراوحات الدورية تتخلق فى عملية لطيفة فائقة البطء أضعف من أن تنتج موجات جذبوية. وهذا مثال يعطى فيه النموذجان تنبؤات رصد تختلف اختلافا صارخا. تعد إشارة الموجة الجذبوية أصعب من أن ترصد فى الوقت الحالى، إلا أن التجارب قد تكون حساسة بما يكفى فى العقد القادم.

الأمر الذى يخلب اللب فى هذه اللحظة هو أن لدينا نموذجين أساسيين قد أتينا لنا. وهما من أحد الجوانب قطبيين متباعدين من حيث ما يخبراننا به حول طبيعة الزمن، وحول تاريخنا الكوزموى، وحول ترتيب وقوع الأحداث ومن حيث المقياس الزمنى الذى يحدثان به. ومن الناحية الأخرى فإنهما يتماثلان تماثلا ملحوظا من حيث ما يتنبآن به عن الكون الآن. سيكون ما يصل بنا إلى قرار فى

(١٨) فى ١١ فبراير ٢٠٠٣ أعلن فريق القمر الصناعى لمجس ويلكنسون لتباين خواص الميكروويف عن نتائج المهمة كعلامات للطريق، فقدم لقطات لصور عالية الدقة لتوزيع الحرارة والطاقة فى الكون المبكر جدا. شدد الفريق على المقارنة مع نموذج الاتفاق العام للانفجار الكبير / التضخم، مسجلا أن النماذج التضخمية الأبسط قد تم الآن استبعادها. وكانوا أقل تشددا بشأن حقيقة أن النماذج الدورية الأبسط تتسق مع النتائج. من السابق لأوانه تماما أن نصل إلى استنتاجات حاسمة من النتائج الحالية، ولكنها تلمح إلى أننا على عتبة الوصول إلى أرصاد حرجة قد تمكننا من التمييز بين السيناريوهين.

النهاية للفصل فى أمر الاثنين هو توليفة من الأرصاد (كالبحت مثلا عن وجود موجات جذبوية كونية) ومن النظرية، وذلك لأن أحد الجوانب الأساسية فى السيناريو الدورى تتضمن افتراضات عما يحدث عند اصطدام البرانات، افتراضات يمكن أيضا التأكد منها أو تنفيذها فى نظرية الأوتار الفائقة. ونجد فى الوقت نفسه أننا سوف نتمكن فى السنوات العشر القادمة من الاستمتاع متعة عظيمة بتخمين دلالات كل فكرة من هذه الأفكار، أيها سنفصله وكيف يمكننا التمييز بينها بأفضل طريقة.

نظريات البران

ليزا راندال^(١٩)

قد تبدو الأبعاد الإضافية المكانية لأول وهلة وكأنها فكرة جامحة مجنونة، إلا أن هناك أسبابا فعالة تجعلنا نعتقد أن هناك حقا أبعادا إضافية للمكان. يكمن أحد الأسباب في نظرية الأوتار، التي يفترض فيها أن الجسيمات ليست أساسية هي نفسها ولكنها أنماط ذبذبة لوتر أساسي.

(١٩) ليزا راندال أستاذة الفيزياء في جامعة هارفارد حيث نالت منها أيضا درجة دكتوراه الفلسفة (١٩٨٧). وقد عينت بين ١٩٩٨ و ٢٠٠٠ كأستاذة بدرجة كاملة في وظيفة مشتركة بين برنستون ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، ثم انتقلت إلى هارفارد كأستاذة بدرجة كاملة في ٢٠٠١. تجرى راندال أبحاثا في الفيزياء النظرية للطاقة العالية تتعلق أساسا باستكشاف الفيزياء التي تكمن في الأساس من النموذج المعياري لفيزياء الجسيمات. ويتضمن ذلك دراسات للسمتريّة الفائقة، كما يتضمن أحدث دراساتها أخيرا عن الأبعاد الإضافية للمكان.

أسهمت فيزياء الجسيمات في فهمنا لظواهر كثيرة، تراوحت ابتداء من أعمال البروتون الداخلية ووصولاً إلى تطور الكون المرصود. ومع ذلك تظل هناك أسئلة أساسية بلا إجابة، بما يحفز لتخمينات تتجاوز ما نعرفه من قبل. تتضمن هذه الألغاز ما للجسيمات الأولية من كتل محيرة؛ وطبيعة المادة المظلمة والطاقة المظلمة التي تشكل الكتلة الأساسية للكون؛ وتنبؤات نظرية الأوتار عن عالمنا المرصود، وتعد هذه النظرية أفضل نظرية مرشحة لتدمج مع ميكانيكا الكم والنسبية العامة. أدت هذه الأسئلة (هي وما لدينا من الفضول الأساسي) إلى حفز للقيام برحلات استكشافية للنظريات التي قد تكون في الأساس من المعرفة المستقرة حالياً. دار بعض من أحدث أبحاثي حول فيزياء الأبعاد الإضافية للمكان وقد أثبتت هذه الأبحاث أنها مفيدة جداً بما يتجاوز أي توقع.

نتناول فيزياء الجسيمات أسئلة حول القوى التي نفهمها - القوة الكهرومغناطيسية، والقوة الضعيفة المصاحبة للاضمحلال النووي، والقوة القوية التي تربط الكواركات معاً في بروتونات ونيوترونات - وإن كان مازال علينا أن نفهم كيف تتلاءم الجاذبية مع هذه الصورة. نظرية الأوتار هي اللاعب الرئيسي في هذه المباراة، ولكننا مازلنا لا نعرف كيف تؤدي نظرية الأوتار إلى توليد كل الجسيمات وقوانين الفيزياء التي نراها بالفعل. كيف نمضي من هذه النظرية الأصلية الجميلة الموجودة في عشرة أبعاد لنصل إلى العالم المحيط بنا، والذي ليس له إلا أربعة أبعاد فقط؛ ثلاثة أبعاد مكانية يضاف لها بعد الزمان؟ ما الذي صار إليه ما في نظرية الأوتار من فيض من الجسيمات والأبعاد؟

أحياناً تكون طريقة تناول المثمرة للمشاكل الكبيرة التي تبدو لنا عسيرة، هي أن نسأل أسئلة تخضع لإجاباتها الممكنة للاختبار بالتجربة. نتناول هذه الأسئلة عموماً قوانين وعمليات فيزيائية سبق لنا رؤيتها. ويكاد يكون مؤكداً أن أي تبصرات جديدة ستكون فيها تضمينات لأسئلة تكون حتى أكثر تأسيساً. وكمثل، مازلنا لا نعرف ما الذي يؤدي إلى نشأة كتل الجسيمات الأساسية - الكواركات، واللبتونات (كالإلكترون مثلاً)، وبوزونات القياس الكهربى الضعيف - أو السبب

فى أن هذه الكتل أقل كثيرا من الكتلة المصاحبة للجاذبية الكمومية. والفارق ليس صغيرا: الفارق بين مقياسى الكتلتين يبلغ ست عشرة مرتبة من أس العشرة! النظريات الوحيدة التى يرجح ترشيحها كنظريات فى الأساس من النموذج المعيارى هى فحسب تلك التى تفسر وجود هذه النسبة الهائلة. لا نعرف حتى الآن ما تكونه هذه النظرية، إلا أن الكثير من الأبحاث الحالية فى فيزياء الجسيمات هى محاولات لاكتشاف النظرية، بما فى ذلك الأبحاث التى تتناول الأبعاد الإضافية للمكان. سوف تجرى سريعا أبحاث لاستكشاف هذه التخمينات بواسطة "الجهاز الكبير لاصطدام الهادرون"^(٢٠) فى جنيف، وهو جهاز سيعمل عند طاقات من التريليون إلكترون فولت (Tev) وهى طاقات تتعلق بفيزياء الجسيمات. ينبغى أن تودى نتائج التجارب التى تنفذ هكذا إلى أن ننتقى بطرائق متينة ومباشرة ما هو مناسب من بين شتى الافتراضات التى تصف فيزيائيا ما يكمن فى الأساس. إذا ثبت أن النظرية الكامنة فى الأساس هى السيمترية الفائقة أو إحدى نظريات الأبعاد الإضافية التى سوف أصفها فيما يلى، فإن هذا سيكون له دلالات عميقة باقية بالنسبة لمفهومنا عن الكون.

أجريت الآن أبحاث عن الفيزياء بمقياس تريليون إلكترون فولت "تيف". علماء فيزياء الجسيمات يقيسون الطاقة بوحدات من إلكترون فولت. أما وحدات "تيف" (Tev) فتعنى تريليون إلكترون فولت. وهذه طاقة عالية جدا تتحدى حدود التكنولوجيا الحالية، ولكنها طاقة منخفضة من منظور الجاذبية الكمومية، التى يرجح ألا يظهر أى مما يترتب عليها إلا عند طاقات أعلى بست عشرة مرتبة من أس - العشرة. هذا المقياس للطاقة يثير اهتمامنا لأننا نعرف أن الجزء الذى لم يتم بعد الكشف عنه من النظرية المصاحبة لإعطاء الجسيمات الأولية مالها من كتلة، هو جزء ينبغى العثور عليه هناك.

(٢٠) أجهزة الاصطدام Collider: نوع من المعجلات يسبب اصطدام الجسيمات تحت الذرية أو سحقها معا باستخدام مغناطيسات كهربية. والهادرون فئة من الجسيمات تحت الذرية تشمل الباريونات والميزونات. (المترجم)

هناك تفسيران محتملان لهذا الفارق الهائل فى مقاييس الطاقة، وهما السيمترية الفائقة^(٢١) وفيزياء الأبعاد الإضافية. كان من المعتقد حتى وقت قريب جدا أن السيمترية الفائقة هى الطريقة الوحيدة لتفسير الفيزياء عند مقياس (التيف). وهى سيمترية تصنع العلاقة بين خصائص البوزونات^(٢٢) وخصائص الفرميونات^(٢٣) المرافقة لها (حيث البوزونات والفرميونات نوعان مختلفان من الجسيمات تميزهما ميكانيكا الكم). البوزونات لها برم^(٢٤) من عدد كامل والفرميونات لها برم من عدد بالأصاف، حيث البرم هو رقم كموى داخلى. من غير السيمترية الفائقة، يتوقع المرء ألا تكون هناك علاقة بين هذين النوعين من الجسيمات. أما حسب السيمترية الفائقة فهناك علاقة وثيقة فى الخصائص كالكتلة وقوة التفاعل بين أحد الجسيمات ورفيقه فى السيمترية الفائقة. وكمثل، فإن ذلك يتضمن بالنسبة للإلكترون وجود جسيم فائق يناظره يسمى سيلكترون، يكون له فى هذه الحالة الكتلة نفسها والشحنة نفسها. كان هناك، ولا يزال هناك، أمل كبير فى أن نجد بصمات السيمترية الفائقة فى الجيل التالى من أجهزة الاصطدام. سيكون اكتشاف السيمترية الفائقة إنجازا مذهلا. سيكون فى ذلك أول امتداد للسمتريات فى صحبة المكان والزمان منذ أنشأ أينشتين نظريته عن النسبية العامة فى أوائل عشرينيات القرن العشرين. وإذا كانت السيمترية الفائقة على صواب، فإن من المرجح أنها ستحل ألغازا أخرى، مثل وجود المادة المظلمة. يبدو أن نظريات الأوتار التى لها إمكانية لأن تشمل النموذج المعيارى، تتطلب وجود السيمترية

(٢١) السيمترية الفائقة: نظرية تحاول الربط بين كل القوى الأربع الأساسية، أى الكهرومغناطيسية والنوية الضعيفة، والنوية القوية، والجاذبية. تفترض النظرية أن كل واحدة من هذه القوى قد انبثقت منفصلة فى أثناء التمدد الذى حدث فى الكون المبكر جدا. على أنه حسب هذه النظرية لا يوجد إلا نوع واحد من الجسيمات بدلا من وجود نوعين أحدهما لتكوين المادة (فرميونات) والآخر لنقل القوى (بوزونات). (المترجم)

(٢٢) البوزونات: جسيمات لنقل القوى مثل الفوتونات التى تنقل القوة الكهرومغناطيسية. (المترجم)

(٢٣) الفرميونات: جسيمات من المادة. الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات كلها فرميونات. (المترجم)

(٢٤) البرم (الف) خاصة داخلية للجسيمات الأولية تعرف بأنها كمية الحركة الواوية لجسيم أولى دون اعتبار لحركته المدارية. الجسيمات المكونة للمادة كالإلكترون يكون برمها بنصف أو بكسر النصف. مثل $\frac{2}{3}$ و $\frac{5}{2}$. والجسيمات ناقلة القوة كالفوتون يكون برمها بأعداد صحيحة. (المترجم)

الفائقة، بحيث إن البحث فى السيمترية الفائقة له أهميته أيضا لمنظرى الأوتار. السيمترية الفائقة نظرية مثيرة جدا لسببين معا، أولهما تلك الأسباب النظرية السابقة وثانيهما إمكان وجود قابلية لاختبارها بالتجارب.

على أى حال، فإن السيمترية الفائقة مثل نظريات كثيرة أخرى تبدو رائعة وهى فى حالة من التجريد ولكنها تخلف أسئلة كثيرة بلا حل عندما نهبط إلى التفاصيل الصلبة عن طريقة اتصالها بالعالم الذى نراه بالفعل. لابد من أن السيمترية الفائقة تتهار عند بعض طاقة معينة، لأننا لم نر بعد أى "رفيقين فائقين". يعنى هذا أن الرفيقين من الجسيمات - مثل الإلكترون والسيلكترون - لا يمكن أن يكون لهما الكتلة نفسها بالضبط؛ فلو كانا كذلك لرأيناها معا. لابد من أن الرفيق غير المرئى له كتلة أكبر مادام حتى الآن يتفادى الاكتشاف. نود أن نعرف كيف يمكن أن يحدث ذلك بطريقة تتسق مع كل الخواص المعروفة للجسيمات الأولية. المشكلة بالنسبة لمعظم النظريات التى تتضمن انهيار السيمترية الفائقة هى أن فيها تنبؤ بكل الأنواع الأخرى من التفاعلات والاضمحلات، الأمر الذى تستبعده التجارب بالفعل. أوضح العوامل التى ترشح للعمل على انهيار السيمترية الفائقة تتيح لأنواع الكواركات المختلفة أن تمتزج معا، فيكون للجسيمات هوية سيئة التحدد. ولكن هناك غياب لهذا الامتزاج، مع الحفاظ على الهويات المختلفة للكواركات، وهذا كله فيه قيد محكم على محتوى النظريات الفيزيائية المصحوبة بانهيار السيمترية الفائقة، وفيه أحد الأسباب المهمة لعدم رضاء الناس رضاء كاملا عن السيمترية الفائقة كتفسير لمقياس وحدات "تيف". يتطلب العثور على نظرية متماسكة للسيمترية الفائقة إدخال فيزياء من نوع يعطى كتلا لرفاق السيمترية الفائقة من كل أنواع الجسيمات التى نعرف أنها موجودة، وذلك بدون إدخال تفاعلات لا نريدها. وبالتالي، فإن من المعقول أن ننظر حولنا بحثا عن نظريات أخرى قد تفسر لنا السبب فى أن كتل الجسيمات تكون مصحوبة بمقياس طاقة من وحدات "تيف" وليس بمقياس أكبر بست عشرة مرتبة من أس العشرة.

كان هناك الكثير من الانفعال عندما طرح لأول مرة أن الأبعاد الإضافية توفر طرائق بديلة لتناول أصل مقياس وحدات "التيف". قد تبدو الأبعاد الإضافية

المكانية لأول وهلة وكأنها فكرة جامحة مجنونة، إلا أن هناك أسبابا فعالة تجعلنا نعتقد أن هناك حقا أبعادا إضافية للمكان. يكمن أحد الأسباب في نظرية الأوتار، التى يفترض فيها أن الجسيمات نفسها ليست أساسية ولكنها أنماط ذبذبة لوتر أساسى. الاندماج المتسق للجاذبية الكمومية هو النصر الرئيسى لنظرية الأوتار. إلا أن نظرية الأوتار تتطلب أيضا تسعة أبعاد إضافية، وهذا فى كوننا المرصود يعد أكثر مما ينبغى بستة أبعاد. السؤال عما حدث للأبعاد الستة غير المرئية يعد قضية مهمة فى نظرية الأوتار. ولكننا إذا كنا نسأله من وجهة نظر التساؤلات عن الطاقة المنخفضة نسبيا، فإننا نستطيع أن نسأل أيضا عما إذا كان يمكن للأبعاد الإضافية أن يكون لها دلالات مهمة بالنسبة لفيزياء جسيماتنا المرصودة أو بالنسبة لفيزياء الجسيمات التى ينبغى أن ترصد فى المستقبل القريب. هل يمكن للأبعاد الإضافية أن تساعد فى الإجابة عن بعض المشاكل التى لم تحل بشأن فيزياء الجسيمات ثلاثية الأبعاد؟

تأمل الناس فى فكرة الأبعاد الإضافية قبل أن تقد نظرية الأوتار، وإن كانت التخمينات التى من هذا النوع يتم سريعا نسيانها أو تجاهلها. من الطبيعى أن نسأل ماذا سيحدث لو كان للمكان أبعاد مختلفة؛ وعلى كل فإن حقيقة أننا نرى فقط ثلاثة أبعاد مكانية لا تعنى بالضرورة أنه يوجد فحسب ثلاثة أبعاد، ونظرية النسبية العامة لأينشتاين لا تتعامل على وجه التفضيل مع كون بثلاثة أبعاد. من الممكن أن توجد مكونات كثيرة غير مرئية فى الكون. وعلى أى حال، كان من المعتقد فى أول الأمر أنه إذا كان هناك وجود لأبعاد إضافية فإنها لابد من أن تكون صغيرة جدا حتى تهرب من ملاحظتنا. كان الافتراض المعيارى فى نظرية الأوتار هو أن الأبعاد الإضافية ملفوفة بمقاييس بالغة الصغر بما لا يكاد يصدق ^{١٠-٣٣} من السنتيمترات، ما يسمى طول بلانك، وهو المقياس الذى يصاحبه أن يصبح لتأثيرات الكم أهميتها. وبهذا المعنى، يكون هذا المقياس هو مرشحنا الواضح: إذا كانت هناك أبعاد إضافية، لها أهمية واضحة بالنسبة للبنية الجذبوية، فلأنها ستتميز بهذا المقياس بعينه للمسافات. على أنه إذا كان الأمر هكذا، ستكون له دلالات قليلة جدا بالنسبة لعالمنا. لن يكون لهذه الأبعاد تأثير أيا ما كان على أى شىء نراه أو نخبره.

ومع ذلك يمكننا من وجهة النظر التجريبية، أن نسأل عما إذا كان ينبغي حقا أن تكون الأبعاد الإضافية صغيرة بهذه الطريقة المضحكة. إلى أى حد يمكن أن تكون هذه الأبعاد كبيرة ومع ذلك تهرب من ملاحظتنا؟ ثبت فى النهاية دون أى افتراضات جديدة أن الأبعاد الإضافية يمكن أن تكون أكبر بسبع عشرة مرتبة من أس العشرة عن 10^{-23} من السنتمترات. حتى نفهم هذا الحد يتطلب ذلك فهما أكمل لدلالات الأبعاد الإضافية فى فيزياء الجسيمات.

إذا كان هناك وجود لأبعاد إضافية فإن الرسل التى لها إمكان التبشير بوجودها هى جسيمات تسمى أنماط الكالوزا - كلاين أو (ك ك). جسيمات ك ك لها نفس الشحنات مثل الجسيمات التى نعرفها، ولكنها لها كم حركى يقاس فى الأبعاد الإضافية. وهكذا فإنها تظهر لنا كجسيمات ثقيلة لها طيف كتلة متميز يتحدد بحجم وشكل الأبعاد الإضافية. كل جسيم معروف لنا يكون له رفقاء من جسيمات ك ك هذه بحيث إننا نتوقع أن نجدها إذا كانت الأبعاد الإضافية كبيرة. وحقيقة أننا لم نر بعد جسيمات ك ك فى نظم الطاقة التى استكشفتها تجريبيا، هى حقيقة تضح حدودا على حجم الأبعاد الإضافية. كما سبق أن ذكرنا، فإن مقياس طاقة وحدات "تيف" من 10^{-16} سم قد تم اختباره تجريبيا. حيث إننا لم نر بعد أنماط ك ك فى حين أن 10^{-16} سم ينتج عنها جسيمات ك ك تقرب كتلتها من وحدة "تيف"، فإن هذا يعنى أن كل الأحجام حتى 10^{-16} تكون مما يسمح به بالنسبة لإمكان وجود أبعاد إضافية. وهذا أكبر بما له قدره من 10^{-23} سم، ولكنه لا يزال أصغر من أن تكون له أهميته.

هكذا كانت الأمور فى عالم الأبعاد الإضافية حتى وقت قريب جدا. فكان يعتقد أن الأبعاد الإضافية قد تكون موجودة ولكنها ستكون صغيرة أقصى الصغر. إلا أن توقعاتنا تغيرت تغيرا دراميا بعد ١٩٩٥، عندما أدرك جو بولتسينسكى من جامعة كاليفورنيا فى سانتا باربارا هو وآخرون من المنظرين، أهمية أشياء إضافية فى نظرية الأوتار تسمى "البرانات". البرانات فى جوهرها أغشية - أشياء بأبعاد أقل موجودة فى مكان بأبعاد أكثر. (حتى نتصور ذلك، هيا نفكر فى ستارة حمام

دش، فهي واقعيًا شيء بعيدين في مكان من ثلاثة أبعاد). للبرانات وضع خاص، خاصة في سياق نظرية الأوتار، لأن هناك ميكانيزم طبيعي يقيد الجسيمات إلى البران؛ وبالتالي لا تكون هناك حاجة لأن ينتقل كل شيء في الأبعاد الإضافية حتى عندما تكون هذه الأبعاد موجودة. ستكون الجسيمات المقيدة بالبران لها كم حركي وحركة يقتصران على وجودهما بطول البران فقط، مثل قطرات الماء على سطح ستار حمام الدش.

تتيح لنا البرانات وجود مجموعة جديدة بأكملها من الإمكانيات في فيزياء الأبعاد الإضافية؛ لأن الجسيمات المقيدة بالبران ستبدو تقريبًا كما ستبدو عليه في عالم له ثلاثة أبعاد زائد بعد واحد آخر؛ وهي لا تغامر أبدًا بأن تتجاوزه. من الممكن أن تكون البروتونات، والإلكترونات، والكواركات، وكل أنواع الجسيمات الأساسية لصيقة على البران. وفي هذه الحالة فإننا قد نتساءل عما إذا كان ينبغي أن نهتم مطلقًا لأي سبب بالأبعاد الإضافية، مادام الأمر أنها على الرغم من وجودها فإن الجسيمات التي تصنع عالمنا لا تمر عبرها. على أي حال، سنجد أنه على الرغم من أن كل جسيمات النماذج المعيارية المعروفة تكون لصيقة بالبران، إلا أن هذا لا يصدق بالنسبة للجاذبية. هناك ميكانيزمات تقيد للبران الجسيمات والقوى التي لها وسيط من الفوتون أو البروتون ذي القياس الكهربى وهذه الميكانيزمات لا تنطبق على الجاذبية. الجاذبية حسب نظرية النسبية العامة، يجب أن توجد بالضرورة في هندسة كاملة للمكان. وبالإضافة، فإن وجود نظرية جاذبية متسقة يتطلب أن يكون الجرافيتون، أي الجسيم الوسيط للجاذبية، مقرونًا بأي مصدر للطاقة، سواء كان هذا المصدر مقيدًا أو غير مقيد بالبران. وبالتالي، يجب أن يوجد الجرافيتون أيضًا هناك في المنطقة التي تشمل الهندسة الكاملة للأبعاد الأكثر - منطقة تسمى "الكتلة الرئيسية" (bulk) - لأنه ربما توجد هناك مصادر للطاقة. وأخيرًا، هناك تفسير في نظرية الأوتار للسبب في أن الجرافيتون ليس مقيدًا بأي بران: الجرافيتون يصاحب الأوتار المغلقة، ولا يمكن أن تثبت أوتار في البران إلا الأوتار المفتوحة.

عندما يكون لدينا سيناريو تكون الجسيمات فيه مقيدة لبران وتكون فيه الجاذبية وحدها حساسة للأبعاد الإضافية، فإن هذا السيناريو يتيح وجود أبعاد

إضافية أكبر بما له قدره مما كان يعتقد فى السابق. وسبب ذلك أن الجاذبية لم تختبر حقا على نحو جيد مثل القوى الأخرى، وإذا كانت الجاذبية وحدها هى التى تخبر الأبعاد الإضافية، نكو القيود هنا أكثر تساهلا بكثير. لم ندرس الجاذبية دراسة جيدة بما يماثل دراستنا لمعظم الجسيمات الأخرى، لأن الجاذبية قوة ضعيفة بأقصى حد وبالتالي أصعب فى القياس بدقة. أوضح الفيزيائيون أنه حتى تلك الأبعاد التى تقرب فى كبرها من الملليمتر يمكن السماح بوجودها، لو كانت الجاذبية وحدها هى التى توجد فى الكتلة الأساسية ذات الأبعاد الأكبر. يعد هذا الحجم هائلا عند مقارنته بالمقاييس التى نتحدث عنها. فهذا حجم ماكرو سكوبى مرئى! ولكن لما كانت الفوتونات (التي نرى بها) مقيدة بالبران أيضا، فإن هذه الأبعاد لن تكون مرئية لنا، على الأقل حسب الطرق التقليدية.

ما إن تتضمن الصورة البرانات، حتى يمكننا أن نبدأ فى الحديث عن أبعاد إضافية كبيرة كبرا جنونيا. إذا كانت الأبعاد الإضافية كبيرة جدا، فإن هذا قد يفسر السبب فى أن الجاذبية ضعيفة هذا الضعف. (قد يبدو لنا أن الجاذبية ليست ضعيفة، ولكن ما يشدنا لأسفل هو الأرض بأسرها؛ عند اقتران جرافيتون فردى مع جسيم فردى تكون النتيجة صغيرة تماما. ومن وجهة نظر فيزياء الجسيمات التى تنظر أمر تفاعلات الجسيمات المفردة، تكون الجاذبية قوة ضعيفة أقصى الضعف). هذا الضعف للجاذبية هو إعادة صياغة لما يسمى مشكلة التراتبية، أى مشكلة السبب فى أن كتلة بلانك الضخمة التى تجمع التفاعلات الجذبوية تكون أكبر بست عشرة مرتبة من أس العشرة عن الكتلة المصاحبة للجسيمات التى نراها. على أنه إذا كانت الجاذبية تنتشر عبر أبعاد إضافية كبيرة، فإن هذا سيخفف حقا من قوتها. سينتشر المجال الجذبوى فى الأبعاد الإضافية وبالتالي يكون ضعيفا جدا فوق البران، وهذه فكرة طرحها حديثا المنظرون نيمأ أركانى - حامد، وسافاس ديموبولوس، وجيا دفالى. مشكلة هذه السيناريو هى صعوبة تفسير السبب فى أن الأبعاد ينبغى أن تكون كبيرة هكذا. تتحول مشكلة النسبة الكبيرة بين الكتل إلى مشكلة للحجم الكبير للأبعاد الملفوفة.

تبيننا أنا ورامان سندروم الذى يعمل حاليا فى جامعة جونز هوبكنز، أن هناك تفسير أكثر طبيعية لضعف الجاذبية حيث يمكن أن يكون النتيجة المباشرة للتجاذب الجذبوى المصاحب للبران نفسه. البرانات بالإضافة إلى الإيقاع بالجسيمات فى شراكها، تحمل طاقة، بينا أن هذا من منظور النسبية العامة يعنى أن البران يؤدي إلى انحناء المكان من حوله، بما يغير الجاذبية بالقرب منه. عندما تصبح الطاقة فى المكان على علاقة ارتباط بالطاقة على البران بحيث إن برانا كبيرا مسطحا بثلاثة أبعاد يقبع فى المكان الذى له أبعاد أكثر، عندها يكون الجرافيتون (الجسيم الذى يوصل القوة الجذبوية) منجذبا بقوة إلى البران. وبدلا من أن تنتشر الجاذبية باتساق فى بعد إضافي فإنها تبقى مركزة محليا، وهى قريبة جدا من البران.

يؤدي التركيز العالى للجرافيتون قرب البران - ولنسمى البران الذى تبقى الجاذبية عنده مركزة محليا بأنه "بران بلانك" - إلى حل طبيعي لمشكلة الترتاب فى كون له برانان. حسب الهندسة الخاصة التى تحل معادلات أينشتين، فإننا إذا مضينا لبعض مسافة فى بعد إضافي، سنرى قوة جذبوية مقموعة قمعاً أسيا. وهذا أمر لافت للنظر لأنه يعنى أنه يمكن أن يظهر فارق هائل بين مقاييس الكتلة - بست عشرة مرتبة أسية - كنتيجة لفارق متواضع نسبيا بين البرانات. إذا كنا نعيش فوق البران الثانى (وليس بران بلانك)، سنجد أن الجاذبية ضعيفة جدا. ليس من الصعب التوصل لوجود مسافة متواضعة هكذا بين البرانات وهى أصغر بمراتب كثيرة من التضاعف الأسى عما هو ضرورى لسيناريو الأبعاد الإضافية الكبيرة الذى ناقشناه فى التو. عندما يوجد لدينا جرافيتون يتمركز محليا بالإضافة إلى بران ثانى منفصل عن البران الذى تقطن عليه جسيمات النموذج المعيارى لفيزياء الجسيمات، فإن هذا يوفر لنا حلا طبيعيا لمشكلة التراتبية، مشكلة السبب فى أن الجاذبية ضعيفة هكذا ضعفا لا يصدق. تعتمد قوة الجاذبية على الموضع، وهى عند الابتعاد عن بران بلانك تقمع أسيا.

لهذه لنظرية دلالات تجريبية مثيرة، حيث إنها تطبق بمقياس من فيزياء الجسيمات - هو مقياس وحدة "التيف". حسب هندسة الانحناء الكبير بهذه النظرية،

سيكون لجسيمات كالوزا - كلاين - تلك الجسيمات التي لها كم حركى فى الأبعاد الإضافية - سيكون لها كتلة تقرب من وحدة "تيف"؛ وبالتالي فإن هناك إمكان حقيقى لإنتاجها فى أجهزة التصادم فى المستقبل القريب. سوف تتخلق هذه الجسيمات مثل أى جسيمات أخرى وتضمحل بطريقة تماثل ذلك كثيرا. يمكن عندها أن ندرس بالتجارب أمر نتائج اضمحلالها ونعيد بناء الكتلة والبرم اللذين يشكلان خواصها المميزة. الجرافيتون هو الجسيم الوحيد المعروف لنا وله برم (٢). جسيمات كالوزا-كلاين الكثيرة المصاحبة للجرافيتون سيكون لها أيضا برم (٢) وبالتالي يمكن التعرف عليها بسهولة. سيكون فى رصد هذه الجسيمات برهان قوى على وجود أبعاد إضافية وسيطرح ذلك أن النظرية صحيحة.

اكتشفنا أنا ورامان شيئا مثيرا بمثل إثارة هذا التفسير لوجود مقاييس كتلة مختلفة جدا، بل لعله شيء أكثر إدهاشا. كان يعتقد تقليديا أن الأبعاد الإضافية يجب أن تكون ملفوفة أو تكون مقيدة بين برانين، وإلا لأمكننا رصد جاذبية الأبعاد الأكثر. يلوح أن البران الثانى السابق ذكره له فائدته فى غرضين: فهو يفسر مشكلة التراتبية بسبب الاحتمال الصغير لأن يوجد هناك جرافيتون، كما أن هذا البران مسئول أيضا عن تقييد البعد الإضافى بحيث لا يمكن أن نرى إلا ثلاثة أبعاد على المسافات الطويلة (الأكبر من حجم البعد).

وعلى كل، فإن "تركيز الجرافيتون قرب بران بلانك يمكن أن يكون له دلالة مختلفة تماما. إذا نسينا للحظة مشكلة التراتبية، سيكون البران الثانى غير ضرورى! بمعنى أنه حتى لو كان هناك بعد إضافى لانهاى ونحن نعيش فوق بران بلانك فى هذا البعد اللانهائى، فإننا لن نعرف ذلك. فى هذه "الهندسة المعوجة"، مع المعرفة بأن المكان يوجد به جرافيتون يتناقص مداه أسيا، سوف نرى الأشياء وكأن هذا البعد لا وجود له وكأن العالم له فقط أبعاد ثلاثة.

احتمال أن يتركز الجرافيتون فى موضع بعيدا عن بران بلانك احتمال صغير جدا، ونتيجة ذلك أن سنجد أن أى شيء يجرى على مسافة بعيدة من بران بلانك ينبغى ألا تكون له أهمية تتعلق بالفيزياء فوق البران أو بالقرب منه. والحقيقة

أن الفيزياء على المسافات البعيدة تكون بلا علاقة تماماً بذلك لدرجة أن البعد الإضافي يمكن أن يكون لانهائياً، ولا تكون هناك مطلقاً أى مشكلة من حيث ما هو الأفضل للأبعاد الثلاثية. لما كان الجرافيتون يقوم فقط برحلات غير متكررة فى الكتلة الرئيسية، فإن وجود بران ثانى لا يكون ضرورياً للحصول على نظرية تصف عالمنا ثلاثى الأبعاد، كما كان يعتقد فيما سبق. سيكون من الممكن أن نعيش فوق بران بلانك ونعالج مشكلة التراتبية ببعض طريقة مختلفة، أو ربما نعيش على بران ثانى هناك فى الكتلة الرئيسية، ولكن هذا البران لن يكون الحد للمكان الذى يكون الآن لانهائياً. ليس من المهم أنه يحدث أحياناً أن الجرافيتون يتسرب بعيداً عن بران بلانك؛ فهو متمركز محلياً هناك بدرجة كبيرة بحيث أن بران بلانك يقوم أساساً بمحاكاة عالم من ثلاثة أبعاد، وكأنه لا وجود مطلقاً لبعد إضافي. وكمثل، فإن عالماً بأربعة أبعاد سيبدو متطابقاً تقريباً مع عالم بثلاثة أبعاد. وبالتالي فإن كل الأدلة التى لدينا بشأن الأبعاد المكانية الثلاث يمكن بما يساوى ذلك أن تكون أدلة لنظرية يوجد فيها أربعة أبعاد مكانية بمدى لانهائى.

هذه مباراة مثيرة وإن كان فيها إحباط. تعودنا أن نعتقد أن أسهل شئ نستعبده هو الأبعاد الإضافية الكبيرة، لأن الأبعاد الإضافية الكبيرة مصحوبة بطاقات منخفضة يكون التوصل لها، أسهل. على أننا الآن نجد أنه بسبب انحناء المكان، هناك نظرية تسمح بوجود بعد رابع لانهائى للمكان فى شكل يحاكي محاكاة وثيقة الأبعاد الثلاثة بحيث إن العالمين لا يمكن بالفعل التمييز بينهما.

إذا كان هناك فروق، فستكون رهيفة. وقد ثبت فى النهاية أن الثقوب السوداء فى العالمين ستسلك على نحو مختلف. من الممكن أن تتسرب الطاقة بعيداً من البران، بحيث إنه عندما يضمحل ثقب أسود فإنه ربما يلفظ جسيماته فى البعد الإضافي وبالتالي يكون الاضمحلال أسرع كثيراً. يجرى الفيزيائيون الآن بعض أبحاث تثير الاهتمام عما ستبدو عليه الثقوب السوداء إذا صدقت هذه النظرية عن البعد الإضافي مع التركيز العالى للجرافيتون على البران؛ وعلى كل، فإن الأبحاث الابتدائية تطرح أن الثقوب السوداء، مثلها مثل أى شئ آخر، ستبدو متماثلة بدرجة

لا تسمح بالتمييز بين نظريتي الأبعاد الأربعة والأبعاد الثلاثة. هناك عند وجود أبعاد إضافية عدد هائل من الممكنات بالنسبة للبنية العامة للمكان. فمن الممكن أن توجد أعداد مختلفة من الأبعاد وقد تكون هناك أعداد تعسفية من البرانات محتواة من داخلها. بل إن البرانات لا يلزم أن تكون كلها لها أبعاد من ثلاثة زائد واحد؛ قد تكون هناك أبعاد أخرى للبرانات بالإضافة إلى تلك التي تبدو مماثلة لبراناتنا وموازية لها. ويطرح هذا سؤالا مهما حول البنية العامة للمكان، ذلك أن طريقة تطور المكان على مر الزمان ستكون مختلفة في سياق وجود برانات كثيرة. من الممكن أن يكون هناك أنواع من القوى والجسيمات كلها لا نعرف شيئا عنها وتكون مركزة على البرانات وتستطيع التأثير في علم الكون.

الفيزياء في المثل السابق تبدو في كل مكان - على البران وفي الكتلة الرئيسية - بثلاثة أبعاد. بل وحتى بعيدا عن بران بلانك ستبدو الفيزياء ثلاثية الأبعاد، وإن كان ذلك مع اقتران جذبوى أضعف. اكتشفت بالبحث مع أندرياس كارتر (الذي يعمل الآن في جامعة واشنطن) أن هناك احتمالا هو حتى أكثر إذهالا. فالأمر لا يقتصر على إمكان وجود بعد إضافي لانهاى، بل إن الفيزياء أيضا في المواضيع المختلفة يمكن أن تعكس خصائص بعدية مختلفة. تتمركز الجاذبية محليا وهي قريبة منا لدرجة أن المنطقة القريبة منا هي فقط التي تبدو بثلاثة أبعاد؛ أما المناطق التي على مسافة بعيدة فتعكس مكانا له أبعاد أكثر. ربما يكون الأمر أننا نرى أبعادا ثلاثة مكانية ليس بسبب أنه هناك حقا ثلاثة أبعاد فقط، وإنما بسبب أننا ملتصقون بهذا البران وأن الجاذبية تكون مركزة بالقرب منه، في حين أن المكان المحيط بذلك يكون غافلا عن جزيرتنا ذات الأبعاد الأقل. هناك أيضا إمكانات لأن تستطيع المادة أن تتحرك داخل وخارج هذه المنطقة المعزولة ذات الأبعاد الأربعة، فتبدو وكأنها تظهر ثم تختفى عندما تدخل وتخرج من منطقتنا. هذه ظواهر يصعب جدا الكشف عنها عمليا، ولكننا سنجد نظريا أن هناك شتى أنواع الأسئلة المهمة حول الطريقة التي تتسق بها معا بنية كهذه.

ليس من الضروري أننا سنلتقى إجابة عن طريق التجارب عما إذا كانت هذه النظريات على صواب وإنما يمكننا أن نحاج في صفها نظريا إذا كانت إحداها أو

الأخرى ترتبط بنظرية أكثر تأسيساً. قد استخدمنا العناصر الأساسية الموجودة فى نظرية الأوتار - وهى، وجود البرانات والأبعاد الإضافية - ولكننا نود حقاً أن نعرف ما إذا كان هناك بنية برانية حقيقية. هل يمكننا أن نتناول البرانات الخاصة جداً التى تعطىها نظرية الأوتار وننتج بها كونا به بران يركز الجانبية محلياً؟ من المهم معرفة ما إذا كنا نستطيع فعلاً أن نستقى ذلك من نظرية الأوتار أو من بعض نظرية أخرى أكثر تأسيساً. وحقيقة أننا لم نفعل ذلك بعد ليست برهاناً على عدم صدق ذلك، وقد قطعت وأندرياس شوطاً له قدره فى تحقيق السيناريو الخاص بنا فى نظرية الأوتار. إلا أن الأمر قد يكون صعباً جداً، فمن الصعب جداً حل هذه التركيبات الهندسية المعقدة. عموماً، فإن المشاكل التى نصل لحل لها، هى على الرغم من أنها تبدو معقدة جداً، فإنها من أوجه كثيرة مشاكل بسيطة جداً. علينا إجراء الكثير من المزيد من الأبحاث؛ وهناك اكتشافات مثيرة تنتظرنا، وسيكون لها دلالاتها بالنسبة لمجالات أخرى.

فى علم الكون مثلاً، هناك لدى آلان جوث ميكنازم ناجح جداً حيث التمدد الأسى يجعل الكون ناعماً، إلا أن هناك إمكانات آخر مطروح: هناك الكون الدورى، وهذه فكرة لبول شتاينهاردت، حيث يحدث بها مقدار أصغر من التمدد الأسى يتكرر مرات كثيرة. تحفزنا نظرية كهذه لأن نلقى بالأسئلة. أول كل شىء، هل هذا يتسق حقاً مع ما نراه؟ مازال هذا موضع بحث. هل لهذه النظرية حقاً ميكنازم جديد فيها؟ فكرة الكون الدورى مازالت بمعنى ما تستخدم التضخم لجعل الكون ناعماً. أحياناً يكاد يكون من السهل جداً الخروج بالنظريات. على أى شىء تتأسس نظرياتها؟ ما الذى يجعلها مرتبطة بالأرض؟ ما الذى يمنعنا من أن نفعل وحسب أى شىء كان؟ هل هناك حقاً فكرة جديدة فى النظرية؟ هل لدينا حقاً ميكنازم جدى فعال؟ هل النظرية ترتبط ببعض فكرة نظرية أخرى أكثر تأسيساً؟ هل هى تقيد فى إنجاح ذلك؟ أخذت مؤخراً استكشف بعض دلالات الأبعاد الإضافية بالنسبة لعلم الكون. يبدو أن التضخم ينجح مع الأبعاد الإضافية بأفضل مما بدونها! الأمر الجميل حقاً فى هذه النظرية هو أننا نستطيع أن نجرى واتقن حسابات تأثير البعد الإضافى؛ ولا يتطلب

الأمر أى افتراضات تنشأ خصيصا لذلك. وبالإضافة فإن النظرية لها دلالات محددة بالنسبة لتجارب علم الكون. بقيت طول الوقت وأنا أؤكد على ما نراه بالفعل. وأنا كلى أمل فى أن نتمكن بمرور الوقت وبالتجارب من أن نميز ما بين الإمكانيات المختلفة.

الجاذبية الكمومية الحلقية^(٢٥)

لى سمولين^(٢٦)

لم يحدث إلا منذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين أن بدأ يصنع تقدم حقيقى فى توحيد نظرية النسبية ونظرية الكم. كانت نقطة التحول هى ابتكار طريقتين للتناول وليس طريقة واحدة وهما: الجاذبية الكمومية الحلقية، ونظرية الأوتار. أخذنا من وقتها نتقدم تقدما مطردا فى هاتين الطريقتين معا. نحن نستطيع فى كل حالة منهما إجراء عمليات حسابية نتنبأ بظواهر جديدة مذهشة. ومع ذلك فنحن لم ننته بعد. فأى من هاتين الطريقتين ليست بعد فى شكلها النهائى؛ مازالت هناك أمور علينا فهمها. أما الأخبار المهمة حقا فهى أنه توجد الآن

(٢٥) الجاذبية الكمومية الحلقية: نظرية عن الزمكان ونسيجه، وهى إحدى المحاولات لإيجاد نظرية موحدة فى الفيزياء تضم معا النسبية العامة (التي تتناول الجاذبية وسلوك الأجرام الكبيرة) هى ونظرية الكم (التي تتناول قوى الكون الأخرى وسلوك الجسيمات تحت الذرية). وتطرح نظرية الجاذبية الكمومية الحلقية أن الزمكان نسيج يتكون من وحدات منفصلة متميزة فى شكل حلقات صغيرة جدا حجمها ١٠-٣٣ سم أو جزء من مليون بليون بليون من السنتيمتر، ونسيج الكون هكذا مصنوع من سلاسل من هذه الحلقات تشبه سلاسل الحلقات فى دروع محاربى العصور الوسطى. ونتيجة صغر هذه الحلقات يبدو الكون وكأنه جد ناعم. ترتب هذا التصور على تعديلات أدخلت على معادلات أينشتين للنسبية العامة، بحيث يمكن هكذا نظريا توحيد الجاذبية مع ميكانيكا الكم. مازالت هذه النظرية فى انتظار إثبات مباشر بتجربة عملية أو بتنبؤ مهم يتحقق. (المترجم)

(٢٦) لى سمولين عالم فيزياء نظرية، وهو مشغول بالجاذبية الكمومية، الاسم الذى نعطيه للنظرية التى توحد كل الفيزياء وهى نظرية يجرى الآن إنشاؤها. وعلى وجه أكثر تحديدا فهو مشارك فى ابتكار طريقة تتناول لهذه النظرية تسمى الجاذبية الكمومية الحلقية. أصبح سمولين فى ٢٠٠١ عضوا مؤسسا وفيزيائيا باحثا فى "معهد بريمر للفيزياء النظرية" فى واترلو بأونتاريو. ألف سمولين كتابى "حياة الكون" و"ثلاث طرق للجاذبية الكمومية".

فرصة حقيقية لإجراء تجارب سوف تختبر التنبؤات الجديدة لهذه النظريات.

هذا أمر مهم، لأننا في موقف لا راحة فيه حيث لدينا نظريتان تناميًا على نحو جيد لتكونا مرشحتين للنظرية الكمومية للجاذبية. نحن في حاجة لاختزالهما في نظرية واحدة. نستطيع أن نفعل ذلك إما بأن نجد أن إحداها خطأ والأخرى صواب، أو بأن نجد أن النظريتين يمكن أن توحدًا معًا.

أتحت لى من سنوات عديدة الفرصة لأن أنتقل إلى "إمبريال كوليج" بلندن (الكلية الإمبراطورية) مع إمكان البدء فى تكوين مجموعة للبحث. بعد أن مكثت هناك لفترة، أتى أحدهم لرؤيتى وقال لى، "أنا أمثل أناسا يريدون بدء معهد للفيزياء النظرية. وهم يريدون لهذا المعهد أن يجرى أبحاثا أساسية فى أمور مثل الجاذبية الكمومية، ونظرية الأوتار، وعلم الكون، وميكانيكا الكم ولديهم لذلك ١٠٠ مليون دولار على الأقل. ماذا ستفعل فى ذلك؟ أى المجالات ستضمنها فيه؟ كيف تريد تشكيل بنيته؟ من الذى يصلح للتعاقد معه؟ هل لديك مدير له؟ هل تود أن تختار شخصا له احترامه وحكمته وتخوله كل السلطة لبنائه، أو أنك فحسب ستعاقده مع مجموعة من الشباب من خريجي الجامعة وتعطى لهم المعهد بأسلوب متعهدى المشروعات ولكنه بتقنية راقية؟ وتترك لهم إدارته؟" تحدثنا عن ذلك، كما أنه تحدث مع أناس كثيرين فى هذه المجالات - مثل فوتينى ماركوبولو - كالامارا، وكارلو روفللى، وكريس إيشام، وروجر بنروز، وآخرين كثيرين.

كانت البنية أمرا مهما جدا فى هذه المناقشات. كانت وجهة نظرى أن من الخطأ أن نخول السلطة كلها لفرد واحد، لأننا نتناول العلم، والعلم يعمل بأحسن حال عندما يكون الأفراد مستقلين ويكون هناك جماعة علمية. هذا المعهد المقترح - معهد بيريمتر للفيزياء النظرية فى واترلو، خارج تورنتو مباشرة - كان يقصد به بوجه خاص أن يكون بمثابة حضانة للأفكار المبتكرة حول أسئلة أساسية، والأفكار الجديدة إما أنها تنحو إلى أن تجيء من أفراد من الشباب أو تجيء من أفراد يبقون أنفسهم شبابا بان يتحركوا دائما فى مجالات جديدة. نواصل نحن العلماء أن ينتقد أحدا الآخر، ويكون أداؤنا أفضل أداء فى الأجواء المفتوحة حيث يستطيع كل فرد أن ينتقد كل فرد نقدا آمينا ومباشرا. ونحتاج أيضا إلى وجود جو من الدعم يكون الناس فيه كرماء ومتعاطفين عند وقوع المصاعب وأوجه الفشل. تحدثنا حول كل هذه الأمور، ومع مرور الزمن أخذت التوقعات تبدو أكثر جاذبية من البقاء فى لندن.

مايكل لازاريديس هو مبتكر هذه الفكرة والمانح الرئيسى لمعهد بيريمتر، وهو الرئيس المشارك التنفيذى لشركة "ريسيرش إن موشن" (البحث يتحرك) وهى

الشركة التى تصنع منتجات "بلاكبيررا". بين لازارديس بوضوح هو والمجلس الذى شكله أن ما يروونه من حيث البنية، شىء مشابه لمعهد الدراسات المتقدمة فى برينستون. ووضعوا صيغة التفويض بالمهمة، ووضعوا الإطار، إلا أنهم لم يتدخلوا فى قضايا الحياة اليومية من حيث التوجيه العلمى والتعاقدات. وجود ما يك ضرورى ضرورة مطلقة، ومع ذلك لم يحدث قط أنه أتى إلينا قائلا، "أعتقد أن عليكم أن تتعاقبوا مع هذا الشخص" أو "أعتقد أن هذا ليس بالاتجاه الجيد لتعضوا فيه". كان أحد الأمور التى قاموا بها مبكرا جدا أنهم شكلوا لجنة من علماء مرموقين ليعملوا كمستشارين، يشرفون على ما نفعل. فهم موجودون للتأكد من أننا لا نشرد هائمين فى اتجاهات غريبة علميا، وللحفاظ على التزامنا بالحق.

نشغل الآن مبنى قديما مروعاً فى واترلو كان يستخدم كمطعم، ويقع مكتبى بجوار البار القديم. لدينا جو رائع؛ محبب للناس. بدأ العمل فى إنشاء مبنى جديد صممه شابان رائعان هما مهندسان معماريان من مونتريال اسمهما جيلز سوسير وأندريه بيروت. عندما بدأت العملية، سافرنا معهما إلى كمبردج ولندن، حيث أقام الناس حديثا مباني لعلماء فيزياء ورياضة، ودار حديثا حول ما هو صالح وما هو غير صالح، والسبب فى ذلك. أعتقد أن مبنانا سيكونا مكانا لأداء الفيزياء النظرية أفضل من أى مما يوجد الآن. بل إن البعض أخذوا يقولون عنا بالفعل إن معهدنا هو الموقع المثير فى مجالين - الجاذبية الكمومية ونظرية المعلومات الكمومية. افتتحنا المعهد فى سبتمبر ٢٠٠١، وهو وقت غريب لبدء أى مسعى، وبدأنا بثلاثة علماء عينوا بعقود طويلة وهم: روبرت مايرز، وفوتيني ماركوبولو، وإيلى؛ منظر للأوتار وفردان يعملان فى الجاذبية الكمومية. كانت هناك فكرة تشغل أذهاننا كثيرا جدا منذ البداية، فكرة أننا لن نذهب إلى تفضيل طريقة تناول معينة. لدينا أفراد بارعون فى كلا المعسكرين، وسوف نخلق جوا بحيث يتحدث الأفراد من المعسكرات المختلفة أحدهم مع الآخر. وحتى الآن تم إنجاز الكثير من العلم الجيد. تعاقبنا مع فردين بارعين جدا فى نظرية الكم وهما: ليوسين هاردى من أوكسفورد الذى أجرى أبحاثا مثيرة فى أسس نظرية الكم ونظرية المعلومات الكمومية؛ ودانييل جوتسمان، وهو نجم شاب فى نظرية المعلومات الكمومية. أصبح لدينا فى ٢٠٠٢

عشرة أفراد من دارسى ما بعد الدكتوراه، والعديد من الزائرين، وأفراد كثيرون يأتون ويذهبون. زارنا فى يونيو رئيس الوزراء الكندى ووزير الصناعة وتعهدا بمنحنا أكثر من ٢٥ مليون دولار لدعمنا. كما أتى لنا أيضا نائب وزير مقاطعة أونتاريو وتعهد بمنحنا ١١ مليون دولار على الأقل. كان مما يشد العزم أن نرى أن قواد بلد واحد على الأقل يفهمون أن دعم العلم الخالص أمر ضرورى لبلد ديمقراطى حديث.

العلم نوع من معمل مفتوح للديمقراطية. فهو طريقة للتجريب مع مثالبات مجتمعاتنا الديمقراطية. وكمثل، لابد من أن نتقبل فى العلم حقيقة أننا نعيش فى مجتمع يجعل الحكم النهائى حسب جدارة عملنا. إلا أننا نجد فى الوقت نفسه أن حكم أى فرد هو أمر يخصه. تتطلب أخلاقيات المجتمع أن نحاج دفاعا عما نؤمن به وأن نحاول بأقصى ما نستطيع أن نتمكن من الحصول على نتائج لاختبار توقعاتنا الحدية، إلا أن علينا أن نكون أمناء فى تسجيل النتائج، أيا ما كانت. لكل واحد منا الحرية والاستقلال ليفعل ما يشاء، طالما أنه يتقبل فى النهاية حكم المجتمع. يتأتى العلم الجيد من تصادم الأفكار المتناقضة، من الاختلاف، من أناس يحاولون أن يكون أداؤهم أفضل من معلمهم، وأعتقد أن لدينا هنا نموذجا لما يقوم عليه المجتمع الديمقراطى. هناك قوة هائلة فى أسلوب حياتنا الديمقراطى، والعلم فى الجذر من ذلك.

أود الآن أن أتحدث عن مشكلة الجاذبية الكمومية وأحسن طريقتين للتناول تم طرحهما لحلها، وهما ما تسميان الجاذبية الكمومية الحلقية ونظرية الأوتار. هذه حالة يتخذ فيها الأفراد المختلفون طرائق تناول مختلفة لحل مشكلة علمية أساسية، وثمة دروس نثير الاهتمام نتعلمها من طريقة نشأة هذه النظريات منذ أوائل ثمانينيات القرن العشرين، دروس عن المكان والزمان ودروس أيضا حول طريقة عمل العلم.

الجاذبية الكمومية هو الاسم الذى نعطيه لنظرية توحد كل الفيزياء. جذور هذه النظرية موجودة فى نظرية أينشتين عن النسبية العامة وفى نظرية الكم. تدور

نظرية أينشتين للنسبية العامة حول المكان، والزمان، والجاذبية، في حين أن نظرية الكم تصف كل شيء آخر موجود في الكون، بما في ذلك الجسيمات الأولية، والنوى، والذرات والكيمياء. ابتكرت هاتان النظريتان في أوائل القرن العشرين، وكان تصاعدهما علامة للإطاحة بالنظرية السابقة، وهي نظرية ميكانيكا نيوتن. هاتان النظريتان هما التراث الرئيسي لفيزياء القرن العشرين. بقيت مشكلة توحيدهما المشكلة الأساسية المفتوحة في الفيزياء التي تخلفت لنا لنحلها في هذا القرن.

الطبيعة هي التوحد. هذا القلم مصنوع من ذرات ويقع في المجال الجذبوى للأرض. وبالتالي لا بد من أن هناك إطارا واحدا، قانونا واحدا للطبيعة تشكل هاتان النظريتان وجهين مختلفين له. سيكون من السخف لو كان هناك قانونان فيزيائيان غير قابلين للتوفيق بينهما، أحدهما لأحد المجالات في العالم والآخر لمجال آخر. بل وحتى في ١٩١٥ كان أينشتين متنبها لهذه القضية، وهو يذكر في نفس أول ورقة بحث له حول موجات الجاذبية، المفارقة الموجودة حول طريقة أن نلائم النسبية هي والكم معا.

لم يحدث إلا منذ منتصف ثمانينيات القرن العشرين أن بدأ يصنع تقدم حقيقى فى توحيد نظرية النسبية ونظرية الكم. كانت نقطة التحول هي ابتكار طريقتين للتناول وليس طريقة واحدة وهما: الجاذبية الكمومية الحلقية ونظرية الأوتار. أخذنا من وقتها نتقدم تقدما مطردا فى هاتين الطريقتين معا. نحن نستطيع فى كل حالة منهما إجراء عمليات حسابية تتنبأ بظواهر جديدة مدهشة. ومع ذلك فنحن لم ننته بعد. فأى من هاتين الطريقتين ليست بعد فى شكلها النهائى؛ مازالت هناك أمور علينا فهمها. أما الأخبار المهمة حقا فهي أنه توجد الآن فرصة حقيقية لإجراء تجارب سوف تختبر التنبؤات الجديدة لهذه النظريات.

هذا أمر مهم لأننا فى موقف لا راحة فيه حيث لدينا نظريتان تتاميتا على وجه جيد لتكونا مرشحتين للنظرية الكمومية للجاذبية. نحن فى حاجة لاخترالهما فى نظرية واحدة. نستطيع أن نفعل ذلك إما بأن نجد أن إحداهما خطأ والأخرى

صواب، أو بأن نجد أن النظريتين يمكن أن توحدنا معا. (وبالطبع فإن نتيجة اختبار النظريتين يمكن أن تكون بالتخلص منهما معا، على أن هذا أيضا سيكون تقدما).

كان الموقف مختلفا جدا منذ سنوات معدودة. لم نكن نعرف كيف نخبر النظريتين اللتين كنا نعمل عملا شاقا في إنشائهما. بل والحقيقة أنه طوال جيل علمي بالكامل - أى منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين - ظلت الفيزياء الأساسية فى أزمة؛ لأنه لم يكن فى الإمكان إخضاع تخميناتنا النظرية للاختبار التجريبي. وكان سبب ذلك أن الظواهر الجديدة التى تنتبأ بها نظريتنا عن الجاذبية الكمومية تحدث عند طاقة بمقاييس من مرتبة لأس العشرة أكبر بكثير مما يمكن تخليقه فى المعمل، حتى فى المعجلات الضخمة للجسيمات. المقياس الذى تتضمن فيه معا فيزياء الكم والجاذبية يسمى مقياس بلانك وهو عند مرتبة أسية للطاقة أكبر تقريبا بخمس عشرة مرتبة عما فى أكبر معجلات تحت الإنشاء الآن.

المسافة فى نظرية الكم تتناسب عكسيا مع الطاقة، لأننا نحتاج إلى جسيمات لها طاقة عالية جدا لسبر مسافات صغيرة جدا. عكس طاقة بلانك هو طول مسافة بلانك. ويكون هذا حيث تنتبأ نظريتنا بانهييار الصورة الكلاسيكية للمكان باعتباره ناعما ومتصلا، وهذه مسافة أصغر من نواة الذرة بما يقرب من الأس العشرين للعشرة. لما كان مقياس بلانك أبعد جدا من أن نتناوله التجربة، أخذ الناس يضعون ثقة كبيرة فى الرياضيات والنظرية. بل إن هناك حتى بعض منظرى أوتار قالوا أشياء سخيفة مثل "إن الفترة من جاليليو حتى ١٩٨٤ كانت فترة الفيزياء الحديثة، حيث اخترنا صحة نظرياتنا تجريبيا، أما بعدها فنحن نعمل فى عصر فيزياء ما بعد الحداثة، وفيها يكفى الاتساق الرياضى للبرهنة على صحة نظرياتنا ونكون التجربة غير ممكنة وغير ضرورية". وأنا هنا لا أبالغ؛ هناك أناس قالوا حقا أشياء كهذه.

حدث خلال التسعينيات أن ذكر أفراد قليلون من أن لآخر فكرة أننا نستطيع إجراء تجارب لاختبار النظرية الكمومية للجاذبية، ولكننا وباللجل تجاهلناهم. أحد من طرحوا الفكرة طرحا قويا شاب فى روما اسمه جيوفانى أميليو - كاميليا.

تجاهل هذا الشاب فحسب كل شخص يقول، "لن نسبر قط مقاييس بهذا الصغر. لن نسبر قط هذه النظريات". وقال لنفسه إنه لابد من أن هناك طريقة ما، ودرس تجارب كثيرة ممكنة مختلفة، باحثا عن طرائق يمكن أن تظهر بها تأثيرات الجاذبية الكمومية. وقد وجد هذه الطرائق. نحن نعرف الآن ما يزيد عن ست تجارب مختلفة نستطيع إجراؤها لاختبار فروض مختلفة عن الفيزياء عند مقياس بلانك. بل والحقيقة أننا في السنة الأخيرة استبعدنا بالتجربة افتراضات عديدة في فيزياء مقياس بلانك.

المفتاح المهم الذى أدركه أميلينو - كاميليا وآخرون هو أننا نستطيع أن نستخدم الكون نفسه كأداة تجريبية لسبر مقياس بلانك. هناك ثلاث طرائق يعطينا الكون بها أدوات سبر تجريبية لمقياس بلانك. الأولى، أن هناك معجلات فى المجرات البعيدة تنتج جسيمات لها طاقة أكبر كثيرا مما يمكننا إنتاجه حتى ولو فى أكبر معجلات صنعها الإنسان. رصدت بعض هذه الأشعات الكونية ذات الطاقة الفائقة وهى تضرب جونا بطاقات تزيد عشرة ملايين مرة عن أى مما أنتجناه. توفر لنا هذه الأشعة مجموعة من التجارب الجاهزة مسبقا، لأنها وهى فى طريقها لنا تكون قد سافرت لمسافات هائلة خلال الإشعاع والمادة التى تملأ الكون. بل والحقيقة أنه توجد بالفعل مفاجآت فى المعطيات التى لو استمرت بلا توقف يمكن تفسيرها بأنها ترجع إلى تأثيرات الجاذبية الكمومية.

والثانية، أننا نكتشف الضوء والجسيمات التى ظلت تسافر لبلايين السنين الضوئية وهى فى طريقها لنا عبر الكون. فى أثناء هذه البلايين من السنين فى سفرها، يمكن للتأثيرات الصغيرة جدا التى ترجع للجاذبية الكمومية أن تتضخم إلى الدرجة التى يمكننا عندها الكشف عنها.

وأخيرا، نجد أن التضخم المفترض حتى يتمدد به الكون تمدها سريعا جدا فى الأزمنة المبكرة، هذا التضخم يخدمنا كنوع من ميكروسكوب، يضخم من معالم مقياس بلانك إلى مقاييس فلكية، بحيث يمكننا رؤيتها فى تراوحات صغيرة فى الإشعاع الميكروويفى الكونى.

وإن ما النظريات التي سنختبرها بهذه التأثيرات؟ إحدى هذه النظريات هي الجاذبية الكمومية الحلقية.

بدأت الجاذبية الكمومية الحلقية في أوائل ثمانينيات القرن العشرين وكان ذلك نتيجة بعض اكتشافات عن النسبية العامة بواسطة أميتا س، وكان وقتها جرى أبحاث ما بعد الدكتوراه في جامعة ماريلاند. وتحولت هذه الاكتشافات إلى إعادة صياغة جميلة لنظرية أينشتاين وذلك على يد أبهى أشتيكر الذي كان وقتها في جامعة سيراكوز ويعمل حاليا كمدير لمركز الفيزياء الجذبوية في ولاية بن، أدت هذه الصياغة الجديدة إلى أن جعلت لغة الرياضيات هي ولغة التصور الفكري التي نستخدمها لوصف المكان والزمان أكثر قربا للغة التي تستخدم في فيزياء الجسيمات وفيزياء الكم. وقتها وجدت في ١٩٨٦ أنا وزميلي تيد ياكوبسون بجامعة ماريلاند أننا نستطيع استخدام هذا الشكل الصياغي الجديد لأشتيكر للوصول إلى نتائج حقيقية حول زمكان الكمومية. منذ خمسينيات القرن العشرين ظلت المعادلة المفتاح للجاذبية الكمومية هي ما يسمى معادلة هويلر - ديوييت. وضع هذه المعادلة برايس ديوييت وجون هويلر، ولكن أحدا لم يستطع أن يجد حلا لها طوال كل الوقت الذي أعقب وضعها. وجدنا أنا وياكوبسون أننا نستطيع حلها حلا مضبوطا، والحقيقة أننا وجدنا عددا لا نهائيا من الحلول المضبوطة. كشفت هذه الحلول عن بنية ميكروسكوبية لهندسة المكان، وأخبرتنا أن المكان عند مقياس بلانك، يبدو وكأنه شبكة لها أحرف متميزة تنضم في أشكال. انضم إلى في العام التالي كارلو روفيلي (ويعمل الآن في مركز الفيزياء النظرية في مارسيليا) وأمكنا أن نكتشف من هذه الحلول نظرية كمومية للجاذبية هي نظرية مكتملة النمو. أصبحت هذه النظرية هي الجاذبية الكمومية الحلقية. سرعان ما انضم لنا آخرون كثيرون، وأصبحت النظرية الآن مجالا كبيرا نوعا للأبحاث.

تختلف الجاذبية الكمومية الحلقية عن طرائق التناول الأخرى للجاذبية الكمومية، مثل نظرية الأوتار، وذلك في أنها فيما عدا استخدام صياغة أشتيكر فإننا لم نجر أي تعديلات في مبادئ النسبية ونظرية الكم. فهذه مبادئ تم اختبارها

بالتجارب اختبارا جيدا، ونظريتنا تتأسس على توحيدهما فى اتساق، وليس على أى شىء آخر. تؤدى طريقة تناولنا إلى ربط النسبية كما نراها فى العالم، مع الأبعاد المكانية الثلاثة هى والمادة على نحو ما نراها تقريبا، ومع ميكانيكا الكم وهى تقريبا فى الشكل الذى قدمه لنا بول ديراك، وويرنر هايزنبرج، وأصدقائهما. بينما كان معظم الناس قد استسلموا وأخذوا يلتزمون تعديل مبادئ النسبية أو مبادئ نظرية الكم، فوجئنا نحن أنفسنا (وآخرون كثيرون) بنجاحنا فى أن نضمهما معا دون تعديل مبادئهما.

أدى هذا إلى نظرية تفصيلية تعطينا صورة جديدة لطبيعة المكان والزمان كما يظهران بسبرهما عند مقياس بلانك. كان الوجه الأكثر إدهاشا فى هذه الصورة هو أن المكان عند هذا المقياس لا يكون متصلا ولكنه مصنوع من عناصر منفصلة. توجد وحدة صغرى للمكان: الحد الأدنى لحجمها نحصل عليه تقريبا من مكعب طول بلانك (أى طول 10^{-33} سم). السطح الذى يفصل منطقة من المكان عن الأخرى له مساحة نحصل عليها بوحدات متميزة، أصغرها مقداره تقريبا مربع طول بلانك. وبالتالي، إذا أخذنا حجما من المكان وقسناه بدرجة كبيرة جدا من الدقة، سنكتشف أن الحجم لا يمكن أن يكون مجرد أى شىء. وإنما ينبغى أن يقع فى بعض سلسلة متميزة من الأعداد، تماما مثل طاقة الإلكترون فى الذرة. وكما أنه توجد فى حالة الذرة مستويات للطاقة، فبمثل ذلك تماما نستطيع أن نجرى من النظرية حسابا للمساحات والأحجام المتميزة.

عندما استنبطنا لأول مرة تنبؤاتنا من هذه الوحدات الصغيرة من المساحة والحجم، لم يكن لدينا أى فكرة عن أنها قابلة للرصد فى تجارب حقيقية خلال حياتنا. على أى حال، فقد بين عدد من الأفراد أن هناك حقا نتائج قابلة للرصد، وكانت بداية ذلك بواسطة رولفو جاميىنى بجامعة الجمهورية فى مونتفيدو، وجورج بولن الذى كان وقتها بجامعة ولاية بن. وفى نفس الوقت تقريبا أوضح أميلينو - كاميليا وآخرون أنه إذا كانت توجد تأثيرات من هذا النوع فإنها ستكون قابلة لاكتشافها فى التجارب التى تتضمن تفجرات من الأشعة الكونية وأشعة جاما.

تنتج هذه التأثيرات عن تثار الضوء Scatter عن البنية المتميزة للهندسة الكمومية، بما يناظر ما يحدث من حيود وانكسار عند تثار الضوء عن جزيئات الهواء أو السائل التي يمر من خلالها. الجاذبية الكمومية تأثيرها دقيق الصغر، أصغر من التأثيرات التي ترجع للمادة بمراتب كثيرة من أس العشرة. على أى حال، فنحن نرصد ضوءاً من تفجرات لأشعة جاما - انفجارات هائلة، يحتمل أن تكون بسبب اندماج نجمي نيوترون^(٢٧) ثنائيين أو تقوب سوداء - قد انتقلت عبر الكون لمسافة تقرب من ١٠ بلايين من السنوات الضوئية. تتضخم التأثيرات الصغيرة عبر هذه المسافات الكبيرة لتبلغ قدراً يمكن رصده. لما كانت الجسيمات الأولية تنتقل كموجات حسب نظرية الكم، فإن الشيء نفسه يحدث للجسيمات كجسيمات البروتون والنيوترون. من الممكن أن تكون هذه التأثيرات مسئولة عن المفاجآت التي ذكرتها عن أرصاء الأشعة الكونية ذات الطاقة العالية جداً.

هاكم الآن الجزء الذي يثير الاهتمام حقاً: فيما يبدو فإن بعض التأثيرات التي نتبأ بها النظرية تتناقض مع أحد مبادئ نظرية النسبية "الخاصة" لأينشتين، النظرية التي تقول إن سرعة الضوء ثابت عام. وهي تتماثل بالنسبة لكل الفوتونات، وهي مستقلة عن حركة المرسل أو الراصد.

كيف يمكن ذلك، إذا كانت هذه النظرية نفسها تتأسس على مبادئ النسبية؟ مبدأ ثبات سرعة الضوء جزء من النسبية الخاصة، ولكننا قد كميناً نظرية النسبية العامة لأينشتين. نظرية النسبية الخاصة لأينشتين هي لا غير نوع من التقريب لنظريته العامة، ولهذا فإننا نستطيع استخدام مبادئ النظرية العامة أما الخاصة فعلياً أن نجد تعديلات لها. ويبدو أن هذا هو ما كان يحدث!

هكذا أجرى جامبيني، وبولين، وآخرون الحسابات لطريقة انتقال الضوء في هندسة كمومية، ووجدوا أن النظرية نتبأ بأن سرعة الضوء تعتمد اعتماداً صغيراً

(٢٧) النجم النيوتروني أحد نواتج احتضار النجوم عندما ينفد الوقود النووي في قلب النجم فتتقلب قوى الجاذبية في النجم على قوى التمدد ويتقلص على نفسه في حجم صغير جداً ولكنه شديد الكثافة والوزن. وهو يستمد اسمه من أنه يتكون أساساً من نيوترونات متنافرة. (المترجم)

على الطاقة. الفوتونان ذات الطاقة الأعلى تنتقل بسرعة أبداً هونا من الفوتونات ذات الطاقة المنخفضة. وهذا التأثير صغير جداً، ولكنه يتضخم عبر الزمن. إذا نتج فوتونان في تفجر لأشعة جاما منذ ١٠ بلايين سنة. أحدهما أكثر احمراراً والآخر أكثر زرقة، ينبغي أن يصلا إلى الأرض بزمان يختلف اختلافاً طفيفاً. التأخير الزمني كما تنتبأ به النظرية يبلغ حجماً يمكن الكشف عنه بمرصد جاما جديد يسمى "جلاست" (اختصار التليسكوب الفضائي لأشعة جاما في مساحة كبيرة)، وهو تليسكوب تحدد موعد إطلاقه في مداره سنة ٢٠٠٦. نحن نتطلع قدماً لما سيعلن من نتائج، لأنها ستجرى اختباراً لتنبؤ من تنبؤات النظرية الكمومية للجاذبية.

هنا سؤال مثير جداً دخلنا في صراع معه، إلى أي حد متطرف سنضطر إلى تعديل نظرية النسبية الخاصة لأينشتاين إذا تم رصد النتيجة المتنبأ بها؟ أقصى ما يمكن تطرفاً هو ببساطة القول بفشل مبدأ النسبية. مبدأ النسبية يعنى أساساً أن السرعة نسبية وأنه لا يوجد معنى مطلق لأن يكون الشيء في حالة سكون. مناقضة ذلك تعنى أنه برغم كل شيء هناك فكرة مفضلة عن السكون في الكون. وسيعنى هذا بدوره أن السرعة ومعدل الحركة كميات مطلقة. سيؤدي هذا إلى عكس أربعمائة سنة من الفيزياء بما يعود بنا إلى ما قبل إعلان جاليليو لمبدأ أن السرعة نسبية. ومع أن هذا المبدأ ربما يكون حقيقياً على وجه التقريب، إلا أننا سنواجه إمكاناً مخيفاً بأنه يفشل عندما تؤخذ تأثيرات الجاذبية الكمومية في الحسبان.

تفهم الناس حديثاً أن من الظاهر أن هذا الإمكان قد تم استبعاده بواسطة تجارب قد أجريت بالفعل: بمعنى أنه لو كان مبدأ النسبية يفشل عندما تؤخذ في الحسبان تأثيرات الجاذبية الكمومية، فإن هذا كان سيؤدي إلى أن نرى بالفعل تأثيرات في أنواع معينة من القياسات الرقيقة جداً التي تتناول الساعات الذرية وفي أنواع معينة من عمليات الفيزياء الفلكية التي تتناول بقايا السوبرنوفات. نحن لا نرى أي تأثيرات من هذه، وبالتالي فإن هذا الإمكان المتطرف يبدو أقل ترجيحاً. وهكذا تم بالتجربة استبعاد افتراض عن بنية المكان والزمان عند مقاييس أصغر من نواة الذرة بمرتبة من عشرين من أس العشرة!

إلا أن هناك إمكانية أخرى. وهى إمكانية الإبقاء على مبدأ النسبية، ولكن نظرية النسبية الخاصة لأينشتاين تتطلب عندها تعديلا بحيث يتاح للفوتونات أن يكون لها معدل حركة يعتمد على الطاقة. أكثر ما صدمت به مما تعلمته فى العام الأخير، أن هذه الإمكانية حقيقية. يمكن أن يكون للفوتون معدل حركة يعتمد على الطاقة دون انتهاك لمبدأ النسبية! فهم أميلينو - كاميليا هذا الأمر منذ عدة سنوات. وقد شاركت فى هذه القضية من خلال بحث أجريته مع جاو ماجويجر، وهو عالم فلك شاب فى الإمبريال كوليج. أنفقت هناك سنتين من العمل، ظل جاو خلالهما يأتى إلى ويستشيرنى بشأن هذه المشكلة. كان السبب فى أسئلته هو أنه قد أدرك أنه إذا كان معدل حركة الضوء يمكن أن يتغير حسب الظروف - كما مثلاً عندما كان الكون بالغ السخونة والكثافة - فإننا ربما نحصل عندها على نظرية كونية بديلة. وقد وجد هو وأندرياس ألبريخت (وقبلهما جون موفات) أنه لو كان معدل حركة الضوء أكبر فى الكون المبكر. فإننا نحصل عندها على علم كون تضخمى بديل يفسر كل ما يفعله التضخم، فيما عدا بعض أمور ثانوية.

بدا لى أن كل هذه الأفكار مجنونة، ولم استوعبها لزمى طويل. كنت واثقا من أنها خطأ! إلا أن جاو واصل استثارتى وأدركت ونيدا أن لديهم وجهة نظر معقولة. كتبنا معا من وقتها عدة أوراق بحث تبين كيف أن فروض أينشتاين يمكن تعديلها لتعطى نسخة جديدة من النسبية الخاصة بحيث يمكن أن تعتمد سرعة الضوء على الطاقة.

ظهرت فى الوقت نفسه فى السنوات القليلة الأخيرة بعض نتائج جديدة مهمة تتعلق بالجاذبية الكمومية الحلقية. إحداها أن إنثروبيا الثقب الأسود يمكن حوسبتها، وتكون النتيجة صحيحة بالضبط. وجد جاكوب بكنشتاين فى بحثه لدرجة الدكتوراه فى ١٩٧١ أن كل ثقب أسود لابد من أن تكون له إنثروبيا تتناسب مع مساحة أفقه، أى السطح الذى لا يستطيع الضوء أن يهرب لما يتجاوزه. ثم نقح ستيفن هوكنج من هذا بأن بين أن ثابت التناسب لابد من أن يكون بالضبط ربعا واحدا من الوحدات التى تقاس بها المساحة بمربع طول بلانك. ومن وقتها أصبح أحد التحديات التى

تواجه كل نظريات الكمومية للجاذبية هو أن يتكرر ظهور هذه النتيجة. وبالإضافة، من المفروض أن الإنترنتوييا تقابل قياسا للمعلومات: فهي تحسب عدد بتات المعلومات التي قد تنقص رسدا بعينه. وبالتالي، إذا كان للنقب الأسود إنترنتوييا، يكون علينا أن نجيب عن السؤال التالي، ما هي المعلومات التي تحصيلها إنترنتوييا النقب الأسود؟

تجيب الجاذبية الكمومية الحلقية عن هذه الأسئلة بأن تعطى توصيفا مفصلا للبنية الميكروسكوبية لأفق النقب الأسود. يبنى هذا على التوصيف الذرى للهندسة المكانية، وهو يتضمن أن مساحة أفق النقب الأسود تنكمى، تماما مثلما ينكمى المكان، فهي مصنوعة من وحدات متميزة. ثبت فى النهاية أن الأفق يمكن أن يكون له عدد محدد من الحالات بالنسبة لكل وحدة تكمية للمساحة. وعندما نحصيلها نحصل بالضبط على نتيجة بكنيشتين، بالربع الواحد.

هذه نتيجة حديثة جدا. عندما أجرينا لأول مرة هذا النوع من الحسابات فى منتصف تسعينيات القرن العشرين، حصلنا على الإنترنتوييا بما يعلو تماما إلى ثابت عام. نشرت من شهور قليلة ورقة بحث ذكية لأولاف درييار، أحد باحثى ما بعد الدكتوراه فى معهد بريمر، وجد فيها حجة جد بسيطة وأصيلة تحدد ذلك الثابت، باستخدام خاصة كلاسيكية جدا للنقوب السوداء. استخدم درييار حاجة قديمة لنيلز بوهر تسمى مبدأ التطابق، تخبرنا عن طريقة نربط بها الأوصاف الكلاسيكية مع الأوصاف الكمومية للمنظومة نفسها. ما إن يتم تحديد الثابت، حتى يعطى ذلك الإنترنتوييا الصحيحة لكل النقوب السوداء.

هناك تطور كبير آخر فى الجاذبية الكمومية الحلقية وهو أننا نعرف الآن طريقة، لا تقتصر على وصف المكان وحده وإنما تصف لنا الزمكان، بما فى ذلك السببية، ومخروطات الضوء، وما إلى ذلك، كل هذا بالجاذبية الكمومية الحلقية. ويثبت فى النهاية أن الزمكان أيضا متميز، ويوصف ببنية تسمى زبد البرم. ظهرت حديثا نتائج مهمة تبين أن الحسابات الدينامية فى نماذج البرم - الزبد تكون نتيجتها محددة. تطرح معا هاتان النتيجتان المهمتان أن الجاذبية الكمومية الحلقية تعطينا إجابات معقولة عن أسئلة حول طبيعة المكان والزمان عند أصغر المقاييس.

دعوني الآن أذكر شيئا عن نظرية الأوتار، وهى طريقة التناول الأخرى للجاذبية الكمومية التى درست دراسة جيدة.

نظرية الأوتار موضوع جميل جدا. وهى تحاول أن توحد الجاذبية مع القوى الأخرى بأن تفترض أن كل الجسيمات والقوى تنشأ عن ذبذبات من أشياء ذات امتداد. يشمل ذلك أشياء لها بعد واحد (ومن هنا جاء اسم "الأوتار")، إلا أن هنا أيضا أشياء ممتدة لها أبعاد أكثر ولها اسم "البرانات" (كتعميمات للأغشية membranes). نتجت نظرية الأوتار عن ملاحظة أن كل الكمات التى تحمل القوى المعروفة هى وكل الجسيمات المعروفة، يمكن أن نجدها فيما بين ذبذبات هذه الأشياء الممتدة.

نظرية الأوتار ليست نظرية كاملة لكمومية الجاذبية، وذلك لأسباب سأصل لها سريعا، ولكنها تصلح لذلك إلى حد معين. تعطى النظرية، بمرتبة معينة من التقريب، تنبؤات معقولة لبعض تأثيرات الجاذبية الكمومية. يشمل ذلك تتأثر الجرافيتونات (كمات الجاذبية التى تتناظر الفوتونات) بواسطة الجسيمات الأخرى.. هناك أنواع محدودة جدا من الثقوب السوداء تعطى تنبؤات تتفق ونتائج بكينشنتين وهوكنج (الواقع أن هذه الثقوب ليست ثقوبا سوداء حقيقية وإنما هى منظومات بخواص مشابهة لبعض نوع خاص من الثقوب السوداء). هكذا تتجح نظرية الأوتار بالفعل فى توحيد الجاذبية والقوى الأخرى.

على أن هناك بعض عيوب دقيقة. حتى تتجح نظرية الأوتار نحتاج لأن نفرض وجود ستة أو سبعة أبعاد مكانية غير قابلة للرصد. ويجب أن نفترض أيضا وجود أنواع جديدة من السيمترىات تسمى السيمترىات الفائقة، وهى أنواع لم ترصد حتى الآن. هذه السيمترىات تربط معا بين الجسيمات التى يعتبر عادة أنها مكونات المادة (مثل الكواركات والإلكترونات) وبين كمات القوى (مثل الفوتونات والجلونات).

السيمترية الفائقة فكرة جميلة - بل والحقيقة أن لها كيانها فى استقلال عن نظرية الأوتار باعتبار أنها تخمين مثير للاهتمام عن الجسيمات الأولية. ولسوء

الحظ فإنها أيضا لم ترصد. لو أنها كانت ترصد على نحو مباشر، لوجدنا أن كل جسم سيكون له رفيق فائق السيمترية، هو رفيق له الكتلة نفسها، والشحنة نفسها والتفاعلات نفسها ولكن برمه يختلف بنصف واحد. وهذا ولاريب أمر لم يرصد! لو كانت السيمترية الفائقة حقيقية، سيكون تحققها في الطبيعة بطريقة غير مباشرة فقط؛ وكما نقول برطانة الفيزياء، فإن السيمترية مكسورة. يمكننا أن نقول ذلك بطريقة أخرى وهي أن القوى لها سيمترية، إلا أن حالة العالم لا تدعن لها. (وكمثل، إذا نظرنا حولنا في غرفة معيشتنا)، سنرى أن حقيقة أن المكان له سيمترية بثلاثة أبعاد تنكسر بتأثيرات المجال الجذوى التي تشير لأسفل).

يوجد بعض أدلة غير مباشرة يعتبر بعض الناس أنها مؤشر على وجود السيمترية الفائقة وأنها مما سنراه في تجارب المعجلات في المستقبل. على أنه حتى الآن لم يعثر على أدلة مباشرة على السيمترية الفائقة. كما أنه لا يوجد أى براهين تجريبية على وجود الأبعاد الإضافية التي تتطلبها نظرية الأوتار.

النتيجة المثيرة للاهتمام - والتعسة - لهذا كله هي أنه في غياب التأكيد بالتجربة، أخذت جماعات مختلفة من الناس تركز على أسئلة مختلفة وتخترع عوالم خيالية مختلفة. أما أولئك الذين يعملون على الجاذبية الكمومية الحلقية فمازالوا يعيشون في العالم الذى نراه، حيث المكان له ثلاثة أبعاد ولا حاجة لسيمتريات أكثر مما يرصد. يعيش الكثيرون من منظرى الأوتار وهم فى كون له - على الأقل بسبيل التخيل - عشرة أبعاد أو أحد عشر بعدا. من الفكاهات المعتادة القول بأن منظر الأوتار حين يسمع حديثا عن الجاذبية الكمومية الحلقية فإنه يقول، "هذه نظرية جميلة جدا، إلا أن فيها خطأين اثنين كبيرين: المكان ليس فيه إلا ثلاثة أبعاد، كما لا توجد فيها سيمترية فائقة!" ويرد المتحدث على ذلك قائلا، "أتعنى أنها نظرية تماثل تماما العالم الحقيقى؟" الواقع أن هذه ليست فكاهة فقد سمعتها أنا نفسى. (وفيما يعرض، إذا كان العالم ليس له أبعاد أكثر ولا سيمترية فائقة، فإنه يمكن إدماجه فى الجاذبية الكمومية الحلقية).

عندما يحدث للعلم أن يفقد اقترانه بالتجربة فإن الناس يستطيعون عندها اختراع عوالم خيالية بما يصل إلى درجة خارقة تماما للمعتاد. وهم هكذا قد يتبعون

بعض نزعة جمالية رياضية لها أناقة متميزة ويسيرون بها لأبعد ما يمكنهم. إذا تقبلت هذا كله - الأبعاد الإضافية والسمتريات وما إلى ذلك - ستجد أن نظرية الأوتار تتجح بالفعل، مع قدر معين محدود من التقريب، في أن توحد بين الجاذبية ونظرية الكم. وعلى أى حال، حتى إذا كانت نظرية الأوتار على صواب، فإن كل ما تستطيع أن تكونه هو أنها لا غير أحد التقريبات للنظرية الحقيقية. أحد أسباب ذلك هو أن هناك عددا هائلا من نظريات الأوتار. وفي حين أنه قد تم حتى الآن دراسة الكثير من هذه النظريات، إلا أنه لم يتم اكتشاف ولا نظرية أوتار واحدة تتفق مع كل أرصاذا لكونا. هناك ثلاث خواص للكون لا تستطيع أى نظرية أوتار حتى الآن أن تكرر إنتاجها: عدم وجود سيمتريّة فائقة عند الطاقات المنخفضة، ووجود ثابت كوني بعلامة موجبة (سنذكر المزيد عن ذلك لاحقا)، والغياب الكامل لنوع معين من المجالات - يسمى المجال اللاتجاهي اللاتكتلى - وهو مجال تتنبأ به نظريات الأوتار بوفرة. وبالتالي، يبدو مرجحا أنه حتى إذا كانت نظرية الأوتار حقيقة ببعض معنى عام، إلا أن النظرية الفعلية التي تصف كوننا لابد من أن تكون مختلفة اختلافا له مغزاه عن كل ما اخترع حتى الآن من نظريات الأوتار.

السبب الآخر في أن نظرية الأوتار لا يمكن أن تكون هي الكلمة الأخيرة أننا في نظرية الأوتار ندرس أمر أوتار تتحرك في الزمكان الثابت الكلاسيكي. وبالتالي، فإن نظرية الأوتار هي ما نسميه بأنه طريقة تناول تعتمد على الخلفية. وهذا يعني أن المرء يعرف الأوتار بأنها تتحرك في مكان وزمان ثابتين. قد يكون في هذا تقريب مفيد، ولكنه لا يمكن أن يكون النظرية الأساسية. أحد الاكتشافات الأساسية لأينشتين هو أنه "لا توجد" خلفية ثابتة. فهندسة المكان والزمان هي في صميمها منظومة دينامية تتطور بمرور الزمن. هناك أرساذا تجريبية بأن الطاقة تتسرب من النابضات^(٢٨) الثنائية في شكل موجات جذبية، بمعدل سرعة تتبأت به النسبية العامة بدقة غير مسبوقة تصل إلى إحدى عشرة خانة عشرية، تخبرنا هذه الأرساذا بأنه لم يعد هناك بعد خلفية ثابتة من هندسة الزمكان، تماما مثلما لم يعد

(٢٨) النابضات: نوع من النجوم النيوترونية تبث موجات راديو في نبض منتظم. (المترجم)

هناك كرات بلروية ثابتة تمسك بالكواكب عاليا. يجب أن تكون النظرية الأساسية بحيث توحد نظرية الكم مع توصيف للمكان والزمان يكون ديناميا بالكامل. يجب أن تكون النظرية من نوع ما نسميه نظرية مستقلة عن الخلفية. نظرية الجاذبية الكمومية الحلقية نظرية من هذا النوع؛ أما نظرية الأوتار فليست كذلك.

الخلاف بين أنصار النظريات التي تعتمد على الخلفية وتلك المستقلة عنها هو في الواقع مجرد نسخة حديثة من خلاف قديم. ثار منذ عهد الإغريق الجدل بين من يؤمنون بأن المكان والزمان لهما خاصية مميزة بأنهما مطلقان وثابتان أبديا وأولئك الذين يعتقدون أن المكان والزمان لا يزيدان عن كونهما علاقات بين أحداث تتطور هي أنفسها بمرور الوقت. كان أفلاطون وأرسطو ونبوتن من أنصار المطلق. بينما كان هيراقليطس وديموقريطوس وليبنز وماخ وأينشتين من أنصار النسبية. عندما نطالب بأن تكون نظرية كمومية الجاذبية مستقلة عن الخلفية، فإننا نقول إننا نعتقد أن النصر الذي تمثله النسبية العامة من وجهة النظر النسبوية لهو نصر نهائي لن ينعكس.

بعد الكثير من الجدل بين منظري الأوتار والحلقية استمرارا لهذا الخلاف. معظم منظري الأوتار تلقوا دراستهم على أساس فيزياء الجسيمات الأولية وعملوا كل حياتهم على زمان واحد ثابت. بل إن الكثيرين منهم لم يسمعوا حتى بأى حال عن علاقات النسبية /المطلق، وهي السياق الأساسى التاريخى والفلسفى لأبحاث أينشتين. أما من يعملون على جاذبية الكمومية الحلقية فإن معظمهم يفعلون ذلك لأنهم عند نقطة معينة من تعليمهم تفهموا الخاصية النسبية الدينامية للزمان كما تصفها النسبية العامة، وهم يؤمنون بها. وهم لا يعملون على نظرية الأوتار لأنهم لا يستطيعون أن يأخذوا مأخذا جديا أن نظرية مرشحة لأن تكون نظرية كمومية جاذبية، هي نظرية تعتمد على الخلفية وبالتالي فإنها تفقد (أو على الأقل تحجب) الخاصية النسبية الدينامية للمكان والزمان.

على نحو مماثل، فإن منظري الأوتار كانوا فى أول الأمر يقاومون فكرة أن النظرية الأساسية يجب أن تكون مستقلة عن الخلفية. على أى حال، أعتقد أن

منظري الأوتار كلهم تقريبا قد تحولوا الآن في رأيهم. وهم قد فعلوا ذلك لأن هناك أسبابا في الداخل من بنية نظرية الأوتار تؤدي للاعتقاد بأن النظرية الأساسية يجب أن تكون مستقلة عن الخلفية. وسبب ذلك هو أنه قد ثبت في النهاية أن نظرية الأوتار ليست فريدة. بينما كان الأمر أصلا في ثمانينيات القرن العشرين أن يكون في الاتساق الرياضي ما يكفي لتحديد النظرية الموحدة، ثبت في النهاية أنه يوجد في الحقيقة عدد هائل من نظريات الأوتار التي تتساوى في اتساقها. وكل واحدة منها متسقة مثل الأخرى، وكل منها تعتمد على اختيار مختلف للخلفية الثابتة. وبالإضافة، فعلى الرغم من الأعداد الهائلة لنظريات الأوتار التي نعرفها، فإن أيا منها لا تتفق مع الأرصاد فيما يتعلق بالنقاط الثلاث التي ذكرتها أعلاه.

حدثت نتيجة لذلك حركة في منتصف تسعينيات القرن العشرين سميت ثورة الأوتار الثانية، افترض منظرو الأوتار فيها أن كل نظريات الأوتار المختلفة التي اكتشفت حتى الآن، مع إضافة العدد اللانهائي من النظريات التي لم تكتشف حتى الآن، هذه كلها ليست إلا تقريبات لنظرية موحدة واحدة. سميت هذه النظرية بأنها نظرية "إم" (M)، إلا أنه لا يوجد اتفاق عام على ما تكونه مبادئها، وعلى الشكل الرياضي الذي تتخذه. والفكرة هي أن نظرية "إم"، إن كان لها وجود، ستكون مستقلة عن الخلفية وتكون كل نظريات الأوتار التي تعتمد على الخلفية بمثابة حلول مختلفة لها.

يقول الآن الكثيرون من منظري الأوتار إن المشكلة الرئيسية في نظرية الأوتار هي العثور على نظرية إم فتعطي لنظرية الأوتار شكلا مستقلا عن الخلفية. إلا أن الشيء المضحك أننا لا نجد أن كثيرا من منظري الأوتار يحاولون إجراء أبحاث لهذه المشكلة. المشكلة هي أن كل حدسهم وأدواتهم تتأسس على نظريات تعتمد على الخلفية. عندما يثور انزعاج منظري الأوتار مما أبدية من رأى في هذا الشأن يقولون لى إن هذا سابق لأوانه، لم يحن الوقت بعد للعمل على هذه المشكلة.

دخلت في حوارات كثيرة مثيرة للاهتمام مع قادة نظرية الأوتار: إدوارد وينن، وليونارد سوسكند، ورينيت كاللوش، ودافيد جروس، وجون شوارتز، ومايكل

جرين، وأندروسترومنجر وآخرين كثيرين. من الواضح أننا نختلف في المنهج. فهم يقولون لى إن لدى فكرة خطأ حول طريقة عمل العلم. ويقولون لى إن المرء لا يستطيع أن يأمل فى حل المشاكل الأساسية بأن يهاجمها مباشرة. وبدلاً من ذلك يجب على المرء أن يتتبع النظرية حيث تذهب. ذكر لى منظر أوتار مرموق عدة مرات قوله، "قد تعلمت منذ زمن طويل أن نظرية الأوتار أحقق منى"، وأن محاولة أن تقول للنظرية إلى أين تذهب سيكون فيها افتراض بأنك "أحقق من النظرية". ويقول لى منظر آخر إن نظرية الأوتار تتجح لأنها "لجماعة أحسن تنظيمها على أحسن وجه" حيث القادة يفرضون نظاماً على جماعة الباحثين ليتأكدوا من أنه لا يتم البحث إلا على مشاكل معدودة فى كل وقت واحد معين.

لدى احترام هائل لمنظرى الأوتار كأفراد ولما توصلوا لإنجازه. وبعضهم من خيار الأصدقاء. كما أعتقد فى الوقت نفسه أنهم على خطأ بشأن الطريقة التى يعمل بها العلم. وأنا بكل تأكيد لا أود أن أقول لى أحقق من نظرية الأوتار، أو من منظرى الأوتار. ولكنى أخالفهم بشأن المنهج، لأنى واثق من أن المشاكل الأساسية العلمية لا يتم حلها بهذه الطريقة العرضية. اعتاد أينشتين أن يشكو من أن كثيرين من العلماء يقيّدون أنفسهم بتناول مشاكل سهلة - أو كما وصف الأمر فإنهم "يقبّون الخشب حيث يكون سمكه رقيقاً". حدث فى إحدى المناسبات القليلة التى تحدثت فيها إلى ريتشارد فاينمان أن ذكر لى أن الكثيرين من منظرى الفيزياء ينفقون حياتهم العلمية وهم يسألون أسئلة ليس لها أهمية إلا رياضياً. ثم قال لى، "إذا أردت أن تكتشف شيئاً له أهمية، لا تعمل إلا على أسئلة تؤدى الإجابة عنها إلى تنبؤات تجريبية جديدة".

تعلمت أيضاً من الفيلسوف بول فيرابند أهمية الخلاف والتعددية فى العلم. قرأت كتبه فى الجامعة وأحسست فى التواءه، بخلاف الفلاسفة الآخرين الذين قرأت لهم، كان يفهم حقاً ما نفعله نحن العلماء بالفعل. أوضح فيرابند أن العلم كثيراً ما ينشأ من التوتر الذى يظهر عند اصطدام برامج البحث المتنافسة. وقد نصح بأن المرء فى هذه المواقف ينبغي دائماً أن يعمل على أضعف جزء فى كل من البرامج

المتنافسة. وأكد أيضا على أن التعددية مفيدة في العلم وليست ضارة. وحسب رأى فيرابند، وأنا أتفق معه، فإن العلم يتحرك بأقصى سرعة له عندما تتنافس على حل إحدى المشاكل طرائق تناول عديدة صحية، وأنه تركد حركته عندما لا توجد سوى طريقة تناول واحدة. أعتقد أن هذا يصدق بكل المستويات، مستوى الجماعة العلمية ككل، كما عند مستوى أحد مراكز البحث أو مجموعة للباحثين، بل وحتى بالنسبة لكل فرد واحد منا.

وهكذا ففي حين أنى أختلف مع القادة من منظري الأوتار حول المنهج، إلا أن هذا لم يمنعني من العمل على نظرية الأوتار. وهم على أى حال لا يمتلكونها؛ ومشاكلها المفتوحة موجودة أمامنا ليحاول أى واحد حلها. وبالتالي، قررت منذ سنوات قليلة أن أتجاهل نصائحهم وأحاول إنشاء صيغة الخلفية المستقلة لنظرية إم. اكتسبنا خلال عملية ابتكار الجاذبية الكمومية الحلقية الكثير من الدراية فيما يتعلق بصنع نظريات كم للمكان والزمان تكون مستقلة عن الخلفية. لدينا لغتنا الرياضية، ولدينا لغتنا للتصور الذهني، ونحن نعرف أى الأسئلة نلقى بها، ونعرف طريقة إجراء الحسابات. ثبت في النهاية أن هناك أمورا كثيرة فى الجاذبية الكمومية الحلقية يمكن تعميمها والمد منها بأن نضيف أبعادا إضافية وسيمتريات إضافية حتى نجعل منها لغة مناسبة لنظرية إم.

فى أول الأمر أصيب بعض أصدقائي ومعاوني بالصدمة من أنى أعمل على نظرية الأوتار. على أى حال، كانت لدى فكرة أنه ربما تكون نظرية الأوتار هى والجاذبية الكمومية الحلقية جانبين مختلفين للنظرية نفسها، بما يشبه كثيرا أمثلة العميان والفيل^(٢٩). أنفقت ما يقرب من عامين وأنا أبحث فى نظرية الأوتار ونظرية إم، بهدف أن أجعلهما من النظريات المستقلة عن الخلفية وبالتالي أوحدهما نظرية الأوتار مع الجاذبية الكمومية الحلقية. وجدت بالفعل بعض نتائج مثيرة جدا للاهتمام. استطعت أن أبني صيغة ممكنة لنظرية للأوتار مستقلة عن الخلفية.

(٢٩) العميان والفيل أقصوصة يضرب بها المثل عن جماعة من العميان تحس كل منهم أحد أجزاء الفيل وعرفه كل منهم حسب الجزء الذى تحسسه، كأن يقول من تحس الخرطوم أن الفيل أسطوانة طويلة ومن تحس الأذن يقول إنه مسطح رقيق... إلخ. (المترجم)

النتائج التي وجدها وكانت الأكثر إثارة للاهتمام، نتائج تستخدم بعض الرياضيات الجميلة، التي لها علاقة بنوع من الأعداد يسمى الثمانيات. وهذه أرقام يمكننا أن نقسمها، ولكنها تقش في أن تقى بالقواعد الأخرى، مثل التبادلية والتجميعية. ظل فيزا جورسي بجامعة ييل، هو وتلامذته، وخاصة مورات جونيادين، لسنوات وهم يستكشفون فكرة أن الثمانيات قد تكون لها صلة بنظرية الأوتار. أمكنني باستخدام الأرقام الثمانية أن أنمي فكرة جذابة (أخذتها عن كورين مانوج وتيفيان دراى بجامعة الولاية بأوريجون) تفسر السبب في أن المكان قد يبدو ثلاثي الأبعاد، في حين أنه يكون بمعنى رياضى معين بأبعاد تسعة. لا أعرف إن كان الاتجاه الذي اتخذته صوابا، ولكنى وجدت بالفعل أنه ليس هناك صعوبة كبيرة حقا في استخدام طرائق مستقلة عن الخلفية لصياغة ودراسة التخمينات حول ما تكونه نظرية إم.

كان هناك الكثير من المتعة في العمل على نظرية الأوتار باستخدام طرائق من الجاذبية الكمومية الحلقية. أخذت أعمل على ذلك وليس معنى إلا قلة من الأصدقاء، كما كان الحال في الأيام الخوالي للجاذبية الكمومية الحلقية، وكان أن أحرزت تقدما حقيقيا. إلا أنني في العام الأخير وضعت هذا البحث جانبا نتيجة التطورات التجريبية الجديدة. ما إن فهمت ما كان يقوله جيوفانى أميلينو - كاميليا، حتى أدركت أن هذا هو العلم وأنه ما ينبغي أن نركز عليه. منذ ذلك الوقت أصبح من الأصعب كثيرا أن يستيقظ المرء ويذهب للعمل صباحا ليعمل على عالم خيالي له ستة أو سبعة أبعاد إضافية.

كان هناك مجموعة أخرى من أنباء تثير شعورا بالصدمة أنت من الذين يجرون تلك التجارب، الأمر الذي أخذنى بعيدا عن نظرية الأوتار: تم عبر العاملين الأخيرين اكتشاف أن معظم الطاقة في العالم هي في الشكل الذي سماه أينشتاين بالثابت الكونى. يمكن تفسير الثابت الكونى بأنه يدل على أن الفضاء الخالى لديه كثافة طاقة معينة مبنية داخله. هذا أمر يصعب تصديقه، ولكن المعطيات الكونية لا يمكن تفسيرها الآن تفسيراً مقنعا إلا إذا افترضنا أن معظم طاقة الكون تكون

على هذا الشكل. المشكلة هي أنه يبدو أن نظرية الأوتار غير قابلة للتوافق مع عالم يكون فيه للثابت الكوني علامة موجبة، وهو الأمر الذي تدل عليه الأرصاد. جعلت هذه المشكلة منظري الأوتار يفكرون ويقلقون بشأنها على نحو شديد العنف. على أنهم أناس لا ينضب لهم معين، وربما سيحلون المشكلة، ولكن من الظاهر حسب ما استقرت الأمور عليه حالياً، أن نظرية الأوتار لا تتوافق مع الأرصاد.

في الوقت نفسه فإن الجاذبية الكمومية الحلقية تتضمن بطريقة بارعة تماماً ثابتاً كونياً موجباً. والحقيقة أن هذا فيه أهم حججنا: إذا كان هناك وجود لثابت كوني سنتمكن من العثور على ما نرشحه للحالة الكمومية للكون وسنتمكن من أن نوضح أن ذلك فيه تنبؤ بأن الكون بالمقاييس الكبيرة تحكمه النسبية العامة ونظرية الكم. هكذا أخذت في الشهور العديدة الأخيرة أدرس غالباً طريقة لصنع تنبؤات حول التجارب الجديدة باستخدام نسخة من الجاذبية الكمومية الحلقية تتضمن ثابتاً كونياً موجباً.

الشيء الطيب في العلم هو ما يحل بالمرء من هذه الصدمات التي تأتي من العالم الحقيقي. نستطيع أن نعيش لسنوات قليلة في عالم خيالي. ولكن مهمة العلم في النهاية هي أن يفسر ما نلاحظه. ثم ننظر في المرأة ونسأل أنفسنا، "هل أود أنا أن أنطلق هناك في أحد عشر بعداً، وأنا ألعب بالرياضيات الجميلة، بينما تأخذ التجارب في الدخول علينا؟".

نظرة للأمام

مارتن ريز^(٣٠)

التحدى الذى يواجهنا هو أن نفهم كيف نشأ التركيب.
وهذا تحدى يماثل تماما فى أساسيته التحدى الذى يأتينا
مع ما تسمى بنظرية كل شىء، كما أنه مستقل عنها.
يقول عالم الفيزياء النظرية ستيفن واينبرج إننا إذا
واصلنا السؤال لماذا... لماذا... لماذا...؟ سيرجعنا ذلك
وراء إلى سؤال فى فيزياء الجسيمات أو فى علم الكون.
هذا أمر يصدق إلى حد ما، ولكنه يصدق بمعنى محدود
لا غير.

(٣٠) سير مارتن ريز أستاذ الجمعية الملكية فى جامعة كمبردج، وزميل بكلية كننج، وبالمرصد الملكى للمملكة المتحدة. وكان فيما سبق أستاذا لكرسى بلوم للفلك والفلسفة التجريبية فى كمبردج، حيث انتخب لهذا الكرسي وهو فى الثلاثين من عمره ليخلف فريد هويل. وقد ألف كتباً عديدة من بينها "الجذب المميت للجاذبية" (بالاشتراك مع ميتشيل بيغلمان) وقيل البداية، ومئة أرقام لا غير، و"موطننا البيئى الكونى".

ثمة مشاكل تفرضها الفترة المبكرة تبكيرا فائقا من عمر الكون وقد وصلت هذه المشاكل الآن إلى أن تصير في البؤرة من اهتمامنا. نعرف حاليا الخواص المفتاحية للكون في العهد الحالي؛ كثافته، وعمره، ومكوناته الأساسية. والحقيقة أن السنوات المعدودة الأخيرة ستسجل في حوليات علم الكون كسنوات رائعة، لأننا قد حددنا بدقة في هذه السنوات شكل ومحتوى الكون، تمام مثلما فعل الملاحون الرواد في القرون الأقدم عندما حددوا حجم الأرض وتخطيط محتوياتها. التحدى الذى يواجهنا الآن هو أن نفسر لماذا أصبح الكون بما هو عليه، وأن نفهم لماذا يتمدد الكون بهذه الطريقة، ولماذا وصل إلى أن يحتوى ما يحويه. نستطيع أن نتتبع تاريخ الكون وراء لما يقرب من الميكروثانية التالية للانفجار الكبير الذى يفترض أنه بدأ به، ولكن ما الذى حدث فى تلك الميكرو ثانية الأولى من التشكيل؟ هناك أنواع شتى من أفكار صاخبة تناقش بهذا الشأن - البرانات، والتضخم، وما إلى ذلك - وهى أفكار جعلت واضحا أننا مازلنا على مسافة بعيدة من الإجابة الصحيحة. فنحن عند مرحلة ينبغى فيها استكشاف كل الاحتمالات. وجدير بنا أن ننظر فى أمر النتائج التى تترتب حتى على أكثر الأفكار هشاشة، على الرغم من أن الفرصة فى أن ينجح أى منها على المدى الطويل ليست فرصة كبيرة جدا.

لن أزعم أنى خبير تكتيكى فى أى من النظريات الخاصة بالكون المبكر تبكيرا فائقا. وفيما يبدو فإن من المرجح أن سيكون للأبعاد الإضافية للمكان دور تلعبه. وبالإضافة فإن فكرة التضخم التى سيطرت على هذا المجال طوال عشرين سنة، تصير الآن فكرة تعممها مفاهيم أخرى من أفراد مثل ليذا راندال، ونابل توروك، وبول شتينهاردت. لاشك فى أن الهدف الرئيسى هو إنشاء نظرية مقنعة تحيط بكل شئ وتصف الكون المبكر وتعطى تنبؤات عن العالم حاليا تكون قابلة للاختبار. لو كان لدينا نظرية تعطى لنا فهما لكلى الإلكترونات والبروتونات والقوى التى تحكمها بحيث يكون هذا الفهم أكثر عمقا وتحددا عما يفعله ما يسمى بالنموذج المعيارى، لو كان لدينا نظرية كهذه لأخذنا مأخذنا جديا ما فيها من دلالات بالنسبة للكون المبكر تبكيرا فائقا. من المأمول أن إحدى تلك النظريات الغريبة الجديدة سوف تعطى تنبؤات قابلة للاختبار، هى إما عن العالم المعتاد للجسيمات أو عن

الكون. بعض هذه النظريات مثلا تعطى تنبؤات محددة عن كمية الإشعاع الجذبوى التى تملأ الكون. وإذا كنا الآن لا نستطيع قياس هذا الإشعاع فربما سنتمكن من ذلك خلال عشر سنوات. وهذه إحدى الطرائق التى ربما تؤدى بها الأرصاد الفلكية إلى تضيق نطاق الخيارات.

أسهل فكرة نفهمها بتصوراتنا الذهنية هى التضخم الأزلئ، وهى فكرة يناصرها آلان جوث كما أجرى عليها أندريه لند عالم الفلك فى ستانفورد قدرا كبيرا من الأبحاث التفصيلية. وينتج عن هذه الفكرة على نحو طبيعى أن هناك انفجارات كبيرة كثيرة. لا نعرف بعد ما إذا كانت هذه الانفجارات الكبيرة ستكون نسخا تتشابه تشابها وثيقا إحداها مع الأخرى أو أن المادة فى كل انفجار منها ستكون محكومة بقوانين مختلفة. هذا التضخم الأزلئ ربما فيه طريق لتفادى ما يوجد من تعقيدات فى الأبعاد الإضافية والجاذبية الكمومية لأن هذه فيها حالة لماضى لانهائى. على أى حال فإن أغلبنا يظنون أن أحد الشروط المسبقة للتقدم هو استتباط نظرية تضع الجاذبية فى علاقة مع عالم الميكرو. عندما نعود إلى أول البداية، سنجد أن الكون كله يمكن أن يكون مضغوطا إلى حجم الجسيم الأولى؛ ومن الممكن أن تراوحات الكمومية قد رجت الكون كله، وستكون هناك هكذا حلقة ربط جوهريّة بين علم الكون وعالم الميكرو. أكثر المحاولات طموحا لأداء ذلك وأكثرها شيوعا كصرعة فى الوقت الحالى هى نظرية الأوتار ونظرية "إم"، وكلا النظريتين تتضمن أبعادا إضافية. لو توصلنا إلى تلك النظرية ينبغى عندها أن نتمكن على الأقل من صياغة بعض الفيزياء لأول بداية الكون. لاشك أن أحد الأسئلة هنا هو ما إذا كان المكان والزمان يتشابكان وهما يلتقان على بعض بحيث لا يمكننا فى الحقيقة أن نتحدث عن "بداية" فى الزمان. سيكون علينا أن نتخلى عن المزيد والمزيد من مفاهيم حسنا المشترك ونحن نمضى فى طريقنا إلى هذه الظروف المتطرفة. العقبة الكأداء الرئيسية فى لحظتنا هذه أن الرياضيات التى تتضمنها هذه النظريات يبلغ من صعوبتها أن من المستحيل أن نجد علاقة بين ما يوجد من تركيب بهذه الأبعاد العشرة أو الأحد عشر وبين أى شئ مما نستطيع رصده فى الواقع. وبالإضافة، فعلى الرغم من أن هذه النظريات تبدو جذابة من الوجهة الجمالية وتعطينا تفسيراً

طبيعيا للجاذبية، فإنها مازالت لا تخبرنا عن السبب في أن عالمنا ثلاثى الأبعاد يحوى تلك الأنواع من الجسيمات التى يدرسها الفيزيائيون.

على الرغم من أن روجر بنروز يستطيع فيما يحتمل أن يعالج أربعة أبعاد، فإننى لا أعتقد أن أيا من هؤلاء المنظرين يستطيع بأى طريقة حدسية أن يتخيل أبعادا إضافية متعددة. على أى حال فإنهم يستطيعون تصورها كتركيبات رياضية، ولاريب فى أن رياضيات ذلك يمكن تدوينها ودراستها. الشيء الوحيد الذى يبدو نوعا غير اعتيادى فى نظرية الأوتار - من وجهة نظر علم الاجتماع وتاريخ العلم - أنها أحد الأمثلة القليلة التى حدث فيها أن أعقت الفيزياء بسبب نقص فى الرياضيات المتعلقة بالأمر. فيما مضى، كان الفيزيائيون عموما يستخدمون ما هو متاح من رياضيات تنتمى نوعا إلى طراز قديم. استخدم أينشتين هندسة القرن التاسع عشر غير الإقليدية، واستخدم رواد نظرية الكم نظرية الزمرة ومعادلات التفاضل التى كانت أساسا قد استتبقت قبل ذلك بزمان طويل. أما نظرية الأوتار فتطرح مشاكل رياضية لم تحل بعد وأدت بالفعل إلى أن زادت من تقارب الرياضة والفيزياء معا. وهذه النظرية هى طريقة التناول التى تهيمن الآن مباشرة، ولها بالفعل بعض أوجه من النجاح، إلا أن السؤال المهم هو ما إذا كانت ستنتامى إلى مرحلة يمكننا فيها حل المشاكل التى يمكن أن تختبر بالرصد. إذا لم نستطع تجسير الفجوة بين هذه النظرية ذات الأبعاد العشرة وبين أى مما نستطيع رصده، فسوف تضعف لتتوقف.

نماذج الكون المبكر تبكيرا فائقا حالها الآن يشابه نوعا حال النموذج العام للانفجار الكبير فى العقود السابقة لستينيات القرن العشرين، عندما كان هناك أناس مثل جورج ليميتز، وجورج جاموف، وألكسندر فريدمان، الذين صاغوا بعض أفكار أساسية حتى وإن لم يستطع أحد أن يختبرها فى الواقع، وكانت فيزياء الدقائق القليلة الأولى مازالت بالكامل أمورا من التخمين. سجد بالطريقة نفسها أن التضخم ونظريات الأوتار التى تتناول الكون المبكر تبكير فائقا هى نظريات تتقدم كثيرا قبل أى تنبؤات قابلة للاختبار. والسؤال هنا هو عما إذا كنا فى عشر سنين أو عشرين

سنة سنجد لدينا طرائق لاختبارها، تماما مثلما حدث في السنوات العشرة الأخيرة أن أصبح لدينا اختبارات جيدة جدا لنظرية الانفجار الكبير ترجع وراء للمرحلة التى كان عمر الكون فيها ثانية واحدة. إذا كان من غير الممكن بأى حال اختبار هذه الأفكار، فسوف يستطيع المرء ولا ريب أن يحاج بأنها لا تزيد عن أن تكون من باب "العلم الهزأه"، وذلك بالمعنى الذميم لتلك العبارة كما طرحها جون هورجان. ولكنى أمل أننا خلال عشر إلى عشرين سنة سوف نعرف أى فكرة منها هى التى فى المسار الصحيح - إن كان أى منها كذلك - وستكون الواحدة منها فى المسار الصحيح إما لأنها جزء من نظرية موحدة عامة تفسر ما هو أساسى من قوى وقوانين الطبيعة، وإما لأنه سيتم الوصول إلى بعض أرصاد فلكية لها القدرة على التمييز فيما بينها. ومرة أخرى فإن المنظرين هم الذين يقودون من يقومون بالرصد وإجراء التجارب، ويستحثونهم، ويحفزونهم. ومن المهم أن يتم استكشاف بدائل لأفكار التيار الرئيسى.

وكمثل لذلك لدينا أبحاث لى سمولين عن الجاذبية الكمومية الحلقية. الشئ الوحيد الذى يلفتنى فيما يتعلق بنظرية الأوتار هو ما لعله أن يكون تركيزا مفرطا للمواهب فى هذا المجال. فهذا أمر لا يقتصر على أن يكون حشدا غير مثالى فى هذا الجهد العلمى، وإنما سيؤدى أيضا بالتأكيد إلى الكثير من خيبة الأمل عندما نجد أن عددا بالغ الكثرة هكذا من أفراد الشباب المتقد الذكاء كلهم يطاردون الأفكار نفسها.

يهمنى أيضا بعض الأسئلة الأساسية عن توحيد قوانين الفيزياء. طالما ثار إعجابى بما يسمى حجج الضبط الدقيق، حجج تنادى بأن كوننا يبدو أنه كون خاص نوعا، ولم ينشأ تركيبه إلا لأن قوانينه لها خواص غير معتادة بدرجة كبيرة. إن وجودنا لغز أصيل، حيث إن من السهل أن نتخيل مجموعة من القوانين لا تؤدي إلا إلى كون عقيم أو يولد ميتا. وأكثر إجابة طبيعية عن هذا اللغز ستكون أن انفجارنا الكبير لم يكن بالانفجار الوحيد، فهناك أكوان كثيرة، تنتهى إلى أن تكون محكومة بقوانين مختلفة، البعض منها فقط هو الذى يتيح أن يحدث تطور البنى ثم الحياة فى

النهائية. وبالتالي، فأنا تجذبني النماذج الكونية التي تسمح، ليس فقط بانفجار كبير واحد وإنما بانفجارات كثيرة، وهذا أحد معالم سيناريو التضخم الأزلّي الذي كان رائده أندريه لنډ وكذلك بعض النماذج التي تستدعي وجود أبعاد إضافية. أود أن أعرف فيما يتعلق بالفيزياء التي تتنبأ بهذه الأكوان المتعددة (والتي مازالت فيزياء تخمينية) ما إذا كانت فيزياء صحيحة، وما إذا كانت الأكوان المختلفة محكومة بقوانين فيزيائية مختلفة وقوى مختلفة. هل تحوي جسيمات تختلف اختلافاً كلياً عن الجسيمات التي تشكل كوننا الخاص بنا؟ إذا كان هناك حقاً تباين هائل بين هذه الأكوان الكثيرة، لن نجد فيما ينبغي أن هناك ما يثير أى دهشة لو تصادف أن وجد على الأقل كون واحد من النوع الذي نأوى إليه.

يأتينا منظور آخر من منظر أوكسفورد دافيد دويتش الذي نقح النظرية المسماة "بالعوالم الكثيرة" التي تنتمي لميكانيكا الكم. فهو ينظر إلى هذه الأكوان على أنها تتراكب بطريقة ما أحدها فوق الآخر، وهذه فكرة لا تتماثل مع فكرة ليزا راندال عن الأكوان المتوازية. ربما يمكننا التوصل إلى فهم أوضح لنظرية الكم والحوسبة الكمومية إذا فكرنا حسب هذه الخطوط. هناك صدق فيما لاحظته جون بولكنجورن من أن "ميكانيكى كموميته المتوسطة لن يكون بأكثر فلسفة من ميكانيكى سيارتك المتوسطة". معظم الفيزيائيين يستخدمون النظرية لحل المسائل وحسب بطريقة تكاد تكون بلا تفكير. قد تعطينا ميكانيكا الكم الإجابات، إلا أنه ستظل هناك ألغاز في هذا الشأن، وينبغي ألا نفترض أننا قد حصلنا بعد على الطريقة الصواب للنظر في الأمر. الناس من مثل دافيد دويتش يقودوننا في اتجاه فيه إنتاجية.

هناك نزعة لاستخدام مصطلحات مثل "نظرية كل شيء" و"النظرية النهائية"، لتدل على ما يلتمسه منظرون مثل إدوارد ويتن بمعهد الدراسات المتقدمة هو ومئات من المنظرين الآخرين الموهوبين. سيكون في النظرية التي يبحثون عنها نهاية للمطلب الذي بدأ بنيتون وتواصل من خلال أينشتاين وخلفائه. إلا أن هذا بالطبع لن يكون فيه نهاية العالم، وإنما هو فقط نهاية لمطلب بعينه. لن تساعدنا هذه

النظرية على فهم أغلب الأمور المركبة فى العالم. وجود نظرية أساسية لن يؤدى مطلقا إلى أى عون لأغلب العلماء، بل ولأغلب الفيزيائيين، وذلك لأن الصعوبات التى تواجههم ليست نتيجة أنهم لا يعرفون القوانين الأساسية. فالتحدى الذى يواجهنا هو أن نفهم كيف ينشأ التركيب. وهذا التحدى يماثل فى أساسيته التحدى الذى يأتينا مع ما تسمى بنظرية كل شىء، كما أنه مستقل عنها. يقول عالم الفيزياء النظرية ستيفن واينبرج إننا إذا واصلنا السؤال "لماذا... لماذا... لماذا؟" سيرجعنا ذلك إلى سؤال فى فيزياء الجسيمات أو فى علم الكون. وهذا أمر يصدق إلى حد ما، ولكنه يصدق بمعنى محدود لا غير. يواجهنا التحدى عندما نسأل عن السبب فى أن أحد السؤال يسلك أحيانا بطريقة منتظمة، وأحيانا أخرى بطريقة شواشية - كأن نحاول مثلا فهم الاضطراب الدوامى، أو تقطر الصنابير - إلا أن الإجابة لن تأتينا من تحليل السائل تحليلا ينزل بنا إلى مكوناته تحت الذرية، وإنما ستأتى بالتفكير بطريقة مختلفة تماما فى أمر التركيب. هناك مثل لذلك عندما اكتشف ميثييل فيجنوبوم ظهور سلسلة الأعداد نفسها فى مرحلة الانتقال من السلوك المنظم إلى السلوك الشواشى، فهذا اكتشاف مهم عن العالم، ولكنه لا علاقة له مطلقا بفيزياء الجسيمات، حتى وإن كان يماثلها بالضبط فى أنه أساسى.

لم نكن نستطيع أبدا قبل عصر الكمبيوترات أن ندرك إدراكا كاملا كيف أن خوارزما بسيطا يمكن أن ينتج عنه تركيب هائل. تمكنا من أداء هذا النوع الجديد من العلم عن طريق الكمبيوتر - وهو علم نجد أن ستيفن وولفرام ولاريب هو أكبر واجهة دعائية له - وهو علم يتيح لنا أن ننشئ تخمينات جديدة عن كيف أن الأنماط البسيطة والخوارزمات البسيطة يمكن أن تترتب عليها نتائج مركبة أقصى التركيب. هذا علم يوجد كله فكريا على مستوى فيزياء الجسيمات ونظرية الأوتار ولكنه لا يرتبط بهما تماما. أصدر وولفرام بيانا (مانيفستو) رائعا جدا عن هذا النوع من العلم، ولكنى لا أعرف إن كانت طريقته هذه فى النظر إلى الأمور هى الطريقة المفتاح لفهم المكان، والزمان، والجسيمات. وحتى أكون أمينا فإنى أتشكك نوعا بشأنها. ولكنى أتعاطف مع أفراد مثل فيليب أندرسون فيزيائى برينستون، الذى يريد تفريغ شحنة غرور علماء الفيزياء الأساسية الذين يزعمون أن موضوعهم له

الأولوية الأعلى والأعمق من كل شيء. هناك ما هو مهم تماما مثل موضوعهم، كفهم التركيب، وأن نراه في أبسط شكل في مرحلة الانتقال للشواش وفي الأشكال الأكثر تعقدا في كل سائر العلم: كالشجرة الوراثية، وتدفق السوائل، وكل سائر ذلك.

ما يشغلنى الآن فى التو - بل وما ظل فى الحقيقة يشغلننى لأكثر من عشرين سنة - هو أن أفهم الطريقة التى انتهت بها عصر الظلام الكونى. بعد التآلق الأول للانفجار الكبير، أخذ الكون يبرد ويظلم حتى تمت إضاءته ثانية عندما تشكلت أول النجوم أو أول المجرات. توصلنا الآن إلى تقدم كبير، بمساعدة من الرصد والنظرية معا، فى فهم الطريقة التى انتقل بها الكون من حالة اللا تشكل واللابنية إلى أن يصبح مركبا. حدثت هذه الفترة الانتقالية الرئيسية فى وقت متأخر تماما، ربما بعد الانفجار الكبير بمائة مليون سنة. لا يوجد خلاف حول الفيزياء الأساسية عندما كان الكون يسوده انخفاض فى الكثافة والحرارة، إلا أن الأمور تصبح معقدة للسبب نفسه الذى يتعقد به كل العلم البيئى. وأنا أحاول أن أفهم كيف تطورت البنى الأولى، كيف نشأت أول النجوم، والتقوب السوداء، والمجرات.

على أن علماء الفلك أمثالى ليسوا أقل اهتماما من أى فرد آخر بما سيحدث فى الأسبوع القادم أو السنة القادمة، بل والحقيقة أن وعيهم بالدهور الشاسعة التى تمتد أماما ربما يجعلهم متبهمين بوجه خاص لمستقبل الحياة، وما فيه من إمكان لعصر ما بعد البشرية. ثمة تهليل كثير حول التقدم المتسارع لعلوم معينة، وهناك ولاريب أفراد مثل راي كيرزويل بوجه خاص، يعتقدون أن التقدم التكنيكى يمضى منطلقا تجاه بعض نوع من مفردة، أو طرف مستدق، يمكن أن نصل إليه فيما يقرب من خمسين سنة. ما يهمنى هو أن أوجه التقدم هذه - وخاصة أوجه التقدم فى البيوتكنولوجيا - سوف تؤدي إلى عدم الاستقرار بدرجة أكبر. وهى تؤدي إلى أن يزداد ما يوجد من الفعالية والقوة لدى فرد واحد ساخط أو مجموعة صغيرة ساخطة. مع الفعالية الهائلة التى تقدمها التكنولوجيا، لن يحتاج الأمر إلا لعدد قليل من الأفراد ليسببوا كوارث يمكن أن تمزق مجتمعنا كله. ويحدث هذا بوجه خاص عندما يعرف كل فرد أن هذه الكوارث يمكن تكرارها فى أى وقت دون إمكان

عملى لتوقيها. يعطينا حدث الأنثراكس فى ٢٠٠١ المثل لأن تفجر وباء من هذا النوع حتى إذا تم احتواؤه جيدا إلا أنه يستطيع أن يؤثر فى نفسية المجتمع كله. تستطيع وسائل الإعلام والدعاية العامة بمبالغاتها أن تضخم من أى رعب، لأننا أصبحنا متصلين ومتشابكين بدرجة قصوى. لا أستطيع أن أرى كيف يمكننا أن نتجنب هذه الأحداث التى تستحوذ تماما على المجتمع، أو تسبب حتى انهياره. وأنا متشائم، لأنه يبدو لى أنه سيكون من الصعب جدا توقى هذه الأمور. كنا منذ عشرين سنة منزعجين من احتمال المواجهة بين القوى الكبرى؛ وفى تسعينيات القرن العشرين كنا منزعجين من تصاعد القومية، والصراعات بالمقاييس الأصغر. أما الآن فنحن منزعجون من الإرهابيين وغيرهم من الجماعات الساخطة، وسيكون علينا فى المستقبل أن ننزعج من أفراد ساخطين لهم عقلية أولئك الذين يصممون الآن فيروسات الكمبيوتر ولكنهم سيكون لديهم سريعا القدرة لفعل ما هو أسوأ كثيرا.

تجعلنى هذه الأفكار مكتئبا بشأن ما سيحدث فى السنين العشر أو العشرين القادمة. على أننا إذا تمكنا من درء الكارثة، فسوف أكون مع كيرزويل فى توقع أن يكون معدل التغير فى حياتنا فى الخمسين سنة القادمة معدلا أسرع مما كان فى الخمسين سنة الأخيرة.

خاتمة

ردود على مقال "الإنسانيون الجدد"

نيكولاس هيمفري، جaron لانير، جوزيف ليدوكس،
جون هورجان، تيموثي تايلور، كارلو روفللي، ستيفن
جونسون، لي سمولين، دوجلاس روشكوف، بيت هت،
مارك دي هاوسر، ميهالي سيكزنتميهالي، دنيس
دتون، دانييل سي. دينيت، هوارد راينجولد، كريس
أندرسون.

نيكولاس همفري: (٣١) لدى مشاكل كبيرة بالنسبة لهذا المقال. وعلى وجه خاص، فإننى لا أجد مطلقاً أن تحديدك لما يكونه العلم والتفأول فيه ما يقنع بأى حال فى "أى" من رأيك اللذين سردتهما.

١ - لا أعتقد أن العلماء يتوقعون فعلاً (أو ينبغي أن يتوقعوا) توسعاً فى المشاكل المثيرة للاهتمام بنمط أسى يماثل ما فى قانون مور. والحقيقة أن الأمر عكس ذلك بالضبط: فانا أعتقد أننا نستفيد - أو سوف نستفيد سريعاً - منجم المشاكل المهمة العميقة. سيكون "لدينا" (نظرية كل شىء)، وسوف نصل إلى إثبات فرض ريمان، وسوف نصل إلى أعماق الوعي، وهلم جرا. هذا حقاً العصر الذهبى للعلم. ولكنه يجب أن يكون بحيث ينتهى ذاتياً، على الأقل فى مدى ما يختص بالمشاكل الكبيرة الصعبة. كتبت عن هذه القضية بالضبط فى مقالى "شكسبير العلمى". النقطة التى أوضحتها فيه هى أن "الفنون" ستستمر فى أن تكون لها الفرص التى سرعان ما لن يكون لها وجود لدى "العلوم". أعتقد أن من الأفضل لنا نحن العلماء أن نكون مستعدين - بل وأن نكون متواضعين - عند مجابهتنا للمرحلة التالية من الثقافة الإنسانية، التى قد ترتد تماماً إلى نطاق التخصص التقليدى للفنون.

٢ - لا أعتقد أنه يمكن أن تكون الاكتشافات العلمية بالضرورة مما يعتمد عليه فى أن تودى إلى زيادة خالصة فى سعادة البشر، سواء من خلال ما تكشف عنه من سياق للطبيعة أو من خلال الأدوات التى يمكن أن تتيحها لنا لتتدخل بها فى هذا السياق. هناك علماء كثيرون، ابتداءً من براتراند راسل ثم جاك مونو حتى مارتن ريز، كلهم كانوا ومازالوا متشائمين أعماق التشاؤم بالنسبة لما يخبرنا به العلم عن الطريق الذى يتجه له العالم. وفى قضية أخرى منفصلة، مازال هناك كثيرون يبتاهم القلق حول التطبيق الذى ستستخدم فيه الكشوف

(٣١) نيكولاس همفري عالم فى السيكولوجيا النظرية فى مركز فلسفة العلوم الطبيعية والاجتماعية بمدرسة لندن للاقتصاد، وأستاذ للسيكولوجيا بكلية الجامعة بالمدرسة الجديدة للبحث الاجتماعى فى نيويورك. ومن بين ما ألفه كتاباً تاريخ العقل و"العقل مكتسباً باللحم".

العلمية، ابتداء من أسلحة الدمار الشامل، ثم تحسين النسل ووصولاً إلى التحكم
الفكرى.

لا يعنى هذا أن نشكك فى النقطة الرئيسية عندك وهى أن العلم الآن هو
اللعبة الوحيدة فى الملعب. لاريب أنى أوافق بالفعل على أن هناك أملا فى العلم
أكثر من أى شىء آخر. ولكن المشكلة كما أراها بالنسبة لهذا المقال هى أنك قد
أوضحت هذه النقطة من قبل منذ سنوات وبأكثر ما يمكن إقناعا، وذلك فى مقدمتك
لكتاب " الثقافة الثالثة" بحيث إنها حقيقة لا تحتاج لإيضاحها ثانية. والحق أنى لو
كنت مكانك لاتخذت مسلكا مختلفا بالكلية. بدلا من أن تكرر هجومك على مثقفى
النصف الثانى من القرن العشرين الذين يستحوذ عليهم قهار "بلومزبرى"، أعتقد أنه
كان ينبغى أن تعمل على جذب الانتباه إلى الطريقة التى أصبح بها هؤلاء المثقفين
مهمشين فعلا، وكان هذا فى جزء منه بسبب جهودك. الأدلة على انتصار العلم فى
الثقافة العقلية موجودة فى كل مكان. فهى موجودة فى الأدب (كما مثلا فى "تحمل
الحب" لأيان ماك إيوان)، وفى الأفلام (كما مثلا فى "عقل جميل")، وفى المسرح
(كما مثلا فى "كوبنهاجن" لمايكل فراين)، وهلم جرا. إن ما نراه الآن هو تحول
مذهل من القيم القديمة إلى القيم الجديدة. مقالك كما هو عليه، فيه نزعة غريبة من
عدم الثقة. وأنت لم تعد بعد فى حاجة لذلك! لقد كسبت المعركة فى غالبيتها. أما
المهمة التالية فهى أن تعطى تقييما متزنا لطبيعة هذا النصر.

جارون لاير: أحسنت يا جون! أنت تلعب دورا حيويا فى تحريك العلوم إلى ما يتجاوز اتخاذ موقف دفاعى كرد فعل لما يشن على المؤسسات الأكاديمية من هجمات سطحية يقوم بها أتباع "ما بعد الحداثة" وغيرهم من دود العلق. فأنت تحتفى بالعلم والتكنولوجيا باعتبارهما تعبيراتنا المتفائلة الأكثر براجماتية.

إلا أنى أتساءل، هل يكفي أن نوضح لا غير مدى الضياع بلا أمل الذى أصبح عليه أولئك المثقفين المغلفين بقشرة الفنون والإنسانيات وهم يمارسون سباق تسلحهم التافه بتشاؤم كلبى. إذا كان لنا نحن العلماء والتكنولوجيون أن نكون الإنسانيين الجدد، فلا بد من أن ندرك أن هناك أسئلة يجب أن يتناولها أى شخص مفكر، أسئلة لا تقع فى نطاق ما هو راسخ من طرائقنا وحواراتنا. والحقيقة أن موقعك على ويب "الحافة" edge.org يوفر واحدا من المنتديات المعدودة التى يستطيع العلماء فيها تبادل الأفكار حول بعض هذه الأسئلة.

ربما تكون هناك جماعة من العلماء قد أصبحت هى "الإنسانيين الجدد" ولكن هذا ليس فيه الكفاية. يجب علينا نحن الأفراد التكنيكيين أن نتعلم القدرة على الحديث عن أشياء معينة بحساسية أكبر، وإلى جمهور شعبى أكبر له احتياجات قد تبدو غير معتادة بالنسبة للكثيرين منا، وإلا سنواصل مع تخلينا عن أداء المهمة أن نتخلى أيضا عن الكثير من النفوذ المؤثر لينا له هكذا أى شخص آخر لديه عزيمة أقوى للارتقاء إلى مستوى المسؤولية.

قد يكون أكاديميو، ما بعد الحداثة وكذلك الشخصيات المشهورة فى الثقافة الثانية، هم أعداء العلم الأكثر تنفيرا، إلا أن من المؤكد أنهم مع ذلك ليسوا أعداء العلم الأكثر خطرا. وحتى نحن مازلنا عند البداية من إنعام النظر لأول مرة إلى أعمق أسس البيولوجيا، إلا أننا نجد أنفسنا فى موقف حيث هناك أقسام واسعة من الجمهور المتعلم وقد تحولت ضد المشروع العلمى لتكون فى صف بدائل شعبية تصنف عادة بأنها أكثر "روحانية". وتتراوح هذه البدائل ابتداء من مجرد أشياء سخيفة (مثل التجسيم) ووصولاً إلى نزعات عقائدية متعصبة مهجورة ووضيعة، كثيرا ما تتسم بالعنف، وهى نزعات يبدو أنها أصبحت تكتسب السلطة داخل الكثير

من التراث العقائدى فى العالم. ما الذى يدفع أعدادا هائلة من الناس إلى الخرافة وما يتبعها من الاستغلال المحتوم؟ مثلا ما الذى يجعل من الطب المتطور بالعلم (والذى كثيرا ما يسخر منه باعتباره مجرد علاج "غريبى" أو علاج "مغاير") طباً جدياً منفرداً لأفراد أذكى عدد منهم كثيراً، هكذا، فى حين أن من الواضح أنه ناجح نجاحاً ساحقاً؟ لعل الأمل أن نخبة الثقافة العلمية لم تدرك إدراكاً كافياً المهمة التى يجب أن تقوم بها إذا أرادت أن تكون النصير لنفسها. أتباع ما بعد الحداثة الذين ينقدون العلم يكونون غالباً مجرد أناس مضحكين، فى حين يكون أفراد التيار الرئيسى من أعداء العلم أسوأ كثيراً من هؤلاء: ذلك أنهم أخذوا ينتصرون.

ما الذى تعنيه كلمة "الروحانية"؟ اسمحو لى أن أطرح تعريفاً: روحانية المرء هى نطاق من علاقات المرء الانفعالية بتلك الأسئلة التى لا يمكن الإجابة عنها. العلماء والتكنولوجيون ينزعون طبيعياً إلى الابتعاد عن هذه الأسئلة. من ذلك مثلاً السؤال عن "ماذا يحدث عندما نموت؟" العلماء يلتزمون الصمت بشأن ما لا يستطيعون الكلام عنه. نحن قد توصلنا للسلام مع الأسئلة الكبيرة التى يسألها كل طفل بأن أوجدنا لأنفسنا الحدود لقدراتنا على الإجابة عنها. أصبح الكثيرون منا مرتاحى البال فيما يتعلق ببعض بقع قليلة من الجهل صارت مألوفة وأزلية، وذلك حتى على الرغم من أن هذا البقع تتخذ موقفاً مركزياً فى مجال رؤيتنا، وسبب ذلك أننا ننال تعويضا عن إحباطاتنا. نحن سعداء بأنه يمكن فهم الكون فهماً بالغ الجودة بطرائق بالغة الكثرة، وأنها على وجه التحديد قادرين على أن نسهم إسهاماً شخصياً فى هذا الفهم. كثيراً ما نحس بالافتتان بالجمال الذى نراه فى الطبيعة، جمال يصعب على غير المتخصصين إدراكه. بل إن البعض منا قد وصلوا إلى إيمان من هذا النوع أو ذاك، وإن كان يقتصر عادة على ذلك الإيمان الذى يتطابق بدقة مع تلك البقع من الجهل.

إلا أن ما ننساه هو أن الكثيرين من الناس، هم فيما يحتمل الغالبية، لم ينالوا خبرات الحياة التى تؤدى إلى تشحيم هذه الصفقات الثقافية. معظم الناس لن يكونوا مرتاحى البال بقبول قدر صغير من جهل يوضع فى موقع تعس - أو مع قدر من

عدم يقين يؤدي إلى مناطق محددة بحدود عقائدية صارمة - في مقابضة مع معرفة متخصصة بقوة في مجالات أخرى. يوجد في العالم كل الأسباب للسخرية من شخصيات النخبة الثقافية الغريبة الذين يستخدمون صرعة التشاؤم كغطاء للنرجسية. نعم، هيا فضلا نضحك معهم. ولكن هذه الطريقة للتناول لن تفيد كثيرا ذلك العدد الهائل الأكبر من الأفراد الذين يعانون قلقا خالصا بشأن الأسئلة الكبيرة التي لا إجابة لها.

أود أن أركز على مسار ثقافي بعينه أعتقد أنه يدفع الكثيرين من أفراد الجمهور بعيدا عن العلوم، وسبب ذلك أن بعض أعضاء جماعة موقع "الحافة" هم في المركز من هذا المسار. يمضي بنا المسار كالتالي: تسعى وسائل الإعلام وراء إحدى العلماء أو التكنولوجيين لأنها تتحدث ببلاغة عن الحياة فيما يتجاوز المعمل وتظهر العالمة في التلفزيون لتتحدث عن موضوعات تهم البشر، مستخدمة الإطار الثقافي لبحثها. هيا نفترض أنها تحب أن تفكر بلغة من الذكاء الاصطناعي، أو علم النفس التطوري، أو بعض من الأطر الثقافية التي تعمل على إحضار "خصوصية" الناس، من أجل إيضاح الأبحاث. الفكرة التي تنشأ عن إطار كهذا والتي ربما تخدم هدفا في بيئة المعمل، كثيرا ما تقشل تماما في البيئة المفتوحة. وكمثل، إذا كانت المتحدثة باحثة في مجال الذكاء الاصطناعي، فإنها قد تطرح تساؤلا عما إذا كان زوجان وحيدان لاينجبان أطفالا يمكنهما في المستقبل أن يجدا عزاء في تربية طفل روبروتي. كانت هذه فكرة في فيلم حديث من الخيال العلمي الشعبي، ولكنها أيضا وجدت من ينصرها كاحتمال معقول وواقعي في حديث في "راديو الجمهور القومي" ألقته عالمة من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا.

من الممكن أن يحدث داخل المجتمع المتطور العلمي والتكنولوجي خلاف رهيف حول تعليق كهذا. ومن الممكن أن يكون هناك سؤال عما إذا كان مدى التركب في الطفل الحقيقي أمر في الإمكان حقا أن يدانيه جهاز رقمي في أي وقت في المستقبل القريب قريبا مناسبا. قد يستطيع المرء أن يوضح أنه حتى لو أصبح مجال العتاد متسعا وسريعا بما يكفي، إلا أننا فيما يبدو لن نستطيع كتابة برامج

ضخمة مستقرة، وبالتالي سوف يتطلب الأمر أن يحدث للبرمجيات، ولو بأدنى حد، بعض أوجه تقدم غير متوقعة. ولكن ليس هذا هو ما يحدث في العالم الرطب لغير العلماء. وكمثل، فإن الأفراد "الروحانيين" أو "العاطفيين" كثيرا ما ينالهم التشوش ويصبحون أكثر ميلا لإلغاء مواعيدهم مع الأطباء مفضلين عليهم إجراء جلسات من العلاج مثلا بالروائح العضوية. إذا كان العلماء يعتقدون أن الروبوتات والأطفال تتماثل، فلتحل بهم لعنة وباء يبدهم! عندما تحدثت تلك الباحثة في الذكاء الاصطناعي لتساوى بين نظم المعلومات والكائنات البشرية ولو حتى بمعنى ضيق جدا، فإنها بذلك أجابت بنوع من الغفلة عن بعض الأسئلة الكبيرة للطفولة إجابة كلها عجب. أخشى أن الرسالة ستنتهي إلى أن تفهم كنوع من القول بأن "الأمر لا يقتصر على أنه لا وجود للروح، ولا للأخرة، ولا وجود لأي شيء سحري فينا بأي حال، وإنما الأمر أيضا أنى كواحدة من علماء النخبة أستطيع أن أنظر في دورة تشغيلكم وأن أصنع شيئا آخر يماثلكم، وبالتالي أجعلكم أساسا خاضعين لى".

أحد التحديات التي ظلت دوما تواجه الفنون والإنسانيات (ولا ننسى هنا العقائد!) هو جعل الأشياء البسيطة أشياء معقدة. هكذا توجد كتب أكاديمية مشوشة منافية للعقل تدور حول الفلسفة والفن. يشبه هذا بعض الشيء ذلك التعبير المجازى القديم عن إضفاء أعلى القيم على المقتنيات المادية كما في "عقيدة البضاعة"^(٣٢). عندما كنت أدرس التأليف الموسيقى جعلوني أدرس موسيقى أكاديمية ملغزة بما يثير السخرية لا يستطيع أن يفهمها إلا عدد صغير من الأفراد. وكان هذا مشابها للموقف في الفيزياء، حيث الآمال المصاحبة بأن هذا ربما سيجعل من الوشيك أن يحق لأفراد هذه النخبة الأشهر والأكثر إلغازا أن ينالوا ما يماثل ذلك من هيبة، وميزانيات بل وحتى ساحات انتظار في الحرم الجامعي. والواقع أن استخدام عقيدة البضاعة بهذه الطريقة قد نجح تماما في هذه الحالة!

(٣٢) عقيدة البضاعة: نوع من عقيدة في بعض جزر الهادي تتأسس على الاعتقاد بأن الأسلاف سوف يعودون محملين بمنتجات أو بضاعة الحضارة الحديثة بما يجعل سكان الجزر أغنياء. (المترجم)

يواجه العلم مشكلة بعكس ذلك. سيسعد معظم العلماء لو حدث فجأة أن انهار الاستعلاء المتأصل في ذلك النظام الجامد، بحيث يمكن أن يوجد جيش من المشاركين الجدد. ولكن هذا المستقبل لن يوجد بكل أسف. وعلينا بدلا من ذلك أن نتعلم طرائق جديدة لنحسن من التفاعلات بين الجماعة العلمية والعالم بأسره.

أعتقد أن أماننا هنا الموقف الذي مازالت الثقافة الثالثة تحتاج فيه للنضج. لا بد للعلم أن يتعلم أن يكون أفضل في توصيل حدوده باعتبارها مصدرا للقوى، وأن يفعل ذلك دون نزعة اعتذار. ولعل على العلماء أن يتعلموا التواصل علنا بشأن كيفية أننا نحن العلماء يصيبنا القلق أحيانا في أثناء الليل بسبب الأسئلة التي لا إجابة لها.

جوزيف ليدوكس:^(٣٣) إنه لشيء عظيم أن تلتصق شيئاً من الاندماج بين مجالات متنوعة، ولكنى أحس بالقلق من أن الأمور لا تكون باللون الأسود أو الأبيض كما تقول أنت ضمناً فى مقالك. لاريب أنه يوجد بعض من هم "تسبويون" على نحو صريح فى الدوائر الأكاديمية، ولكنى أعتقد أن معظم الأفراد الذين يصنعون الثقافة بالفعل (الفنانون، والكتاب، والموسيقيون) هم أناس متفتحون ومهتمون جداً بما يلزم أن يقوله العلم. ولسوء الحظ فإن من يماثلونهم فى حالة العلماء عددهم أقل. سنحس بالصدمة عندما نرى إلى أى مدى يمكن أن يكون العلماء جاهلين بالفنون ومنصرفين عنها. وكما أرى، فإن النظرة الأعرض التى تطرحها عن الثقافة سوف تتطلب بعض توسيع لآفاق العقل فى العلوم أيضاً.

(٣٣) جوزيف ليدوكس عالم أعصاب فى جامعة نيويورك ومؤلف كتابى "المخ الانفعالى" و"النفس ومشابكها العصبية".

جون هورجان: (٣٤) إذا كان المقصود بمقالك هو الاستفزاز، فمن الواضح أنه نجح في ذلك. ولكنه في الحقيقة ينجح كنوع من إعلان عن نصر العلم بأكثر من أن يكون تحليلًا جديًا لعلاقة العلم بالإنسانيات أو الثقافة ككل. وهو يذكرني بطريقة خطاب مجلة "وايرد"، أو بنسخ كتب الجيب عن معهد سائنتا في أيامه الأولى الطائشة. "العلم يحكم!" إنك حقًا شجاع إذ تريد بعث هذا النوع من النزعة الانتصارية العلمية في وقتنا هذا الذي انفجرت فيه فقاعة الأعمال المالية للإلكترونيات وأصبح العالم يصخب بأوجه قلق ونزاع ليس هناك إلا أدنى أمل أو بنعدم الأمل في أن ينير العلم ظلامها، دع عنك أن يخفف منها.

اسمح لي أن أضيف بضع أفكار للمشاكسة: تقول إن العلماء يجابهون "العلم الواقعي"، وذلك على عكس أولئك الإنسانيين الجاهولين. أود لو كنت ذكرت أسماء حتى يمكننا الحكم عما إذا كانت أهدافك تتوافق مع وصفك الساخر. ولكن هيا نأخذ جوديث بتلر كمثال، وهي تقوم بتفكيك للهوية الجنسية Sexual، كما أنها المثل المحبب، كفتاة لها سوطها الضارب، عند أولئك الناضجين على انحطاط الإنسانيات. أود أن أؤكد على أنها مشغولة بالواقع - واقعنا الإنساني - أكثر من منظري الأوتار أو علماء الكون التضخمي. لا ريب أن هناك بعض كتب العلم الجماهيرية التي تتناول قضايا ينبغي أن تهتم أي شخص مفكر، مثل آخر كتاب ألفه إ. أو. ويلسون "مستقبل الحياة". ولكن خبرني يا جون، هل هناك أي كتاب علم مهم ليقرأه أي فرد الآن ويكون مثلاً مهماً له يمثل أهمية كتاب صمويل هنتجتون "صدام الحضارات"؟

لدينا الكثير من كتب العلم الجماهيرية الشائعة تروج ثقافة خيال علمي هروبية موجهة بوجه خاص إلى المراهقين الذكور الذين يعانون من عدم التلاؤم اجتماعياً. قل لي بأمانة، ما علاقة علم الكون التطوري عند لي سمولين بالعالم الواقعي؟ أو كذلك خيالات الفانتازيا عند راي كروزويل التي تتناول ما يكونه الأمر

(٣٤) جون هوجارن صحفي مستقل، ومؤلف كتب "الصوفية العقلانية"، و"نهاية العلم"، و"العقل غير المكتشف".

عندما نتحول إلى برمجيات صرف؟ أنا أحد من يؤدون دورا على مسرح العلم، وبالتالي فإنى أجد أن هذا النوع من الأدوار يكون مسليا عندما يؤدي أداء جيدا، ولكنى بكل تأكيد لا أستطيع أن ألوم الآخرين عندما لا يتذوقون ذلك. دعنا نواجه الأمر، فكتب العلم الجماهيرية نفهم أحسن الفهم عندما تكون بمثابة إسهام صغير فى صناعة التسلية. إذا كان الناس فى هذا الصدد يفضلون القراءة عن الحياة الجنسية لفرجينيا وولف أو أن يشاهدوا مسلسل "الأصدقاء" بدلا من أن يناضلوا فى قراءة كتاب "تاريخ موجز للزمان" أو "أصل النظام"، فلست أعتقد أنه ينبغي عليهم عندها أن يشعروا وكأنهم مواطنين من الدرجة الثانية.

أنفق معك فى أن حالنا جميعا يصبح أفضل لو أن مزيدا من الناس تتقفوا علميا. ولكن "الثقافة العلمية" بالنسبة لى لا تعنى أن يثور انفعالنا جميعا بسبب آخر إنجاز علمى "خارق"، سواء كان ذلك نظرية بران، أو أجسام مضادة أحادية النسيلة أو نانو تكنولوجيا. وإنما هى تعنى معرفة ما يكفى لتمييز أوجه التقدم الأصيل عن الدعاية المبالغ فيها التى تحيط بدواء "بروزاك" أو السيكنولوجيا التطورية أو حرب النجوم أو العلاج بالجينات.

أثرى العلم الحياة الحديثة بطرائق لا تحصى، سواء ماديا أو عقليا. إلا أن افتتاحنا بالتقدم العلمى والتكنولوجيا من أجلهما فى حد ذاتهما قد ترتب عليه أيضا نتائج ضارة: التلوث، أسلحة الدمار الشامل - وغير ذلك مما تعرفه من مصادر الذعر القديمة. ارتكبت أيضا أضرار كبيرة فى القرن الماضى لأن الناس قد انجرفوا بتلك البدع من العلم الزائف كالماركسية، والداروينية الاجتماعية، وتحسين النسل، وعلم الأدوية النفسية. يعلمنا التاريخ أن العلم مقيد فيما يستطيع أن يفعله من أجلنا. وهذه واقعية وليست تشاؤمية. إن آخر ما نحتاجه حاليا هو أن تكون هناك أيديولوجية أخرى أو عقيدة أخرى.

تيموثى تايلور: (٣٥) لاشك أنى أدرك أن بعض ما شخصه جون فى العلوم الاجتماعية فيه ما يحبط (بل وفيه ما هو أسوأ من ذلك) "دخول نص وخروج نص" فى قاعات من نشاط بلا منطق مترابط وخالية من المحتوى ويعطى لها من باب التآله فقط اسم الدراسة البحثية. إلا أننا ينبغي أن ندرك أيضا أن بعض العلماء المتشددين ممن يمطون أنفسهم عبر الحاجز ما بين الفنون والعلوم قد ظلوا يبخسون من مدى تركيب الإنسانيات ويفعلون ذلك بطريقة تتجاوز المعتاد، وكثيرا ما تكون فيها عجرة تتجاوز المعتاد أيضا. وأنا شخصا ليس عندى شك فى أننا لو أردنا مثلا أداء جيدا فى الفلسفة الأخلاقية، فإن هذا يتطلب تدريبا عقليا أطول مما يلزم نمطيا لإحداث التقدم مثلا فى فيزياء البلازما أو علم الوراثة. ولكنى أعرف أيضا أن بعض الفيزيائيين والوارثيين لديهم نزعة لئلا يدركوا ذلك. لست أعنى بهذا أن أقول إن ما يفعلونه فيه سذاجة عقلية (فمن المؤكد أنه ليس كذلك)، وإنما الأمر لا غير أن بعض ما يفعلونه (وربما ليس الكثير منه) هو مما يعد إستمولوجيا أن له نزعة أكثر مباشرة.

ثمة مخاطر عندما يحاول العلماء أن يصبحوا الإنسانيين الجدد وهى مخاطر بصورها أحسن تصوير أمثلة محددة. وكمثل فإن فكرة ريتشارد دوكنز عن "الميمات" - وهى العناصر الثقافية التى طرحت كنظيرة للجينات - لم يتخذها أحد فى مجال علم الآثار، وهو فرع المعرفة الذى كان ينبغي أن تتجح فيه على وجه الدقة لو كانت فكرة مفيدة. ليس مما يثير الدهشة (ولا يقلل حقا من جدارته) أن عالما بلغ أعلى قمة فى البيولوجيا التطورية ولا يحسن الأداء المطلوب عندما يصل الأمر إلى تنظير طريقة تمرير الثقافة: ذلك أنه أيا كان الحال، فإن ريتشارد دوكنز قد لا يكون متمرسا فى التنظير الثقافى بأكثر من تمرسى أنا فى البيولوجيا التطورية. وعلى كل، ثمة مشكلة تنشأ عندما يعتقد أناس، ممن قد لا يعرفون ما هو أفضل، أن الميمات لابد من أن تكون فكرة جيدة، ويفسرون ندرة مناقشتها نقديا على أنها دليل على تقبل هذا المفهوم.

(٣٥) تيموثى تايلور، عالمة آثار فى جامعة برادفورد بالمملكة المتحدة، وهى مؤلفة كتابى "الروح المدفونة" و"الجنس ما قبل التاريخ".

تنشأ أنواع مماثلة من هواجس القلق فيما يتعلق بصياغة "غريزة اللغة" عند عالم النفس ستيفن بنكر. وهى ليست فكرة سيئة من حيث النظرية، ولكنها قد وسع منها توسيعا فيه - فيما يظهر - إهمال كلى لكيان شامل من الأبحاث التى أجراها فلاسفة لسانيات من الروس والفرنسيين والألمان الذين وصلت أبحاثهم إلى استنتاجات مختلفة تماما. بمعنى أنه سواء تقبلنا أو لم نتقبل أحكام بنكر فى اللسانيات، فإن عمله قد خرج من خلفية من السيكلوجيا الإدراكية ليدخل فى توجهات الاهتمام الجماهيرى (وتقبلته وسائل الإعلام تقبلا واسعا على أنه حقيقى) وذلك دون المشاركة فى تلك المناقشات الإنسانية التى لها أقصى العلاقات المحورية بمدى معقولة أو لا معقولة مزاعمه الدرامية لأبلغ حد. (كما عبر عنها أتباع ل. سى. فيجوتسكى، لو أخذنا مثلا واحدا).

سيكون على المرء أن يواجه المشكلة المراوغة من أن العلم الشعبى إما أنه غالبا ما يوعظ به من تحولوا بإيمانهم له، أو أنه عندما يشرّد نوعا إلى مجالات فيها "إنسانيات" أكثر، فإنه يجعل من نفسه بغلا أحمق. يوجد فى الولايات المتحدة تقليد ممتاز بأن يكتب العلماء للجمهور الأعرض، ولكننا نجد عددا من السكان يصل إلى الثلث ويتزايد زيادة مخيفة، كلهم يشاركون فى ميثافيزيقا ليس فيها أى متسع للتطور الداروينى، ناهيك عن أن يفهموا ما يترتب عليه. هناك ازدياد فى أتباع المذهب التكويني^(٢٦) فى الولايات المتحدة ويكشف هذا عن مأساة ثقافية لن ينصلح حالها إلا عندما يوجد احترام أكبر - بين العلماء بوجه خاص - لمدى تعقد التكوينات الإنسانية الاجتماعية والثقافية وعدم قابليتها للتنبؤ. سيتطلب هذا تواضعا متجددا عند تناول التركيبات الحقيقية لمنابع سلوكنا. لن يكون هناك أى وجه للجمال فى أن يكون ما نتوقعه هو أنه سيحدث انقسام ثقافى فى دولة عظيمة ما بين أصولية عقائدية ونزعة علمية تساوى هذه الأصولية تشددا، ودوجمائية وضيق أفق بلا تدبر.

(٢٦) المذهب التكويني هو الإيمان الحرفى بسفر التكوين وبأن عمر الكون مثلا حسب ذلك ٤٠٠٠ سنة. (المترجم)

لن يتشكل النصر الحقيقي للعلم بأن يجرف بعيدا الجوانب الأخرى للوجود،
مثل العقيدة (ولا يعنى هذا أن العلم لديه أى أمل فى ذلك) وإنما يكون نصره بأن
يعمق باحترام فهم ما يكونه معنى أن نعيش ونموت ككائنات بشرية وأن نرصد
الكون من هذا المنظور. لاريب أن هناك جوانب كثيرة من أوجه السلوك غير
العقلانية، أو الرمزية، أو الطقوسية يمكن أن يتم تحليلها جزئيا أو كليا فى نطاق
إطار علمى، إلا أن هناك جوانب أخرى لن تكون أبدا مما يدعن لتحليل كهذا. ثمة
مواضع لا يمكن للتجربة والتحقق أن يصلأ لها، وعلمنا أن نلاحظ ما ندركه من
الظواهر، ونفسره، ونأمله، ونشرحه بطريقة مختلفة كيفيا.

كارل روفيللي:^(٣٧) من المؤكد أننا بعيدون جدا عن النزعة الظلامية^(٣٨)، إلا أن هناك أيضا علامات لرد فعل ضد التفكير العلمي، ومقال جون المنشائم إنذار بذلك. توجد عبر كوكبنا كله علامات خطيرة من اللاعقلانية وهي أيضا موجودة في كلمات للقامة من قوادنا. لن تكون الديمقراطية الضمان الوحيد لنا ضد الظلامية: كثيرا ما يعطى الناس أصواتهم لقوى من السلطة تنتمى بوضوح للاعقلانية، مثل النازي وبعض الحكومات الحالية. سيكون ضماننا ضد الظلامية هو أن ينتشر إدراك ما للتفكير العلمي العقلاني من قوة واضحة حيوية. عندما أتحدث إلى أناس متقنين يعلنون بسعادة أنهم لا يعرفون شيئا عن الرياضة والعلم، أصاب عندها بذعر أكثر مما أصاب به عندما يقول أهل السلطة إنهم لا يقرأون كتباً.

التفكير العلمي يوجد في اللب من حضارتنا المؤسسة على المعرفة. نستطيع أن نضيف لذلك تعطينا إلى العدل، وإيماننا بالأحلام، ووعينا العميق بخواء الحياة، وإيماننا بالإنسانية كقيمة، وتوقنا للجمال، وحسنا بالإلغاز، وكل ما هو غير ذلك مما أعطته لنا روائع المغامرة الإنسانية. وليس في أي من هذا ما يتحداه العلم أو ما يتحدى العلم. فالأمر على العكس. البحث علميا عن المعرفة أمر انفعالي عميق في طرائقه ودوافعه. ولو قاومناه، لكننا بذلك نقاوم الحقيقة. الحقيقة، مهما كانت مركبة ولها عمقها الذي لا يمكن معرفته، إلا أنها موجودة هاهنا، وترد الهجوم.

(٣٧) كارلو روفيللي؛ عالم تخصص في ميكانيكا الكم، وعالم فيزياء نظرية في مركز الفيزياء النظرية بمارسيليا في فرنسا.

(٣٨) الظلامية نزعة لمقاومة البحث أو الإصلاح أو المعرفة الجديدة، تقابل حركة التنوير. (المترجم)

ستيفن جونسون:^(٣٩) أعتقد أن وجهة نظر نيكولاس همفري قد تكون لها وجاهتها عندما قال لك " لقد كسبت المعركة بالفعل". ثمة برهان موجز من إحدى الحكايات: حضرت حفل عشاء في عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة كان مزحما تماما بأناس أنفقوا سنوات دراستهم الجامعية - وفي بعض الحالات دراساتهم العليا - وهم يتخذون في نظرية ما بعد الحداثة. وكان هؤلاء جميعا أناس مثلي قد أقسموا في أوائل العشرينيات من عمرهم يمين الولاء لبودريارد، وديريدا، وفوكو، وجيمسون، وغيرهم. (كان عدد منهم ممن درسوا معي علم الدلالات كمادة رئيسية في كلية براون). إذا كنا قد درسنا أي مقررات علمية في تلك الأيام فقد كان ذلك بشكل رئيسي بهدف تفكيك ما يكمن فيها من "نموذج أساسي (الباراديم) للبحث"، أو من أجل الكشف عن أي مما يوجد من نزعات "وسطية" تكمن وراء النص العلمي ومزاعمه الوهمية عن الحقيقة الإمبريقية.

على أن ما أدهشني في أثناء العشاء هو الطريقة السهلة التي انجرف بها الحوار - دون أي دفع مني - إلى المجال نفسه بالضبط الذي وصفته أنت في "الإنسانيون الجدد"، والذي يتركز في غالبه حول قضايا المخ. دعني أذكرك أنه ما من أحد من هؤلاء الناس قد عاد إلى ما درسه في الجامعة من علم الأعصاب، وإنما كان من الواضح أنهم جميعا مفتونون ومتمكنون من آخر ما ظهر من أنباء علوم المخ. وتحدثوا عرضا عن الناقلات العصبية و"النزعات العقلية الأخرى"؛ وكانوا يركنون عن طيب خاطر إلى ما تقدمه السيكلولوجيا التطورية من تفسيرات للسلوك الذي يناقشونه؛ وتحدثوا عن دور "الموقف الميتافيزيقي" في تطور الإيمان بالعقائد. وهم في أثناء الحديث كله لم يتركوا جانبا أي استشهاد أو نسبة للغير. لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في أنه لو حدث وأجرى أي منهم نقاشا مشابها منذ عشرة أعوام أو عشرين عام، فإنه كان سيلقي به خارج الغرفة.

(٣٩) ستيفن جونسون مؤسس مجلة ويب الرائدة المسماة "فيد" وموقع ويب للجوائز Plastic. com. ومؤلف كتابي "الانفتاح" وثقافة واجهة التعامل". (واجهة التعامل في لغة الكمبيوتر هي نقطة الاتصال والتفاعل بين عتاد الكمبيوتر والبرمجيات والمستخدم. المترجم)

لا أعتقد أن نظرتي العامة لهذا العشاء نظرة فيها ليس. يبدو لي أن أهم أبحاث مثيرة للاهتمام في الحاضر هي تلك التي تحاول التفسير بين العالمين، والتي تبحث عن أوجه الاتصال بدلا من أوجه الانفصال. أعتقد أن ما يطرحه إ. أو. ويلسون في كتابه "التوافق" هو: ليس إلحاق الإنسانيات بالعلوم وإنما نوع من بناء جسر من المفاهيم. والحقيقة أني أود أن أقول إن معظم الأبحاث التوافقية الآن ينتجها أناس درسوا كنفاد ثقافيين، كما في كتب مثل، "حياة النبات والرغبة" لمايكل بولان، مع ما فيه من مزج بين نيتشه وريتشارد دوكنز، أو كتاب "ألف سنة من التاريخ اللاخطي" لمانويل دي لاداء، بما فيه من توليف فريد بين ويلوز ونظرية الشواش.

أظن أنه سيلزم بناء جسور أخرى في السنوات القادمة، إلا أن حركة المرور فوق هذه الجسور يجب أن تكون في الاتجاهين حتى تكون التفاعلات مثمرة. من الواضح أن أتباع ما بعد الحداثة قد صدر عنهم ضجيج كثير وهم يحقرون من مزاعم العلم الإمبريقية، ولكن حتى لو ضبطنا المفاتيح ليتوقف وصول الكثير من هذا الكلام المنمق إلى الأذان، إلا أن هناك إلى حد ما البعض من تراث البنيوية وما بعد البنيوية مما يشترك في تعشق مع التطورات الجديدة في العلم. سأذكر هنا بعض أمثلة قليلة لا غير: المقدمات المنطقية التي في الأساس من التفكيكية - التي تقول إن منظوماتنا الفكرية هي أساسا مما يتشكل ويتحدد بواسطة بنية اللغة - هذه المقدمات لها صداها في فصول كثيرة من كتاب مثل كتاب "غريزة اللغة". (حاولت إقناع بينكر بهذا عندما أجريت معه لقاء منذ سنوات في موقع مجلة "فيد"). تفترض ما بعد الحداثة وجود "إنشاء للواقع" وهذا فرض يتمشى جيدا مع فكرة الوعي كنوع من مسرح اصطناعي وليس كإدراك مباشر للأشياء في حد ذاتها. علم الدلالات هو والبنيوية معا قد بدأ ببحث أجراه ليفي - شتراوس في الأساطير العالمية، وهو بحث من الواضح أن له صلات عميقة بمشروع السيكلوجيا التطورية.

لى سمولين: إذا كان هناك " ما يلزم أن يقدمه للمجتمع متقو الثقافة الثالثة" و"الإنسانية" و"الإنسانية الجديدة" فإنه لأمر يتجاوز كثير أن يكون مجرد وجود صلة لهم بالعلم. فهم يمثلون الطليعة من حركة ثقافية واسعة لها من قبل ممثليها فى مختلف مجالات العلوم، والعلوم الاجتماعية والإنسانيات. اعتقد أن أعمق خاصة مميزة لهذه الحركة الجديدة هى خاصة إستمولوجية، لأنها تدور حول أنواع الأسئلة التى يسألها الناس وأنواع الإجابات التى يلتبسونها. وهناك ما يدل على ذلك فى انبثاق أساليب جديدة من التفسير ترفض فكرة وجود " حقيقة نهائية " أزلية لا تدرك إلا ميتافيزيقا، وتؤيد بدلا منها وجود معتقدات أكثر عقلانية وأسهل فى التوصل إليها. يعتمد التفسير بالأسلوب القديم على الفرض بأنه توجد حقيقة أزلية لا تتغير وراء المظاهر التى تتغير دائما. هذه الحقيقة الأزلية قد تكون وجود ميتافيزيقيا، أو مبادئ للعدل والجمال، أو قد تكون القوانين النهائية للطبيعة. يرفض الأسلوب الجديد للتفسير هذه الأفكار باعتبار أنها فى النهاية لا تختلف إلا هونا عن تأملات مبهمة، حيث إن الحقيقة النهائية المزعومة غير معروفة وغير قابلة لأن تعرف. وكما أوضح سى. إس. بيرس من زمن طويل، فإن أى تفسير يرتكز على الاحتكام بوجود قوانين أزلية للطبيعة نهائية وغير متغيرة، هو تفسير لا عقلانى فى أساسه، لأنه لا يمكن أن يوجد بعده تفسير آخر للسبب فى الحفاظ على هذه القوانين بدلا من بعض قوانين أخرى. وهكذا فإنه تفسير لا يختلف منطقيا عن الاحتكام إلى عقل ميتافيزيقى.

يرفض الأسلوب الجديد للتفسير الأسطورة الأفلاطونية عن عالم أزلى للأفكار الحقيقية ويناصر فكرة أن المعرفة لا يكون لها معنى بعيدا عما يستطيع البشر إدراكه والاتفاق عليه باعتبارهم جزءا من العالم الطبيعى. وهو يرفض أيضا الأوهام المتعالية التى اعتاد العلماء حسب ما فيها أن يصوروا أنفسهم فى تأله خارج الواقع وخارج أى مجتمع، فهم يبحثون أمر كل ما هو موجود دون أن يكونوا جزءا منه. وبدلا من ذلك نجد الآن أن الكثيرين من العلماء يسعدون بأن يعتبروا أنفسهم أفرادا يعملون داخل مجتمعات من كائنات حية ويلتمسون المعرفة بالتشارك معهم فى ملاحظتهم ومناقشة أفكارهم.

وفى الوقت نفسه فإن هذا الأسلوب الجديد من التفسير يؤمن بوجود حقيقة للأشياء وأن البشر قادرون على العثور عليها. ويرفض التفسير لا غير فكرة أن الحقيقة ممكنة بسبب وجود عالم أفلاطونى متخيل من أفكار مطلقة أزلية (باعتبار أن هذه الفكرة أسطورية لاعقلانية). وبدلا من ذلك فإن هذه الحركة الجديدة تؤسس لفكرة الحقيقة وإمكانها على أساس قدرة الإنسان على أن يحاج عقليا وفى إيمان تام بالاستناد للأدلة المشتركة، وأنه إذ يفعل ذلك يكون قادرا على الوصول إلى الاتفاق. إذا تقبلنا ذلك، فإنه يعنى تقبلنا أيضا لفكرة أن العقلانية أمر موقفى وتعددى وإذا تقبلنا فكرة أن هناك أمورا ستظهر مختلفة من وجهات النظر المختلفة، فإننا بذلك نقوى من أهمية تلك الأمور التى نستطيع الاتفاق عليها.

أحد العوامل التى أسهمت فى هذا التحول الفكرى أن صورتنا عن الكون قد تغيرت تغيرا عنيفا، بطريقة تجعل البحث عن "حقيقة نهائية" أزلية أمرا غير متماسك منطقيا. تخبرنا النسبية هى ونظرية الكم أن العلم يجب أن يتأسس على كميات علاقاتية، يكون لها صلة بالعلاقات ما بين الأشياء التى فى الكون، وأنه لا إمكان للاحتكام لأى شىء متعال أو أزلى أو غير ذلك من خارج الكون، بل إن هذا حتى لا معنى له. تخبرنا الأرصاد أننا نعيش فى كون صغير السن، كون ولد منذ زمن قصير نسبيا وظل من وقتها وهو يتطور دائما. لا يمكن أن يكون هناك أى معنى واضح ممكن لوجود قوانين فيزياء أزلية إذا كان الكون نفسه لا يزيد عمره عن بلايين معدودة من السنين.

كما أن أحد مظاهر هذا التحول الفكرى هو موقفه من الاختزالية. يستطيع كل فرد أن يوافق على أنه عندما يكون شىء ما مصنوعا من عدة أجزاء فإن من المفيد أن نشرحه بلغة من أجزائه. هذا جميل، ولكن المشكلة هى أن هناك قيد طبيعى للمدى الذى يمكن لنا به أن ننطلق فى هذا التفسير الاختزالى. الاختزالية عندما تتجح، لابد من أن تودى إلى تفسير بلغة من بعض مجموعة من الجسيمات والقوى الأولية. ولكن ستكون هناك عندها مشكلة، لأنه إذا كانت الجسيمات الأولية أساسية حقا، فإن خواصها لا يمكن تفسيرها بمزيد من الاحتكام للاختزالية. وبالتالي

فان هناك سؤالاً يقول "ولماذا هذه الجسيمات والقوانين الأساسية وليس غيرها؟" ويجب أن تتم الإجابة عن هذا السؤال ببعض طريقة لا تكون هي نفسها اختزالية. إذا كنا نريد حقاً فهمنا عقلاً للسبب في أن الأمور هي على ما هي عليه وليست على حال آخر، يجب أن نتبع مسار الاختزالية حتى نستبسط ما تكونه الأجزاء الأساسية، وبعدها، يجب أن نجد أساليب جديدة للتفسير لا تكون اختزالية.

ما إن يصل أحد العلوم إلى الحد الذي لا يمكن عنده أن تأخذنا، الاختزالية البسيطة لما هو أبعد منه، حتى يصبح لدينا ثلاث حركات نستطيع القيام بها. الأولى هي أن ننكر وجود أى أزمة في الاختزالية ونواصل بحثاً مبنوساً عن الحقيقة النهائية الأزلية. ولسوء الحظ فإن هذه هي الخاصية المميزة لبعض الأبحاث الحديثة في الفيزياء الأساسية، وإن لم يكن ذلك بأى حال في الفيزياء كلها. الفيزيائيون الذين يضعون أنفسهم في انحياز مع تفسير "العوالم الكثيرة" حسب ميكانيكا الكم أو تفسير "التضخم الأزل"، أو الذين يعتقدون أن الفيزياء النظرية على وشك أن تنتهى باكتشاف "نظرية (إم)"، هؤلاء جميعاً يعملون بناء على ما يمكن تسميته بأنه الحنين الماضوى إلى المطلق. وهناك حركات مماثلة من الحنين للماضى فى مجالات أخرى.

الاستجابة الثانية هي ما يمكن أن يسمى بحركة ما بعد الحداثة. ويبدأ ذلك بإنكار فائدة الاختزالية وكذلك إنكار أهمية أى فهم عقلى بالمرّة. وينادى بأن الحقيقة ليست إلا بناءية اجتماعية. ويتم اعتناق نسبية مطلقة. وهذا أسوأ حتى من استجابة الحنين للماضى، لأنه يقوض من صميم أسباب الأزمة ويتركنا معلقين فى ضباب عقيم، لا نستطيع من خلاله أن نتذكر حتى كيف أن التفكير العقلى ظل مفيداً فى تحسين عالمنا سياسياً، وعلمياً، وإنسانياً.

على أن هناك استجابة ثالثة تقدمية لأزمة البحث عن الحقيقة النهائية. وهى تقبل ما فى الاختزالية من أوجه قوة ومن قيود؛ وتبحث فى الانطلاق إلى ما يتجاوزها للوصول إلى نوع من التفسير الأشمل والأقوى. هناك مثل لهذه النظرية ينتمى إلى النموذج الأساسى (مثل باراديمي) وهو التطور بالانتخاب الطبيعى: وهو

يتسق مع الاختزالية وإن كان يتسامى عليها بكونه نهائيا تاريخيا ويتيح للسببية أن تتطلق في الاتجاهين معا؛ من الأكثر تركبا إلى الأقل وبالعكس. التطور بالانتخاب الطبيعي يضيف نظاما على التنظيم الذاتى بدلا من أن يكون هناك وضع تصميم من الخارج، وهو بذلك يطرح أسلوب فهم عقلانيا فى جوهره، أسلوب فهم يتجنب أى احتكام مبهم لأسباب نهائية للأمر.

إحدى الخصائص المميزة الأخرى لهذه التفسيرات المتتورة أنها يمكن تطبيقها على منظومات بأسرها، تحوى معا أمرين هما: كل أسبابها وكل ملاحظتها. تتضمن هذه المنظومات الكاملة الكون، والمجتمعات، والإيكولوجيات. بمعنى أنه لا توجد وجهة نظر مفيدة من خارج المنظومة؛ وبدلا من ذلك فإن التوصيف والتفسير كلاهما معا تعدديان وعقلانيان، لأنهما ينبغى أن يأخذا فى الحسبان أن أى ملاحظ آخر قد يكون له موقعه داخل المنظومة. وبدلا من إنكار الموضوعية فإن هذا النوع من طريقة التناول يعقلنها، بأن يجذر الموضوعية فيما قد يلاحظ من وجهات نظر كثيرة متميزة بدلا من إحكام ملغز "حقيقة نهائية" أو لوجهة نظر متخيلة من خارج المنظومة. وهذا يجعل ممكنا أن يوجد أمران معا، العلم - أى المعرفة دون احتكام لسلطة - والديمقراطية فى مجتمع تعددى له أعراق متعددة.

يعد هذا النوع الجديد من التفسير خاصية مميزة للكثير من البيولوجيا الحديثة، وكذلك أيضا لطرائق التناول الحديثة للنظم المركبة ذاتية التنظيم سواء كانت اقتصادية، أو اجتماعية، أو فيزيائية أو بيولوجية. تنتمى إلى هذه الفئة أيضا طرائق التناول الجديدة لأسس ميكانيكا الكم التى تسمى نظرية الكم العلائقية، وطرائق التناول الجديدة للتفسير فى علم الكون، مثل الانتخاب الطبيعي الكونى، وفكرة ما يقبل الملاحظة داخليا، وكونيات سرعة الضوء المتغيرة.

أعتقد أن ما أسماه جون "الثقافة الثالثة" و"الإنسانية الجديدة" يتجذر نهائيا فى هذه الطريقة العلائقية التعددية لتناول المعرفة. إلا أن الحد الفاصل ما بين أساليب الفكر القديمة التى تلتمس المطلقات وطريقة التناول الحديثة التعددية والعلائقية لا يمتد بوضوح بين العلوم والإنسانيات. الكثير من الخلافات الرئيسية

التي تبعث الآن الحيوية في العلم هي خلاقات تدور بين متخصصين تضعهم نزعاتهم الفلسفية على كل من جانبي الحد الفاصل. هذا الحد الفاصل الأكبر ينعكس بوضوح في الخلاقات بين نظرية ميكانيكا الكم عن "العوامل الكثيرة" وبين طرق التناول العلاقية لها، أو بين منظري الأوتار ومنظري الجاذبية الكمومية الحلقية. وهو ينعكس أيضا في الخلاقات في نظرية التطور حول مستوى وميكانيزمات الانتخاب الطبيعي، والخلاقات بين علماء الكمبيوتر فيما يختص بإمكان وجود ذكاء اصطناعي قوى. وهناك في نفس الوقت فنانون، وفلاسفة، وباحثون، ومعماريون، ومنظرون قانونيون كلهم يدور عملهم حول استكشاف دلالات الموقف الجديد تجاه المعرفة. ومن بين هؤلاء منظرون قانونيون مثل روبرتو يونجر ودورسيلا كورنيل وفنانون وكتاب متباينون مثل بريان اينو وبيكو آير.

وأخيرا لابد من ذكر أن ما أسميته بأنه طريقة تتناول جديدة للمعرفة، إنما هي طريقة توجد لها جذور قديمة جدا. كان لينز فيلسوف القرن السابع عشر متبها تماما لأن العالم منظومة من العلاقات، كما أن البراجماتيين الأمريكيين (مثل بيرس) كانوا من قبل منذ قرن كامل يواجهون تضمينات الداروينية بشأن الإستمولوجيا والفلسفة عموما. (بل إن الحقيقة أن أبسط طريقة لتفرقة الإنسانين القدامى عن الإنسانين الجدد هي أن نسأل عما إذا كانت كتاباتهم يبدو فيها وعى بالطريقة التي يؤدي بها التطور الدارويني إلى أن يغير جذريا من خلفية أداء الأبحاث الجديدة في الفلسفة). إلا أن نظرة لينز عن العالم أهملت إلى حد كبير لصالح مناصرة الفيزياء النيوتونية، ثم أعيد إحياء هذه النظرة في القرن العشرين، وفي الوقت نفسه لم يكن لدى البراجماتيين نفوذ كالتفكيكيين في المجتمع الأكاديمي الأمريكي. عندما يحدث أن يعتنق طلبة الدراسات العليا الإنسانية مبادئ بيرس وديوى بدلا من فوكيه وديريدا، وعندما يقرأون دراوين بدلا من هيجل، عندها سيمكننا القول بأن الإنسانية الجديدة قد وصلت سن الرشد.

دوجلاس روشكوف^(٤٠) أخذت أفكر لاحقا في التأثيرات الباقية للحدث والعلم فى الخطاب العقائدى. ربما يعتقد بعض المنظرين الثقافيين أننا فى عصر "بعد - ما بعد الحدث"، إلا أن رجال اللاهوت عندنا مازالو يتجادلون مع ديكارت وكوبرنيكوس وداروين وفرويد. أعمق تأثير للحدث أننا ما عدنا نستطيع بعد أن نؤسس سلطة العهد القديم والجديد على التاريخ؛ فالواقع العلمى يفند أساطيرنا وغيبياتها. ها نحن نفقد ما منحته لنا من مطلقاتنا وحسنا باليقين.

هكذا انطلقت مسيرة أتباع ما بعد الحدث، ابتداء من جيمس جويس ووصولاً إلى "محطة تليفزيون الموسيقى MTV"، وهؤلاء الأتباع يتعلمون أداء الأدوار فى بيت المرايا، حيث يشكلون تراكيباً وأداءً عن العالم تتجم عن النسبويات. وهى هكذا تجعلنا لا نحس بشبح كامل (وإنما نحس وكأنها مشروب خفيف أقل كثيراً من وجبة البلبلة الساخنة التى تجعل المرء يحس فعلاً بالامتلاء). حاولنا نحن منظرى الثقافة أن نخرج بمعنى من هذا العالم من المرجعيات الذاتية، وكأن للأمر أهمية. كان ما انتهينا إليه هو ثقافة من الفكاهات الداخلية، والسخريات، والانعزال. أصبح الانعزال يعتبر "بروداً"، ثم حل مكان "البرود" نفسه الموضوعاتية. وهكذا ينطلق كل فتياننا هنا وهناك وهم يحاكون نماذج من كتالوج كالفن كلاين، متخذين الأوضاع فى حياتهم لالتقاط الصور، وكأن الإنجاز الأعلى للبشرية هو أن نلتقط للمرء صورة فوتوغرافية. فمظهر المرء فى أحد الإعلانات الإعلامية أو على لوحة إعلانات يمكن أن يحول هذا الشخص إلى مطلق، علامة قياس يحدد الآخرون مقياسهم هم أنفسهم بالمقارنة إزاءها.

ولكنى أعتقد أن كل هذا "المعرض لثقافة الغرور النافه"، ابتداء من جون ديديون أو توم وولف وانتهاء بدافيد سيداريس أو ديف إيجرز، قد وصل لمنتهى مجراه. أصبحنا نحس بالسقم من العيش فى خواء ومن أن نناضل لنبقى منعزلين. لم يعد ممعناً أن نقرأ مجلات فيها حشد من أناس يتكفون المعرفة وقد أصاب

(٤٠) دوجلاس روشكوف أستاذ ثقافة الإعلام فى جامعة نيويورك، فى برنامج الاتصالات البعيدة التفاعلية. وهو مؤلف "السبيريا" و"فيروس وسائل الإعلام" و"الإكراه" وحديثاً جداً "لا شىء مقدس".

نظرهم الحول. أدركنا أن الانعزال جائزة للبلاهة. نحن نود أن نشارك في أمور الحياة بطريقة لها معناها. ثم يدخل العلم. ويأتى معه روع برئ طيب من الطراز القديم. العلم ليس بالقوة التى تفسد طبيعتنا، إنه انشدها بذهن مفتوح يعود بنا للطبيعة. هاهو يرحب بعودته مقتحما لتلك الثقافة النرجسية، لأننا أخيرا قد تعبنا بما فيه الكفاية من أنفسنا تعبنا يجعلنا نهتم بأى شىء حقيقى. إننا نتحرق شوقا للانطلاق من ادعاءاتنا الطنانة ونحن فى أوضاع التصوير، وشوقا لأن نستسلم لذلك الإحساس الذى يحس به الفتية وهم فى مركز إبيكوت للعلوم أو فى عرض القبة السماوية. يتدلى الفكأن، وتتسع العينان، ويفتح العقل.

بيت هت: ^(٤١) أتوقع أنا أيضا أن العلم سيتمكن من معالجة أى جانب من الحقيقة، فى الوقت المناسب. المشكلة الوحيدة هى أن ليس لدينا الكثير من الأفكار عما سيبدو عليه علم المستقبل هذا. ويعنى هذا أن فى وسعنا أن نفخر بمنهج العلم والنتائج التى حصلنا عليها حتى الآن، إلا أن من الأفضل لنا أن نكون متواضعين بشأن ما يزعم من أن نتائجنا الحالية تكاد تصف العالم كما هو عليه حقيقة". هناك اتجاهان اثنان يمكن الحاجة بهما بالنسبة لهذا الموقف.

١ - حاجة من الماضى: هل نذكر كيف كان الكثيرون من قادة الفيزياء واثقين من أنفسهم قرب نهاية القرن التاسع عشر؟ بدا وقتها أن الفيزياء الأساسية قد اكتملت تقريبا، ثم وفدت فجأ نظريتا النسبية وميكانيكا الكم، لطرحا فهما للحقيقة الفيزيائية مختلفا اختلافا هائلا. مازلنا اليوم نبدى إعجابنا بالإسهامات العظيمة التى أسهم بها أناس مثل ماكسويل وكلفن، ولكننا قد أهملنا تماما تصورهم لما يكونه العالم حقا.

٢ - حاجة من المستقبل: هيا نتصور أننا نعيش فى سنة ١٠٠٠٠٠ (هذا فى صورة متفائلة حيث الحضارة لا تدمر نفسها تدميرا كاملا). هل يكون من المعقول حقا أن سنخبرنا كتب التاريخ وقتها بأن العلم قد تنامى فى خمسمائة سنة، من جاليليو ١٦٠٠ حتى سنة ٢١٠٠، عندما تم فهم بنية الحقيقة، فى حين أن باقى السنوات بقت مجرد ٩٧٩٠٠ سنة من الهوامش؟ أجد أن هذا أمر يصعب أقصى الصعوبة تصديقه. أرى أن الأرجح هو أننا سنواصل رؤية أن "يتدلى الفكأن، وتتسع العينان، وتتفتح العقول"، ولن يكون هذا فحسب فى عروض العلم الجماهيرية وإنما أيضا فى اللب من الجبهة الأمامية للعلم.

(٤١) بيت هت؛ أستاذ دراسات المناهج البيئية فى معهد الدراسات المتقدمة فى برينستون، وهو عضو مؤسس لمعهد كيرا، وهذا المعهد مكون من مجموعة من علماء المنهج البيئي يلتصقون نظره للعالم فى القرن الحادى والعشرين تحترم العلم الحديث ويكون فيها متسع له وتتأسس على الخبرة البشرية. ومن بين أنشطة المعهد مدرسة لدراسة صيفية سنوية للطلبة المتقدمين فى العلوم والمجالات التى لها علاقة بها مثل الفلسفة، والتاريخ، وسوسولوجيا العلم.

هذا هو السبب فى أنى لا أتوقع أن يستطيع العلم أن يزودنا فى وقت سريع ببديل فعال صحيح بنظرة كاملة عن العالم. وسواء كنا نبحث عن رأى أخلاقى عن العالم، أو رأى إنسانى، أو عقيدى، أو روحانى، بما فى ذلك وجودنا، فإن الأمر فحسب أن العلم لم تمتد آفاقه بما يكفى لتناول هذا المبحث. سيكون المعقول أكثر أن نستخدم المنهج العلمى لغربلة المعرفة التى انحدرت علينا خلال العصور، حتى نحاول عزل ما يوجد من دوجما وزخارف ثقافية محددة، بينما نلقى الأضواء الكاشفة على ما يبدو أنه تأسس فى معظمه على أبحاث إمبريقية.

كل ما سيتم الكشف عنه بواسطة أدواتنا، فى سنة ٥٢٠٠٣ مثلا، ينطبق بالفعل على العالم الحقيقى. سيكون السؤال هو التالى، لو فكرنا فيما يكون الأفضل لعام ٥٢٠٠٣، هل ستعتبر معارفنا العلمية الحالية مفيدة فى أن تقود شئون حياة كاملة على نحو أفضل من وجهات نظرنا العقيدية والروحانية؟ لو أجرينا عملية تقطير تستقطر من هذه الوجهات للنظر ما يكون قريبا أوثق القرب من التتبصرات التجريبية فى العقل البشرى، فإن ما أخمنه هو أن وجهات النظر هذه ستوفر لنا الأدوات الأكثر فائدة وذلك لبضع قرون كاملة مما سيلى.

مارك د. هاويزر: قرأت "الإنسانيون الجدد" باهتمام، ولكنى أعتقد فعلا أنك رسمت صورة كاريكاتيرية للعلماء والإنسانيين معا. لقد أقنعت نفسك بطريقة ما، بأن أهداف الإنسانيين ينبغي أن تتحازز بأكثر، انحيازاً وثيقاً لأهداف العلم. أعتقد أن هذا خطأ أعتقد أن المشكلة فى مقالك أنك وأنت تحاول إقامة الحجة على أن العلماء قد التهموا لأنفسهم المراتب التى طالما شغلها الإنسانيون، فإنك بذلك قد أضفيت الغموض بالفعل على قضيتين مهمتين.

النقطة المهمة الأولى تختص بما ينبغي أن يعرفه عن العالم أى مثقف يحترم نفسه. أنت تحتاج بما أتفق عليه معك، بأن المرء لا يستطيع أن يكون عضوا متعلما من نوع "الهوموسابينز" إلا إذا كان له معرفة بالعلوم. وما فعله الإنسانيون الجدد كما تسميهم، أنهم فتحوا الباب على بعض أغاز العلم بأن أتاحوا وصول هذه المعلومات للجمهور. لاشك أن من الجيد أن نجعل المعلومات متاحة. على أن أحدهم قد بحاجة، كما فعلت أنا أحيانا، بأن بعض المعلومات التى نشرت بواسطة العلماء تم نشرها بطريقة يكاد يكون فيها عدم إحساس بالمسؤولية على نحو ضار. ولكن هذه قصة أخرى. إذا عدنا إلى النقطة الرئيسية، فإنى أوافق بالكامل على أن المرء عندما يظل بكل أسف باقيا على جهله فى العلوم فإنه سيظل باقيا فى أحط مراتب الحياة الثقافية. على أننا يمكننا، بما يساوى ذلك، أن نتهم الكثير من العلماء بأنهم يظلون بكل أسف باقين على جهلهم بالإنسانيات. كثيرا ما أحس بالصدمة والرعب من العلماء الذين لم يقرأوا قط بعض الكلاسيكيات الأدبية، أو الذين لا يعرفون إلا القليل من التاريخ، أو يواصلون تجاهل تبصرات الفلسفة. نستطيع أن نوجه إصبع الاتهام فى الاتجاهين معا.

يأتى بنا هذا إلى النقطة الثانية، التى تدمج لسوء الحظ بالنقطة الأولى. أنت تطرح فيما يبدو أن الإنسانيات يجب أن يكون لها الأهداف نفسها، أو على الأقل أهداف مماثلة كما للعلم. وأنت تمتدح الإنسانيين الذين يفكرون مثل العلماء وتلوح منذرا بإصبع المدرس الصارم لمن لا يفعل ذلك منهم. الإنسانيات تستطيع وينبغي أن يكون لها أهداف مختلفة. ولناخذ الفلسفة مثلا. على الرغم من أننى شخصيا لـ

انجذاب شديد للفلاسفة الإمبريقيين مثل دينيت، وفودور، وبلوك، وسنيتش، وسوبر، فإننى أستمتع أيضا بقراءة بحث فى فلسفة الأخلاق يتلاعب بالمآزق الأخلاقية المثيرة للاهتمام (الفانتازيا)، وبحث فى فلسفة اللغة يطرح ما يثير الاهتمام فى التواءات المعنى واستعارة المجاز، وبحث فى فلسفة العقل يشغل المرء فحسب ليفكر فى أمر العوالم الممكنة. الكثير من هذه المناقشات الفلسفية يتجاهل بوضوح الأبحاث الإمبريقية، لأن هذه ليست المهمة الأساسية هنا. أعتقد أن هذا ليس سيئا بأى حال. إنه أمر صحى.

هناك مجال متسع لأن يؤدى العلماء مهمتهم، وأن يؤدى الإنسانىون مهمتهم، ولأن تنشأ تفاعلات خصبة ما بين الاثنين. وأنا أوافق على أن أكثر الأراضى خصوبة تكون عند منطقة الواجهة البيئية للوسطين، على أن هذه مسألة تذوق!

ثم هناك نقطتان أصغر.

١ - أنت تزعم أن العلم نظام مفتوح. أعتقد أنك فى هذا على خطأ كبير جدا. هناك قيود على العلم لها قدرها. وعلى الرغم من أن العلم قد "يتحرك للأمام" جيدا، فإنه كثيرا ما تقيد النماذج الأساسية المهيمنة وكثيرا ما يهيمن عليه أفراد لهم بوجه خاص سلطانهم. كما أن هناك أيضا قيودا أخلاقية كما دل على ذلك مؤخرا تلك المناقشات الساخنة حول استخدام المعلومات من مشروع الجينوم البشرى لاستكشاف القضايا (الطب - بيولوجية) التى لها علاقة بالخلفية العرقية.

٢ - عن العلم والمعلومات والكميات. المفارقة الواردة عن قانون مور مفارقة فاشلة فيما أرى. لم أسمع أبدا أى عالم يتكلم عن كمية المعلومات. هناك الآن بكل تأكيد عدد من الدوريات يزيد عن أى وقت فى الماضى، ولكننا نشكو من الجهد فى ملاحظتها. ولكنى أفضل أن أنظر إلى تغير العلم باعتباره دالة لأفكار راديكالية جديدة تفتح الأبواب للنظر فى المشاكل بطرائق جديدة مثيرة، بما يتنافى مع مجرد اكتساب لمعلومات جديدة. كل تحول إلى نموذج أساسى جديد

يغير فى قواعد اللعبة. من المؤكد أن هناك تزايدا فى المعلومات. ولكنها معلومات جديدة تسترشد بالنموذج الأساسى الجديد الذى أصبح مثيرا للاهتمام. عندما أضاء لنا داروين برق صاعقه الحدسية، جعل الناس يدورون على أنفسهم وأدى بهم إلى أن ينظروا إلى المشاكل فى ضوء جديد. نعم، أدى هذا إلى مزيد من المعلومات، ولكن الكمية هنا لم تكن هى القضية. وبالمثل، فإن نعوم شومسكى عندما أضاء لنا ببرق صاعقه الحدسية بنية اللغة، فإن هذا ولد كما هائلا من مجموعات البيانات عن أوجه التماثل بين اللغات. ولكنه وفر أيضا بصورة نقدية طريقة جديدة للبحث فى المعلومات الجديدة؛ ومرة أخرى لم تكن الكمية هى القضية.

ميهاى، سيكزنتميهالى: (٤٢) جون، أنا أشاركك بالفعل فى نفاذ صبرى نفاذا يكاد يكون نكدا فيما يختص بما يوافق عليه كمنح دراسية فى الإنسانيات والعلوم الاجتماعية. لا يعد من المناظر الجميلة ما نراه فى هذا الأمر من انعزال عن سائر العالم، وتأمل بلا فعل، وتأرجحات حسب هوس ما يسود من الصرعات، وما يوجد من الزمر الحميمة بالاستيلاء الداخلى. ولكن هل يرجع هذا الموقف إلى انحراف الإنسانين، أو أنه مرض مؤقت حدث الآن فى التو ليصيب الإنسانيات؟ أنت فيما يبدو تلقى باللوم غالبا على الأفراد المشاركين، فى حين أنى كنت آمل أن تكون المشكلة قابعة فى الطريقة التى مورست بها الإنسانيات فى الأجيال المعودة الماضية.

المهمة التى توكل للعلوم هى أن تستكشف، وتكشف، وتخلق طرائق جديدة للنظر إلى العالم وطرائق جديدة للتحكم فى العمليات الفيزيائية. بعض هذه الطرائق سيكون مفيدا للبشرية؛ إلا أن بعضها قد يكون فيه هلاكنا، مثل الفضلات النووية، وغازات بيت النباتات (الصوبة) والتغيرات الوراثية. ولكن حيث إن كل ثقافة تنزع (أولا، وثانيا، وثالثا...) إلى الهيمنة، وتعلو من قيمة الدوجما، فإننا لهذا السبب لابد من أن ندعى أن العلم نعمة خالصة. وفى الوقت نفسه، فإن من الحقيقى كما نقول، أن متابعة العلم هو والتكنولوجيا، ابنته الجنسية فيها متعة كثيرة لمن يشاركون فى المطاردة.

أما الإنسانيات، فنحن نتوقع منها شيئا مختلفا. وهذا الشيء ليس بإنتاج بدع جديدة وإنما هو الانتخاب، تقييم ما يكون مهما، وله معناه (هل أتجراً لأقول معناه الخير؟) ثم بعدما تمرير الانجازات البشرية المنتخبة إلى الجيل التالى؛ ثم الجيل الذى يليه. وهكذا فإن دور الإنسانيات دور محافظ، يصنع جسرا بين الحاضر والمستقبل، مع نظرة إلى الماضى. وكما تعرف فإنه لا يمكن وجود تطور دون ميكنازم لمسح

(٤٢) ميهاى سيكزنتميهالى، الرئيس السابق لقسم علم النفس بجامعة شيكاغو، وهو الآن أستاذ كرسى دافيد سون للإدارة فى جامعة كليرمونت. وهو مؤلف كتب "التدفق" و"العثور على التدفق" و"الذات المتطورة" و"الإبداع" و"تجاوز الملل والتلق"، و"الأشغال المالية البارة".

يفرز البدع الجديدة التى تحسن الحياة عن البدع الأدنى: إنتاج الجديد وحده لا يؤدي إلى تغير تكيفي. المساعدة على هذه العملية ينبغي أن تكون دور الإنسانية.

لاشك في أن الإنسانية عموما قد تخلت عن هذه المهمة. لماذا؟ يوجد بكل تأكيد أسباب كثيرة، إلا أن أحد الأسباب الرئيسية هو أن المعايير نفسها التي تجعل للعلم معناه قد طبقت على الإنسانية. مساعدو الأساتذة في الفلسفة أو الإنجليزية يتم التعاقد معهم وترقيتهم على أساس "أصالة" إسهاماتهم، وهذا أمر يجبرهم على أن ينتجوا ما يعد دائما أنه الأطراف من بدع جديدة بدلا من أن يمعنوا التفكير فيما هو قيم ودائم. لا يكافأ الباحثون الشبان على أنهم إنسانيون بارعون وإنما يكافئون لتطبيقهم طريقة تناول حسب مبدأ "استكشاف، اكتشاف، خلق" يطبقونها على النصوص في محاكاة سطحية للعلوم. إذا كان هناك لوم نخص به شيئا، فهو أن نلوم ما حدث مؤخرا من نجاح للعلوم ساعد على تآكل تفرد الإنسانية.

مجالات الإنسانية أصبحت واقعة في مشكلة. إلا أن التمييز بين "العلماء" و"الإنسانيين" يجرى بدرجة أقل من التمييز بين البنى المؤسسية ونظم العائد الاجتماعي التي يعمل من داخلها أفراد الجماعتين. وكما سجلت أنت يوجد الآن إنسانيون يفكرون مثل العلماء. ولعل من الحقيقي أيضا أن عدد العلماء ذوي النزعة المحلية في نظرتهم، والذين يتجاهلون الدلالات الطويلة المدى لأبحاثهم، ويزدرون أي واحد خارج دائرتهم، عددهم هذا هو على الأقل كبير مثل عدد الإنسانيين الجهوليين. والفرق هو أن العلماء يؤدون مهنة تضعها الأغلبية موضع التقدير، بينما الإنسانيون ليسوا كذلك.

الحل الذي أطرحه لهذه المشكلة هو حل مضاد في بعض سبله لحلك أنت: تحتاج الإنسانية إلى أن نعيد اكتشاف مهمتها الحقيقية وأن نتمسك بها. هذا ولا شك يعنى بالفعل أن الإنسانى حتى يقيم، وينتخب، ويمرر المعرفة القيمة، عليه أن يكون له دراية بمنتجات العلم وأن يفهم دلالاتها. ربما لم يعد ممكنا بعد للفنان أن يكون في الجبهة الأمامية للعلم بمثل ما كان عليه ليوناردو، ولكن انعزال كلا المعسكرين أمر يجب أن يقل حجمه. عندما يكون هناك ذخيرة معرفية مشتركة، يستطيع المسعيان عندها أن يواصلوا السير تجاه أهداف كل منهما.

دنييس دتون:^(٤٣) قد يكون من الأمور المغرية أن نعتبر أنه لا جديد في انتصار إنسانيك الجدد على الدراسات الفاسدة التي أصبحت تعد من الإنسانيات الأكاديمية في الجيل الأخير. إلا أن أطروحتك تحتاج إلى إعادة وإحكام صياغتها. وهي أطروحة تمس وترا حساسا، ليس بأقله ما في حديثك عن الطريقة التي تمت بها صياغة ومثوبة حيوات مهنية بأكملها في القرن الماضي، والطريقة التي ستنفذ بها المتابعة المنظمة للمعرفة في القرن التالي.

لن نستطيع أن نعين هدف ما يعمل "لأجله" الإنسانيون الجدد دون أن يكون لدينا بعض فكرة عما يقفون "ضده". الإنسانيات كفروع معرفة أكاديمية قد وصلت إلى طريق مسدود، خاصة في دراسات الثقافة والفنون. لو أنها كانت تحتضر، لكان ذلك سيئا بما يكفي، ولكنها صارت مصدرا عاما للإضحاك. أصبح الآن الاجتماع السنوي لجمعية اللغة الحديثة هدفا تقليديا للصحفيين الحاذقين الذين يترقبونه ليفرغوا شحنته من التعالي والسخافة، حيث تسود رطانة تثير الضحكات، وتحل التحيزات السياسية مكان البصيرة الجمالية فيما كان يسمى عادة على نحو متواضع بأنه النقد الأدبي.

هناك أسباب اجتماعية لانشقاق الإنسانيات التقليدية عن سائر الفكر المبدع المنتج، وهي أسباب مركبة. كل من يدرس في الجامعة يعرف مدى الصعوبة في محاولة جعل الطلبة يقرأون الأعمال الروائية الطويلة التي كان من المعتاد أن تكون الأجزاء المحورية من مقرر أقسام اللغة الإنجليزية والأدب. سيكون من الأسهل أن تعاد تسمية أحد المجالات بأنه "دراسات ثقافية" ليبدأ الطلبة في التفرج على الأفلام السينمائية والحلقات التلفزيونية من نوع أوبرات الصابون^(٤٤). تتطلب ضحالة مناقشات الثقافة الشعبية أن تكتسى برطانة لا يمكن اختراقها. وفي حين أنه ما من

(٤٣) دنييس دتون، فيلسوف، ومؤسس ومحرر موقع للنشر على ويب له اعتبار كبير واسم الموقع Arts & Letters Daily (يومية الفن والأدب) (aldaily.com). يدرس دتون فلسفة الفن في جامعة كانتربري في نيوزلندا، ويكتب كثيرا عن الجماليات، كما أنه محرر مجلة "القلمنة والأدب".

(٤٤) حلقات إذاعية أو تلفزيونية تأقمة فنيا وتذاع يوميا في النهار لتسلية ربات البيوت في أثناء عملهن. وتعود التسمية إلى أن شركات الصابون كانت ترفع تقديم هذه المسلسلات. (المترجم)

أحد ينكر الحاجة إلى مفردات تكنولوجية فى علم الوراثة، أو علم الأعصاب، أو الفيزياء، إلا أن الرطانة التى نلقاها فى الدراسات الثقافية الأكاديمية أصبحت كستار دخان يحجب التفكير، كالملبس المختار للإمبراطور. (٤٥)

تحاول الإنسانيات باتخاذها للرطانة أن تقلد العلوم تقليد القروود دون أن تستوعب الطبيعة الفعلية للتفكير العلمى. يرفض الإنسانيون فى جوانب أخرى رفضاً تاماً النموذج العلمى، وهم يفعلون ذلك عن وعى وبطريقة دوجمائية. أيا كان الحال، فإن النتيجة كما تقول، أن المؤسسات الأكاديمية للإنسانيات قد "همشت أنفسها بحيث لم تعد بعد داخل أى نطاق للفعل". هكذا تحولت عبارة إ. م. فورستر الشهيرة "لنتصل لا غير" وأصبحت شعاراً مضللاً للكثير من البحث الأكاديمى فى الإنسانيات. وهى مضللة لأن التفكير المفيد ينجز ما هو أكثر كثيراً من مجرد "التفكير لا غير" اتصال أى شىء بأى شىء آخر. أما فى العلم فإن صنع الصلات أمر فيه استخدام الملاحظة للكشف عن الميكانيزمات التى تتبع فى الأساس من الخبرة وتنتجها: وهذا يعنى إهمال بعض فئات من الصلات (طالع نجمى وشخصيتى) والتحليل العميق لصلات أخرى (تركيبى الوراثة ولون عيني). تتقدم العلوم باستخدام التجربة والملاحظة لتتعلم ما تكونه الصلات التى تستحق دراستها وأيها تكون دراسته بلا فائدة.

شعبية انتشار التفكير كمنهج إنسانى سببها أنها تتيح إطلاق العنان لعقلية من نوع (لنتصل لا غير). وحيث إن الصلات تكون بين الكلمات والأفكار، فإن الإنسانيات يتم صنعها هكذا فى منظومة مغلقة تكون فيها كل صلة ممكنة وصادقة، سواء كانت رمزية، أو استعارية، ومهما كانت غريبة أمرها. وهذه المنظومة تكون مغلقة بالنسبة لكل ما هو خارجى من التنظيمات أو القيود: والحقيقة أن أى شىء يكون ممكناً بالفعل. وإن قأنت مصيب عندما تقول إن الإنسانيات الأدبية أصبحت

(٤٥) إشارة إلى قصة هانز كريستيان أندرسون المشهورة عن الإمبراطور الذى خدعه محتالان زعما له أنهما سيلبسانه ثياباً لا يراها إلا الأنكياء، وسارا به عارياً والكل يخشى أن يقول ذلك حتى لا يتهم بالغباء. (المترجم)

ذاتية المرجعية: ليس فحسب بمعنى أنها ترجع دائما لتاريخها الخاص بها، وإنما لأنها أيضا لا يتم فحصها حسب أى معيار خارجى من الواقع. ومن هنا لا يقتصر الأمر على أن يتدفق الخواء (وبالتالى صنع الرطانة) وإنما يتدفق أيضا الاحتكام المممل للسلطة (تحل مراجع أسقطت أسماؤها مكان المحاجة فى البحث) والحفز على تسييس المسائل (فلنعثر على الضحية، ونحدد اسم المعتدى) من أجل إضفاء الأهمية عليها.

وفى حين تتطلق "سنوات التنظير" فى الإنسانيات وكأنها ألعاب نارية رخيصة تفرقع وتلفت الأنظار، فإن الإنسانيين الجدد عندك يطرحون فعلا وحقا إحياء الفكر المنتج المبدع لدى أى شخص يريد أن يفهم فهما أفضل طبيعة الجنس البشرى. العلم من النوع الذى تناصره يدعم كيانه على أساس واقع يوجد مستقلا: الكون الفيزيائى والبيولوجى (المتطور) بما هو عليه، مستقلا عن الإرادة البشرية، بما فى ذلك التفكير بالتمنى عند الأساتذة الإنجليز. من اللازم، حتى ونحن نتعامل مع الإنجازات التقليدية الاجتماعية والثقافية فى التاريخ البشرى، من اللازم ألا نقع فى أسر وجهة النظر "البناية الاجتماعية" عن العالم البشرى. من الحقائق التاريخية أن البشر قد وجدوا ما لا يحصى من الطرائق لبناء تنظيماتهم الاجتماعية والسياسية، وطرقا لانهائية للتعبير عن أنفسهم فنيا. ويساوى ذلك كحقيقة أن التاريخ والأنثروبولوجيا كلاهما يكشف عن وجود نزعات بشرية كلية فى المجتمعات والفنون، وأن الكشف عن هذه الكليات ليس مجرد بناء اجتماعى آخر وإنما فيه من حيث المبدأ وضع معرفى يكافئ ما يحدث من اكتشافات فى علم الفلك أو الوراثة. قد يكون إحصاء ما للإنسان من قيم ونزعات كلية أصعب من إحصاء الكواكب، ولكن هذا لا يعنى أنه بلا فائدة أو أنه مستحيل.

نعم، ثمة شئ جديد فى الجو، وذلك بعد مرور جيلين أو ثلاثة أجيال من الدراسات الإنسانية التى أوقعت نفسها إلى الأرض. وأنت تسمى هذا الشئ بأنه "بيولوجيا واقعية للعقل". هذه نظره للبشرية تأخذ أفضل ما فى الفيزياء، والكيمياء الحيوية، والأبحاث والنظريات التطورية، والوراثيات، والأنثروبولوجيا، بل وحتى الفلسفة الصارمة، إنها تتوق بشدة إلى العثور على أساس تجريبي وإمبريقي لاستنتاجاتها العامة. إنها بصراحة نظرة مثيرة. وأفضل ما فى الأمر أنها بدأت فى التو.

دانييل سى. دينيت: يسعدنى أن أنضم إلى رقصة نصر الثقافة الثالثة، وأنا أوافق على معظم ما قلته فى مقالك، ولكنى أيضا أشارك فى بعض هواجس الارتباب التى عبرت عنها وأود أن أضيف لها هواجس قليلة تخصنى.

كما يلح عليك نيك همفرى فإنك ينبغى أن تتخلى عن مخاوفك. فأنت قد فزت. أو نحن قد فزنا. وكما هو معتاد، فإن هناك خطرا من تشتت المكاسب وتجاهل بعض المشاكل التى خلفها النصر أو تسبب فى تفاقمها. وكما يلاحظ ميهالى سكرزنتميهالى، فإن الكثير من مشاكل الإنسانيات فى هذه الأيام ترجع إلى حسدها للعلم حسدا فى غير موضعه، وإلى محاولات مشبوهة لجعل الإنسانيات أكثر شبها بالعلوم الطبيعية. ومقالك كما يقول مارك هاويز يحوى بالفعل بعض صور كاريكاتورية فيها نزعة تهنتة للذات.

على عكس ما تقول، فإنه "توجد" "نظم" و"مدارس" فى العلم، هى فى كل جزء منها تقم ما تعده هرطقة بلا رحمة بما يماثل نظائرها فى الإنسانيات. يزخر العلم بما يقر بصحته من مبادئ ونصوص سلطوية لو شكك المرء فيها لتعرض لخطر وصمه بالحق أو ما هو أسوأ، وسنجد أنه إزاء كل باحث شاب فى الإنسانيات يكتب هراء صيغ فى قالب من صرعة سائدة يدور حول أحد من يتصفون بحق بالغموض من شاعر أو ناقد أو غيرهم، سنجد أنه إزاء كل شاب واحد من هؤلاء الإنسانيين هناك العديد من شباب العلماء الذين يكتبون بلا حرج فى العلم وكأنهم يكتبون وصفات للطهى، فيملكون فراغات جداول لبيانات لن يهتم أحد قط بالرجوع إليها. قيل لى إنه حسب قانون سترجيون يكون ٩٥٪ من كل شىء هراء، وفى حين أنى أميل إلى أن أعدل هذه النسبة لما يقرب من ٥٠ فى المائة (أظننى مفرط فى طيبتى) إلا أنه فى حدود ما أعرفه فإن النسبة المئوية، أيا ما تبلغه، لن تكون فى علم الأعصاب أقل كثيرا مما تكونه فى نظرية أدبية. دعنا لا نرتكب خطأ مقارنة بعض أفضل الأمثلة فى أحد الجانبين ببعض من أسوأها فى الجانب الآخر. لو اتبعنا قاعدة "هب" - بأنه إذا كان الأمر غير جدير بأدائه، فإنه غير جدير بحسن أدائه - فإنها يمكن أن تؤدى إلى استبعاد الكثيرين من العلماء من

عملهم هم وزملائهم فى الإنسانىات الذىن يؤدون أعمالا نافهة بدلا من بقائهم عاطلين.

هذا شارح باتجاهين. وكمثل، فإنه عندما يقرر العلماء "حسم" الأسئلة الصعبة فى الأخلاقيات والمغزى، فإنهم عادة ينتهون إلى أن يجعلوا أنفسهم من الحمقى، وذلك لسبب بسيط: أنهم وإن كانوا أنكباء إلا أنهم جهلة. عندما ينقق الفلاسفة الكثیر من وقتهم وجهدهم وهم يقلبون تربة تاریخ حقلم، فإن سبب ذلك أن تاریخ الفلسفة يتكون فى جزء كبير منه من "أخطاء مغوية إغواء شديدا جدا"، والطريقة الوحيدة لتجنب الوقوع فيها مرة بعد الأخرى هى أن ندرس كيف وقع المفكرون العظماء فى الماضى فى شباكها. عندما يظن العلماء أن معرفتهم العلمىة الحديثة تجعلهم محصنين ضد الأوهام التى أوقعت بأرسطو وهيوم وكانت وغيرهم فى صعوبات من هذا النوع، سيضمن هؤلاء العلماء بذلك حاجتهم لهزة عنيفة لإيقاظهم.

هوارد رينجولد: (٤٦) حيث إن الفروض العلمية يجب أن تكون قابلة للاختبار، وحيث إن أسئلة الإنسانية عندما توضع إزاء العلم يصل الأمر إلى التساؤل عن كيفية تأثير هاتين الطريقتين للمعرفة في حياتنا، لهذا فإننى أطرح اختباراً لدور الفهم العلمى فى شئون البشر: هل يستطيع العلم أن يحسن حياة معظم البشر الأحياء الآن، وكذلك حياة ورثتنا، عن طريق فهم طبيعة التعاون فهما عميقاً يماثل فهم الفيزيائيين للمادة وفهم البيولوجيين لعمليات الحياة والتطور؟

أظن أن هذا السؤال، من فوق كل الأسئلة الأخرى، إذا لم تتم الإجابة عنه سريعاً بطريقة ما، فإن كل الأسئلة الأخرى ستصبح على الأرجح بلا أهمية. بل وحتى لو اتفقنا على وفود مفردة تكنولوجية بعد عدة عقود من الآن بالنمط الذى يقول به فيرنور فينج وراى كيرزويل، فمن من بيننا الآن ليس لديه على الأقل بعض شك معقول فى أن ذكاء الماكينة سينضج بالسرعة الكافية لأن يتولى الأمور بالسرعة الكافية لأن يمنع الذكاء البشرى من أن يهزم نفسه حتى الموت بواسطة مخلوقاته هو نفسه؟

أطرح هذا السؤال كسؤال علمى وليس كسؤال فلسفى. لاريب فى أن محاولة تطبيق المناهج العلمية على الأنفس، والمجتمعات، والأسواق، والمدنيات هى محاولات أقل نجاحاً حتى وقتنا هذا من نجاح المجسات العلمية عن طبيعة الكون، والمادة، والحياة نفسها. هل يعنى هذا أن التعاون وهو العنصر الأساسى للخير الجموعى البشرى، تكون ذرته أو حمض الدنا فيه، هما لا غير أشياء مراوغة أزلماً، ربما ببعض معنى هايزنبرجى / يودلى / زنى؟ أو أن هذا يعنى أن المعرفة العلمية الحالية عن التعاون والخلاف البشرى مازالت غير وافية؟ هذا سؤال رئيسى، لأننا نعرف أن العلم تحرك بالفعل بما يتجاوز تفهماتنا العتيقة غير الوافية للعالم الفيزيقي وذلك عندما انبثقت "المناهج الجديدة" للبحث العقلانى الإمبريقي فى أبحاث ديكارت، ونيوتن، وجاليليو، وبيكون منذ قرون من السنين. هل يكون سلوك

(٤٦) هوارد رينجولد، منظر فى الاتصالات؛ من بين كتبه "المجتمع الخائلى" و"الجماهير الذكية".

الإنسان اجتماعيا أمرا يتجاوز فهم العلم، أو أن العلم ببساطة مازال غير قادر على
اللاحق به؟

ليس من الضروري أن نقدم الحجج لكل من يتابع أحداث العالم بأننا فى
حاجة ملحة لبعض طريقة جديدة فى التفكير لحل مشاكل الإبادة العرقية، وشن
الحرب، والإرهاب، والجريمة، والاعتصاب، والصراعات البشرية العنيفة من كل
المقاييس. ظل الحديث عن هذا الجانب من الطبيعة البشرية يقع تقليديا داخل نطاق
الإنسانيات. أيا ما كان الحال، هل يستطيع أى عالم أن يقول واتقا إن هذه الأسئلة
ستظل للأبد أسئلة تتجاوز نطاق البحث العلمى؟ تلكأت الأبحاث عن طبيعة المرض
طوال قرون وهى تتسكع فى خرافات ونظريات لا دعم لها. وعندما مكنتنا
البصريات والتجريب من أن نعرف نظرية الجراثيم للأمراض، أدى اكتشاف
وتطبيق المعرفة العلمية إلى التخفيف مباشرة من معاناة البشر.

هناك بعض خصائص عامة للتعاون بين الكائنات الحية عموما، والبشر
خصوصا، قد انبثقت عن تجارب بيولوجية واقتصادية استخدمت نظرية المباراة
والنظريات الاجتماعية - البيولوجية لتفسير سلوك الكائنات الحية. استخدمت
محاكيات الكمبيوتر لمأزق سجين المتاهة وغيره من مباريات المنافع الجماهيرية
كما طبقت مباريات المنافع الجماهيرية على موضوعات بشرية، وقد أخذ هذا كله
يمدنا بأول أجزاء فى حل أحجية طريقة تطور التعاون حتى وصل إلى ما هو عليه
الآن، وأهم شئ أنه يمدنا بتلميحات صغيرة عن الطريقة التى ربما سيستمر بها
تطوره فى المستقبل. أجريت دراسات اجتماعية عن الطريقة التى نجحت بها بعض
الجماعات فى تناول الموارد المشتركة، وأضاعت لنا هذه الدراسات القليل من
الخصائص العامة للجماعات المتعاونة. أثبتت الدراسات الاقتصادية الحديثة عن
التسويق "على الخط" مدى ما يوجد من قوة فى نظم خلق الشهرة. تمدنا تحاليل
الشبكة الاجتماعية، والاقتصادية التجريبية، ونظرية نظم التكيف المركبة، كلها تمدنا
بأدلة تتعلق بالأمر. أصبح تطور التعاون الاجتماعى، بمساعدة وتحريض من تطور
التكنولوجيات، موضوعا (للنظريات - الفوقية) للتطور الاجتماعى.

مازال من غير المفهوم لنا إلى حد كبير كل تلك الأحجية عن كيف أن مجموعات من أحجام مختلفة تتفق على التعاون، وعن سبب وطريقة انهيار التعاون، وكيف ينبثق الصراع، ويزداد شدة، ويحل. إلا أنه قد بدأت تتلاءم معاً أجزاء لحل الأحجية من عشرات من أفرع المعرفة المختلفة، كاشفة بذلك عن أنماط أكبر. ربما يكون جزء من عدم الفهم حالياً نابعا من طبيعة أبحاث العلم المتخصص: البيولوجيون والاقتصاديون، وعلماء النفس، والاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلماء الكمبيوتر، ومنظري المباريات، وعلماء السياسة، كلهم بدأوا حديثاً فقط يظنون أنهم يمسون بأجزاء من الأحجية نفسها. استغرق الأمر بعض الوقت حتى يدرك من يدرسون التعاون، والشهرة، والصراع حاجتهم إلى التركيب بمنهج بنى.

الفرص العملية لهذا الاختبار المقترح لقدرة العلم على أن يفعل ما حاولت الإنسانية أن تفعله طيلة قرون، فرص تعتمد على ما إذا كان أحدهم سوف ينظم الموارد ويستثير الدافع التنظيمي لبذل جهد لفهم التعاون يكون بهذا بأقوى درجة وبمنهج بنى متقاطع. لا يوجد حالياً بنية تنظيمية أو اقتصادية لدعم برنامج تعاوني دعماً مماثل لدعم برنامج أبولو، وذلك بخلاف برامج المعرفة التي قد تؤدي إلى أسلحة جديدة، أو وسائل إعلام جديدة، أو أدوية جديدة. بل وحتى مع وجود أفضل الجهود تنظيمياً وتمويلية، فإن هذا لا يمكن أن يضمن لنا وجود الإجابة، أو أن الأمر لن يستغرق قرناً لاكتشافها. قد يكون، أو لا يكون، في نتائج هذا الفشل نهاية لكل الثقافات، ولكن لو أن البحث العلمي نجح بالفعل في توضيح طبيعة وديناميات التعاون الاجتماعي، سيكون قد أثبت تفوقه كطريقة للمعرفة تستطيع أن تحسن طريقة حياة معظم الناس. شفاء الأمراض كان رائعاً. وشفاء الصراعات سيكون فيه البرهان.

كريس أندرسون:^(٤٧) أول كل شيء، فإن الفيلسوف في داخلي يعتقد أن هناك بعض بلبلية لغوية تتسرب إلى هذا النقاش. يبدو أن مارك هاوزر وميهاى سيكزنتميهاى كلاهما يجعلان لمقالك خاصة مميزة فى أنه يناصر قضية "العلماء" ضد "الإنسانيين". ولكنى أعتقد فى الحقيقة أنك تحتاج بأن علماء الثقافة الثالثة قد انضم إليهم الآن مفكرون متورون جدد من الإنسانية وأنهم والعلماء معا يستطيعون أن يزعموا لأنفسهم الحق فى مصطلح "الإنسانيين".

وبالتالى فإن لدى سؤالين.

١ - هل أنت واثق من أنك تريد استخدام مصطلح "الإنسانى" كراية نتحد تحت لوانها؟ ألقى ريتشارد دوكنز ٢٠٠٢ محاضرة خلافية فى "تيد" أشار فيها إلى أن هناك نوعا من مذهب متعصب للنوع Species - ism متأصل فى المصطلح ويسرى ضد بعض من أعمق تبصرات ثورة الثقافة الثالثة... من حيث إننا مخصصون، ولكننا نظل مجرد جزء من عملية تطورية أكبر كثيرا، ومركبة بدرجة تهول العقل كثيرا، وهذه العملية (بكلماتك أنت) مازالت فى طور مبكر. راية دوكنز المفضلة التى تتكرر الميتافيزيقا لها مشاكلها الخاصة. (لماذا نستخدم ما هو سلبي لتعريف ما هو إيجابى بعمق؟) إذا كان الهدف هو إشارة مرجعية إلى مايكل أنجلو وليوناردو دافنشى، فماذا عن "مفكرى النهضة"؟ الواقع أن هذا سيكون فيه صيغة عظيمة نتيج لك مناقشة البدائل. "عقلانى"؟ "كلى"؟ ستجد الكثير من المتاع التاريخى أينما حولت البصر.

٢ - إلى أى مدى تستطيع هذه الثورة أن تمضى دون أن يوفر "الإنسانيون" شيئا ما يحل مكان العقيدة؟ دعنا نفترض أنه سيثبت فى النهاية أن غريزة العقيدة وما يترتب عليها من سلوك جماعى عقائدى كلها تظل جزءا من نوعنا منذ بدأت

(٤٧) كريس أندرسون، تأهل كفيلسوف، وهو الرئيس والمضيف لمؤتمر تيد TED (اختصار التكنولوجيا والتسلية والتصميم) ويعقد هذا المؤتمر فى كل شهر فبراير فى مونتيرى بكاليفورنيا.

نشأة الوعي؟ سنجد عندها أن ما يفترضه بعض العلماء من أن الإطار العقلي الجديد الذى وفروه معناه أنه يمكن نبذ العقيدة، هو فرض قد يكون على درجة من الخطأ تماثل خطأ الاعتقاد الذى يكذب الآن من أن الثقافات تستطيع ببساطة أن تعيد اختراع المعايير الجنسية والأخلاقية. لعل الأمر أن معظم المجتمعات تحتاج لا غير للتعبير العقيدى كجزء من كينونة الإنسان. الأمر المثير للاهتمام أن العلم، أو على الأقل ما يكشف العلم عنه من عالم غامض يأخذ بالأنفاس، فيه إمكانية للقدرة على القيام بهذا الدور. وكما يقول دوجلاس روشكوف، "يتدلى الفكان، وتتسع العينان، ويفتح العقل" إلا أنه حتى الآن فإن هذا أمر يمارسه نمطيا الفرد وحده. لا يوجد موضع يجرى فيه احتفال جماعى بلغز كوكبنا وكوننا. الفكرة فى صميمها تبدو مثيرة للارتباك. على أنه حتى من غير الممارسة الجماعية، من الممكن أن تكون الجاذبية السيكلوجية للكنيسة والجامع والمعبد أقوى إلى حد بالغ من تلك الثورة التى تعتقد دائما أنها ستصبح أكثر من إيمان للأقلية المتتورة. يتساءل هوارد رينجولد عما إذا كان يمكن للعلم أن يحل مشكلة "التعاون". هذا سؤال مفتاح. ولكن ما هو أهم منه قد يكون التساؤل عما إذا كان يمكن للعلم بأى حال أن "يلهم" بالتعاون.

قراءات مقترحة

JOHN BROCKMAN

The Next Fifty Years: Science in the First Half of the Twenty-First Century (Vintage, 2002)

The Third Culture: Beyond the Scientific Revolution (Simon & Schuster, 1995)

RODNEY BROOKS

Flesh and Machines: How Robots Will Change Us (Pantheon Books, 2002)

ANDY CLARK

Natural-Born Cyborgs: Why Minds and Technologies Are Made to Merge (Oxford University Press, 2003)

Being There: Putting Brain, Body, and World Together Again (MIT Press, 1997)

HELENA CRONIN

The Ant and the Peacock: Altruism and Sexual Selection from Darwin to Today (Cambridge University Press, 1992)

DANIEL C. DENNETT

Freedom Evolves (Viking, 2003)

Kinds of Minds: Toward an Understanding of Consciousness (Basic Books, Science Masters series, 1996)

Darwin's Dangerous Idea: Evolution and the Meanings of Life (Simon & Schuster, 1995)

Consciousness Explained (Little, Brown, 1991)

DAVID DEUTSCH

The Fabric of Reality: The Science of Parallel Universes—and Its Implications (Penguin USA, 1998)

JARED DIAMOND

Guns, Germs, and Steel: The Fates of Human Societies (W. W. Norton, 1999)

Why Is Sex Fun? The Evolution of Human Sexuality (Basic Books, Science Masters series, 1997)

The Third Chimpanzee: The Evolution and Future of the Human Animal (HarperCollins, 1992)

DAVID GELERENTER

1939: The Lost World of the Fair (Free Press, 1999)

Machine Beauty: Elegance and the Heart of Technology (Basic Books, Master Minds series, 1998)

Drawing a Life: Surviving the Unabomber (Free Press, 1997)

The Muse in the Machine: Computerizing the Poetry of Human Thought (Free Press, 1994)

Mirror Worlds: Or the Day Software Puts the Universe in a Shoebox—How It Will Happen and What It Will Mean (Oxford University Press, 1991)

ALAN GUTH

The Inflationary Universe: The Quest for a New Theory of Cosmic Origins (Perseus, 1997)

MARC D. HAUSER

Wild Minds: What Animals Really Think (Henry Holt, 2000)

STEPHEN M. KOSSLYN

Psychology: The Brain, the Person, the World (with Robin S. Rosenberg) (Allyn & Bacon, 2000)

Image and Brain: The Resolution of the Imagery Debate (MIT Press, 1994)

Wet Mind: The New Cognitive Neuroscience (Free Press, 1992)

RAY KURZWEIL

The Age of Spiritual Machines: When Computers Exceed Human Intelligence (Viking, 1999)

The Age of Intelligent Machines (MIT Press, 1992)

JOSEPH LEDOUX

Synaptic Self: How Our Brains Become Who We Are (Viking, 2002)

The Emotional Brain: The Mysterious Underpinnings of Emotional Life
(Simon & Schuster, 1996)

MARVIN MINSKY

The Society of Mind (Simon & Schuster, 1987)

HANS MORAVEC

Robot: Mere Machine to Transcendent Mind (Oxford University Press, 1998)

Mind Children: The Future of Robot and Human Intelligence (Harvard University Press, 1988)

STEVEN PINKER

The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature (Viking, 2002)

Words and Rules: The Ingredients of Language (Basic Books, Science Masters series, 1999)

How the Mind Works (W. W. Norton, 1997)

The Language Instinct: How the Mind Creates Language (William Morrow, 1994)

MARTIN REES

Our Final Hour: A Scientist's Warning: How Terror, Error, and Environmental Disaster Threaten Humankind's Future In This Century—On Earth and Beyond (Basic Books, 2003)

Our Cosmic Habitat (Princeton University Press, 2001)

Just Six Numbers: The Deep Forces That Shape the Universe (Basic Books, Science Masters series, 1999)

Before the Beginning: Our Universe and Others (Perseus, 1997)

LEE SMOLIN

Three Roads to Quantum Gravity (Basic Books, Science Masters series, 2001)

The Life of the Cosmos (Oxford University Press, 1997)

RICHARD WRANGHAM

Demonic Males: Apes and the Origins of Human Violence (with Dale Peterson) (Houghton Mifflin, 1996)

معجم إنجليزي عربي

A	
Acre	أكر، وحدة مساحة تقارب الفدان المصري، حوالي ٢٤٠٠٠م ^٢ .
Algorithm	خوارزم (رياضة).
Allele	أليل، واحد أو أكثر من الأشكال الممكنة للجين (وراثة).
Allopathy	الطب المغاير، طريقة للمداواة باستخدام علاج يحدث آثار مختلفة عما يحدثه المرض، عكس الطب المثل.
Amplitude (wave)	سعة (الموجة)، (فيزياء).
Angular resolution	دقة التحدد الزاوى (فيزياء)
Anthropic principle	المبدأ الإنساني.
Anthropology	الأنثروبولوجيا، علم الإنسان، بحث أصل الإنسان وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته.
Asymptoting	الخط المقارب (رياضة).
ATM Automated Teller Machines.	ماكينات الصرف الأتوماتيكية، ماكينات بطاقات الائتمان.
Attractors	جوانب (فيزياء، فى نظرية الشواش).
Axon	محوار، امتداد من خلية عصبية أو عصبون يقوم فى معظم الحالات بنقل النبضات العصبية بعيدا عن الخلية.
B	
Bandwidth	سعة النطاق (كمبيوتر)، سعة الإرسال فى قناة اتصال.
Big bang	الانفجار الكبير (فيزياء كونية).
Big crunch	الانسحاق أو التقلص الكبير (فيزياء كونية).
Biodiversity	تنوع حيوى (بيولوجيا).
Biogeography	الجغرافيا البيولوجية.
Bioinformatics.	المعلوماتية البيولوجية.
Biotechnology	التكنولوجيا الحيوية، أو البيولوجية.

Bit	بتة (كمبيوتر).
Bootstrap	إجراءات تشغيل الكمبيوتر
Bosons	بوزونات، جسيمات تحت ذرية لنقل القوى الرئيسية مثل الفوتون الذي ينقل الكهرومغناطيسية (فيزياء جسيمات).
Branes	برانات، حالة في نظرية الأوتار الفائقة (فيزياء كونية).
Bulk Volume.	حجم التكتل (فيزياء كونية).
C	
CAM Computer aided manufacture	إنتاج مصنع بمساعدة الكمبيوتر.
CCD Charge-coupled devise.	جهاز الشحن المقرون (كمبيوتر)، وحدة في ذاكرة الكمبيوتر تخزن فيها المعلومات باستخدام جسيمات تدور باستمرار في خلايا مطبوعة على شبه موصل.
Cellphone	تليفون خلوي، محمول.
Cellular automat	أتمات خلوي.
Centrism	نزعة للوسط خاصة في السياسة.
Chaos (theory)	نظرية الشواش (فيزياء).
Chips	رقائق (كمبيوتر).
Closed Universe	كون مغلق (كونيات).
Compact disc	قرص مضغوط، قرص مدمج.
Compact flush	لمحة ذاكرة إلكترونية مدموجة (كمبيوتر).
Compiler	برنامج ترجمة للغة الكمبيوتر.
Computation	حوسبة.
Confocal Scanning microscope	ميكروسكوب المسح متحد البؤرة.
Connectionist theory	النظرية الوصلية (أعصاب).
Cosmic background radiation.	إشعاع الخلفية الكونية.

Cosmos	كوزموس، الكون بوصف أنه نظام نسقي متناغم.
Cost-effective	عائد تكلفة مجزى.
CPU, Central processing Unit,	وحدة المعالجة المركزية (كمبيوتر).
Critical density	الكثافة الحرجة (فيزياء كونية).
Cybernetics	السيبرنطيقية.
Cybernetic totalism	الشمولية السيبرنطيقية (معلومات).
Cyberspace	الفضاء المعلوماتي، الفضاء السيبري.
Cybersphere	المحيط المعلوماتي.
Cyborg	سيبورج، روبوت من عناصر بيولوجية وماكينائية، وله ذكاء اصطناعي راقى.
D	
Degree of freedom	درجة الحرية، درجة القدرة على التغيير (فيزياء).
Dendrites	غصون (عصبية)، فروع من الخلية العصبية تحمل النبضات العصبية من وإلى الخلية.
DNA	دنا، حامض دى أوكسى ريبو نيوكليك، وهو المكون الأساسى للجينات أو المورثات.
Download	تحميل ترحيلي، تنزيل بالترحيل (كمبيوتر)، ترحيل نسخة برنامج أو ملف من قاعدة بيانات بعيدة أو كمبيوتر آخر إلى الجهاز الطرفي الخاص بالمستخدم.
E	
Ecology	إيكولوجيا، فرع البيولوجيا الذى يدرس العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها.
Elementary Particles	الجسيمات الأساسية (فيزياء)، جسيمات تحت الذرية تتكون منها الذرة، ويفترض إنها لا تقبل الانقسام كالإلكترون والكوارك.

Empirical	إمبريقي، فى نظرية المعرفة كل معرفة تستمد من الحس أو التجربة وهذا يقابل الفطرى أو العقلى. فى مناهج البحث كل ما يعتمد على الملاحظة أو التجربة المباشرة، وهذا يقابل النظرى أو الاستنباطى.
Epistemology	إستمولوجيا، دراسة نقدية لمبادئ العلوم المختلفة وفروضها ونتائجها لتحديد منطقتها وقيمتها الموضوعية. أو هى نظرية المعرفة بوجه عام.
Entropy	إنتروپيا (فيزياء).
F	
Feminism	مذهب المساواة بين الجنسين.
Fermions	فرميونات (فيزياء)، جسيمات تحت ذرية للمادة.
File cabinet	خزانة ملفات (كمبيوتر).
Flat universe	كون مسطح (كونيات).
Fluctuations	تراوحات.
Fractals	تشكلات (كمبيوتر).
Fuzzy logic	منطق مضبيب (منطق).
G	
Glass ceiling	سقف زجاجى، حاجز يمكن الرؤية من خلاله ولكنه يعوق الحركة، بمعنى عائق وظيفى لفئات معينة، خاصة النساء.
Gluon	جلون (فيزياء جسيمات)، جسيم القوة التى تربط الكواركات معا، وهو أحد البوزونات (انظر Bosons).
Graviton	جرافيتون (فيزياء)، جسيم يفترض كموميا للطاقة فى المجال الجذبوى.
Group theory	نظرية الزمرة (رياضة) بحث خواص المجموعات.

H	
Hadrons	هادرونات (فيزياء جسيمات)، فئة من الجسيمات تحت الذرية تحس بالقوة النووية القوية.
Hard disc drive	مسير القرص الصلب (كمبيوتر).
Homeoboxes	صناديق تحديد الموقع (وراثية)، مجموعة جينات لتنظيم وضع محاور الجسم وموضع أجزائه في أثناء تنامي الجنين.
I	
Inbreeding	استيلاد داخلي (وراثية)، استيلاد بين حيوانات أو نباتات على علاقة قرابة وثيقة، بغرض الحفاظ على توريث صفات مرغوب فيها.
Inflation theory	نظرية الكون التضخمى أو الانتفاخى (فيزياء كونية).
Intentional Stance	موقف قصدى (فلسفة - علم نفس).
Isotropic	موحد الخواص.
L	
Laptop computer	كمبيوتر الحجر.
Leptons	لبتونات (فيزياء جسيمات)، فئة جسيمات خفيفة كالإلكترون والنيوترينو.
Linguistics	لسانيات - لغويات.
Loop quantum gravity theory	نظرية الجاذبية الكمومية الحلقية (فيزياء كونية).
M	
Miniaturization	تصغير منمنم.
Modem	مودم (كمبيوتر)، جهاز يستقبل مدخلات رقمية من الكمبيوتر، إلى نظام تليفونى حيث تتحول إلى ذبذبات سمعية ترسل فى حلقة إرسال، يعيد المودم تحويلها إلى مخرجات رقمية عند طرف الاستقبال.

Molecular biology	بيولوجيا جزيئية.
Momentum	كم حركي.
Monoclonal	أحادي النسيلة.
Morphology	مورفولوجيا، الدراسة البيولوجية لشكل وبنية الأحياء (الشكل).
Multiverse	كون متعدد
N	
Nano	نانو، جزء واحد من البليون.
Nanobots	نانوبوتات، روبوتات مصغرة.
Nanotechnology	نانو تكنولوجيا.
Neuron	عصبون، عصب (أعصاب)، الخلية العصبية وتفرعاتها.
Neurotransmitter	ناقل عصبى (أعصاب)، مادة كيميائية تتطلق من ليفة عصب وتمرر نبضة عصبية لعضلة أو لعصب آخر.
Neutron star	نجم نيوتروني (فيزياء فلكية).
Niche	موقع بيئي (بيولوجيا).
Nuclear decay	اضمحلال نووي (فيزياء).
Nucleotide	نيوكليوتيد، وحدة في بناء دنا.
O	
Octonions	ثمانيات (رياضة).
Open universe.	كون مفتوح (فيزياء كونية).
Optical character recognition	التمييز البصري للحروف (كمبيوتر).
P	
Paleontology	بالايونتولوجيا، علم البحث في أشكال الحياة السابقة في العصور الجيولوجية كما تمثلها الحفريات الحيوانية والنباتية.
Paradigm	نموذج أساسى، نموذج إرشادى (فلسفة، مناهج بحث).
Parameter (s)	معلمة (معلمات).

Parenting	الوالدية.
PDA, Personal Digital Assistants.	أدوات المساعدة الشخصية الرقمية (معلومات).
Pedomorphic species	نوع فيه حفاظ على صفات طفولية عند وبعد البلوغ (بيولوجيا تطورية).
Phenomenology	الظواهرية.
Phoneme	فونيم (لسانيات)، وحدة كلام صغرى تساعد على تمييز نطق لفظة عن أخرى في إحدى اللغات أو اللهجات.
Pixel	بكسل، أصغر عنصر يمكن التحكم في لونه ونصوعه في عرض فيديو أو رسوم كمبيوتر (فيزياء).
Plasticity	لدونة، مرونة.
Pleistocene age	عصر البليستوسين (جيولوجيا).
Pliocene	عصر البليوسين (جيولوجيا).
Port	منفذ (كمبيوتر)، مدخل قناة سير البيانات، نقطة اتصال أجهزة طرفية أو خارجية.
Pulsar	نجم نابض (فلك).
Punctuational equilibrium	التوازن المتقطع (في نظرية التطور).
Q	
Quantum computation	حوسبة كمومية (كمبيوتر).
Quantum gravity theory	نظرية الجاذبية الكمومية (فيزياء كونية).
Quark	كوارك (فيزياء جسيمات)، جسيم أساسى تحت نرى يكون البروتونات والنيوترونات.
Qubit	كيوبت (كمبيوتر)، بتة كمومية.

R	
RAM	رام (كمبيوتر) نوع ذاكرة.
Relational quantum theory	نظرية الكم العلاقاتية (فيزياء).
Relativism	المذهب النسبي (فلسفة) مذهب بأن قيم الحقيقة والأخلاق ليست مطلقة بل نسبية لأشخاص أو مجموعات معينة.
Reverse engineering	هندسة عكسية
S	
Semantics	دلالات الألفاظ، علم المعاني (لغويات).
Semantic memory	ذاكرة دلالية (لغويات).
Semiotics	علم دلالات العلامات والرموز في اللغة والاتصالات؛ العلامات والأعراض الطبية.
Sexism	نزعة التعصب الجنسي، التمييز بين الجنسين.
Sexual	جنسوية.
Sexuality	جنسانية.
Spin	برم، لف (فيزياء جسيمات).
Stretching	تمطط (كونيات).
String theory	نظرية الأوتار (فيزياء كونية).
Strong force	القوة القوية، الشديدة، (فيزياء جسيمات).
Supernova	سوبرنوفا (فلك). نجم متوهج محتضر.
Superstring theory	نظرية الأوتار الفائقة، (فيزياء كونية).
Supersymmetry	سيمترية فائقة (فيزياء كونية).
Synapse	مشبك (أعصاب)، موضع اتصال متشابك بين خليتين عصبيتين، لتمرير النبضات العصبية بينهما.

T	
Teraflop machines	ماكينات لإجراء مليون عملية حسابية في الثانية.
Territoriality	النزعة الإقليمية، نزعة الحيوان للدفاع عن منطقة المورد.
TeV	تيف، تي فولت، ترليون فولت (فيزياء).
Theorem	مبرهنة.
Transients	زائلات (فيزياء).
Trillion	ترليون، مليون مليون.
Turbulence	اضطراب دوامى (فيزياء) حركة دوامية غير منتظمة تحدث في المواقع المتحركة عندما تصل سرعتنا إلى حد خرج تختفى عنده الحركة الإنسانية الطبقية.
U	
Universe (closed)	كون (مغلق)، (فيزياء كونية).
Universe (open)	كون (مفتوح)، (فيزياء كونية).
Universe (flat)	كون (مسطح)، (فيزياء كونية).
V	
Virtual reality	واقع خائلى (كمبيوتر).
Vocalization	التعبير الصوتى (لإنسانيات).
W	
Weak force	القوة الضعيفة، (فيزياء جسيمات).
Z	
Zip driver	سير سحاب لضغط النص (كمبيوتر).

معجم عربى إنجليزى^(*)

ا	
Epistemology.	إبستمولوجيا
Bootstrap.	إجراءات تشغيل الكمبيوتر
Monoclonal.	أحادى النسيلة (بيولوجيا)
PDA. Personal digital assistants.	أدوات مساعدة رقمية شخصية (كمبيوتر)
Inbreeding.	استيلاد داخلى
Cosmic background radiation.	إشعاع خلفية الكون (فيزياء كونية)
Turbulence.	اضطراب دوامى
Nuclear decay.	اضمحلال نووى
Territoriality.	إقليمية
Allele(s).	أليل (أليلات)، (وراثية)
Empirical..	إمبيريقى
CAM, Computer aided manufacture.	إنتاج مصنع بمساعدة الكمبيوتر.
Entropy.	إنتروپيا
Anthropology.	أنثروبولوجيا
Big crunch.	الانسحاق الكبير
Big bang.	الانفجار الكبير
String (theory).	(نظرية) الأوتار
Superstring (theory).	(نظرية) الأوتار الفائقة
Cellular automata.	أوتوماتا خلوية
Ecology.	إيكولوجيا

(*) سبق ذكر شرح الكلمات والمصطلحات فى النص أو هوامشه أو فى المعجم الإنجليزى العربى. (المترجم)

ب	
Paleontology.	باليونتولوجيا
Bit.	بتة
Branes.	برانات
Spin.	برم، لف
Compiler.	برنامج الترجمة للغة الكمبيوتر
Pixel	بكسيل
Pleistocene (period).	(عصر) البليوسين، (جيولوجيا)
Bosons.	بوزونات
Molecular biology.	بيولوجيا جزيئية
ت	
Download	تحميل ترحيلي
Fluctuations.	تراوحات
Trillion.	ترليون
Fractals.	تشكلات
Miniaturization.	تصغير منمنم
Vocalization.	تعبير صوتي
Biotechnology.	تكنولوجيا حيوية
Cellophane.	تليفون خلوي، محمول
Stretching.	تمطيط
Optical character recognition.	تمييز بصري للحروف
Sexism.	تمييز بين الجنسين، تفرقة جنسية
Biodiversity.	تنوع حيوي (بيولوجيا)
Punctuated equilibrium.	توازن متقطع
TeV.	تيف، تي فولت، ترليون فولت (فيزياء)

ج	
Quantum Gravity.	جاذبية كمومية
Loop quantum gravity theory.	الجاذبية الكمومية الحلقية (نظرية)
Graviton.	جرافيتون
Elementary particles.	جسيمات أساسية
Biogeography.	جغرافيا بيولوجية
Gluon.	جلون
Sexuality	جنسانية
Sexual	جنسوية
CCD, Charge-coupled devise.	جهاز الشحن المقرون
Attractors.	جواذب
ح	
Bulk volume.	حجم التكتل
Computation.	حوسبة
Quantum computation.	حوسبة كمومية
خ	
File cabinet.	خزانة الملفات
Asymptoting.	خط مقارب
Algorithm.	خوارزم
د	
Degree of freedom.	درجة الحرية
Semantics.	دلالات الأنفاظ، علم المعاني.

Semiotics	دلالات العلامات والرموز (لغة - اتصالات - طب).
Angular resolution.	دقة التحدد الزاوي
DNA.	دنا
ذ	
Sematic memory.	ذاكرة دلالية
ر	
RAM.	رام
Chips	رقائق
ز	
Transients.	زائلات
Group (theory)	(نظرية) الزمر
س	
Amplitude of wave.	سعة الموجة
Glass ceiling.	سقف زجاجي بمعنى عائق وظيفي
Sypersymmetry.	سيمترية فائقة
Supernova.	سوبرنوفا
Cybernetics.	سيبرنطيقية
Cyborg.	سيبورج
Zip drive.	سيرر سحب
ش	
Cybernetic totalism.	الشمولية السيبرنطيقية
Chaos (theory).	(نظرية) الشواش

ص	
Homeoboxes.	صناديق تحديد الموضع
ط	
Allopathy.	طب مغاير
ظ	
Phenomenology.	الظواهرية
ع	
Cost-effective.	عائد تكلفة مجزى
Band width.	عرض النطاق
Neuron.	عصبون، عصبية
غ	
Dendrites.	غصون
ف	
Fermions.	فرميونات
Cyberspace.	فضاء معلوماتي
Phoneme.	فونيمة
ق	
Compact disc.	قرص مدمج، قرص مضغوط
Weak force.	قوة ضعيفة
Strong force.	قوة قوية، شديدة

ك	
Critical density.	كثافة حرجة
Momentum.	كم حركى
Relatioinal quantum (theory).	(نظرية) الكم العلاقاتية
Laptop computer.	كمبيوتر الحبر
Quark	كوارك
Cosmos	كوزموس، الكون كنظام نسقى متناغم.
Inflation universe.	كون تضخمى، انتفاخى
Multiverse.	كون متعدد
Flat universe.	كون مسطح
Closed universe.	كون مغلق
Open universe.	كون مفتوح
Qubit.	كيوبتة، بتة كمومية
ل	
Leptons.	لبتونات
Plasticity.	لدونة، مرونة
Linguistics.	لسانيات، لغويات
Compact flash.	لمحة ذاكرة إلكترونية مدموجة
م	
Teraflop machines.	ماكينات إجراء مليون عملية حسابية فى الثانية.
ATM, Automated teller machines.	ماكينات صرف آلية
Anthropic principle.	المبدأ الإنسانى

Theorem.	مبرهنة
Axon.	محوار
Cybersphere.	محيط معلوماتي
Feminism.	مساواة الجنسين
Hard disc drive.	مسير القرص الصلب
Synapse.	مشبك
Parameter.	معلمة
Bioinformatics.	معلوماتية بيولوجية
Fuzzy logic.	منطق مضطرب
Port.	منفذ
Isotropic.	موحد الخواص
Modem.	مودم
Morphology.	مورفولوجيا
Niche.	موقع بيئي
Intentional stance.	موقف قصدي
Confocal scanning microscope.	ميكروسكوب المسح متحد البؤرة
ن	
Pulsar (star).	نابض (نجم)
Neurotransmitter.	ناقل عصبي
Nano.	نانو، جزء من بليون
Nanobots.	نانو بوتات
Nanotechnology.	نانو تكنولوجيا
Neutron star.	نجم نيوتروني
Relativism.	(المذهب) النسبي
Paradigm.	نموذج أساسي

Pedomorphic species.	نوع فيه حفاظ على خواص من الطفولة.
Nucleotides.	نيوكليوتيدات
هـ	
Hadrons.	هادرونات
Reverse engineering.	هندسة عكسية
و	
Virtual reality.	واقع خائلى
Parenting.	والدية
CPU, Central processing unit.	وحدة المعالجة المركزية
Centrism.	وسطية
Connectionist (theory).	(نظرية) الوصلية

المترجم فى سطور:

مصطفى إبراهيم فهمى

- أستاذ بالأكاديمية الطبية العسكرية، دكتوراه الكيمياء الإكلينيكية من جامعة لندن.
- عضو لجنة الثقافة العلمية بالمجلس الأعلى للثقافة بمصر ورئيس لجنّتها الفرعية للثقافة الطبية.
- ترجم ما يقرب من أربعين كتابا فى الثقافة العلمية، ونال عدة جوائز عن ترجمة أحسن كتب فى الثقافة العلمية فى معرض الكتاب بالقاهرة والكويت.

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

١- اللغة العليا	جون كرين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانتيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	شوقي جلال
٤- كيف تم كتابة السيناريو	إنجا كاريتيكوفا	أحمد الحضري
٥- ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكي
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو. س. جودي	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد منتقم وعبد الجليل الأزدي وعمر طي
١١- مختارات شعرية	فيسواثا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميت	عبد الوهاب غلوب
١٤- التحليل النفسي للأدب	چان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميت	أشرف رفيق عقيقي
١٦- أثنية السوداء (ج١)	مارتن برنال	يشارفد أحمد عثمان
١٧- مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوي
١٨- الشعر التسلاني في أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يعني طريف الخولي و بدوي عبد الفتاح
٢١- خوخة وآف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجي	ماجدة العناني
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد علي التامري
٢٣- تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	يكر عباس
٢٥- مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشري الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨- رسالة في التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانتيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	چان سوفاجيه - كلود كابين	عبد الستار الطلوجي وعبد الوهاب غلوب
٣٢- الانقراض	ديفيد ريب	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣- التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حصه إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

جمال عبد الرحيم	بريجيت شيفر	۲۷- واحة سيوة وموسيقاها
أنور مفيث	ألن تورين	۲۸- نقد الحداثة
منيرة كروان	بيتر والكوت	۳۹- الحسد والإغريق
محمد عيد إبراهيم	آن سكستون	۴۰- قصائد حب
عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد	بيتر جران	۴۱- ما بعد المركزية الأوروبية
أحمد محمود	بنجامين باربر	۴۲- عالم ماك
المهدي أخريف	أوكتايفو بات	۴۳- اللهب المزئوج
مارلين تاندرس	ألدوس هكسلي	۴۴- بعد عدة أصياف
أحمد محمود	روبرت فينا وجون فاين	۴۵- التراث المفقود
محمود السيد على	بابلو نيرودا	۴۶- عشرون قصيدة حب
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	۴۷- تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج ١)
ماهر جويجاتي	فرانسوا دوما	۴۸- حضارة مصر الفرعونية
عبد الوهاب علوب	ه . ث . نوريس	۴۹- الإسلام في البلقان
محمد براءة وعثمانى الميولد ويوسف الأتلكى	جمال الدين بن الشيخ	۵۰- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير
محمد أبو العطا	داريو بيانونيا وخ . م . بينتاليستى	۵۱- مسار الرواية الإسبانية أمريكية
لطفي فطيم وعادل بمرdash	ب . نوباليس وس . روسيفيتز ونيجر بيل	۵۲- العلاج النفسى التدريجى
موسى سعد الدين	أ . ف . ألنچتون	۵۳- الدراما والتعليم
محسن مصيلحى	ج . مايكل والتون	۵۴- المفهوم الإغريقى للمسرح
على يوسف على	جون بولكنجهوم	۵۵- ما وراء العلم
محمود على مكى	فديريكو غرسية لوركا	۵۶- الأعمال الشعرية الكاملة (ج ١)
محمود السيد و ماهر البطوطى	فديريكو غرسية لوركا	۵۷- الأعمال الشعرية الكاملة (ج ٢)
محمد أبو العطا	فديريكو غرسية لوركا	۵۸- مسرحياتنا
السيد السيد سهيم	كارلوس مونثيث	۵۹- المحبرة (مسرحية)
صبرى محمد عبد الفتى	جوهانز إيتين	۶۰- التصميم والشكل
بإشراف : محمد الجوهري	شارلوت سيمور - سميث	۶۱- موسوعة علم الإنسان
محمد خير البقاعى	رولان يارت	۶۲- لذة النص
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	۶۳- تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج ٢)
رمسيس عوض	آلان وود	۶۴- برتراند راسل (سيرة حياة)
رمسيس عوض	برتراند راسل	۶۵- فى مدح الكسل ومقالات أخرى
عبد اللطيف عبد الحليم	أنطونيو جالا	۶۶- خمس مسرحيات أندلسية
المهدي أخريف	فرناندو بيسرا	۶۷- مختارات شعرية
أشرف الصباغ	فالنتين راسبوتين	۶۸- فتاشا العجوز وقصص أخرى
أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى	عبد الرشيد إبراهيم	۶۹- العالم الإسلامى فى أول القرن العشرين
عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد	أوخينيو تشانج رودريجت	۷۰- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية
حسين محمود	داريو فو	۷۱- السيدة لا تصلح إلا للرمى
فؤاد مجلى	ت . س . إليرت	۷۲- السياسى العجوز
حسن ناظم وعلى حاكم	چين ب . تومبكتن	۷۳- نقد استجابة القارئ
حسن بيومى	ل . ا . سيميونفا	۷۴- صلاح الدين والمالوك فى مصر

أحمد درويش	أندريه موروا	٧٥- فن التراجم والسير الذاتية
عبد المقصود عبد الكريم	مجموعة من المؤلفين	٧٦- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	٧٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)
أحمد محمود ونورا أمين	رونالد رويرسون	٧٨- العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
سعيد الفانمي وناصر حلاوي	بوريس أوسپنسكي	٧٩- شعرية التأليف
مكارم الفعري	الكسندر پوشكين	٨٠- پوشكين عند «نافورة الدموع»
محمد طارق الشرقاوي	بنديكت أندرسن	٨١- الجماعات المتخيلة
محمود السيد على	ميجيل دي أونامونو	٨٢- مسرح ميجيل
خالد المعالي	غوتفريد بن	٨٣- مختارات شعرية
عبد الحميد شبيحة	مجموعة من المؤلفين	٨٤- موسوعة الأدب والنقد (ج١)
عبد الرزاق بركات	صلاح زكي أقطاي	٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)
أحمد مفتحي يوسف شتا	جمال مير صادق	٨٦- طول الليل (رواية)
ماجدة العناني	جلال آل أحمد	٨٧- نون والقلم (رواية)
إبراهيم الدسوقي شتا	جلال آل أحمد	٨٨- الابتلاء بالتقرب
أحمد زايد ومحمد محيي الدين	أنتوني جينز	٨٩- الطريق الثالث
محمد إبراهيم مبروك	بورخيس وآخرون	٩٠- وسم السيف وقصص أخرى
محمد هناء عبد الفتاح	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق
نادية جمال الدين	كارلوس ميجيل	٩٢- لسانيات بضمائم المسرح الإسباني المعاصر
عبد الوهاب علوب	مايك فينرستون وسكوت لاش	٩٣- محدثات العولمة
فوزية العشماوي	صمويل بيكيت	٩٤- مسرحيتا الحب الأول والصحبة
سرى محمد عبد اللطيف	أنطونيو بويرو بايخو	٩٥- مختارات من المسرح الإسباني
إبوار الخراط	نخبة	٩٦- ثلاث زنيقات ووردة وقصص أخرى
يشير السباعي	فرنان برودل	٩٧- هوية فرنسا (مج١)
أشرف الصباغ	مجموعة من المؤلفين	٩٨- الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني
إبراهيم قنديل	ديفيد روينسون	٩٩- تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)
إبراهيم فتحى	بول هيرست وجراهام تومبسون	١٠٠- مساطة العولمة
رشيد بنحدو	بيرنار فاليت	١٠١- النص الروائي: تقنيات ومناهج
عز الدين الكتاني الإدريسي	عبد الكبير الخطيبي	١٠٢- السياسة والتسامح
محمد بنيس	عبد الوهاب المؤدب	١٠٣- قبر ابن عربي يليه آياه (شعر)
عبد الغفار مكارى	برتول بريشت	١٠٤- أويرا ماهوجنى (مسرحية)
عبد العزيز شبيل	جيرار جينيت	١٠٥- مدخل إلى النص الجامع
أشرف على دعلود	ماريا خيسوس روبييرامتى	١٠٦- الأدب الأندلسي
محمد عبد الله الجعدي	نخبة من الشعراء	١٠٧- صيرة الفنان في الشعر الأندلسي المعاصر
محمود على مكى	مجموعة من المؤلفين	١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي
هاشم أحمد محمد	جون بولوك وعادل درويش	١٠٩- حروب المياه
منى قطان	حسنة بيجوم	١١٠- النساء في العالم النامي
ريهام حسين إبراهيم	فرانسيس هيدسون	١١١- المرأة والجريمة
إكرام يوسف	أرلين علوى ماكليود	١١٢- الاحتجاج الهادئ

أحمد حسان	سادی پلانت	١١٣- راية التمرد
نسيم مجلى	وول شوينكا	١١٤- مسرحيتا حصان كوتجى وسكان المستنق
سمية رمضان	فرچينيا وولف	١١٥- غرفة تخمس المراء وحده
نهاد أحمد سالم	سينثيا تلسون	١١٦- امرأة مختلفة (دورية شفيق)
منى إبراهيم وهالة كمال	ليلي أحمد	١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام
لميس النقاش	بث بارون	١١٨- النهضة النسائية فى مصر
بإشراف: روف عباس	أميرة الأزهرى سنبل	١١٩- النساء والسرور لقوانين الخلق فى اقترن الإسلامى
مجموعة من المترجمين	ليلي أبو لغد	١٢٠- الحركة القسائية والتطور فى الشرق الأوسط
محمد الجندي وإيزابيل كمال	فاطمة موسى	١٢١- الليل الصغير فى كتابة المرأة العربية
منيرة كروان	جوزيف فوجت	١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج للثاني للجنسان
أنور محمد إبراهيم	أنيتل ألكسندرو فنادولينا	١٢٣- الإمبراطورية العشائية وعلاقتها النولية
أحمد فؤاد بليغ	جون جراى	١٢٤- النجر الكائبة لرهام الراسمائية المالبة
سمحة الخولى	سينرك ثورپ ديفي	١٢٥- التحليل الموسيقى
عبد الوهاب علوب	فولغانج إيسر	١٢٦- فعل القراءة
بشير السباعي	صفاء فتحي	١٢٧- إرهاب (مسرحية)
أميرة حسن نويرة	سوزان ياسنيت	١٢٨- الأدب المقارن
محمد أبو العطا وآخرون	ماريا بولورس أسيس جاريته	١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة
شوقي جلال	أندريه جوندز فرانك	١٣٠- الشرق يصعد ثانية
لويس بقطر	مجموعة من المؤلفين	١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى
عبد الوهاب علوب	مايك فينرستون	١٣٢- ثقافة العولة
طلعت الشايب	طارق على	١٣٣- الخوف من الرايا (رواية)
أحمد محمود	بارى ج. كيمب	١٣٤- تشريح حضارة
ماهر شفيق فريد	ت. س. إليوت	١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت
سحر توفيق	كينيث كرون	١٣٦- فلاحو الباشا
كاميليا صبحي	جوزيف ماري مواريه	١٣٧- مكرات خباط فى الحملة الفرنسية على مصر
وجيه سمعان عبد المسيح	أندريه جلوكسمان	١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
مصطفى ماهر	ريتشارد فاچنر	١٣٩- باريسفان (مسرحية)
أمل الجبوري	هربرت ميسن	١٤٠- حيث تلتقى الأنهار
نعيم عطية	مجموعة من المؤلفين	١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية
حسن بيومي	أ. م. فورستر	١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل
عدلى السمري	ديرك لايدر	١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى
سلامة محمد سليمان	كارلو جولونى	١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)
أحمد حسان	كارلوس فوينتس	١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)
على عبدالرؤف البعبي	ميجيل دى لبيس	١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)
عبدالغفار مكارى	تاتكريد دورست	١٤٧- مسرحيتان
على إبراهيم منوفى	إثريكي أندرسون إمبرت	١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية
أسامة إسبر	عاطف فضول	١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس
منيرة كروان	روبرت ج. ليتمان	١٥٠- التجربة الإغريقية

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، ١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢- عدالة الهند وتخصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣- غرام القراغة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوبيت ثيرمو	مى التمساني
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكتجوى	عبدالعزیز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، ٢)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩- الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسباني	البيخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	صلاح عبدالعزیز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	جوردون مارشال	إشراف: محمد الجوهري
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوثير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الطلح (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادقة
١٦٦- العلاقات بين التبتين والبلطاني في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- في عالم طاغور	رايندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أنبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دلبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التلفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصه إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنتسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والتبوء (شعر)	و.ب. بيتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- جان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤- القاهرة: حالة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات ميكل	ميخائيل إنود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرض (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	الفين كرنان	بدر الديب

- ١٨٩- العس والبصرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر پول دي مان
١٩٠- محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى الحاج أبو بكر إمام وآخرون
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (ج١) زين العابدين المراغي
١٩٣- عامل المنجم (رواية) بيتر أبراهامز
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي الحديث مجموعة من النقاد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية) إسماعيل فصيح
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية) فالنتين راسپوتين
١٩٧- سيرة الفاروق شمس العلماء شبلي النعماني
١٩٨- الاتصال الجماهيري إدوين إمري وآخرون
١٩٩- تاريخ يهود مصر في الفترة العشانية يعقوب لاندوا
٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل جيمس سيبروك
٢٠١- الجانب البيني للفلسفة جوزايا روس
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٤) رينيه ويليك
٢٠٣- الشعر والشاعرية أَلطاف حسين حالي
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم زلمان شازار
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات لويجي لوقا كافاللي- سفورزا
٢٠٦- الهيلولية تصنع علماء جديداً جيمس جلارك
٢٠٧- ليل أفريقي (رواية) رامون خوتاسنديز
٢٠٨- شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي دان أوريان
٢٠٩- السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
٢١٠- مثنويات حكيم سنائي (شعر) سنائي الغزنوي
٢١١- فريتيان دوسوسير جوناثان كلر
٢١٢- قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان مرزيان بن رستم بن شروين
٢١٣- مصر منذ نفوس نابليون حتى رحيل عبدالناصر ريمون فلاور
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع أنتوني جيندز
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢) زين العابدين المراغي
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
٢١٧- مسرحيتان طبيعيتان صمويل بيكيت وهارولد بينتر
٢١٨- لعبة الحجلة (رواية) خوليو كورتاثان
٢١٩- بقايا اليوم (رواية) كازو إيشجورو
٢٢٠- الهيلولية في الكون باري باركر
٢٢١- شعرية كفاي جريجوري جوزداتيس
٢٢٢- فرانز كافكا رونالد جراي
٢٢٣- العلم في مجتمع حر باول فيرابند
٢٢٤- دمار يوغسلافيا برانكا ماجاس
٢٢٥- حكاية غريق (رواية) جابريل جارتيا ماركيت
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى ديفيد هربت لورانس
- سعيد الغانمي
محسن سيد قرجاتي
مصطفى حجازي السيد
محمود علاوي
محمد عبد الواحد محمد
ماهر شفيق فريد
محمد علاء الدين منصور
أشرف الصباغ
جلال السعيد الحفناوي
إبراهيم سلامة إبراهيم
جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد الطيف حماد
فخزي ليب
أحمد الأنصاري
مجاهد عبد المنعم مجاهد
جلال السعيد الحفناوي
أحمد هويدي
أحمد مستجير
علي يوسف علي
محمد أبو العطا
محمد أحمد صالح
أشرف الصباغ
يوسف عبد الفتاح فرج
محمود حمدي عبد الفنى
يوسف عبدالفتاح فرج
سيد أحمد على الناصري
محمد محيي الدين
محمود علاوي
أشرف الصباغ
نادية البنهاوي
علي إبراهيم منوفى
طلعت الشايب
علي يوسف علي
رقت سلام
نسيم مجلى
السيد محمد نقادى
منى عبدالظاهر إبراهيم
السيد عبدالظاهر السيد
طاهر محمد على البريرى

- ٢٢٧- المسرح الإسباني في القرن السابع عشر خوسيه ماريّا ديث بوركي
- ٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن جانيت وولف
- ٢٢٩- مازق البطل الوحيد نورمان كيغان
- ٢٣٠- عن الذباب والغرّان والبشر فرانسواز جاكوب
- ٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية) خايمي سالوم بيدال
- ٢٣٢- ما بعد المعلومات توم ستونير
- ٢٣٣- فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي آرثر هيرمان
- ٢٣٤- الإسلام في السودان ج. سينسر تريمنجهام
- ٢٣٥- ديوان شمس تبريزي (ج١) مولانا جلال الدين الرومي
- ٢٣٦- الولاية ميشيل شوبكفيتش
- ٢٣٧- مصر أرض الوادي روين فيدين
- ٢٣٨- العولة والتحرير تقرير لمنظمة الانكثاد
- ٢٣٩- العربي في الأدب الإسرائيلي جيلار راماز - رايوخ
- ٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار كاي حافظ
- ٢٤١- في انتظار البرابرة (رواية) ج. م. كوتزي
- ٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض وليام إميسون
- ٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١) ليفي بروفنسال
- ٢٤٤- الغليان (رواية) لورا إسكيبيل
- ٢٤٥- نساء مقاتلات إليزابيتا أنيس وآخرون
- ٢٤٦- مختارات قصصية جابرييل جارشيا ماركيث
- ٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والمداخلة في مصر والتر أرميرست
- ٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية) أنطونيو جالا
- ٢٤٩- لغة التمزق (شعر) دراجو شتامبوك
- ٢٥٠- علم اجتماع العلوم دومنيك فينك
- ٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (ج٢) جوردون مارشال
- ٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية مارجو بدران
- ٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية ل. أ. سيمينوفا
- ٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة ديف روينسون وجودي جروفز
- ٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون ديف روينسون وجودي جروفز
- ٢٥٦- أقدم لك: ديكارت ديف روينسون وكريس جارات
- ٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة ولیم کلی رایت
- ٢٥٨- الفجر سير أنجوس فريزر
- ٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور نخبة
- ٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (ج٢) جوردون مارشال
- ٢٦١- رحلة في فكر زكي نجيب محمود زكي نجيب محمود
- ٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية) إدواردو مندوتا
- ٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن جون جرين
- ٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة هوراس وشلي
- السيد عبدالظاهر عبدالله
- ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
- أمير إبراهيم العمري
- مصطفى إبراهيم فهمي
- جمال عبدالرحمن
- مصطفى إبراهيم فهمي
- طلعت الشايب
- فؤاد محمد عكود
- إبراهيم الدسوقي شتا
- أحمد الطيب
- عنايات حسين طلعت
- ياسر محمد جادالله وعربي منبولي أحمد
- نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
- صلاح محجوب إدريس
- ابتهسام عبدالله
- صبري محمد حسن
- بإشراف: صلاح فضل
- نادية جمال الدين محمد
- توفيق على منصور
- علي إبراهيم منوفي
- محمد طارق الشرفاوي
- عبداللطيف عبدالحليم
- رفعت سلام
- ماجدة محسن أباطة
- بإشراف: محمد الجوهري
- علي بدران
- حسن بيومي
- إمام عبد الفتاح إمام
- إمام عبد الفتاح إمام
- إمام عبد الفتاح إمام
- محمود سيد أحمد
- عبادة كُحيلة
- فاروجان كازانجيان
- بإشراف: محمد الجوهري
- إمام عبد الفتاح إمام
- محمد أبو العطا
- علي يوسف علي
- لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبد المنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروكي
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزي (ج٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم النسوقي شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	وليم جيفورد بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢)	وليم جيفورد بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سي. باترسون	شوقي جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية في مصر	سي. سي. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الاصول الاجتماعية والثقافية لعمدة مراهبي في مصر	جوان كول	عنان الشهاوي
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكي
٢٧٥-	د. م. إليوت شاعرًا وثالثًا وكاتبًا مسرحيًا	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبد القادر التلمساني
٢٧٧-	الجنائن والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزي
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحلیم شرر	جلال الحفناوي
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس رولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرؤوف البمبي
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عثمان
٢٨٥-	رحلة خواجه حسن نظامي الدهلوي	حسن نظامي الدهلوي	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٣)	زين العابدين المزاغي	محمود علاوي
٢٨٧-	الثقافة والعملة والنظام العالمي	أنتوني كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائي	نيثيد لودج	ماهر البطوطي
٢٨٩-	ديوان منوچهری الدامغانی	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبد المنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج موبان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج١)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج٢)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربي	روجر آلن	مجدى تولىق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل موريز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	بيوتيسوس ثراكس ويوسف الأهوازي	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٢٩٩-	ثورة في التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	السيرة برويشوس في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (ج١)	لويس عوض	جمال الجزيري ويها. جامين وإيزابيل كمال
٣٠١-	السيرة برويشوس في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (ج٢)	لويس عوض	جمال الجزيري ومحمد الجندي
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتين	جون هيتون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٢٠٢- أقدم لك: بوذا	چين هوب ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٢٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	چان فرايسوا ليوتار	نبيل سعد
٢٠٧- أقدم لك: الشعور	ديفيد بايينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٢٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف چونز ويورن فان لو	ممنوح عبد المنعم
٢٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلشي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٢١٠- أقدم لك: يونج	ماجي هايد ومايكل ماكجنس	محيي الدين مزيد
٢١١- مقال في المنهج الفلسفي	ر.ج كولتجود	فاطمة إسماعيل
٢١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديويوس	أسعد حليم
٢١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خاير بيان	محمد عبدالله الجعدي
٢١٤- مارسيل بوشامب: الفن كعدم	چانيس مينيك	هويدا السباعي
٢١٥- جرامشي في العالم العربي	ميشيل برونينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحي
٢١٦- محاكمة سقراط	أي. ف. ستون	نسيم مجلي
٢١٧- بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٢١٨- الأب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٩- صور دريدا	چايتري سيفاك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٢٢٠- لغة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٢٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، ج١)	ليلى برو فنسال	باشرف: صلاح فضل
٢٢٢- وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن الغربي	دبليو يوجين كليناور	خالد مفلح حمزة
٢٢٣- فن الساتورا	تراث يوناني قديم	هانم محمد فوزي
٢٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدي	محمود علاوي
٢٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب يوسان	كريستين يوسف
٢٢٦- المعرفة والمصلحة	يوجين هابرماس	حسن صقر
٢٢٧- مختارات شعرية مترجمة (ج١)	نخبة	توفيق على منصور
٢٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٢٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٢٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شيرد	سامي صلاح
٢٣١- عندما جاء السريين وقصص أخرى	ستيفن جرائ	سامية نياپ
٢٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفي
٢٣٣- الإسلام في بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٢٣٤- لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالي ساروت	فتحي العشري
٢٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٢٣٧- فلسفة الولاة	چوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٢٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوي
٢٣٩- تاريخ الأدب في إيران (ج٢)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٤٠- اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيريروجلو	فخري لبيب

٢٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمي
٢٤٢-	سلامان وأيسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٢٤٣-	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤-	الموت في الشمس (رواية)	بيتر بالانجير	سمير عبد ربه
٢٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	پونه نداءي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدي	جمال الجزيري
٢٤٧-	الصبيبة الطائشون (رواية)	جان كوكو	بكر الحلو
٢٤٨-	المتصوفة الأولون في الأدب التركي (ج١)	محمد فؤاد كويريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهوين وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١-	ميادئ المنطق	چوزايا رويس	أحمد الانصاري
٢٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣-	الفن الإسلامي في الأتلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو يابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٢٥٤-	الفن الإسلامي في الأتلس: الزخرفة النباتية	باسيليو يابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٢٥٥-	التيارات السياسية في إيران المعاصرة	حجت مرتجي	محمود علوي
٢٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرقاعي
٢٥٧-	متون هرمس	تيموثي فريك وبيتر غاندي	عمر القاروق عمر
٢٥٨-	أمثال الهوسا العامة	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٢٥٩-	محاورة بارمنديس	أفلاطون	حبيب الشاروني
٢٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه چاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربيني
٢٦١-	التصحر: التهديد والمواجهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاود
٢٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيبسون	صبري محمد حسن
٢٦٤-	حدائق شكسبير	إسماعيل سراج الدين	تجلاء أبو عجاج
٢٦٥-	سام باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧-	القلم الجريء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادي رضا
٢٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	چيرالد پرنس	عابد خزندار
٢٦٩-	المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠-	الفن والحياة في مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١-	المتصوفة الأولون في الأدب التركي (ج٢)	محمد فؤاد كويريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	علي إبراهيم منوفي
٢٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦-	النفس وأحلام السنين (مسرحيات)	چان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج١)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

جمال عبدالرحمن	سنبل باث	٢٧٩- ملك في الحقيقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جونتر جراس	٢٨٠- حديث عن الخسارة
رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٢٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادي	بهاء الدين محمد اسفنديار	٢٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٢٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٢٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد علي بهزاداد	٢٨٥- مشترى العشق (رواية)
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٢٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي
بهاء جاهين	جون دن	٢٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازي	٢٨٨- مواضع سعدى الشيرازي (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٢٨٩- تفاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. في. روبرتس	٢٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى
منى الدويبي	مايف بينشى	٢٩١- الحافلة الليكيلي (رواية)
عبداللطيف عبدالطيم	فرناندو دي لاجرانجا	٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخضيرى	ندوة لويس ماسينيون	٢٩٣- في قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٢٩٤- القوى الأربع الأساسية في الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل قصيص	٢٩٥- آلام سياوش (رواية)
محمود علاوى	تقى تجارى راد	٢٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتى شين	٢٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودى وهوارد ريد	٢٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	٢٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	٤٠٠- مومو (رواية)
ممدوح عبد المنعم	زياودن ساردر وآخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممدوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك إيفى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكينج
عماد حسن بكر	تودور شتورم وجوتفرد كوار	٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)
ظبية خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الحسى
حمادة إبراهيم	أندريه جيد	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعربون الإسبان في القرن ١٩
طلعت شافين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه
عنان الشهاري	جوان فوشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامى عمارة	برتراند راسل	٤٠٩- انتصار السعادة
الزواوى بغورة	كارل بوير	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	چينيغر أكرمان	٤١١- همس من الماضي
بإشراف: صلاح فضل	ليفي بروقتسال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	باسكال كازانوفا	٤١٤- الجمهورية العالمية للأدب
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش دورينمات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بنوى	أ. أ. رتشاردن	٤١٦- مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمعتم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزهر الحاكمة في مصر العثمانية	چين هاثواي	عبد الرحمن الشنيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسليم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	روى متحدة	أشرف كيلاني
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد ملاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاروس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باي إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخرزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندرجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندرجى كليوفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس ويزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكياثلى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدي الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وچودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زديج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كويلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربي	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بييرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المراهبى (رواية)	صدر الدين عيني	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أروناتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاني
٤٤٣-	الثقافة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستينغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خاتلري	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كليلر	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السيد	فراث شعبى إسباني	الطاهر أحمد مكي
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الاب عيروط	محي الدين اللبان ووليام دارود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجيئانزى وأوسكار زاريت	محيي الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فريدريك كويلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاتصايات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجوى جروفرز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزم إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام يلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلّة	مايكل بارنتى	حصّة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب ويطولات فرعونية	فيلو لين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حيشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد الننة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	دون كىخوتى (القسم الأول)	ميغيل دى ثريانتس سايدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كىخوتى (القسم الثانى)	ميغيل دى ثريانتس سايدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الألب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرچينا دانيلسون	عادل هلال عثمانى
٤٧٦-	أرض الحباب بعيدة: بيرم التونسي	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج ولى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهسى (مسرحة)	لاى شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تسائى ون جى (مسرحة)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير چاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چاميل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبييرت يافوس	رشيد بنحو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحميد عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسْرُل: الفلسفة علماً دقيقاً	إدموند هُسْرُل	محمود رجب
٤٩٠-	أسماء البيقاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفرقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارچيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الفضال
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج في النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفي
٤٩٥-	اللوي	إيوارد تيقان	حسن عبد ربه المصري
٤٩٦-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١)	إكوانو يانولي	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والنوثة في الشرق الأوسط	نانية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث	جونيث تاكر ومارجريت مريونز	أحمد على بدوي
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	في طغواتي: دراسة في السيرة الذاتية للعربية	تيتز رويكي	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء في الغرب (ج١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمعتم
٥٠٤-	كتابات أساسية (ج١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (ج٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضي الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقي فهمي
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومي	عبد الباقي جلبنارلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفر والإحسان في عصر سلاطين المماليك	ألم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولوني	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقع (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائي	تيموثي كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جوتثان كولر	مصطفى بيومي عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالمى دوجلاس	فدوى مالمى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان في علاج الإيمان	أرنولد واشنطن وبونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات في المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٥٢٠-	الزنج الفرنسي بمصر من العلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبد الوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	علي إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمذبح	باسيليو يابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٥٢٥-	موسم صيد في بيروت وقصص أخرى	ناتيس چونسمون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرويل ووليم رانكين	محبى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيري
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفل إيفانز	جمال الجزيري
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال في شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١-	ما الذى حثَّ فى «حثّ» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	للقامُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشوقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيرفون لوبا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزیز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وتقيم التقدم	مصويل منتجوتون وأورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالفقار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشاربنى	كيت دانييلز	محمد الحديدي
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كارول تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة بزيق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نديم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	پاتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلاني كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥-	يا له من سباق محوم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وأن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزيرن ويون فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كويلي وليتاجانز	جمال الجزيري
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وييرو	حمدي الجابري
٥٥١-	الموسيقى والعولة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثريانتس	على عبد الرؤف البعبى
٥٥٣-	مدخل لشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفي السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية لقرن الحادى والعشرين	أناثولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيقتك	حمدي الجابري
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زويدن ساردارويوين ثان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين ويلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	روود الخريف (مسرحية)	خاثنيتو بينابيتتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عش الغريب (مسرحية)	خاثنيتو بينابيتتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	دييورا ج. جيرتر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المقتضب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	نول الطليح الفارسي	سير روبرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١-	تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب في زمن القراغة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤-	مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥-	الاقتصاد السياسي للعملة	نجير وورز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودي	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومي ميزوكوشي	محمد إبراهيم وعصام عبد الرفيع
٥٧٩-	أقدم لك: تشيوسكي	جون ماهر وچودي جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف النولية (مج ١)	جون فيزر وپول سيقترجز	بإشراف: محمد فتحي عبدالهادي
٥٨١-	الحققي يمتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود نولت أبادي	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السيفنا العربية والأفريقية	ليزيث مالكموس وروى أرمنز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصيني	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزیز حمدي
٥٨٨-	أمنحوتب الثالث	أنيس كابرول	ماهر جويجاتي
٥٨٩-	تمبكت العجبية	فيلكس دييوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدي عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	علي عبدالنواب علي وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (ج ١)	محمد صبري السوربوني	مجدى عبدالحافظ وعلي كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	پول فاليري	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزي
٥٩٥-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج ٢)	إكوانو يانولي	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية في العالم	روبرت ديجارلي وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلم غرناطة	خوايو كاروياروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكتمان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومي علي قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهريز	محمود علاوي
٦٠٠-	الإسلام في التاريخ	برنارد لويس	مبحث طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلي
٦٠٢-	ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثة	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزیز
٦٠٣-	النقد الثقافي	أرثر أيزنبرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج ١)	پاتريك ل. أبوت	توفيق علي منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكي (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمي
٦٠٦-	قصة البردي اليوناني في مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدني

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (ج١)	هارى سينت فيليبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (ج٢)	هارى سينت فيليبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوشمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيدولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كران مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير (رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩١٧ إلى ١٩١٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيليبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عائدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماس ماستنك	بشير السباعى
٦٢١-	رياعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير تيبه وعبد الرحمن حجازى
٦٢٣-	نوامر جحا الإيرانى	سميد قائمى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥-	الجرح السرى	جان چينييه	محمد يرادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبد الوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلز داروين	مجدى محمود الميجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولا جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	ياشرف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس يرامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكرويد وإسماعيل سراج البين	مصطفى البهتساوى
٦٣٥-	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يواندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتز	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عيد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	ألكسياد	الأميرة أناكرومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر ويورين فان لون	ممدوح عيد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد النريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د.خيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الخارجية	تشارلز كجلي ويوجين وينكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سيهر نبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحي العشري
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	جى دى موباسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذي لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبيان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود تروينكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستتر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسي
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض المعراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساستري	ممنوح البستاوي
٦٥٧-	محاكم التنقيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامي
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامي
٦٦٢-	رحلة إلى الجنود	داسو ساليبيار	صبرى التهامي
٦٦٣-	امراة عاية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعي
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمين	جمال عبد التاصر ومحمد الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القائمة لعم الاجتماع الغربي	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات الدولة	فريدريك جيمسون وماساو ميوشى	ليلي الجبالي
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلي
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر اليطوطي
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولنوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسي للأطفال	نخبة	إيتهاال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوي
٦٧٤-	ديوان الإمام الخميني	آية الله العظمى الخميني	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	مارتن برنال	باشراف: محمود إبراهيم السعدني
٦٧٦-	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	مارتن برنال	باشراف: محمود إبراهيم السعدني
٦٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج١ ، ج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمي
٦٧٨-	تاريخ الأدب في إيران (ج١ ، ج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمي
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (ج٣)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غريال
٦٨١-	هل يوجد نص في هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشبيمي
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكري	صبرى محمد حسن

٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	تى. م. ألوكر	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الاعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (ج١)	أوراشيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الاعمال القصصية الكاملة (المصراع) (ج٢)	أوراشيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امراة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر ورينشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تادوش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفيتش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت اينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجوبية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدي الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حاتيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك: دريدا	جيف كولينز وبيل ماييلين	حمدي الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روينسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روينسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ديفين وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سينسر وأندريجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التطويل النفسى	إيلغان وارد وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحدثة	وليم رود ثيفيان	منى البرنس
٧٠٢-	مدونة جوستيان فى اللغة الرومانى (سيرات الترجمة)	جوستينيان	عبد العزيز فهمى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (ج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأثام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبد الحميد مذكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراغة من؟	دونالد مالكولم ريد	رؤف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	إيان هاتشباى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	الإلياذة (ج١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	الإلياذة (ج٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	سر تنم الإنكيز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إدمون ديمولان	أحمد فتحي زغلول
٧١٦-	جامعة كل المعارف (ج٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (ج٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (ج٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جولدبرج	جميلة كامل
٧٢٠-	مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	دونام جونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

مصطفى ليبب عبد الفنى	هـ. أ. ولفسون	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج ١)	٧٢١-
الصفصافى أحمد القطورى	يشار كمال	الصفحة وقصص أخرى	٧٢٢-
أحمد ثابت	إفرايم نيمنى	تحديات ما بعد الصهيونية	٧٢٣-
عبد الريس	پول روبنسون	اليسار القرويدى	٧٢٤-
مى مقلد	چون فيتكس	الاضطراب النفسى	٧٢٥-
مروة محمد إبراهيم	غيرمو غوثالبيس بوستو	المورسكيون فى المغرب	٧٢٦-
وحيد السعيد	باچين	حلم البحر (رواية)	٧٢٧-
أميرة جمعة	موريس أليه	العولة: تنمية العمالة والنمو	٧٢٨-
هويدا عزت	صانق زيبا كالم	الثورة الإسلامية فى إيران	٧٢٩-
عزت عامر	آن جاتى	حكايات من الصهول الأفريقية	٧٣٠-
محمد قدرى عمارة	مجموعة من المؤلفين	التروع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	٧٣١-
سمير جريس	إنجوى شولتسه	قصص بسيطة (رواية)	٧٣٢-
محمد مصطفى بنوى	وليم شيكسبير	مأساة عطيل (مسرحية)	٧٣٣-
أمل الصبان	أحمد يوسف	يونابرت فى الشرق الإسلامى	٧٣٤-
محمود محمد مكى	مايكل كوبرسون	فن السيرة فى العربية	٧٣٥-
شعبان مكاوى	هوارد زن	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج١)	٧٣٦-
توفيق على منصور	پاتريك ل. أبوت	الكوارث الطبيعية (مج ٢)	٧٣٧-
محمد عواد	چيرار دى جورج	مشق من مصر ما قبل التاريخ إلى العرة الملوكية	٧٣٨-
محمد عواد	چيرار دى جورج	مشق من العصر لظهور الحضارة حتى الوقت الحاضر	٧٣٩-
مرفت ياقوت	بارى هندس	خطابات السلطة	٧٤٠-
أحمد هيكل	برنارد لويس	الإسلام وأزمة العصر	٧٤١-
رزق بهنسى	خوسيه لاكوارا	أرض حارة	٧٤٢-
شوقى جلال	روبرت أونجر	الثقافة: منظور داروينى	٧٤٣-
سمير عبد الحميد	محمد إقبال	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	٧٤٤-
محمد أبو زيد	بيك النخيلى	المأثر السلطانية	٧٤٥-
حسن النعمى	چوزيف أ. شومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج ١)	٧٤٦-
إيمان عبد العزيز	تريفور وايتوك	الاستعارة فى لغة السينما	٧٤٧-
سمير كريم	فرانسيس بويل	تدمير النظام العالمى	٧٤٨-
پاتسى جمال الدين	ل.ج. كالفيه	إيكولوجيا لغات العالم	٧٤٩-
بإشراف: أحمد عثمان	هوميروس	الإلياذة	٧٥٠-
علاء السباعى	نخبة	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	٧٥١-
نمر عاروى	جمال قارصلى	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	٧٥٢-
محسن يوسف	إسماعيل سراج الدين وآخرون	التنمية والقيم	٧٥٣-
عبد السلام حيدر	أنثا مارى شيميل	الشرق والغرب	٧٥٤-
على إبراهيم متوفى	أندرو ب. نبيكى	تاريخ الشعر الإشباني خلال القرن العشرين	٧٥٥-
خالد محمد عباس	إنريكى خارنبييل بونثيلا	ذات العين الساحرة	٧٥٦-
أمال الروبى	پاتريشيا كرون	تجارة مكة	٧٥٧-
عاطف عبد الحميد	بروس روبنز	الإحساس بالعولة	٧٥٨-

- ٧٥٩- النشر الأردني
٧٦٠- الدين والتصوير الشعبي للكون
٧٦١- جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)
٧٦٢- المسلم عوداً وصديقاً
٧٦٣- الحياة في مصر
٧٦٤- ديوان غالب الدهلوي (شعر غزل)
٧٦٥- ديوان خواجه الدهلوي (شعر تصوف)
٧٦٦- الشرق المتخيل
٧٦٧- الغرب المتخيل
٧٦٨- حوار الثقافات
٧٦٩- أنباء أحياء
٧٧٠- السيدة بيرفيكتا
٧٧١- السيد سيجونزو سومبرا
٧٧٢- بريخت ما بعد الحداثة
٧٧٣- دائرة المعارف النولية (ج٢)
٧٧٤- البيوتراية الأمريكية: التاريخ والرموزات
٧٧٥- مرآة العروس
٧٧٦- منظومة مصيبت نامه (مج١)
٧٧٧- الانفجار الأعظم
٧٧٨- صفوة المنيح
٧٧٩- خيوط العنكبوت وقصص أخرى
٧٨٠- من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠
٧٨١- الطريق إلى بكين
٧٨٢- المسرح المسكون
٧٨٣- العولة والرعاية الإنسانية
٧٨٤- الإسماء للطفل
٧٨٥- تأملات عن تطور ذكاء الإنسان
٧٨٦- المذبذبة (رواية)
٧٨٧- العودة من فلسطين
٧٨٨- سر الأهرامات
٧٨٩- الانتظار (رواية)
٧٩٠- الفرائد العربية
٧٩١- المطور ومعامل المطور في مصر القديمة
٧٩٢- مرئيات حول القصص القصيرة: إهرس وسفره
٧٩٣- ثلاث رؤى للمستقبل
٧٩٤- التاريخ الشعبي للولايات المتحدة (ج٢)
٧٩٥- مختارات من الشعر الإسباني (ج١)
٧٩٦- آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن
- مولوى سيد محمد
السيد الأسود
فيرجينيا وولف
ماريا سوليداد
أنريكو بيا
غالب الدهلوي
خواجه مير مرد الدهلوي
تيري هنتش
نسيب سمير الحسيني
محمود فهمي حجازي
فريدريك هتمان
بينيتو بيريث جالنوس
ريكارديو جويرا الديس
إليزابيث رايت
جون فيذر وويل ستيرجز
مجموعة من المؤلفين
نذير أحمد الدهلوي
فريد الدين العطار
جيمس إ. لينسي
مولانا محمد أحمد ورضا القادري
نخبة
غلام رسول مهر
هدى بدران
مارفن كارلسون
تيك جورج وويل ويلدنج
ديفيد أ. وولف
كارل ساجان
مارجريت أتنود
جوزيه يوفيه
ميروسلاف فرنر
هاجين
مونيك بونتو
محمد الشيعي
منى ميخائيل
جون جريفيثس
هوارد زن
نخبة
نعوم تشومسكي
- جلال الحفناوي
السيد الأسود
فاطمة ناعوت
عبدالعال صالح
نجوى عمر
حازم محفوظ
حازم محفوظ
غازي برو خليل أحمد خليل
غازي برو
محمود فهمي حجازي
رندا النشار وضياء زاهر
صبري التهامي
صبري التهامي
محسن مصيلحي
ياشرف: محمد فتحي عبدالهادي
حسن عبد ربه المصري
جلال الحفناوي
محمد محمد يونس
عزت عامر
حازم محفوظ
سمير عبدالحميد إبراهيم ومسارة تاكاهاشي
سمير عبد الحميد إبراهيم
نبيلة بدران
جمال عبد المقصود
طلعت السروجي
جمعة سيد يوسف
سمير حنا صادق
سحر توفيق
إيناس صادق
خالد أبو اليزيد البلتاجي
منى الدروبي
جيهان العيسوي
ماهر جويجاتي
منى إبراهيم
رؤف وصفي
شعبان مكاري
علي عبد الرحوف البعبي
حمزة المزيني

طلعت شاهين	نخبة	الروية في ليلة معتمة (شعر)	٧٩٧-
سميرة أبو الحسن	كاترين جيلدرود ودافيد جيلدرود	الإرشاد النفسي للأطفال	٧٩٨-
عبد الحميد فهمي الجمال	آن تيلر	سلم السنوات	٧٩٩-
عبد الجواد توفيق	ميشيل ماكارثي	قضايا في علم اللغة التطبيقية	٨٠٠-
بإشراف: محسن يوسف	تقرير دولي	نحو مستقبل أفضل	٨٠١-
شرين محمود الرفاعي	ماريا سوليداد	مسلمو غرناطة في الآداب الأوروبية	٨٠٢-
عزة الخميسي	توماس باترسون	التغيير والتنمية في القرن العشرين	٨٠٣-
درويش الحلوجي	داتيل ميرفيه-ليجيه وچان بول ويلام	سوسيولوجيا الدين	٨٠٤-
طاهر البربري	كازو إيشيجورو	من لا عزاء لهم (رواية)	٨٠٥-
محمود ماجد	ماجدة بركة	الطبقة العليا المتوسطة	٨٠٦-
خيري دومة	ميريام كوك	يحي حق: تشريح مفكر مصري	٨٠٧-
أحمد محمود	ديفيد دابليو ليش	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	٨٠٨-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وچوزيف كروپسي	تاريخ الفلسفة السياسية (ج١)	٨٠٩-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وچوزيف كروپسي	تاريخ الفلسفة السياسية (ج٢)	٨١٠-
حسن النعيمي	جوزيف أ. شومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادي (مج٢)	٨١١-
فريد الزاهي	ميشيل مافينزولي	تأمل العالم: الصورة والأسلوب في الحياة الاجتماعية	٨١٢-
نورا أمين	آني إرنو	لم أخرج من ليلي (رواية)	٨١٣-
أمال الروبي	نافثال لويس	الحياة اليومية في مصر الرومانية	٨١٤-
مصطفى ليب عبد الفنى	ه. أ. ولفسون	فلسفة المتكلمين (مج٢)	٨١٥-
بدر الدين عروكي	فيليب روجيه	العبد الأمريكي	٨١٦-
محمد لطفي جمعة	أفلاطون	مائدة أفلاطون: كلام في الحب	٨١٧-
ناصر أحمد وياتسي جمال الدين	أندريه ريمون	الحرفيين والتجار في القرن ١٨ (ج١)	٨١٨-
ناصر أحمد وياتسي جمال الدين	أندريه ريمون	الحرفيين والتجار في القرن ١٨ (ج٢)	٨١٩-
طانيوس أفندي	وليم شكسبير	هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	٨٢٠-
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبد الرحمن الجامي	هفت بيكر (شعر)	٨٢١-
محمد نور الدين عبد المنعم	نخبة	فن الرباعي (شعر)	٨٢٢-
أحمد شافعي	نخبة	وجه أمريكا الأسود (شعر)	٨٢٣-
ربيع مفتاح	دافيد برتش	لغة الدراما	٨٢٤-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	عصر النهضة في إيطاليا (ج١) (ميراث الترجمة)	٨٢٥-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	عصر النهضة في إيطاليا (ج١) (ميراث الترجمة)	٨٢٦-
محمد علي فرج	دونالد پ. كوكول وثريا تركي	أمل مفروح للبوولستين والهنين بفنن للسلالات	٨٢٧-
رمسيس شحاتة	ألبرت أينشتين	النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	٨٢٨-
مجدي عبد الحافظ	إرنست وينان وجمال الدين الأفغاني	مناظرة حول الإسلام والعلم	٨٢٩-
محمد علاء الدين منصور	حسن كريم بور	رق العشق	٨٣٠-
محمد النادى وعطية عاشور	ألبرت أينشتين وليوبولد إنفلد	تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	٨٣١-
حسن النعيمي	جوزيف أ. شومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادي (ج٢)	٨٣٢-
محسن الدمرداش	فرنر شميدرس	الفلسفة الألمانية	٨٣٣-
محمد علاء الدين منصور	نبيح الله صفا	كنز الشعر	٨٣٤-

علاء عزمى	بيتر أوريان	٨٣٥- تشيخوف: حياة فى صور
ممنوح اليستوى	مرثيدس غارثيا	٨٣٦- بين الإسلام والغرب
على فهمى عبدالسلام	ناتاليا فيكو	٨٣٧- عنكبوت فى المصيدة
لبنى صبرى	نعوم تشومسكى	٨٣٨- فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى
جمال الجزيرى	ستيوارت سين ويورين فان لون	٨٣٩- أقدم لك: النظرية النقدية
فوزية حسن	جوتفريد ليسينج	٨٤٠- اللواتم الثلاثة
محمد مصطفى بدوى	وليم شكسبير	٨٤١- هعلت: أمير الدانمارك
محمد محمد يونس	فريد الدين العطار	٨٤٢- منظومة مصيبت نامه (مج٢)
محمد علاء الدين منصور	نخبة	٨٤٣- من روائع القصيد الفارسية
سمير كريم	كريمة كريم	٨٤٤- دراسات فى الفقر والعولة
طلعت الشايب	تيكولاس جويات	٨٤٥- غياب السلام
عادل نجيب بشرى	الفريد أدلر	٨٤٦- الطبيعة البشرية
أحمد محمود	مايكل البرت	٨٤٧- الحياة بعد الرأسمالية
عبد الهادى أبو ريدة	يوليوس فلهاوزن	٨٤٨- تاريخ الدولة العربية (ميراث الترجمة)
بدر توفيق	وليم شكسبير	٨٤٩- سونيئات شكسبير
جابر عصفور	مقالات مختارة	٨٥٠- الخيال، الأسلوب، الحدائة
يوسف مراد	كلود برنار	٨٥١- الطب التجريبي (ميراث الترجمة)
مصطفى إبراهيم فهمى	ريتشارد دوكنز	٨٥٢- العلم والحقيقة
على إبراهيم منوفى	باسيليو يايون مالدونانو	٨٥٣- السيرة فى الفن: صارة الفن والمصن (مج١)
على إبراهيم منوفى	باسيليو يايون مالدونانو	٨٥٤- السيرة فى الفن: صارة الفن والمصن (مج٢)
محمد أحمد حمد	جيرارد ستيتم	٨٥٥- فهم الاستعارة فى الأدب
عائشة سويلم	فرانثيسكو ماركيث ياتو بيلنوبا	٨٥٦- القضية المورسكية من وجهة نظر أخرى
كامل عويد العامرى	أنفريه بريتون	٨٥٧- نادجا (رواية)
بيومى قنديل	ثيو هرمانز	٨٥٨- جوهى الترجمة: عبور الحدود الثقافية
مصطفى ماهر	إيف شيعل	٨٥٩- السياسة فى الشرق القديم
عادل صبحى تكلا	فان بلمن	٨٦٠- مصر وأوروبا
محمد الخولى	چين سميث	٨٦١- الإسلام والمسلمون فى أمريكا
محسن الدمرياش	أرتور شنييتسلر	٨٦٢- بيغاء الكاكادو
محمد علاء الدين منصور	على أكبر دلفى	٨٦٣- لقاء بالشعراء
عبد الرحيم الرفاعى	نورين إنجرامز	٨٦٤- أوراق فلسطينية
شوقى جلال	تيرى إيجلتون	٨٦٥- فكرة الثقافة
محمد علاء الدين منصور	مجموعة من المؤلفين	٨٦٦- رسائل خمس فى الأفاق والأنفس
صبرى محمد حسن	ديفيد مايلو	٨٦٧- المهمة الاستوائية (رواية)
محمد علاء الدين منصور	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	٨٦٨- الشعر الفاريسى المعاصر
شوقى جلال	روين لونبار وأخرون	٨٦٩- تطور الثقافة
حمادة إبراهيم	نخبة	٨٧٠- عشر مسرحيات (ج١)
حمادة إبراهيم	نخبة	٨٧١- عشر مسرحيات (ج٢)
محسن فرجاني	لاوتسو	٨٧٢- كتاب الطائر

٨٧٣-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج ١)	جاريد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥-	النهر الخالد (مج ٢)	جاريد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات في الموسيقى الشرقية (ج١)	هنري جورج فارمر	أمانى المنياوى
٨٧٧-	أب الجدل والنفاع في العربية	موريتس شتيتنير	صلاح محجوب
٨٧٨-	ترحال في صحراء الجزيرة العربية (ج١، ج٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال في صحراء الجزيرة العربية (ج١، ج٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه
٨٨١-	المستشرقون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس
٨٨٢-	أغاني شيراز (ج١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٣-	أغاني شيراز (ج٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٤-	تعلم الأطفال الصغار	باربرا تيزار ومارتن هيوز	محمد رشدى سالم
٨٨٥-	روح الإرهاب	جان بوهريار	بدر عربكى
٨٨٦-	الترجمة والإمبراطورية	دوجلاس روبنسون	ثائر ديب
٨٨٧-	غزليات سعدى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨-	أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت
٨٨٩-	سارتوروس (ميراث الترجمة)	وليم فوكتر	ميخائيل رومان
٨٩٠-	منتخبات أشعار فراعنى	مخدومقى فراعنى	الصفصافى أحمد القطورى
٨٩١-	مفاوضات مع الموتى	مارجريت أتود	عزة مازن
٨٩٢-	تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سوريال عطية	إسحاق عبيد
٨٩٣-	عبادة الإنسان الحر	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٨٩٤-	الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد على
٨٩٥-	وادی الفوضى (رواية)	فريدرش نورينمات	يسرى خميس
٨٩٦-	شعر الضفاف الأخرى	نخبة	زين العابدين فؤاد
٨٩٧-	اختراق الجزيرة العربية	ديفيد جورج هوجارت	صبرى محمد حسن
٨٩٨-	الإسلام والعلم	برويز أمير على	محمود خيال
٨٩٩-	الدبلوماسية الفاعلة	بيتر مارشال	أحمد مختار الجمال
٩٠٠-	تيارات نقدية حديثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٩٠١-	مختارات من شعر لى جاو شينج	لى جاو شينج	عبد العزيز حمدي
٩٠٢-	آلهة مصر القديمة وأساطيرها	روبرت أرنولد	مررة الفقى
٩٠٣-	أفلام ومناهج (مج ١)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٤-	أفلام ومناهج (مج ٢)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٥-	تراث الهند	ج. ت. جارات	جلال السعيد الحفناوى
٩٠٦-	أسس الحوار في القرآن	هيربرت بوسه	أحمد هويدى
٩٠٧-	أرثر.. متعة الحياة (رواية)	فرانسواز جيبور	فاطمة خليل
٩٠٨-	الحلقة النقدية	ديفيد كوزنز هوى	خالد حامد
٩٠٩-	الفنون والآداب تحت ضغط العولمة	جوست سمايرز	طلعت الشاب
٩١٠-	بروميثيوس بلا قيود	دافيد س. ليندس	مى رفعت سلطان

عزت عامر	جون جريين	غبار النجوم	٩١١-
يحيى حتى	روايات مختارة	ترجمات يحيى حتى (ج١) (ميراث الترجمة)	٩١٢-
يحيى حتى	مسرحيات مختارة	ترجمات يحيى حتى (ج٢) (ميراث الترجمة)	٩١٣-
يحيى حتى	بيزموند ستيوارت	ترجمات يحيى حتى (ج٣) (ميراث الترجمة)	٩١٤-
منيرة كروان	روجر چست	المرأة فى اثينا: الواقع والقانون	٩١٥-
سامية الجندى وعبدالعظيم حماد	أنور عبد الملك	الجدلية الاجتماعية	٩١٦-
إشراف: أحمد عثمان	نخبة	موسوعة كمبريدج (ج١)	٩١٧-
إشراف: فاطمة موسى	نخبة	موسوعة كمبريدج (ج٢)	٩١٨-
إشراف: رضوى عاشور	نخبة	موسوعة كمبريدج (ج٣)	٩١٩-
فاطمة قنديل	جين جبران و خليل جبران	خليل جبران: حياته وعمله	٩٢٠-
ثرثا إقبال	أحمد كوروما	لله الأمر (رواية)	٩٢١-
جمال عبد الرحمن	ميكل دي إيبالتا	الموريسكيين فى إسبانيا وفى المنفى	٩٢٢-
محمد حرب	ناظم حكمت	ملحمة حرب الاستقلال (شعر)	٩٢٣-
فاطمة عبد الله	كريستيان دي روش نويلكور	حتشيسوت: عقلة وسحر وفموض	٩٢٤-
فاطمة عبد الله	كريستيان دي روش نويلكور	رمسيس الثانى: فروع المعجزات	٩٢٥-
صبرى محمد حسن	تشارلز دوتى	ترجال فى معراء الجزيرة العربية (ج٢، ج١)	٩٢٦-
صبرى محمد حسن	تشارلز دوتى	ترجال فى معراء الجزيرة العربية (ج٢، ج١)	٩٢٧-
عزت عامر	كيتى فرجسون	سجون الضوء	٩٢٨-
مجدى اللججى	تشارلس داروين	نشأة الإنسان (مج١)	٩٢٩-
مجدى اللججى	تشارلس داروين	نشأة الإنسان (مج٢)	٩٣٠-
مجدى اللججى	تشارلس داروين	نشأة الإنسان (مج٣)	٩٣١-
إبراهيم الشواربى	رشيد الدين العمري	حلق السمر فى نطق الشعر (ميراث الترجمة)	٩٣٢-
على منوفى	كارلوس بوسونيو	اللاعقلانية الشعرية	٩٣٣-
طلعت الشايب	تشارلز لارسون	محنة الكاتب الأفريقى	٩٣٤-
علا عادل	فولكر جيهارت	تاريخ الفن الألمانى	٩٣٥-
أحمد فوزى عبد الحميد	إد ريجيس	بيولوجيا الجحيم	٩٣٦-
عبدالحى سالم	أحمد ندالو	هيا نحكى (قصص أطفال)	٩٣٧-
سعيد العليمى	بينر بورديو	الأثولوجيا السياسية عند مارتى ميجر	٩٣٨-
أحمد مستجير	ستيفن چونسون	سجن العقل	٩٣٩-
علاء على زين العابدين	مجموعة مقالات	اليابان الحديثة: قضايا وآراء	٩٤٠-
صبرى محمد حسن	أى كويئى آرماه	الجماليات لم يولدن بعد	٩٤١-
وجيه سمعان عبد المسيح	إريك هويسبوم	القرن الجديد	٩٤٢-
محمد عبد الواحد	مختارات من القصص الأفريقية	لقاء فى الظلام	٩٤٣-
سمير جريس	پاتريك زوسكيند	الكونتراباص	٩٤٤-
ثرثا توفيق	چان چاك روسو	أحلام بقطه جوال منفرد (ميراث الترجمة)	٩٤٥-
محمد مهدى قنارى	ميشيل ليريس	الزار ومظاهرة المسرحية فى إثيوبيا	٩٤٦-
محمد قبرى عمارة	برتراند راسل	ما وراء المعنى والحقيقة	٩٤٧-
فريد چورج بورى	رونالد أوليفر وأنتونى آشور	أفريقيا منذ عام ١٨٠٠	٩٤٨-

٩٤٩-	مقبرة الصدأ	أندريه فيش	نافع معلا
٩٥٠-	في علم الكتابة	چاك ديريدا	منى طلبة وأنور مغيث
٩٥١-	الاثهام (رواية)	فريدرش دورينمات	عماد حسن بكر
٩٥٢-	العبد ومسرحيات أخرى	أميرى بركة	تعيمة عبد الجواد
٩٥٣-	مختارات من الشعر الإسباني (ج٢)	نخبة من الشعراء	على عبد الزوف اليمبي
٩٥٤-	الأسل الاجتماعية السياسية الترسية في عهد سعد طي	فرد لوسون	عنان الشهاوى
٩٥٥-	الطب والأطباء	سيلفيا شيفولو	ماجدة أباطة
٩٥٦-	نعم، ليست لدينا نيوترونات	أ. ك. ديونى	سمير حنا صادق
٩٥٧-	الحركات الاجتماعية: (١٧٦٨-٢٠٠٤)	تشارلز تلى	ربيع وهبة
٩٥٨-	أصوات على هامش الحرب	مريام كوك	صلاح حزين
٩٥٩-	الموريسكيون في الفكر التاريخي	ميفيل أنخيل بونيس	وسام محمد جزر
٩٦٠-	محمد على الكبير	الامير عثمان إبراهيم وكارولاج ولى كورخان	هدى كشروء
٩٦١-	شعر الرعاة (ميراث الترجمة)	مختارات من الألب اليوناني	محمد صقر خفاجة
٩٦٢-	مدخل إلى الفلسفة	وليام جيمس إيرل	عادل مصطفى
٩٦٣-	منتخبات شعرية	حسن رضا خان الهندي	فاطمة سيد عبد المجيد
٩٦٤-	أصول التطرف	كيمبرلى بليكر	هبة روف وتامر عبد الوهاب
٩٦٥-	روح مصر القديمة	أنا وويز	إكرام يوسف
٩٦٦-	ما وراء الطبيعة في إيران (ميراث الترجمة)	محمد إقبال	حسين مجيب المصرى
٩٦٧-	فن الحرب (مج ١)	سمون توى	هشام المالكى
٩٦٨-	عالم الخوارق	ج. كوير	كمال الدين حسين
٩٦٩-	التلفزيون خطر على الديمقراطية	كارل بوير وجون كوندري	مجدى عبد الحافظ
٩٧٠-	ريسة في حلب ذات يوم وتسمى أخرى	نخبة	أحمد الشيمى
٩٧١-	الألب القارسى القديم (ميراث الترجمة)	پاول هوون	حسين مجيب المصرى
٩٧٢-	الإسهامات الإيطالية في عهد محمد على باشا	مقالات مختارة	عماد البغدائى
٩٧٣-	تطور فن المعادن الإسلامى	أولكر أرغين صوى	الصفصافى أحمد القطورى
٩٧٤-	فكرة التطور عند فلاسفة الإسلام	مجدى عبد الحافظ	هدى كشروء
٩٧٥-	وقائع انتحار موظف عمومى	مايكل بيرس	حسن عبد ربه المصرى
٩٧٦-	تقهم نهنية مدمن المسكرات	أرنولد لوبفنج	صبرى محمد حسن
٩٧٧-	التعبير عن الانفعالات في الإنسان والحيوانات	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٧٨-	الإسلام خاطر وسوانح (ميراث الترجمة)	الكونت هنرى دى كاسترى	أحمد فتحى زغلول باشا
٩٧٩-	الألب والالتزام من باسكال إلى سارتر	بونوا دونى	محمد برادة
٩٨٠-	الكلمات المفاتيح	رايموند ويليامز	نعيمان عثمان
٩٨١-	الكلمة للبنت	فيرنانديث موراتين	السيد عبد المنعم محمود
٩٨٢-	اللغة والإنترنت	ديفيد كريستال	أحمد شفيق الخطيب
٩٨٣-	روح الاجتماع (ميراث الترجمة)	چوستاف لويون	أحمد فتحى زغلول باشا
٩٨٤-	التلفزيون ونمو الطفل	چوديث فان إفرا	عز الدين جميل عطية
٩٨٥-	طبية ونشأة إمبراطورية	كلير لالويت	ماهر جويجاني
٩٨٦-	... وفيتنام و...	إريش فريد	يسرى خميس
٩٨٧-	مشروع السلام الدائم (ميراث الترجمة)	إيمانويل كانط	عثمان أمين

عبد الرحمن الخميسي	٩٨٨- أساطير شعبية من أوزبكستان (ج٢) نخبة
حمدي إبراهيم حسن	٩٨٩- الصوتيات واللغة الفارسية يد الله ثمرة
بيومي قنديل	٩٩٠- الصوفيون إدريس شاه
مصطفى إبراهيم فهمي	٩٩١- الإنسانيين الجدد: العلم عند الحافة جون بروكمان

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٣٥٦ / ٢٠٠٦